



الجزء الثاني – المجلد التاسع والثلاثون

بغـــداد

ذو القعدة ١٤٠٨هـ – حزيران ١٩٨٨م









الجزء الثاني ـ المجلد التاسع والثلاثون

بغـــــداد

ذو القعدة ١٤٠٨هـ ـ حزيران ١٩٨٨م



مجلة المجمع العلمي العراقي

مجلة فصلية انشئت سنة ١٣٦٩ هـ / ١٩٥٠ م

هيئة تحرير المجلة

توجه الرسائل والبحوث الى مدير التحرير

- **البحوث المنشورة في المجلة تعبر عن آراء اصحابها .**
- **المقالات لا ترد الى اصحابها نشرت او لم تنشر .**

العنوان : الوزيرية / بريد الاعظمية ص.ب ٤٠٢٣

بغداد ـ العراق



طارق بن زياد

فاتح شطر الأندلس (١)

اللواء الركن محمود شيت خطاب

عضو المجمع

نسبه وأيامه الأولى

هو طارق بن زياد بن عبدالله بن رَفْهُو بن وَرْفَجُّوم بن بنزغاسن بن وَلْهَاص بن يَطُّوفَت بن نَفْزاو (٢) ، فهـو بربريٌّ من نَفْـزَة (٣) ، وهو مولى لموسى بن نُصَير (٤) من سبي البربر (٥) ، ويكون اسمه الكامل : طارق بن زياد النَّفْزاوي البربري (٦) من إفريقية (٧) .

---

(١) أصل مصطلح الأندلس ، مأخوذ من قبائل الوندال (Vandals) التي تعود إلى أصل جرماني ، احتلت شبه الجزيرة الأيبيرية حوالي القرن الثالث والرابع وحتى الخامس الميلادي، وسميت باسمها: (فاندلسيا Vandalusia)، أي : بلاد الوندال ، ثم نطقت بالعربية : (الأندلس) . أما مدلول هذا المصطلح ، فقد أطلقه المؤرخون والجغرافيون على كل شبه الجزيرة الايبيرية (إسبانيا والبرتغال اليوم) ، والتي يسمونها أيضاً : (الجزيرة الأندلسية) ، ثم استعمل للدلالة على كل المناطق التي سكنها المسلمون وحكموها من شبه الجزيرة الايبيرية ، انظر التاريخ الأندلسي (٣٧) وجغرافية الأندلس (٥٩) والروض المعطار (٤ – ٦ – و ١٩) ونفح الطيب (١/١٣٣ – ١٣٥) ومعجم البلدان (١/٣٤٧– ٣٥٠) والمسالك والممالك (٣٥) وتقويم البلدان (١٦٥ – ١٦٦) .

(٢) البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب (٢ / ٥) .

(٣) نفزة : هي نفزاوة ، قبيلة من قبائل البربر الكبيرة ، والبربر قسمان : البرانس والبتر ، ونفزاوة قبيلة من قبائل البتر ، انظر : محمد علي دبوس – تاريخ المغرب الكبير (٢/٣٥) – القاهرة – ١٣٨٢ هـ – ط ١ ، وانظر جمهرة أنساب العرب (٤٩٥ – ٥٠٣) .

(٤) موسى بن نصير : انظر سيرته المفصلة في كتابنا : قادة فتح المغرب العربي(١/٢٢١ – ٣٠٩).

(٥) انظر تفاصيل القبائل البربرية في : جمهرة أنساب العرب (٤٩٥ – ٥٠٣) .

(٦) تاريخ المغرب الكبير (٢/٤٦٤) .

(٧) إفريقية : اسم بلاد واسعة ، حدها من طرابلس الغرب شرقاً إلى بجاية أو مليانة غرباً ، أنظر التفاصيل في معجم البلدان (١/٣٠٠) وآثار البلاد وأخبار العباد (١٤٨) ، وأنظر نسبته إلى إفريقية في المغرب ، نقلا عن الطيب (١/٢٣٠) .

وهذا هو الذي نعتمده لطارق بن زيادة نسباً وموطنا ، لأنه أقرب الى العقل والمنطق ، ومع ذلك لابد من ذكر الاختلاف في نسبه وموطنه ، لتعليل أسباب هذا الاختلاف .

فقد ذكروا أنه طارق بن عمرو (٨) ، لا طارق بن زياد ، والمعروف في المصادر المعتمدة التاريخية والأندلسية ، أنه : طارق بن زياد ، فهو الاسم المشهور به على أوسع نطاق ، والمصادر التي ذكرته بأنه : طارق بن عمرو قليلة جداً ، لا تُعدّ شيئاً بالنسبة للمصادر المعتمدة التي ذكرته باسم : طارق بن زياد . كما انّ المصادر القليلة التي ذكرته باسم : طارق بن عمرو ، ذكرته بعد ذكر اسمه المعروف به والمشهور به وهو : طارق بن زياد ، وكان ذكره باسمه الجديد بهذا التعبير : « وقيل : طارق بن عمرو »(٩) ، ولا يخفى أنّ مثل هذا التعبير بالنسبة للمؤلفين القدامى ، يدلّ على عدم الثقة بصحّة المعلومات الواردة بعد تعبير : « قيل » ، أو أنها أقل أهمية من المعلومات الموثّقة الشائعة .

وذكروا أنّ طارق بن زياد ، كان فارسيّاً هَمَدَانيّاً (١٠) — نسبة إلى مدينة هَمَدان الفارسيّة — وهذا غير منطقيّ ولا معقول أيضاً ، ولعلّ الذين نسبوا طارقاً إلى الفُرْس ، استهدفوا قسماً من عقبِهِ الذين كانوا في الأندلس وأصبح لهم شأن يُذكر فيها ، للحطّ من منزلتهم الاجتماعية ، باعتبار تميّز العنصر العربي على عهد بني أُمية على العناصر الأعجميّة ، وبذلك استهدفوا بهذا الغمز قسماً من عقب طارقٍ ولم يستهدفوا طارقاً بالذات . كما يمكن أن يكون الذين نسبوا طارقاً إلى الفرس ، بعد أن أصبح علماً من الأعلام البارزة قدراً وجلالا ، ليفخروا بنسبته إليهم ، فكلّ أمّة من الأمم تحاول أنْ تنسب إليها أصحاب الصفحات الناصعة في التاريخ ، لتفخر بهم بين الأمم . ومن

(٨) بغية الملتمس (١٠) ونفح الطيب (٢٣٠/١) نقلا عن ابن بشكوال .
(٩) بغية الملتمس (١٠) .
(١٠) أخبار مجموعة (٦) لمؤلف مجهول ، ونفح الطيب (٢٥٤/١) نقلا عن الرازي .

الواضح أنّ نسبة طارق إلى الفُرس تمّت بعد وفاته ، فهو لم يعرف هذا النسب في حياته ، وما كان يمكن أن ينسب إليه وهو لايزال على قيد الحياة .

وذكروا أنّه رجل من صَدِف(١١) ، وقيل : إنّه من موالي صَدِف ، وليس بمولى موسى بن نُصَيْر (١٢) ، وكان بعض عقب طارق بالأندلس ينكرون ولاءه لموسى إنكاراً شديداً (١٣) .

وذكروا أنه طارق بن زياد اللَّيْثيّ (١٤) من بني لَيْث من قُضاعة (١٥) ، أي أنه عربيّ من قُضَاعة .

ويقال : إنّ طارقاً مولى الوليد بن عبدالملك بن مروان (١٦) ، وقد تولّى الوليد الخلافة بعد وفاة أبيه عبدالملك بن مروان .

وطارق ليس من الصَّدِف ولا من بني لَيْث العرب ، والذين نسبوه إلى بني الصَّدِف ، أرادوا أنّه من مواليهم (١٧) ، كما أن الذين نسبوه إلى بني ليث قصدوا أنّه من مواليهم (١٨) أيضا ، لأنهم يعلمون حقّ العلم أنّه بربريّ وليس عربيا . ومن المحتمل أنّ قسماً من عقبه في الأندلس ، ادّعوا انتسابهم

---

(١١) الصدف : هم قبيلة الصدف ، من بني حضرموت ، وهو الصدف بن أسلم بن زيد بن مالك بن زيد بن حضرموت الأكبر ، انظر جمهرة أنساب العرب (٤٦١) ، وكانوا في إشبيلية وهم بنو حضرموت ويسمون : بنو خلدون الأشبيليون ، أنظر جمهرة أنساب العرب (٤٦٠) ، وانظر نسبة طارق إلى قبيلة صدف في : نفح الطيب (٢٥٤/١) نقلا عن الرازي ، و (٢٣٩/١) .

(١٢) أخبار مجموعة (٦) .

(١٣) نفح الطيب (٢٥٤/١) نقلا عن الرازي .

(١٤) ابن خلدون (٤ / ١١٧) وأنظر نفح الطيب (١/ ٢٣٢) ، وبنو ليث هم : بنو ليث ابن سود بن أسلم بن الحافي بن قضاعة ، أنظر جمهرة أنساب العرب (٤٤٣ - ٤٤٥) .

(١٥) انظر جمهرة أنساب العرب (٤٤٣ - ٤٤٤) .

(١٦) تهذيب ابن عساكر (٧ / ٤١) .

(١٧) أخبار مجموعة (٦) .

(١٨) الأعلام (٣١٣/٣) .

للعرب ، في وقت كان للعرب فيه مكان مرموق ، فأقحم بعض المؤرخين عن قصد أو عن غير قصد هذا الأدّعاء ، الذي لا سند له من الواقع ولا من التاريخ .

اما الادّعاء بأنّه مولى للوليد بن عبدالملك ، فادّعاء لا أساس له من الصحّة ، إذ لو كان مولى للخليفة الوليد لولاّه القيادة ، ولم يترك توليته للقائد موسى بن نُصَيْر . ولا نعلم أنّ طارقاً رحل إلى المشرق واتصل بالوليد ، ولا نعلم أنّ الوليد قدم المغرب واتّصل بطارق ، فلا صلة من ناحية الولاء بين طارق والخليفة الوليد من قريب ولا من بعيد ؛ وليس من المستبعد أنّ بعض عَقِب طارق ، أراد أن يرفع درجة ولاء جدّهم طارق ، من رتبة مولى موسى بن نُصَيْرْ ، أحد ولاة الخليفة وأحـد قادته إلى رتبة مولى الخليفة الوليد بن عبدالملك ، وهي أرفع من رتبته الأولى على كلّ حال .

وكان من نتائج كلّ تلك الادّعاءات ، إنكار بعض عَقِب طارق بالأندلس ولاءه موسى إنكاراً شديداً .

ولو لم يكن طارق مولى لموسى بن نُصَيْر حقّاً ، لما أنكر (بعض) عَقِبه هذا الولاء ، ولم ينكره (جميع) عقبـه ، ومن الواضح أنّ المُنكِرين ادّعوا انتسابهم للعرب تارة ، والولاء للعرب تارة ، والولاء للخليفة تارة أخرى ، لأنّ هؤلاء المُنْكِرين لم يرتضوا لأنفسهم أن يكونوا موالي للموالي ، لأنّ موسى بن نُصَيْرْ مولى لعبدالعزيز بن مروان أخ الخليفة عبدالملك بن مروان ، وطارق مولى لموسى بن نُصَيْر ، فعَقِبُه يكونون موالي للموالي ، وهذا ما لم يستطيعوا تحمّله ولا تقبّله ، وبخاصة بعد أن تبدّلَ حالهم غير الحال ، وأصبحوا من ذوي المكانة والمكان في الأندلس .

نستطيع أن نستنتج ، أنّ طارق بن زياد بربريّ من قبيلة نَفْزاوة إحدى قبائل البتر من البربر ، وهو مولى لموسى بن نُصَيْر ، الذي اكتشف كفاياته

القياديّة والادارية ، فولاّه أولاً على طَنْجَة (١٩) ، ثم ولاّه على قوّات فتح الأندلس ، كما سيرد تفاصيل ذلك وشيكا .

ولابدّ أن يكون إسلام طارق وحسنُ إسلامه ، أحدَ المزايا التي حملت مولاه موسى بن نُصَيْر على الثقة به والاعتماد عليه ، فهو من أسرة اشتهرت بسبقها إلى اعتناق الاسلام ، إذ أسلم والد طارق أيام عُقْبَة بن نافع الفِهْريّ(٢٠). والتحق هو بعد وفاة والده بخدمة المسلمين ، وكان إذ ذاك صغير السنّ ، ولكنّه كان يتمتّع بقدر كبير من الحماسة والغيرة على الدين الاسلامي ، جعاه من أشدّ المقرّبين إلى موسى بن نُصَير ، ومن الطبقة الأولى من رجال البربر الذين اختصّهم بسرِّه وثقته المطلقة ، وأشركه مشاركة عمليّة في رفع راية الاسلام (٢١) .

ويبدو أنّ جدّ طارق ، وهو عبدالله ، كان مسلماً ، بدليل اسمه العربيّ الاسلامي ، مما يدلّ على أنّ طارقاً وُلد في بيت إسلامي وترعرع في هذا البيت ، وشبّ في مجتمع إسلاميّ ، ولعلّ تدينه العميق لفت إليه الأنظار . بالاضافة إلى مزاياه وكفاياته الأخرى ، وكان قربه من موسى بن نُصَيْر قد أتاح له الفرصة المناسبة لتوليّ المناصب الادارية والقيادية المناسبة ، فنجح في الادارة وفي الفتح معا .

---

(١٩) طنجة : مدينة قديمة على البحر الأبيض المتوسط ، بينها وبين مدينة سبتة مسيرة يوم واحد ، انظر التفاصيل في : معجم البلدان (٦/٦١٢) والمسالك والممالك (٣٤) وتقويم البلدان (١٣٢) .

(٢٠) انظر سيرته المفصلة في كتابنا : قادة فتح المغرب العربي (١/٩٠ – ١٣٦) وكتابنا : عقبة بن نافع .

(٢١) الشيخ محمد ابو زيد طنطاوي – فتح العرب للأندلس – مجلة الجامعة الاسلامية بالمدينة المنورة (٤٣ – ٤٤) – العدد الثاني – السنة العاشرة – رمضان ١٣٩٧ هـ – مؤسسة مكة للطباعة والاعلام .

في فتح طنجة

بعد أن تمَّ لموسى بن نُصَيْر ، إخضاع المغرب الأوسط (٢٢) والمغرب الأقصى (٢٣) ، من صحراء دَرْعَة (٢٤) . إلى السُّوْس الأقصى (٢٥) إلى بلاد المصامدة (٢٦) ، تطلّع موسى نحو طَنْجَة التي كانت تخضع للأمير الرُّومِيّ يُلْيَان (جوليان Julian) منذ أيام عُقْبَة بن نافع .

والمقصود بطنجة هنا ، هو الولاية التي كانت تتّسع في القديم لمسيرة شهر ، وليس المدينة فقط (٢٧) .

وقد خرج موسى بن نُصَيْر من القَيْروان (٢٨) لفتح طنجة ، وجعل على مقدَّمته مولاه طارق بن زياد ، فلم يزل يقاتل البربر ويفتح مدائنهم حتى

(٢٢) . المغرب الأوسط : من شرقي وهران إلى آخر حدود مملكة بجاية ، انظر تقويم البلدان (١٢٢) ، وانظر التفاصيل عن المغرب في أحسن التقاسيم (٢١٥ – ٢٣٦) والأعلاق النفيسة (٣٤٧ – ٣٥٣) والمسالك والممالك لابن خرداذبة (٨٥ – ٩٣) ومختصر كتاب البلدان (٧٨ – ٨٨) وصفة المغرب (٢ – ٢٩) والمسالك والممالك للاصطخري (٣٣ – ٣٨) ، وهو جمهورية الجزائر في الوقت الحاضر ، انظر تاريخ المغرب العربي (١٢) .

(٢٣) . المغرب الأقصى : من ساحل البحر المحيط غرباً إلى تلمسان شرقاً ، ومن سبتة الى مراكش ثم الى سجلماسة وما في سمتها شمالا وجنوباً ، انظر تقويم البلدان (١٢٢) ، والمصادر المنوه عنها في المادة (١) أعلاه مباشرة ، وهي المملكة المغربية في الوقت الحاضر ، انظر تاريخ المغرب العربي (١٢) .

(٢٤) . درعة : مدينة بالمغرب ، بينها وبين سجلماسة أربعة فراسخ ، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٤ /٥٣) .

(٢٥) . السوس الأقصى : أقصى بلاد البربر على المحيط ، والسوس الأقصى اسم مدينة أطلق اسمها على كورة السوس الأقصى ، ذات المدن والقرى الكثيرة ، انظر التفاصيل في معجم البلدان (١٧٢/٥) والمسالك والممالك (٣٤) والمشترك وضعاً (٢٥٩) .

(٢٦) . المصامدة : جمع مصمودة ، وهي قبيلة مصمودة بن برنس ، من قبائل البربر البرانس ، انظر التفاصيل في جمهرة أنساب العرب (٥٠٠) .

(٢٧) . تاريخ المغرب العربي (٢١٢) .

(٢٨) . القيروان : مدينة كبيرة معروفة ، انظر التفاصيل في معجم البلدان (١٩٣/٧ – ١٩٥) والأعلاق النفيسة (٣٤٧ – ٣٤٨) والمسالك والممالك (٣٤) وتقويم البلدان (١٤٤ – ١٤٥) وآثار البلاد (٢٤٢) .

بلغ مدينة طنجة ، وهي قصبة بلادهم وأمّ مدائنهم (٢٩) . فلما دنا موسى من طنجة ، بثّ السّرايا ، فانتهت خيله إلى السّوس الأدنى (٣٠) ، فوطئهم وسباهم ، وأدّوا إليه الطّاعة ، وولىّ عليهم والياً أحسن فيهم السَّير (٣١) .

وحاصر موسى طنجة حتى افتتحها (٣٢) ونزلها ، وهو أوّل مَنْ نزلها واختطّ فيها للمسلمين (٣٣) ، فأسلم أهلها ، وخطّ موسى قيروانا للمسلمين(٣٤).

وسار موسى إلى مدائن على شطّ البحر ، فيها عُمّال لصاحب الأندلس ، قد غلبوا عليها وعلى ما حولها ، ورأس تلك المدائن مدينة سَبْتَة (٣٥) ، وعليها يُلْيَان (جوليان) . فقاتله موسى ، فألفاه في نَجْدَةٍ وقوّةٍ وعُدَّة ، فلم يُطِقْهُ ، فرجع إلى مدينة طنجة وأقام هناك بمن معه ، وأخذ في الغارات على مَنْ حولهم والتّضييق عليهم ، والسُّفن تختلف إليهم بالميرة والامداد من الأندلس من قِبَل ملكها غَيْطَشَة ، فهم يذبّون عن سبتة ذبّاً شديداً ، ويحمون بلادهم حماية تامّة (٣٦) . وكانت سبتة مدينة حصينة قريبة من الأندلس (٣٧) ، مما ساعد على ثباتها بوجه المسلمين الفاتحين .

وكان بطنجة من البربر بطون البُتْر والبرانس ممن لم يكن دخل في الطّاعة(٣٨)

---

(٢٩) . نفح الطيب (٣١٥/١) و (٢٣٠/١) .

(٣٠) . السوس الادنى : كورة كبيرة بالمغرب،مدينتها طنجة،والسوس مدينة بالمغرب كانت الروم تسميها : قمونية ، وبين السوس الأدنى والسوس الأقصى مسيرة شهرين وبعده المحيط الأطلسي ، انظر التفاصيل في معجم البلدان (١٧٢/٥) والمشترك وضعاً (٢٥٩) .

(٣١) . فتح مصر والمغرب (٢٧٦) .

(٣٢) . نفح الطيب (٢١٥/١) و (٢٣٤/١) .

(٣٣) . البلاذرى (٢٣٢) وفتوح مصر والمغرب (٢٧٦) .

(٣٤) . نفح الطيب (٢٣٤/١) .

(٣٥) . سبتة : بلدة مشهورة من قواعد بلا د المغرب ، تقابل جزيرة الأندلس ، على طرف الزقاق ، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٢٦/٥) .

(٣٦) . نفح الطيب (٢٣٤/١) .

(٣٧) . معجم البلدان (٢٦/٥) .

(٣٨) . فتوح مصر والمغرب (٢٧٩) ، وانظر ما جاء عن ذلك مختصراً في كتاب : الاسلام والعرب (١٤٠) .

فوضع موسى على ساحل طنجة حامية للرباط فيها مؤلفة من ألف وسبعمائة رجل عليهم ابنه مروان ، ولكنّ مروان انصرف وخلّف على جيشه طارق بن زياد (٣٩) .

وبذلك تمّ فتح المغرب الأقصى ، إلاّ إقليم سبتة ، وانتشر الاسلام في أرجائه انتشاراً سريعاً وواسعا .

وعاد موسى إلى القيروان ، بعد أن استعمل على طنجة وأعمالها مولاه طارق بن زياد،وترك معه تسعة عشر ألفاً من البربر بالأسلحة والعُدّة الكاملة ، وكانوا قد أسلموا وحسن إسلامهم ، وخلّف موسى عندهم خلقاً يسيراً من العرب ، ليعلّموا البربر القرآن الكريم وفرائض الاسلام (٤٠) .

وفي الطريق الى القيران ، فتح موسى مدينة مَجّانة (٤١) على مسيرة خمسة أيام من القيران (٤٢) ، على الحدود الجزائريّة - التونسيّة الحالية (٤٣) ، وكانت مجّانة قلعة تحصّن أهلها من موسى حين عودته إلى القيروان (٤٤) ، فاستعاد موسى فتحها ، لأنّها سبق أن فتحها بِسْر بن أبي أرْطاة (٤٥).

لقد افتتح موسى بلاد المغرب ، وغنم منها أموالاً لا تُعدّ ولا تُوصف)، وله بها مقامات مشهورة هائلة (٤٦) ، وأسلم أهل المغرب على يديه ، وبثّ

(٣٩) . فتوح مصر والمغرب (٢٧٥) .
(٤٠) . نفح الطيب (٢٢٤) .
(٤١) . مجانة : بلد بافريقية ، بينها وبين القيروان خمس مراحل ، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٣٨٦/٧) .
(٤٢) . معجم البلدان (٣٨٦/٧) .
(٤٣) . تاريخ المغرب العربي (٢١٤) .
(٤٤) . ابن الأثير (٢٠٦/٤) .
(٤٥) . فتوح مصر والمغرب (٢٧٦) ومعجم البلدان (٢٨٦/٧) ، وانظر ترجمة بسر بن أبي أرطاة في : قادة فتح المغرب العربي (٢/١٣-٣٥).
(٤٦) . البداية والنهاية (١٧١/٩) .

فيهم الدين والقرآن (٤٧) ، فكان يأمر العرب أن يعلِّموا البربر القرآن وأن يفقهوهم في الدين (٤٨) ، فلم يبق في إفريقية مَنْ ينازعه (٤٩) ، غير منطقة سَبْتَة وعلى رأسها يُلْيَان (جوليان) .

لقد لمع اسم طارق بن زياد ، قائداً مرءوساً لموسى بن نُصَيْر ، في مسيرة الجهاد الطويلة ، التي بدأت من القيروان ، واستمرت غرباً حتى تمّ لها فتح طنجة ، وكان طارق على مقدّمة موسى في هــذا الفتح المبين ، وتوليـة طارق قيادة المقدمة ، في مسير الاقتراب ، وفي المنـاوشات التي تكلّلت لأوّل مرة بفتح طنجة ، دليل على ثقة موسى الكبيرة بطارق ، ودليل على كفاية طـارق القيادية .

وبعد أن عاد موسى إلى القيروان التي اتخذها مقراً له ، خلّف طارقاً على طنجة . والياً على المدينة ومنطقتها الشاسعة المهمة ، وبخاصة في موقعها الحيويّ السَّوْقِيّ ، الذي هو بتماس شديد مع يليان في سبتة الذي أثبت جدارته في الدفاع عن حوزة سبتة وما حولها ، وقاوم المسلمين مقاومة عنيفة ، فاستطاع أن يصدّهم عن فتح بلاده إلى حين . كما أنّ طارقاً في منطقة طنجة السَّوْقِيّة ، هو بتماس شديد مع دولة الأندلس وحماتها الذين كانوا وراء نجاح يليان في دفاعه العنيف ونجاحه في دفاعه الذي تميز بالحركة التّعبويّة ، وكلّ ذلك دليل قاطع على ثقة موسى بطارق . الذي أصبح والياً على منطقة طنجة . وقائداً لحامية مدينتها بخاصة والمجاهدين من البربر بعامة ، ومشرفاً على نشر الاسلام وتعليم القرآن وتعاليم الدين الحنيف ، فأثبت أنّه أهل لتلك الثقة ، وقادر على النهوض بواجباته الكثيرة . بكفاية عالية وحماسة وإيمان واندفاع .

---

(٤٧) . البداية والنهاية (١٧٢/٩) .
(٤٨) . البيان المغرب (٣٦/١) .
(٤٩) . ابن الأثير (٢٠٦/٤) .

وقد أتاح الاتّصال المباشر لطارق بموسى بن نُصير ، فرصة إظهار مواهبه الادارية والقيادية ، فولاّه موسى منصب الوالي على طنجة ومنصب القائد على قوّاتها المسلحّة . ولكنّ هذا الاتّصال المباشر لطارق بموسى باعتبار أنّ طارقاً هو مولى لموسى ، ليس السبب لتولية طارق هذين المنصبين الرفيعين ، في أخطر منطقة من مناطق الشمال الافريقي بعد فتحه ، إذ لا يمكن إسناد مثل تلك المناصب في أخطر الظروف والأحوال ، إلاّ لمن يستحقها كفايةً واقتدارا ، وإلاّ كانت نتيجة تولية غير ذوى الكفاية والقدرة كارثة محققّة أكيدة تصيب الفتح والفاتحين ، وتؤدي إلى خسارة المنطقة بكاملها بالاضافة إلى خسائر بالأرواح والممتلكات وتحطّم المعنويات ، وهذا مالا يمكن أن يقع فيه قائد مجرِّب حصيف مثل موسى بن نُصَيْر ، ومن المشكوك فيه أن يقع فيه قائد غير مجرِّب وغير حصيف أيضاً .

إنّ الأتصال المباشر لطارق بموسى ، أتاح له الفرصة لاظهار كفاياتهُ الادارية والقيادية ، وهذه الكفايات اتّصاله المباشر بالقائد العام لشمالي إفريقية ، هي التي جعلت المناصب الادارية تسعى إليه ولا يسعى إليها . وقد أتاحت المسيرة الطويلة في الجهاد لموسى ، أن يكتشف عن كثب كفايات طارق ، فولاّه الادارة والقيادة عن اقتناع ، وكان ذلك في حدود سنة تسعين الهجرية (٧٠٨ م) ، وأبقى معه عدداً قليلاً من العرب ، مُهمّتهم نشر تعاليم الاسلام بين البربر (٥٠) .

---

(٥٠) . ابن حبيب (٢٢٢) وابن عبدالحكم (٢٠٤ – ٢٠٥) وذكر بلا د الأندلس (٨٣ – ٨٤) رقم ٨٥ ج وابن الأثير (٥٤٠/٤) ووفيات الأعيان (٣٢٠/٥) والبيان المغرب (٤٢/١) والنويري (٢٢/٢٢) وابن خلدون (٤٠٢/٤) ونفح الطيب (٢٣٩/١) ، وانظر تاريخ المغرب العربي (٢١٤) والفتح والاستقرار العربي في شمال إفريقيا والأندلس (١٤٣)

وليس كالأتصال المباشر في ميدان الجهاد ، في أحرج الظروف والأحوال ، وفي مواجهة المعضلات الادارية وإيجاد الحلول الناجعة لها ، ما يظهر المرء على حقيقته في كفاياته ومزاياه واقتداره ، وهذا أبرز طارقاً إدارياً وقائداً .

جهاده في الأندلس

١ ـ مقدّمات الفتح

أ ـ الأسباب

كان فتح الأندلس نتيجة طبيعيّة لتمام فتح المغرب ، لأنّ الأندلس هو الجناح الغربي للمغرب (٥١) ، ولأنّ الأندلس كان المجال الحيوي للفتح الاسلامي بعد إنجاز فتح المغرب الافريقي ، واستقرار الفتح فيه بانتشار الاسلام في ربوعه ، وبوجود القوّة الضّاربة بجانب العرب المسلمين والبربر المسلمين .

ولم تستعص على موسى بن نُصَيْر غير مدينة سَبْتَةَ (Geuta) لمناعتها ووصول الأمدادات إليها من إسبانيا القوطيَّة عن طريق البحر ، وكان يحكمها من قَبَل القُوْط (٥٢) حاكم اسمه : جوليان ، أو كما يسميه الاسبان (خوليان Julian) ويسميه العرب : يُلْيَان (٥٣) ، أو إليان (٥٤) ، او يوليان (٥٥) . وقد اختلفت المصادر في شخصيّة يليان . فبعضها يذكر أنّه قُوطيّ ، وبعضها يزعم أنّه روميّ . وبعضها ينسبه إلى بربر قبيلة غمارة (٥٦) . والواقع أنّ

(٥١) . المسالك والممالك للأصطخري (٣٣) .

(٥٢) . يذكر صاحب : أخبار مجموعة ، أن موسى بن نصير سار الى مداين تقع على شاطىء البحر ، فيها عمال صاحب الأندلس ، على رأسها سبتة ، انظر : اخبار مجموعة في فتح الأندلس (٤) .

(٥٣) . البيان المغرب (٢/٦) .

(٥٤) . صفة المغرب للبكري (١٠٤) .

(٥٥) . ابن الأثير (٢١٣/٤) .

(٥٦) . انظر تاريخ المسلمين في الأندلس (٤٧) وفجر الأندلس (٥٢ ـ ٥٣) .

يليان كان حاكماً عاماً على إقليم موريطانيا الطنجيّة ، وهي تابعة لموريطانيا القيصريّة ، إحدى الولايات السبع الخاضعة للدولة البيزنطيّة ، فلما عجزت الدولة البيزنطية عن حمايتها ، ولّت سبتة وجهها شطر إسبانيا القوّطية(٥٧)، وقد بدأ يليان ولايته لهذا الاقليم في سنّ مبكّرة ، وأنه أقام مدّة طويلة في في أرض المغرب ، حتى توثقت علاقته بمن جاوره من قبائل البربر ، واستطاع أن يكتسب صداقة البربر له ، حتى أصبح يعدّ نفسه واحداً منهم، لذلك اختلط الأمر على الناس ، فظنّوه بربريّاً ، ومن هنا كان مرجع الرواية التي تنسبه إلى بربر غمارة . أما علاقته بالدولة القوطية في إسبانيا ، فمرجعه أنّه كان يتوجه بطلب المعونة إلى هذه الدولة ، لبعد مدينته عن بيزنطة ، واضطراب أمور بيزنطة في تلك الأيام (٥٨) .

وكان يليان حليفاً لملك إسبانيا غيطشة (Witiza) الذي تولىّ عرش البلاد في شهر تشرين الثاني (نوفمبر) من سنة (٧٠٠ م) بعد وفاة أبيه إخيكا (Egica) ، وقد خُلع غيطشة عن العرش على أثر ثورة قام بها نفرٌ من أنصار لذريق (٥٩) (Robrigo) . وأثار اغتصاب لذريق للعرش الاسباني نقمة أنصار غيطشة وأبنائه ، فهبّوا على هذا المغتصب الذي انتزع الملك لنفسه من البيت المالك الشّرعيّ ، وبدأت حركة استقلالية في أطراف البلاد ، ظلّت مستمرّة حتى دخول المسلمين أرض الأندلس .

وفرّ ابن غيطشة المدعو وقلة (Achila) الذي تولىّ العرش بعد أبيه إلى إفريقيّة ، وأقام عند يليان حاكم سبتة الذي كان لا يزال على ولائه

(٥٧) . ذكر الحميري أن يوليان هذا ، كان عامل لذريق على سبتة – انظر الحميري – صفة جزيرة الأندلس – نشره ليفي بروفنسال – القاهرة – ١٩٣٧٧ م .

(٥٨) . انظر : تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس (٤٧ – ٤٨) وفجر الأندلس (٥٣–٥٤) .

(٥٩) . ورد اسمه في تاريخ الطبري (٢٤٥/٥) : ادرينوق ، وفي فتوح مصر والمغرب (٢٧٩) : لذريق ، وفي ابن الأثير (٢١٣/٤) : رذريق ، وفي ابن خلدون (١١٧/٤): لذريق ، وفي اليعقوبي (٢٩/٣) : أدريق .

للملك غيطشة وأولاده ، بينما استبقى لذريق ولدى غيطشة الآخرين وهما : أرطباس (Arzavasdcs) والمنـد (Almundo) إلى جواره ، حتى يستوثق من إخلاصهما له ، ويقضي بذلك على الثورات المناهضة لحكومته والموالية لبيت غيطشة . وساءت حال البلاد في عهد لذريق ، اذ أرهق شعبه بالضرائب الفادحة ، لحاجته إلى المال اللازم لمواجهة أعدائه . ويبدو أنّه اعتدى على ذخائر الكنائس القوطيّة ونفائسها التي كانت محفوظة في غرفتين مغلقتين في كنيستي (سان بدرو) و (سان بابلو) في طُلَيْطِلَة (٦٠) . فنصحه القساوسة ورجال البلاط بعدم الإقدام على ذلك ، فلم يُصغ لنصحهم ، ومن هنا جاءت الأسطورة التي رواها مؤرخو العرب ، وهي أسطورة بيت الحكمة (٦١) .

وقد حقّق قسم من المؤرخين الغربيين شخصيّة يُلْيَان ، وأثبتوا وجودها فعلاً ، بعد أن كان قسم من العلماء الغربيين ، قد ذهبوا إلى أنّه شخصيّة أسطوريّة خلقها خيال العرب (٦٢) .

(٦٠) . طليطلة : مدينة كبيرة في الأندلس ، على شاطيء نهر تاجة ، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٦/٥٦) وتقويم البلدان (١٧٦ – ١٧٧) .

(٦١) . خلاصة هذه الأسطورة ، أنه كان في طليطلة ، دار ملك القوط ، بيت مغلق يحرسه قوم من ثقات القوط . وكانت العادة ، أنه إذا تولى من القوط ملك ، زاد على البيت قفلا ، فلما تولى لذريق عزم على فتح الباب والاطلاع على ما بداخل هذا البيت ، فأعظم ذلك أكابرهم ، وتضرعوا إليه أن يكف عن ذلك ، فأبى وظن انه بيت مال ، ففض الأقفال عنه ودخله ، فأصابه فارغاً لا شيء فيه ، الا المائدة التي كانت تعرف بمائدة سليمان ، وتابوت عليه قفل ، فأمر بفتح التابوت ، فألفاه فارغاً ليس فيه شيء غير شقة مدرجة ، قد صورت فيها صور العرب على الخيول وعليهم العمائم ، متقلدي السيوف ، متنكبي القسي ، رافعي الرايات على الرماح ، وفي أعلاها كتابة بالعجمية ، فقرئت فاذا هي : إذا كسرت هذه الأقفال من هذا البيت ، وفتح التابوت ، فظهر ما فيه من هذه الصورة ، فأن الأمة المصورة قد تغلب على الأندلس وتملكها .
لنظر التفاصيل حول هذه القصة في : تاريخ افتتاح الأندلس لا بن القوطية (٣٢ – ٣٣) والبيان المغرب (٢/٤) ونفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب (١/٢٣١ – ٢٣٢) و (١/٢٣٥) .

(٦٢) . انظر التفاصيل في فجر الأندلس (٥٢ – ٥٣) .

وقد عرف المسلمون يليان أوّل مرّة عند وصول موسى بن نصير إلى إقليم طنجة سنة تسع وثمانين الهجريّة (٧٠٩ م) ، وكان ملك إسبانيا في ذلك الحين غيطشة ، وكان الودّ معقوداً بينه وبين يليان (٦٣) . فلما أراد المسلمون فتح سبتة ، دافع عنها يليان دفاعاً شديداً ، واستطاع صدّ المسلمين عن فتحها ، كما ذكرنا ذلك (٦٤) .

وكان موسى يتوق إلى افتتاح سبتة ، وتطهير إفريقية من البقيّة الباقية من الأعداء . وبينما كان يرقب الفرص لتحقيق هذه الأمنيّة ، جاءته رسالة من يليان ، يعرض فيها تسليم معقله ، ويدعوه إلى فتح إسبانيا . وتختلف الروايات في أمر هذا الاتّصال ، فيقال إنّ موسى ويليان اتّصلا بالمراسلة ، وقيل إنهما اتّصلا بالمقابلة الشخصيّة ، وأنّ يليان استدعى موسى إلى سبتة ، وهناك وقعت المفاوضة بينهما . وقيل أخيراً إنّهما اجتمعا في سفينة في البحر (٦٥) . وتقول روايات أخرى ، بأنّ يليان سار إلى طارق بن زياد والي طنجة ، وأخبره بأنّه مستعد للتعاون مع جيشه في حربه إسبانيا أرض القوط (٦٦) . ولا تناقض بين تلك الروايات ، كما يبدو ذلك لأول وهلة ، فالذي حدث هو أنّ يليان فاوض موسى بن نُصَيْر أولاً ، لأنّه القائد العام في إفريقيّة ، فلما عاد موسى إلى القيروان أكمل يليان مفاوضاته مع طارق بن زياد ، لأنه قائد المنطقة القريبة منه والمسئول عن المنطقة والمخوّل من القائد العام موسى بن نصير لاكمال المفاوضات . وقد كان طارق رجلاً سياسياً بحق بعيد النظر ، فصادق يليان ليستعين به على إخضاع مَن تحت سلطانه من البربر ، وهم كثيرون »(٦٧) .

(٦٣) . فجر الأندلس (٥٤) .
(٦٤) . راجع ابن الأثير (٢١٣/٤) والبيان المغرب (٦/٢) ، وانظر : أخبار مجموعة (٥) وفتح الأندلس (٣ -) .
(٦٥) . النويري (٢٥/٢٢ - ٢٦) والحميري (٧ - ٨) ونفح الطيب (٢٥١/١ - ٢٥٣) .
(٦٦) . فتوح مصر والمغرب (٢٠٥) وتاريخ افتتاح الأندلس (٧-٨) والبيان المغرب (٦/٢ - ٧) وابن خلدون (٢٠٣/٤) ونفح الطيب (٢٣٢/١ - ٢٣٣) .
(٦٧) . فجر الأندلس (٥٤ - ٥٥) .

ومن الواضح أنّ السّلام الذي رفرفت راياته على المسلمين ويليان سببه المباشر، انقطاع المدد من إسبانيا بعد رحيل غيطشة وتولى لذريق، ذلك المدد الذي أعانه على الثبات أمام المسلمين الفاتحين. فلما انقطع المدد لانشغال لذريق عن يليان بالاضطرابات الداخلية، كما سيرد تفصيل ذلك، أصبح يليان ضعيفاً أمام المسلمين وأصبح ثباته في سبتة تجاه تفوّق المسلمين وانتشار الاسلام في البربر انتشاراً واسعاً صعباً للغاية، لذلك فاوض موسى وطارقا، وقام السّلام بين يليان والمسلمين، وأصبح التعاون بين الجانبين ممكناً وقائماً.

وسبب إقدام يليان المباشر على عرض تعاونه في فتح الأندلس قائم على أساس أنّ لذريق اعتدى على شرف ابنة يليان، فحقد يليان على لذريق وأقسم على الانتقام منه (٦٨).

ويرى أكثر المؤرخين العرب، أنّ السبب الرئيس لفتح الأندلس، هو قصّـة ابنة يليان التي اغتصبها الملك لذريق واعتدى على شرفها قسرا، ولكنّ بعض المؤرخين المحدثين وعلى رأسهم قسم من المستشرقين، يرون بأنّ قصّة ابنة يوليان في بلاط طليطلة محض أسطورة ليس لها أساس من الواقع، وقـد شايعهم قسم من المؤرخين العرب والمسلمين (٦٩). وهناك مايسوّغ التّشكيك في هذه القصّة من مؤرخي الأجانب والمستشرقين، والهدف من هذا التشكيك واضح ومفهوم، ولكن متابعة المؤرخين العرب والمسلمين للأجانب في هذا

(٦٨). مجمل القصة، أن يليان أرسل ابنته إلى بلاط لذريق لتتعلم وتتثقف مع بنات الملك، وقد سحر جمالها الملك الذي حاول أن ينال منها، فقاومته ورفضت، فلجأ الى العنف واغتصبها رغم ارادتها، انظر التفاصيل في: أخبار مجموعة (٥) وابن الأثير (٥٦٠/٤ – ٥٦١) والنويري (٢٢ – ٢٥ – ٢٦) والحميري (٧) ونفح الطيب (٢٥١/١–٢٥٣).

(٦٩). قارن: Saavedra'pp, 58 - 59 وفجر الأندلس (٥٩ – ٦٠) ومحمود علي مكي – ملحمة آخر ملوك القوط – المجلة (٣٠ – ٣٥) – العدد ٧٤ – ١٩٦٣ ومحمد عبدالله عنان – دولة الاسلام في الأندلس (٣٥/١ – ٣٧) والفتح والاستقرار العربي الاسلامي في شمال إفريقيا والأندلس (١٦٠).

التشكيك في هدفه غير واضح ولا مفهوم ، ومن المعروف أنّ مؤرخي الأجانب شككوا في وجود شخصيّة يليان وذهبوا إلى أنّه شخصيّة أسطوريّة خلقها خيال العرب ، كما ذكرنا قبل قليل ، فتابعهم في هذا التشكيك قسم من مؤرخي العرب والمسلمين تقليداً وعلى غير هدى وبصيرة . حتى إذا حقّق قسم من المؤرخين الغربيين شخصيّة يليان ، وأثبتوا وجودها فعلاً ، عاد المقلدون إلى متابعة الغربيين من جديد ، فكانوا في كلتا الحالتين مقلّدين ينقلون آراء الأجانب بلا تدقيق ولا تمحيص .

وقصّة ابنة يليان تنتظر مَن يحقّق وقوعها من المؤرخين الغربيين لتصبح حقيقة بالنسبة لبعض مؤرخي العرب والمسلمين المحدثين ولا تبقى أسطورة من الأساطير . ولا أرى أنّ تلك القصة لا يمكن حدوثها ، وبخاصة في تلك الأيام التي اتّسمت بالانحراف الذي أصبح قاعدة في القوط ، وبالاستقامة التي أصبحت استثناءاً فيهم ، كما أنّ ردّ الفعل الذي أظهره يليان ليس مستغرباً من أب تجاه انتهاك عرض ابنته غصبا ، كما أنّ ذكرها في المصادر المعتمدة يوثّق حدوثها ويؤيّد وقوعها ، ولا عبرة بالمصادر التي لم تتطرّق إليها اختصاراً أو لأسباب أخرى ، إذ لو كانوا لايصدّقونها لأبدوا رأيهم حولها ، ولكنهم لم يفعلوا (٧٠) ، ومثل هذه القصة تكرّرت قديماً في محيط الواقع ولا تزال تتكرر ، وأكثرنا سمع أمثالها ، فلماذا نكذّبها ، ونكذّب قصة ابنة يليان لأنّ مصادرها المعتمد عربيّة إسلامية ؟ !

ولست مع الذين يُشككون في هذه القصة ، ولكنني لا أراها السبب الرئيس لتعاون يليان مع المسلمين ، بل السبب الرئيس هو أنّه كان يتلقى الامدادات عَدداً وعُدَداً من إسبانيا في عهد غيطشة (٧١) ، ولكن عندما جاء لذريق

---

(٧٠). البلاذري (٢٣٠ - ٢٣١) برواية الواقدي ، والبيان المغرب (٦/٢) برواية الواقدي و (٤/٢) برواية عريب بن سعد ، وابن الشباط (١٠٥ - ١٠٦) برواية عريب بن سعد.

(٧١). اخبار مجموعة (٤) .

الى العرش ، وبسبب مشاكله الداخليّة ، توقف عن مساعدة يليان ، فاستاء يليان من هذا التوقف ، وبدأ بالتعاون مع موسى بن نُصير وطارق بن زياد على القوط في إسبانيا ، خاصة بعدما شعر بقوة المسلمين المتنامية في المنطقة ، وإقبال البربر على الدخول في دين الله أفواجاً .

ويمكن أن نلخّص أسباب فتح الأندلس بثلاثة أسباب رئيسة : الأول ، نشر الاسلام واعلاء كلمة الله في الأرض . إنّ الفاتحين حملوا الاسلام الى الناس بالفتح ، ولم يحملوا الناس بالفتح على الاسلام .

والثاني ، ترصين الفتح الأسلامي في شمالى إفريقيّة بعامة ، وفي منطقتي طنجة وسبتة بخاصة ، وذلك بفتح الأندلس ، فكما كانت منطقتا طنجة وسبتة تعتبران الخط الدفاعي الأمامي عن الأندلس ، فانّ الأندلس تعتبر الخط الدفاعي الأمامي للدفاع عن منطقتى طنجة وسبتة . وقد رأينا كيف قاومت سبتة المسلمين الفاتحين مقاومة عنيفة ، وثبتت تجاه محاولاتهم المتكرّرة لفتحها ، بفضل الأمدادات التي كانت تردها بحراً من القوط في إسبانيا ، فلما تخلّى القوط عن تزويدها بالأمدادات صالحت المسلمين أو استسلمت لهم على أصح تعبير ، لأنها عجزت عن مقاومتهم .

إنّ وجود قوّات معادية قويّة في الأندلس ، خطر على الفاتحين وعلى مصير الفتح وبخاصة في منطقتي طنجة وسبتة ، لذلك بادر المسلمون بالتعرّض بالقوط في الأندلس وفتح هذه البلاد ، والهجوم هو أجدى وسيلة للدفاع .

والثالث ، هو معاونة بوليان للمسلمين وتعاونه معهم في الفتح ، وتشجيعهم عليه وحثّهم على إنجازه ، فقد سهّل يليان على المسلمين الفتح بدون شك ؛ ولكنّهم كانوا يُقْدِمون عليه حتى لو لم يتعاون معهم يليان ولم يعاونهم ، فذ لك كان قدرهم في تلك الأيام .

ب – الاستطلاع :

بدأ موسى بن نصير استشارته للخلافة في دمشق ، وكان الخليفة حينذاك هو الوليد بن عبد الملك بن مروان (٨٦ هـ – ٩٦ هـ) بعد اتصالاته بيليان ، أو قبل اتّصالات يليان بموسى . وقد تردّدت الخلافة باديْ الأمر بالموافقة على القيام بمثل هذه العمليّة الكبيرة ، خوفاً على المسلمين من ركوب البحر ، ومن مصاعب القتال بحراً وبرّا ، وهي تعلم أنّ خبرة العرب المسلمين في فنون القتال البحري قليلة جداً ، وربما كان يدور في خلدها وصف عمرو بن العاص للبحر في رسالته إلى عمر بن الخطّاب رضى الله عنه التي جاء فيها : « إني رأيت خلقاً كبيراً يركبه خلق صغير ، ليس إلاّ السمآء والماء ، إن ركد خرق القلوب ، وإن تحرّك أزاغ العقول . يزداد فيه اليقين قِلّـةً ، والشكّ كثرة . هم فيه كدود على عود ، إن مال غرق ، وإن نجا برق . . . . » . . . . . .

ولكنّ موسى بن نُصَيْر ، أقنع الخليفة الوليد بن عبد الملك بالأمر ، فتمّ الاتّفاق على أن يسبق الفتح اختبار مواقع الانزال بالسرايا الاستطلاعيّة .

وأرسل موسى في شهر رمضان من سنة إحدى وتسعين الهجريّة (٧١٠ م) سرية استطلاعيّة إلى جنوبي الأندلس ، مكوّنة من خمسمائة مجاهد ، منهم مئة فارس والباقي مُشاة ، بقيادة طَـريف بن مالك الملقّب بأبي زُرْعَـة ، وهو مسلم من البربر (٧٢) .

وعبر هذا الجيش الزُّقاق ، والزُّقاق اسم يطلق أحياناً على المضيق بين الأندلس وشمالي إفريقيّة (٧٣) ، من سبتة ، بسفن يُليان أو غيره ، ونزل قرب أو في جزيرة بالوما Jsla de Las Palomas في الجـانب الاسـباني ، وعُرفت

(٧٢) . نفح الطيب (١٦٠/١ ، ٢٢٩ ، ٢٣٣ ، ٢٥٣) والروض المعطار (٨ و١٢٧) والبيان المغرب (٥/٢) ، وانظر التاريخ الأندلسي (٤٥) .

(٧٣) . تاريخ الأندلس (١٣٠) نص ابن الشباط ، والروض المعطار (٨٣ و١٢٧) ومقدمة ابن خلدون (٤٢٧/١) ونفح الطيب (١٢٧/١ ، ١٢٩ ، ١٤٥ ، ٢٢٩ ، ٢٣٢ ، ٢٤٥ ، ٢٥٢) .

هذه الجزيرة فيما بعد باسم هذا القـائد جزيرة طَريف(٧٤) (Tarifa) . ومن ذلك الموقع ، الذي اتخذه طريف قاعدة أمامية متقدّمة لعملياته الحربية ، قام طريف وسريته الاستطلاعيّة القتاليّة ، بسلسلة من الغارات السريعة على الساحل الجنوبي الأندلسي بارشاد يليان ، وخفّت قوّة من أنصار يليان وأبناء غيطشة لعون المسلمين ، كما قامت تلك القوة بحراسة موقع إنزال المسلمين في أرض الأندلس ، للاستفادة منه في مرحلة العودة من غارتهم الى قاعدتهم الرئيسة على البر الافريقي في منطقة طنجة ، وكانت نتيجة الغارة الاستطلاعية التي قادها طريف ، أنّ المسلمين غنموا مغانم كثيرة وسبياً عديداً ، وقوبلوا بالاكرام والترحيب ، وشهدوا كثيراً من دلائل خصب الجزيرة وغناها ، وعادوا في أمنٍ وسلام ، وقصّ قائدهم على موسى نتائج رحلته ، فاستبشر بالفتح ، وجدّ في أهبة الفتح ، كما تشجّع موسى وأخذ يستعدّ لارسال حملة عظيمة تقوم بالفتح المستدام (٧٥) .

لقد كانت مهمة سرية طريف ، مهمة استطلاعية ، هدفها الحصول على المعلومات عن طبيعة الأرض ، والسكان وأساليب قتالهم ودرجة ضراوتهم ، وتفاصيل قياداتهم ومبلغ الثقة المتبادلة بين القيادة والسكان ، ومبلغ حرص القيادة والسكان على الدفاع عن أرضهم ، وكان لقيام طريف بعدة غارات في المنطقة دون أن يلاقي أية مقاومة (٧٦) نتيجة مهمّة واحدة ، هي عدم حرص القيادة والسكان على الدفاع عن أرضهم ، وهي نتيجة على درجة عالية من الأهمية بالنسبة لخطط الفتح وبالنسبة للمسلمين الفاتحين .

---

(٧٤) . دولة الاسلام في الأندلس (١/٤٠) وفجر الأندلس (٦٧) ، وانظر الفتح والاستقرار العربي والاسلامي في شمال إفريقيا والأندلس (١٦٢) .

(٧٥) . Saavedra. op. cit. pp, 64,

(٧٦) . أخبار مجموعة (٦) وفتح الأندلس (٥) وابن الكردبوس (٤٥) وذكر بلاد الأندلس(٨٤) وابن الأثير (٤/٥٦١) والبيان المغرب (٢/٥) والنويري (٢٢/٢٦) ونفح الطيب (١/١٦٠) و (١/٢٥٣ - ٢٥٤) .

ولكن مهمّة سرية طريف الاستطلاعية ، لا تقتصر على هذه الناحية حسب ، بل تتعدّاها الى استطلاع حقيقة نوايا يليان ومن يشايعه تجاه السُّلطة القائمة في الأندلس والمتمثلة بالملك لذريق ،وحقيقةنواياه ومَنْ يشايعهتجاهالمسلمين الفاتحين ، وقد أثبتت مهمة سرية طريف الاستطلاعية ، أنّ يليان ومَنْ يشايعه يحقدون على لذريق ولا يتأخرون عن التشبّث بكل وسيلة ممكنة للقضاء عليه ، وأنهم من أجل التنفيس عن حقدهم عملياً ، يضعون كلّ طاقاتهم المادية والمعنوية للتعاون مع المسلمين في ميدان القتال ومعاونتهم . وكان التأكد من تلك النوايا ، ضرورياً لاستكمال الاعداد للفتح ، وقد تأكد لموسى وطارق ، أنّ يليان ومَن يشايعه صادقون في معاونتهم وتعاونهم مع المسلمين الفاتحين ، وأنّ عرضهم التعاون والمعاونة ليس خدعة ، بل حقيقة لا غبار عليها .

وقد وصفت المصادر العربية هذه العملية ، فذكرت أنّ موسى بن نُصَيْر كتب إلى أمير المؤمنين الوليد بن عبدالملك بالذي دعاه إليه يُلْيَان من أمر الأندلس ، ويستأذنه في اقتحامها ، فكتب إليه الوليد : أن خضها بالسَّرايا ، حتى ترى وتختبر شأنها ، ولا تغرِّر بالمسلمين في بحر شديد الأهوال . وراجعه ، أنّه ليس ببحر زخّار ، إنّما هو خليج منه يبين للناظر ما خلفه . فكتب إليه : وإن كان ، فلابد من اختباره بالسرايا قبل اقتحامه . فبعث موسى عند ذاك رجلاً من مواليه اسمه طريف ، يُكنىّ : أبا زُرعه ، في أربعمائة رجل معه مئة فرس ، سار بهم في أربعة مراكب ، فنزل في جزيرة تقابل جزيرة الأندلس المعروفة بالخضراء ، التي هي اليوم معبر سفائنهم ودار صناعتهم ، ويقال لها اليوم : « جزيرة طريف ، لنزوله بها » (٧٧) .

وهذا مثال لحرص المسؤولين يومئذ ، قادة وخلفاء، على أرواح المسلمين ، وقد أدى طريف ومَن معه واجبهم الاستطلاعي المزدوج على أتم ما يرام .

(٧٧) . نفح الطيب (٢٥٣/١) والبيان المغرب (٦/٢) ووفيات الأعيان لا بن خلكان(٣٢٠/٥) ، وانظر التاريخ الأندلسي (٤٦) .

٢ ـ الفتح :

أ ـ الخطة العامّة :

جّهز موسى بن نُصَيْر جيشاً تعداده سبعة آلاف جندي من البربر ، ليس فيهم من العرب المسلمين إلاّ القليل (٧٨) ، وينتمي البربر في هذا الجيش إلى قبيلة مَصْمُوْدَة وغيرها من القبائل البربريّة مثل جراوة ، ومطغرة ، ومكناسة ، ومَدْيُوْنَة (٧٩) ، وضمّ الجيش سبعمائة مقاتل من السودان (٨٠) ، ويمكن أن يكون هؤلاء السودان من المتطوّعة الذين اعتنقوا الاسلام ، فكان لهم دور كبير في مساعدة طارق في الفتح ، لأنّ قتالهم كان قتال المجاهدين الصادقين لا قتال المجنّدين المرتزقة الذين جُلبوا إلى ميدان القتال قسراً .

وعبر طارق بجيشه البحر تباعاً من سبتة في سفن يليان التجارية (٨١) ، وكان عبوره من سبتة بسبب رغبة طارق في إيجاد مكان ملائم للانزال على الشاطىء الاسباني في منطقة الجزيرة الخضراء التي تقابل سبتة ، ولكنّ طارقاً تخلّى عن الانزال في هذا المكان عندما وجد جماعة من القوط حاولت منع إنزال قوّاته ، فأبحر منه ليلاً إلى مكانٍ وعرٍ من الشاطىء . وقد حاول تسهيل عمليّة الانزال (الابرار) ، باستخدام المجاذيف والبراذع الخاصة بالسيول ، التي أُلقيت على الصخور لتلافي خطرها ، وبهذه الطريقة تمكّن طارق من الانزال المفاجىء من غير أن يراه أحد من العدو على الشاطىء (٨٢) .

---

(٧٨) . الروض المعطار (٩) ونفح الطيب (٢٣١/١ و ٢٣٩ و ٢٥٤) والبيان المغرب (٦/٢) ووفيات الأعيان (٣٢٠/٥) .

(٧٩) . ومصمودة من البرانس ، وجراوة من زناتة التي هي من البتر ، ومطغرة من البتر أيضا ، ومكناسة من البتر ايضاً ، وكذلك مديونة ، انظر ما جاء حول مشاركة هذه القبائل البربرية في جيش طارق الفاتح في : عبيدالله بن صالح (تحقيق بروفنسال ص (٢٢٤) وعبيدالله بن صالح (المخطوط) ص (٢٨) وابن خلدون (٢٣٩/٦ و ٢٥٦ و٢٦٥ و٤٦٢) ، وانظر : الفتح والاستقرار العربي الاسلامي في شمال افريقيا والأندلس(١٦٢).

(٨٠) . ذكر بلاد الأندلس (٨٤) رقم ٨٥ ج وفتح الأندلس (٨٥) .

(٨١) . فتوح مصر والمغرب (٢٠٥) وفتح الأندلس (٥) وابن الكردبوس (٤٦) ، وقارنه Gayangos. vol. 1. pp. 519 - 520

(٨٢) . ابن الكردبوس (٤٦) وانظر البيان المغرب (٩/٢) .

وقد نُفذِّت عملية الانزال في الليل ، واستغرق الانزال أكثر من ليلة واحدة ، بسبب قلة المراكب ، التي كانت دائبة على نقل الرجال بين الشاطئين إلى أن تمّ إنزال جيش طارق بسلام على أرض إسبانيا . ويقول بعض المؤرخين : إنّ طارقاً كان آخر مَن عبر إلى إسبانيا (٨٣) ، ويقول آخرون إنه أبحر في اللّيل مع أوّل جماعة ، وإنه أخفى نفسه في الجبل حتى الليلة التالية ، حيث أرسل المراكب مرة أخرى لتعود ببقية رجاله (٨٤) ، وعلى ذلك فيكون طارق قاد فعلاً المجموعة الأولى من قوّاته إلى الشاطيء الاسباني ، ولكن ما إن هبطت هذه المجموعة بسلام ، حتى عاد بالمراكب إلى سبتة ، لكي يشرف على نقل بقــية رجاله بنفسه ، ومن ثم أبحر مع المجموعة الأخيرة من الرجال .

وتمّ الانزال على صخرة تسمى : جبل كالبي (Mons Calpe) التي أتخذت اسم طارق منــذ ذلك اليوم ، فأصبحت تسمى : بجبل طارق ، وجرى الانزال يوم الأثنين الخامس من شهر رجب من سنة اثنتين وتسعين الهجرية (٨٥) (٢٧ نيسان – أبريل – سنة ٧١١ م) .

وهكذا يكون القائد الحق ، يُشرف على إنزال الوجبة الأولى ، لأنّ إنزالها يكون من أخطر الوجبات ، ولأنّها تكون رأس الجسر للقوات التي يجري إنزالها بالتعاقب ، فيشرف القائد على إنزال سائر الوجبات ، حتى يكون مع وجبة الانزال الأخيرة ، ليطمئن أنّ قوّاته أكملت عبورها ، وجرى إنزالها في المكان المناسب ، ويتأكد من عدم تخلّف فرد من أفراد قوّاته عن عن العبور لسبب من الأسباب .

ولكن ، لماذا استعان طارق بسفن يُليان التجاريّة ؟

---

(٨٣) . البيان المغرب (٦/٢) ونفح الطيب (٢٥٤/١) .
(٨٤) . فتوح مصر والمغرب (٢٠٥ – ٢٠٦) .
(٨٥) . نفح الطيب (١١٩/١) والبيان المغرب (٦/٢) .

« كان يليان يحتمل أصحاب طارق في مراكب التجار التي تختلف إلى الأندلس ، ولا يشعر أهل الأندلس بذلك ، ويظنون أنّ المراكب تختلف بالتجّار » (٨٦) ، وهذا يدلّ على أنّ طارقاً استعان بسفن يليان التجارية ، لأنه أراد أن يحيط عمليّة الانزال بالسرية التامّة ،وذلك باستعمال مراكب تجارية لا تعود للمسلمين ، لا لأنّ المسلمين لا يمتلكون السُّفن الكافية .

ومن الواضح ، أنّ المسلمين حينذاك ، كانوا يمتلكون سفنهم الخاصة بهم ، فقد كان اهتمام المسلمين بصناعة السُّفن مبكراً ، إذ أدركوا حاجتهم إليها ، فأقاموا عدّة دور لصناعة السُّفن ، مثل دار الصناعة في تونُس التي التي أقامها حسَّان بن النُّعمان الغسَّانيّ (٨٧) ، بل إنّ معركة كاملة خاضها المسلمون على شواطىء تونس سنة ثلاث وثلاثين الهجريّة أو أربع وثلاثين الهجريةوهي معركة ذات السّواري ، استخدموا فيها أسطولهم المكون من مئتي سفينة (٨٨) .

وكان قد مضى على فتح الشمال الافريقي عقود من السنين قبل فتح الأندلس ، وكانت شواطئه الطويلة الممتدة على البحر الأبيض المتوسط (بحر الرُّوم) والأطلسي،تجعل المسلمينبحاجةإلى السُّفن. وهو أمر لايتم بالاعارة والاستئجار . وقد سبق للمسلمين نشاط بحريّ انطلق من شمالى إفريقية ، ففي سنة ست وأربعين الهجريّة . وجّه معاوية بن حُدَيج (٨٩) والي إفريقية أسطولاً عدّته

---

(٨٦) . البيان المغرب (٦/٢) .

(٨٧) . انظر سيرته المفصلة في كتابنا : قادة فتح المغرب العربي (١٧٦/١ - ٢٢٠) ، وانظر كتاب : وصف افريقية (٣٨ - ٣٩) حول إنشاء دار الصناعة في تونس ، وانظر كذلك : المؤنس في أخبار افريقيا وتونس لا بن أبي دينار (١٥ و ٣٥) .

(٨٨) . انظر الاستيعاب (٩١٩/٣) والعبر (٣٤/١) ، وانظر تاريخ علماء الأندلس لا بن الفرضي (٣١١/١) .

(٨٩) . انظر سيرته المفصلة في كتابنا : قادة فتح المغرب العربي (٩/١ - ١٣٦) .

مئتا سفينة لفتح جزيرة صِقِلّية (٩٠) . وفي سنة ست وثمانين الهجرية وجّه موسى بن نُصَير حملة على صِقِلِّيَّة محمولة على مراكب صُنعت في تونس(٩١).

وكل ذلك يؤكد أنّ للمسلمين دور صناعتهم ، ولكن استعانة طارق في عبور قوّاته بسفن يليان كان لتأمين مباغتة القوط الكاملة ، لا عن حاجة للسفن ، وبعد انكشاف حركة إنزال المسلمين الأولى ، نُقل المدد الى طارق بالسفن الاسلامية : « وكان موسى منذ وجّه طارق لوجهه ، قد أخذ في عمل السُّفن ، حتى صار عنده منها عدّة كثيرة ، فحمل إلى طارق فيها خمسة آلاف من المسلمين مدداً » (٩٢) .

وجرى تجمّع جيش طارق بعد اكمال إنزاله في الطرف الاسباني ، على جبل طارق عُرف فيما بعد باسم : جبل طارق (٩٣) (Gibraltar) ، كما عرف به المضيق باسم : مضيق جبل طارق ، وبكل اللغات ، وهذا ذكرى لطارق وعملية إنزال جيشه ، وتخليد لبطولته .

ومنذ بدأ إنزال جيش طارق على السّاحل الأندلسيّ ، بدأ رجال طارق بتحصين موضع الانزال ، الذي أصبح منطقة التجمع لجيشه في جبل طارق ، كما تشير إلى ذلك بعض الروايات (٩٤) ، « فلما حصلوا في الجبل ، بنوا سوراً على أنفسهم يسمى : سور العرب ... الخ » (٩٥) ، فشكّك بعض المؤرخين الغربيين وتابعهم في هذا التّشكيك بعض المؤرخين العرب المسلمين

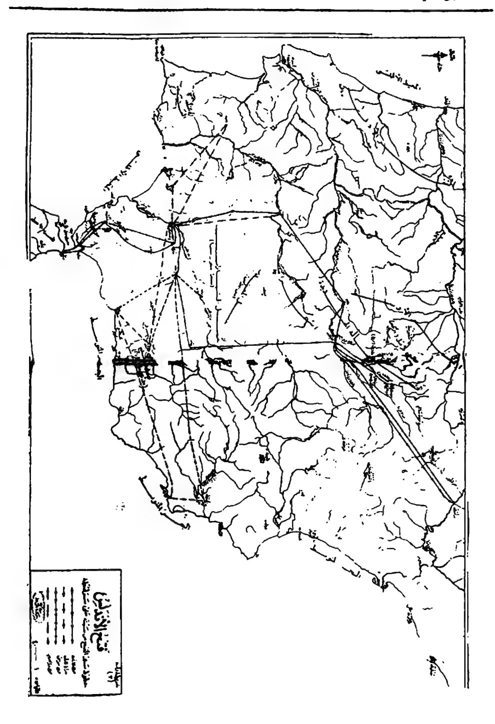
(٩٠) . البيان المغرب (١٦/١ — ١٧) .
(٩١) . البيان المغرب (٤٢/١) .
(٩٢) . نفح الطيب (٢٥٧/١) .
(٩٣) . نفح الطيب (١٤٥/١ — ١٤٦ و ١٥٩ — ١٦٠) .
(٩٤) . ذكر بلاد الأندلس (٨٤ — ٨٥) والبيان المغرب (٩/٢) وابن خلدون (٢٤٤) ونفح الطيب (٢٣٢/١) .
(٩٥) . البيان المغرب (٩/٢) .

تقليدا ، فقالوا من جملة ما قالوا : « ومن غير المحتمل . أن يكون طارق قد حصّن منطقة تجمّع جيشه في جبل طارق ، كما تشير إلى ذلك بعض الروايات ، لأنّ هدفه الأول لم يكن البقاء على الصخرة ، بل فتح المناطق المجاورة للجزيرة الخضراء ، والسيطرة على الجانب الاسباني من المضيق . لحماية تجهيزاته ومواصلاتها في شمالي إفريقية » ، وهذا هو مجمل ما جاء في تشكيكهم أو اعتراضهم . على ما ورد في المصادر العربية المعتمدة حول التحصين .

ومن الواضح ، أنّ المؤرخين الغربيين الذين اعترضوا على ما سجّلته المصادر العربية ، حول تحصين منطقة تجمّع جيش طارق في جبل طارق ، وشايعهم على اعتراضهم قسم من المؤرخين العرب والمسلمين ، لم يفهموا المعنى الدقيق للتحصين الذي سجّلته المصادر العربية المعتمدة ، فحفـر الخنادق في المواضع الممكن حفرها هو تحصين ، فاذا كانت الأرض صخرية كما هو الحال في منطقة جبل طارق ، فانّ التحصين يتمّ باقامة جدار من الصخور المتيسِّرة والأحجار . يحتمى وراءه المقاتلون من سهام العدو المصوّبة نحوهم ليلاً أو نهاراً . وإقامة الجدار للحماية بالصخور والأحجار هو تحصين أيضاً ، وهو ما قصدته المصادر العربية المعتمدة ، لا إقامة الحصون المشيدة ، كما فهمها بعض المؤرخين الغربيين ومَنْ شايعهم من المؤرخين العرب والمسلمين . والمدنيوّن الذين لم ينتسبوا للسلك العسكري في يوم من الأيام معـذورون في سوء فهمهم لتعبير : التحصين (٩٦) ، كما ينبغي .

---

(٩٦) . في الكليات العسكرية ، يتلقى الطلاب درساً مهما هو درس : التحصين ، يتدربون فيه على حفر انواع الخنادق ، في الأماكن الممكن حفرها ، واقامة المنعات من الحجارة والصخور وزرع الربايا في المناطق الجبلية ، ثم يعملون في التمارين التعبوية على تحصين مواقعهم بالخنادق او الصخور والحجارة فور الوصول اليها ، حتى ولو كان بقاؤهم فيها مدة قليلة جداً ، وعملهم في الحفر وإقامة المنعات والربايا الصخرية ، يسمى . التحصين ، وهو من اول واجباتهم بعد وصولهم الى اي موقع من المواقع . وفي اللغة ، حصن المكان : منع .



إنَّ من واجب كلّ مقاتل ، أن يحصّن موقعه ، حتى ولو بقي فيه ساعة من نهار أو ليل ، ومن واجب القائد ورجاله ألاّ يغفلوا عن تحصين مواقعهم ، استعداداً لأسوأ الاحتمالات ، وذلك للدفاع تجاه تعرّض معادٍ محتمل ، فهذا هو دأب القائد الجيِّد والمقاتلين الجيِّدين .

وهكذا أصبح لجيش طارق رأس جسر على برّ الأندلس ، ومنطقة تجمع في جبل طارق ، أصبحت بعد تحصينها قاعدة أماميّة متقدّمة ، يستند أليها ذلك الجيش ، في انطلاقه نحو أهدافه لفتح الأندلس ، تحقيقاً لخطة الفتح المرسومة .

(ب) المناوشات التمهيديّة :

لم يكد طارق يكمل تحصين منطقة تجمّع جنده في جبل طارق ، حتى أصبحت تلك المنطقة قاعدة أمامية متقدمة أَمِيْنَةَ للمسلمين ، صالحة للانطلاق منها للفتح . وحين فرغ من تحصين قاعدته الأمامية المتقدمة ، أرسل أحد قادته المرءوسين . وهو عبدالرحمن بن أبي عامر المعافري على رأس فرقة مختارة من رجاله . سارت بخذاء . الساحل شمالاً بغرب . فاستولت على مدينة من مدن الأندلس اسمها : قَرْطاجَنَّة الجزيرة(٩٧)(قرطاية Carteya Torrede Cartagena) ثم انحــدرت نحو الجنــوب واستولت على بلدة الجزيرة الخضراء (٩٨) (Algeciras) في مقابل جبل طارق وهناك وقعت مناوشات مع قوات القوط ، انتصر فيها المسلمون . ويذكر صاحب تحفة الأنفس . أنّ قتالاً جرى عند أو قرب جبل طارق . « فاقتتلوا ثلاثة أيام . وكان على القوط تُدْمير ، استخلفه

(٩٧) . قرطاجنة الجزيرة : مدينة بالأندلس ، تعرف بقرطاجنة الخلفاء ، قريبة من آلش ، من أعمــال تدمير ، وكانت عملت على مثــال قرطاجنة التي بافريقية ؛ انظر التفاصيل في معجم البلدان (٥٣/٧) والمشترك وضعاً (٤٣٢) ، وانظر ما جاء حول هذا الفتح في البيان المغرب (٣/٢) .

(٩٨) . الجزيرة الخضراء مدينة أمام سبتة من بر الأندلس الجنوبي ، وهي مدينة طيبة نزهة توسطت مدن الساحل ، وأشرفت بسورها على البحر ، ومرساها أحسن المراسي للجواز ، وأرضها أرض زرع وضرع ، وبخارجها المياه الجارية والبساتين النضيرة، انظر التفاصيل في تقويم البلدان (١٧٣ – ١٧٤) .

لذريق ملك القوط ، وكان قد كتب إلى لذريق ليعلمه بأنَّ قوماً لا يُدري أهم من أهل الأرض أم من أهل السَّماء ، قد وطئوا إلى بلادنا ، وقد لقيتهم ، فلتنهض إليّ بنفسك »(٩٩) . وتُدمير هو تيودومير القوطي ، عامل لذريق على تلك المنطقة من الأندلس وقائدها ، وكانت بامرته قوات محلية تابعة لعامل لذريق وبقيادته ، فكان الاصطدام الأول بين المسلمين وقوات القوط ، اصطداماً على نطاق الجيش المحلي أو القوات المحلية لمنطقة جنوبي الأندلس ، ولم يكن اصطداماً على نطاق القوّة الضاربة للملك القوطيّ . وبذلك أصبح مضيق جبل طارق كلّه بيد المسلمين فعهد طارق الى يليان ومن معه من الجند ، حراسة هذا الموضع وحمايته من كل هجوم متوقع ،وأمن المسلمون من أن يعبر عدوّ إلى مواقعهم عند جبل طارق ، فيهدِّد تلك المواقع وطريق مواصلاتهم التي تربطهم بقواعدهم في إفريقية (١٠٠)

وسارع لذريق بأرسال ما تيسر له من قوات خفيفة بقيادة ابن أخيه بَنْج (١٠١) (Banj) وهو (بالاسبانية Sancho أو Bancho) ولكن طارقا قضى على تلك القوّات ،ولم ينج من جندها إلاّ واحد اسمه : بِلّياسِن (Beliasin Williesindo) أسرع إلى معسكر لذريق في أقصى الشمال عند بَنْبُلُوْنَة (١٠٢) ، وأخبره نزول المسلمين البلاد ، فسارع لذريق نحو الجنوب ، حتى دخل قُرْطُبَة (١٠٣) ، ثم أخذ يستعد للحركة جنوباً للقاء المسلمين (١٠٤) . ومن الواضح أنّ بلياسن

(٩٩) . تحفة الأنفس وشعار سكان الأندلس (مخطوطة) ص (٧٠) – علي بن عبدالرحمن بن هذيل .

(١٠٠) Saavedra, pp . 65 .

(١٠١) . البيان المغرب (١٠/٢) .

(١٠٢) . بنبلونة : مدينة أندلسية ، في غربي الأندلس ، خلف جبل الشارة ، انظر تقويم البلدان (١٨٠ – ١٨١) .

(١٠٣) . قرطبة : مدينة عظيمة بالأندلس وسط بلادها ، كانت عاصمة لملكها وقصبتها، انظر– التفاصيل في المسالك والممالك (٣٥) ومعجم البلدان (٥٢/٧) وتقويم البلدان (١٧٤ - ١٧٥) وآثار البلاد وأخبار العباد (٥٥٢) .

(١٠٤) . نفح الطيب (١٤٩/١) .

حمل إلى لذريق أخبار إبادة قوات ابن أخيه بنج الخفيفة ، وأنّ الذي حمل إليه أخبار إنزال العرب في الأندلس هو تدمير .

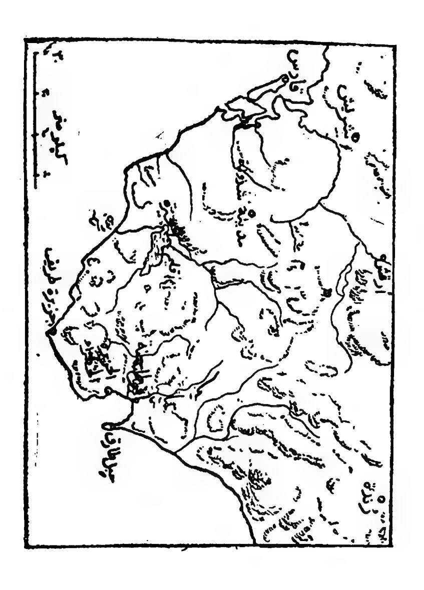
وأقصد بالقوات الخفيفة ، القوات التي تتحرك بسرعة على ظهور الخيل ، ومن المحتمل أنّ تلك القوات جُمّعت من القوات القوطية المحلية ، وقد أصبحت خيولهم غنائم للمسلمين (١٠٥) .

والذي يبدو ، انّ قرار لذريق السريع ، بعد علمه بانزال المسلمين في جبل طارق ، وفتحهم جنوبي إسبانيا بالكامل تقريباً ، وتوقعه أن ينطلقوا شمالاً لاستكمال الفتح ، هو أنه أمر ابن أخيه بنج ، أن يلتقي بالمسلمين على عجل ، ويحاول إيقاف تقدمهم في الأندلس أولا ، وإجلاءهم عن الساحل الذي فتحوه ، ليعودوا من حيث أتوا إلى قواعدهم الأمامية في سبتة وطنجة . ولتحقيق النّصر على المسلمين ، عمد بنج إلى حشد قواته المحلية الخفيفة من الخيّالة ، وأسرع نحو الجنوب لمواجهة المسلمين الفاتحين ، دون أن يعرف أنّ المسلمين كانوا في مواضع حصينة لا يسهل التغلب عليها ، وفي معنويات عالية تساعدهم على التغلب بسهولة وسرعة على عدوّهم ، ولهم قيادة واعية تحسب لكلّ شيء حسابه وتضع الحلول المناسبة لما قد يصادفها من معضلات ، ولهم جنود من المجاهدين الذين يتوخّون إحدى الحُسْنَيين : النصر أو الشهادة . ولديهم مخابرات نشطة ترصد لهم تحركات العدو وسكناته ، وتجعلهم يجاهدون وهم في النور لا في الظلام .

وكان نتيجة المعركة التصادفية التي خاضها بنج على رأس قواته المرتجلة ، نكبة قاصمة للظهر عليه وعلى قواته ، فلم ينج منهم إلاّ واحد نجا باعجوبة ، ليحمل أنباء الكارثة التي حلّت ببنج وقواته إلى الملك لذريق .

---

(١٠٥) . الرازي – نشر سافيدرا (١٤٩ – ١٥٠) والبيان المغرب (٨/٢) .



والسبب في عدم إرسال لذريق قوات كافية من القوات التي بامرته ، هو بعد تلك القوات عن مسرح العمليّات ، حيث كانت في أقصى الشمال ، ومسرح العمليّات في أقصى الجنوب ، وتنقُّل القوات من الشمال إلى الجنوب يحتاج إلى وقت طويل ، يؤدي إلى ترصين مواضع المسلمين وتقويتها ، في وقت يكون فيــه القوط بحـاجة ماسة إلى السّرعة ، للتغلب على المسلمين الفاتحين قبل أن يرسخوا اقدامهم في الأندلس ، لذلك كان قرار لذريق السريع ، هو تكليف ابن أخيه بقيادة قوات خفيفة ، للتغلب على الفاتحين بسرعة قبل فوات الأوان ، فأخطأ لذريق في إصداره مثل هذا القرار السريع ، لأنه لم يكن على علم يقين بأنّ المسلمين جاءوا إلى الأندلس فاتحين ليبقوا فيها ، ولم يأتوا إليها بغارة للمغانم ثم يرحلوا عنها . كما أخطأ بنج بعدم اطّلاعه على واقع المسلمين الفاتحين مادياً ومعنوياً ، وبعدم كفاية قواته عدداً وعُدَداً للنهوض بواجبها كما ينبغي ، في تحقيق النصر على المسلمين الفاتحين .

وقد كان لمرحلة : المناوشات ، من مراحل فتح الأندلس ، نتائج عظيمة على الطرفين المتحاربين : المسلمين ، والقوط ، فقد ارتفعت معنويات المسلمين ، نتيجة لانتصاراتهم على القوط ، وبقيادتهم الواعية القادرة . كما أصبح للمسلمين قاعدة متقدِّمة أمامية محصّنة ومحروسة ، يمكن الاعتماد عليها والانطلاق منها للفتح . كما ازدادت معلومات المسلمين الفاتحين عن قيادة عدوّهم وقواتهم ، وطبيعة بلادهم ، ونقاط ضعفهم وقوتهم ، فاستغلوا هذه المعلومات المفيدة للغاية في الجهاد . وهذه النتائج الثلاث مجتمعة ، أدت إلى إصرار المسلمين قيادة وجنوداً على استكمال الفتح حتى يشمل الأندلس بحدودها الطبيعية المعروفة ويتعدّاها ما استطاع إلى ذلك سبيلا .

أما بالنسبة للقوط ، فقد انهارت معنوياتهم ، نتيجة لهزائمهم المتوالية أمام المسلمين ، ولقيادتهم الضعيفة العاجزة ، ولخسارة جزء من بلادهم لعجزهم عن حمايتها والدفاع عنها . كما ارتبكت المعلومات عن المسلمين لدى القوط ،

فمنهم مَن يظن أنّ الفاتحين سيرحلون عن بلاد الأندلس ، ومنهم مَن يظن أنّهمْ جاءوا ليبقوا لا ليرحلوا ، ومنهم وهم الأكثرية من اختلطت عليهم الأمور ، فشُغل بالجدل عن الاستعداد للقتال وعن مباشرة القتال .

وكان لهذه النتائج على الطرفين ، تأثير حاسم في الفتح ، كما سنجد ذلك في مراحل الفتوح المقبلة .

٣ ـ معركة وادي بَرْباط(١٠٦) أو وادي لكة(١٠٧) المعركة الحاسمة في فتح الأندلس

(أ) الموقف العام :

اولاً : موقف القُوط :

كان لذريق عند معرفته بالنّكبة التي حلّت بقوات ابن أخيه بنج ، مشغولاً بالقضاء على اضطرابات خطيرة في مقاطعة الباسك (١٠٨) في منطقة جبال البرانس (١٠٩) التي تفصل بين الأندلس وفرنسا ، يحارب بعض الخوارج عليه في الولايات الشمالية للأندلس ، وهذا ما تنص عليه المصادر العربية المعتمدة ، وهو ما أرجّحه لأنّه منطقيّ معقول ، أو أنّ لذريق كان يصدّ هجوماً فرنسياً على نافار (Navarre) ، كما يزعم بعض المستشرقين(١١٠) ، إذ لو كان هذا الزّعم حقّاً ، لما استطاع لذريق الانسحاب من تلك الجبهة بيسر وسرعة ، وهي مهدّدة باعتداء خارجي لايقل خطراً عن المسلمين ،

---

(١٠٦) . وادي برباط : واد بالأندلس من أعمال مدينة شذونة ، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٢ / ١٠٣) .

(١٠٧) . وادي لكة : اسمه في البيان المغرب (٢/ ١٠) : وادي الطين ، وفي فتوح مصر والمغرب (٢٧٩) ورد اسمه : وادي أم حكيم ، وهو وادي برباط .

(١٠٨) . ابن حبيب (٢٢٢) وأخبار مجموعة (٧) وفتح الأندلس (٦) وابن الأثير (٤/ ٥٦٢) والنويري (٢٢/ ٢٧) ونفح الطيب (١/ ٢٣١ و ٢٥٥) والأمامة والسياسة (٢/ ٧٤-٧٥) .

(١٠٩) . البرانس : جبال تفصل إسبانيا عن فرنسا ، انظر التفاصيل في : الموسوعة العربية الميسرة (٣٣٩) .

(١١٠) . Saavedra. pp. 64 - 65

إن لم يكن أكثر خطراً منهم ، بموجب التفكير السّائد على الملك وحاشيته وقادته حينذاك ، إذ كانوا يعتقدون أنّ المسلمين يقومون بغارة من أجل الغنائم ، بينما الفرنسيون يهدفون ان يحتلوا بلادهم إذا انتصروا عليهم ، فليس من المعقول ترك الجبهة لهم ، خالية من المقاومة ، يسرحون فيها ويمرحون كما يشاءون .

وكان لذريق ملكاً شجاعاً وافراً المقدرة والحزم ، ولكنه كان طاغية يثير بقسوته وصرامته حوله كثيراً من البغضاء والسّخط (١١١) .

وعلى كلّ حال ، عندما وصلت أنباء طارق إلى لذريق ، ترك في الحال ما كان يجابهه في الشمال من مشاكل ، وزحف نحو الجنوب ، مرسلاً الرّسل إلى أتباعه ليوافوه في قرطبة (١١٢) ، وقد كتب من هناك إلى أفراد أسرة غيطشة (Witiza) وإلى القوط الآخرين لينظمّوا إليه في قتال العدو المشترك . وخشية من دخول قرطبة ، عسكر أبناء غيطشة وأتباعهم عبر نهر شقندة (Secunda) (١١٣) .

وتمّت المصالحة بين لذريق وأبناء غيطشة ، فعهد لذريق بقيادة ميمنة جيشه إلى سشبرت (Sisbert) والميسرة إلى (أبه (Oppa) ، وهذان الاثنان كما يقول مؤلّف كتاب : أخبار مجموعة ، هما من أبناء غيطشة (١١٤) ،

---

(١١١) . Cardonmigid. pp. 62

(١١٢) . فتح الأندلس (٦) وابن الشباط (١٠٦) برواية عريب ، وابن الكردبوس (٤٧) والحميري (٩) ونفح الطيب (٢٥٦/١) .

(١١٣) . ابن القوطية (٣) والحميري (١٠٤) ونفح الطيب (٢٦٥/١ - ٢٥٧) ، وشقندة هي حي الربض جنوبي قرطبة في الضفة الاخرى من الوادي الكبير (Guadalquivir) وكان هذا الربض يعرف باسم : شقندة (Seeunda) معرب عن اللاتيني ، انظر كتاب ، جغرافية الأندلس واوروبا من كتاب المسالك والممالك للبكري- تحقيق عبد الرحمن علي الحجي (١٣٩) - بيروت - ١٣٨٧ هـ ط ١ .

(١١٤) . أخبار مجموعة (٨) ، وقارن فتح الأندلس (٦) .

ويقال أيضاً بأنهما ابنا أخيكا (Egica) وليس لغيطشة (١١٥) ، وهذا هو الصواب ، لأنّ ابنى غيطشة اللذين بقيا في الأندلس ، كما ذكرنا هما أرطباس (Artavasdcs) والمند (Almunde) ، وأسماء أبناء غيطشة معروفة لدينا ، وليس بينهم أسماء مَن توليا الميمنة والميسرة في جيش لذريق ، وإذا ما كانوا في سنّ لا يسمح لهما أن يتوليا الحكم في سنة إحدى وتسعين الهجرية (٧١٠ م)، فانهّ من غير المحتمل أن يكون لذريق قد عهد إليهما بالقيادة في سنة اثنتين وتسعين الهجريّة (٧١١ م) . فلا يبقى إلاّ أن يكون اللّذان توليا الميمنة والميسرة في جيش لذريق ، هما ابنى أخيكا ، وغيطشة هو ابن أخيكا ، فيكون قائدا الميمنة والميسرة أخوى غيطشة لا ابنيه ، ويكونان عميّ أبناء غيطشة ، ويكون لذريق قد استعان بأفراد من العائلة المالكة السابقة في قيادته ، لتوحيد الجبهة الداخلية ، وإذابة الخلافات المحلية ، وحشد جهود القوط كافةً لحرب المسلمين . وقد اعتصم القوط في ساعة الخطر الدّاهم بالاتحاد، فاستطاع لذريق أن يجمع حوله معظم الأمراء والأشراف والأساقفة ، وحشد هؤلاء رجالهم وأتباعهم ومَن يلوذ بهم ، واجتمع يومئذ للقوط جيش تقدّره بعض الروايات بمائة ألف مقاتل (١١٦) ، وأقل تقدير له أربعون ألفاً (١١٧) ، ولا يمكن معرفة تعداده اليوم بالضبط ، فهو على كلٍّ حال بين هذين التّعدادين، أي نحو سبعين ألفاً ، كما جرى تقديره في بعض المصادر العربية المعتمدة (١١٨). ويبدو أنّ الجيش القوطيّ كان يشعر بقوّته ، وكان متأكداً من إمكان تغلّبه

---

(١١٥) . ابن القوطية (٢-٣) ، وقارن : فجر الأندلس (٧٣) و Livermore, pp. 291 .

(١١٦) . ابن الأثير (٢١٤/٤) ونفح الطيب (١٢٠/١) ، ويقدره في مكان آخر بسبعين ألفاً ، انظر نفح الطيب (١١٢/١) ، ويأخذ جيبون بهذه الرواية ، فيقدر جنس القوط بتسعين ألفاً او مائة ألف (الفصل الحادي والخمسون) ، ولكن ابن خلدون يقدره بأربعين الفاً فقط ، انظر ابن خلدون (١١٧/٤) .

(١١٧) . ابن خلدون (١١٧/٤) ونفح الطيب (٢٣٣/١) .

(١١٨) . نفح الطيب (١١٢/١)

على المسلمين ، إلى درجة أنهم أعدّوا ما يحملون عليه أسرى المسلمين ، كما يذكر ابن الكردبوس : « فلما انتهى خبره إلى لذريق ، خرج إلى لقائه في مائة ألف فارس ، ومعهم العَجَل تحمل الأموال والكِساء ، وهو على سرير تحمله ثلاث بغلات مقرونات ، وعليه قُبَّة مكلّلة بالدرّ والياقوت ، وعلى جسمه حلّة لؤلؤ قد نظمت بخيوط الأبريسم ، ومعه أعداد دواب لاتحمل غير الحبال لكتاف الأسرى ، إذ لم يَشُكّ في أخذهم » (١١٩) .

ومن الواضح أنّه يمكن أن نستنتج من هذا الوصف لقوّات القوط ، أنّ لذريق وهو القائد العام كان مترفاً جداً ، ولا يمكن أن يقاتل المترف كما يقاتل الرجال ، لأنّه يحرص على ترفه أكثر مما يحرص على الموت . كما أنّ الجيش القوطي كان على حالة إداريّة متميِّزة ، يحمل الأموال والكساء ، وتحمله الخيول ، ولا تنقصه مادة إداريّة تؤثّر في نشاطه القتالي . كما يمكن استنتاج أنّ القوط قد أعجبتهم أنفسهم ، فضمنوا لهم النصر على المسلمين ، والأعجاب بالنفس قبل نشوب القتال ، لا يؤدي إلى خير أبدا . ويبدو أنّ إعداد الحبال للأسرى قبل المعركة ، كان محاولة من لذريق لرفع معنويات القوط ، مما يدلّ على أنّ معنوياتهم قبل الاشتباك لم تكن عالية ، ولا نصر لقوات لا تتحلّى بالمعنويات العالية .

ثانياً : موقف المسلمين :

لمّا علم طارق بأخبار حشود القوط الكثيفة لقتال المسلمين ، كتب إلى موسى بن نُصَيْر يستنجده ، فأرسل إليه جيشاً قرابة خمسة آلاف مقاتل ، بقيادة طَريف بن مالك (١٢٠) ، حملتهم سفن صنعها المسلمون ، ولعلّ يُلْيَان قدّم التسهيلات لعبور هذا المدد إلى الأندلس ، فأصبح تعداد الجيش الاسلامي في الأندلس اثنى عشرة ألف مقاتل ، جلّهم من البربر المسلمين (١٢١).

(١١٩) . تاريخ الأندلس (٤٧) وانظر الأمامة والسياسة (٧٤/٢) .
(١٢٠) . العبر (٢٥٤/٤) ونفح الطيب (٢٣٣/١) .
(١٢١) . نفح الطيب (٢٣١/١/١ و٢٣٩) .

وفي ذلك يقول صاحب : أخبار مجموعة ، إنّ طارقاً ، « كتب إلى موسى يستمدّه ويخبره أن قد فتح الله الجزيرة واستولوا عليها وعلى البحيرة ، وأنّه قد زحف إلى ملك الأندلس بما لا طاقة له به . وكان موسى مذ وجّه طارقاً أخذ في عمل السُّفن ، حتى صارت معه سفن كثيرة ، فحمل إليه خمسة آلاف ، فتوافى المسلمون بالأندلس عند طارق اثنا عشرة ألفاً » (١٢٢) .

ويبدو أنّ نيّة طارق ، كانت السّير مباشرةً إلى قرطبة عاصمة بيْطي(١٢٣) (بيتِس) (Baetis) ، لأنّه تقدّم بحذاء السّاحل حتى أدرك جزيرة طَريف ، ومن ثَمّ اتّجه إلى الشمال في سهل قليل الارتفاع ، ومرّ بين جبلي (سبليا دل بابا) و (سييرا دل رِتين) ، واقترب من بحيرة الخندق (لاخاندا) الواسعة التي تحصر بينها وبين سييرا دل رتين سهلاً متّسعاً بعض الاتّساع حصيناً ، لانّ البحيرة تحميه من ناحية والجبل من ناحية أخرى ، واستمرّ حتى أدرك نُهير البرباط الذي يخترق بحيرة الخندق (لا خاندا) ، وكانت بهذا الموضع في تلك الأيام بليدة صغيرة زالت الآن ، يسميها العرب : بـكّـه ، ولهذا سمّوا هذا النُّهير : وادي بكّـه ، وحرّفه بعضهم إلى : لِكّـه أو وادي لِكّـه ، ونقله الأسبان خطأً ، فسمّوه : وادي لِيتّـه (١٢٤) .

وهنا عرف طارق من عيونه المنتشرة في كلّ مكان ، أنّ لذريق سائر إليه بجنده ، وأنّه وصل إلى قُرطبة واستقرّ فيها قليلاً لاستكمال حشد جيشه ، ثمّ تقدّم جنوبيّها ، وأقام معسكره عند شَذُونَـة (١٢٥) (Medinasidonia

(١٢٢) . أخبار مجموعة (٧) .

(١٢٣) . بيطى : هو الاسم القديم لنهر الوادي الكبير Gvadlgivurvir ، انظر جغرافية الأندلس وأوروبا (٥٨) .

(١٢٤) . أقرب ما قيل ، إن وادي لكه ، تحريف للفظ (Lago - Lacus) أي البحيرة ، والمقصود هذا بحيرة الخندق ، انظر التفاصيل في : فجر الأندلس (٧١) الهامش (١) .

(١٢٥) شـذونة : مدينـة بالأندلس ، تتصل نواحيها بنواحي موزور ، انظر التفاصـيل في معجـم البلدان (٥ / ٢٤٤) . وفي ابـن خلـدون (١١٧/٤) ، أنّ الجيشـين التقوا بفحص شريش ، والصحيح انها وقعت في فحص شذونة ، لأنّ شريش بعيدة عن ميدان المعركة .

واستعدّ لقبول المعركة في سهل البرباط ، على مقربة من قرية(Casas Viejas) الحالية (١٢٦) .

وفي هذا الموضع الذي وصل إليه طارق ، وصل المدد الذي تعداده خمسة آلاف مقاتل إلى طارق ، وهو المدد الذي بعث به موسى بن نُصَيْر إلى الأندلس ، فقويت بالمدد نفس طارق ونفوس من معه . والغالب أنّ قسماً كبيراً من المدد كان من الفرسان ، لأنّ المصادر تحدّثنا أنّ قوّة طارق الأولى كانت كلّها من الرجّالة ، في حين سنرى للمسلمين قوّة من الخيالة في المعركة الحاسمة (١٢٧). ويبدو أنّ تقدم المسلمين الموّفق في الأندلس إلى هذه اللّحظة ، قد أنعش الآمال في أنفس أعداء لذريق ، فانضمّ منهم الى المسلمين نفر كبير أعانوهم بالقوة والرأي (١٢٨) . وتسامع بذلك نفر من جند لذريق الغاضبين عليه ، فبدأت نفوسهم تحدّثهم لانتهاز الفرصة للانقلاب عليه في حالة اشتباكه بالمسلمين . ويقال : إنّ سشبرت وأبّه أخوى غيطشة ، كانا على رأس هذا الفريق الذي عزم على الخيانة ، وإنّهما انتظرا اللّحظة المواتية ليتخليا عن لذريق ، ويتركاه يلقى جزاءه على ما فعل بغيطشة (١٢٩) .

ويبدو أنّ لذريق كان يشعر بما يدور حوله ، وكان يدرك أنّ نفراً من جنده يدبّر له الخيانة ، فأحبّ قبل أن يلقي المسلمين . أن يتعرف على مالديهم

---

(١٢٦) فجر الأندلس (٧١ ـ ٧٢) .

(١٢٧) يذهب سافدرا ـ اعتماداً على المصادر المسيحيّة ـ الى انّ عدد جيش طارق بلغ قبل المعركة الحاسمة خمسة وعشرين الفاً ، بسبب من انضمّ اليهم من النصارى من انصار غيطشة واعداء لذريق من أهل البلاد . إذ ان من انضم اليه من النصارى يبلغ ثلاثة عشر الفاً ، وهذا مستبعد . بيد انّ بضعة آلاف من النصارى انضموا الى المسلمين ، انظر فجر الأندلس (٧٢) الهامش (١) .

(١٢٨) البيان المغرب (١١/٢) ونفح الطيب (١٦٢/١) ، ويفهم مما ورد في نفح الطيب ، أن الذي دبر الخيانة ، لم يكن أبناء غيطشه وأخواه فقط ، وإنما نفر عظيم من القوط كانوا غضاباً على لذريق .

(١٢٩) افتتاح الأندلس (٣) والبيان المغرب (٨/٢) ونفح الطيب (١٦٣/١) وأخبار مجموعة (٦) .

من القوّة ، فبعث طليعة من فرسانه لتناوشهم ، فلم يكد المسلمون يرونها حتى انقضوا عليها انقضاضاً شديداً ، فولّت هاربة ، وأنبأت لذريق بحال المسلمين وما هم عليه من الحميّة والتشوق للقتال ، فكاد يسقط في يديه (١٣٠) .

ولا بدّ من التوقّف قليلاً ، لمناقشة التحاق القوط النصارى بالجيش الاسلامي قبل المعركة الحاسمة ، ومعاونتهم للمسلمين وتعاونهم معهم في تلك المعركة ، على جيش لذريق من القوط النصارى ، في مثل ذلك الموقف الحرج الخطير للغاية ، في بلاد هي بلاد القوط النصارى وليست بلاد الجيش الأسلامي ، بحجة عداوتهم للذريق ، هذا الالتحاق القوطيّ بالمسلمين يمكن تصديقه بحجة أنّ الملتحقين هم أعداء لذريق ، وعدو عدوّك صديقك كما يقول المثل العربي المشهور ، ولكن ليس من المعقول أنّ طارقاً اشركهم في القتال .

ومن الواضح ، أنه يمكن أن نستنتج من هذا العرض لموقف المسلمين ، أنّ طارقاً كان كأحد رجاله مأكلاً ومشرباً وسكنا ، فلم يكن مترفاً ، بل كانت حياته أقرب إلى التّقشف منها إلى التّرف . وكان حذراً كلّ الحذر يقظاً كلّ اليقظة ، يعرف عدوّه وحركاته وسكناته ، ولاتخفى عليه من أمره خافية . كان يُعدّ لكل أمرٍ عدّته ولكلّ معضلة حلّها ، لاينام ولا ينيم . وكان المسلمون في حالة إدارية أقل بكثير من حالة الجيش القوطي ، ولكنّهم اعتادوا على الحياة القاسية ولم يعرفوا الترف والرخاء ، فكانت حالتهم الادارية غير المتميّزة ليست مشكلة بالنسبة إليهم . ولم يكن المسلمون قد أعجبتهم كثرتهم ، فهم يعلمون أنّ عدوّهم متفوّق عليهم عَدَداً وعُدَدا ، ولكنّهم متفوّقون على عدوهم بقيادتهم ومعنوياتهم العالية . ولم يهتم المسلمون بالمظاهر الخارجية والدعاية ، كما اهتم القوط بها ، فلم يعدّوا الحبال لربط الأسرى ، ولم يتباهوا بالمظاهر الخلابّة ، بل كانوا في نفسية متواضعة لاتتبدل في حالي النصر والاندحار .

(١٣٠) نفح الطيب (١٦٣/١) .

لقد كان تعداد جيش طارق اثنى عشر ألفاً(١٣١) من المجاهدين الصادقين، وأنضم إليهم يليان في قوّة صغيرة من صحبه وأتباعه (١٣٢) ، وهؤلاء هم الذين شهدوا المعركة الحاسمة مع المسلمين على القوط . أما أعداء لذريق الذين انضموا إلى المسلمين قُبيل تلك المعركة نكاية بلذريق ، فمن الصعب تصديق أنّ المسلمين أشركوهم بالمعركة الحاسمة معهم على لذريق ، لاحتمال وجود مندسّين وعملاء بينهم يُظهرون غير ما يُبطنون ، فلا يمكن الاعتماد على مثل هؤلاء في الحرب ، إذ قد ينقلبون على المسلمين في وقت من الاوقات الخطرة في الحرب، أو يثبطون عزائم المسلمين المجاهدين ، أو يهربون فيسرى الهرب بالعدوى بين المقاتلين ، أو ينقلون أسرار المسلمين إلى أعدائهم ، ومثل هذه الاحتمالات قائمة بالنسبة للقوط النصارى غير المجربين من المسلمين ولم يحظوا بالثقة الكاملة بهم . ومن المحتمل أنّ المسلمين استقبلوا أعداء لذريق في مواضع آمنة ، واكتفوا بتحييدهم بالنسبة للذريق ، ونقلوهم إلى الخلف بعيداً عن الجبهة ، انتظاراً لنتيجة المعركة المتوقّعة ، وهم بعيدون عن أخطار الحرب ، آمنون على أنفسهم وعلى أموالهم وأملاكهم ، وحسب المسلمين منهم أنّهم لم يحاربوا في صفوف لذريق ، ولم ينصروه في ميادين القتال ، وكان حيادهم نصراً لا ريب فيه للمسلمين .

٤ ـ خطبة طارق وحرق السفن

(أ) الخطبة :

أولاً الرّفض :

كان ممن احتار في خطبة طارق المشهورة ، الأمير شكيب أرسلان رحمه الله ، فقال : « تلك الخطبة الطنّانة . التي لو حاول مثلها قسّ بن ساعدة أو سَحْبان وائل ، لم يأت بأفصح ولا بأبلغ منها . ولقد كنتُ أفكرّ مليّاً في

(١٣١) نفح الطيب (٢٣١/١ ، و ٢٣٩) وأخبار مجموعة (٧) .
(١٣٢) دولة الأسلام في الأندلس (٤٢) .

أمر هذه الخطبة وأقول في نفسي . . هذا لغز من ألغاز التاريخ ، لا ينحلّ معناه بالسّهولة . . . . » ، وحقيقة هذا اللّغز ، لدى أمير البيان ، أنّ طارقاً بربريّ ، والخطبة تُعد من روائع الخطب العربيّة ، ولم يستطع التوفيق بين هذين الأمرين المتناقضين ، وقد حاول ولكنّه لم يسترح لمحاولاته ، وأخيراً زال تردّده عندما جزم الأستاذ عبد الله كنّون بأنّ هذه الخطبة من جملة انطباع البربر بالطابع العربي البحت (١٣٣) .

ويرتاب في نسبة هذه الخطبة لطارق الأستاذ عبد الله عنّان ، فيقول : « على أنّه يسوغ لنا أن نرتاب في نسبة هذه الخطبة إلى طارق ، فانّ معظم المؤرخين المسلمين ، ولا سيما المتقدمين منهم ، لايُشير إليها ، ولم يذكرها ابن عبد الحكم ولا البلاذري ، وهم من أقدم رواة الفتوحات الاسلامية ؛ ولم تُشر إليها المصادر الأندلسيّة الأولى ، ولم يُشر إليها ابن الأثير وابن خلدون ، ونقلها المقرى عن مؤرخ لم يذكر اسمه ، وهي على العموم أكثر ظهوراً في كتب المؤرخين والأدباء المتأخرين . وليس بعيداً أن يكون طارق قد خطب جنده قبل الموقعة ، فنحن نعرف أنّ كثيراً من قادة الغزوات الاسلامية الأولى كانوا يخطبون جندهم في الميدان ، ولكن في لغة هذه الخطبة وروعة أسلوبها وعبارتها ، ما يحمل على الشك في نسبتها إلى طارق ، وهو بربريّ لم يكن عريقاً في الاسلام والعروبة . والظّاهر أنّها من إنشاء بعض المتأخّرين ، صاغها على لسان طارق ، مع مراعاة ظروف المكان والزمان » (١٣٤) .

كما يرتاب في نسبة هذه الخطبة إلى طارق الدكتور أحمد هيكل ، ويبني شكّه على : أنّ طارقاً بربريّ حديث عهد بالاسلام والعربية ، لأنّه لم يرتبط بموسى بن نُصَيْر إلاّ عندما ولى هذا الأخير قيادة المغرب سنة تسع وثمانين

(١٣٣) دكتور عبد السلام الهراس – دعوة الحق – العدد الخامس – السنة الحادية عشرة –١٣٨٨هـ ص (١٢٦) ، وانظر : النبوغ المغربي (١/٢٢ – ٢٣) .

(١٣٤) دولة الأسلام في الأندلس (٤٧) .

الهجرية ، وبين هذا التاريخ وتاريخ الفتح في سنة اثنتين وتسعين الهجريّة مدّة وجيزة ، يُستبعَد معها أن يجيد طارق العربية بحيث تسمح له بالقاء الخطب ونظم الشعر .

كما أنّ المصادر الأولى ، عربيةً وأندلسيةً ، قد سكتت عن هذه الخطبة ، ولم تُشر إليها . ولا تنصّ عليها سوى المصادر المتأخرة كثيراً عن الفتح ، مثل نفح الطيب .

ثمّ إنّ أسلوب الخطبة بما فيه من الصحة والزُخرف ، لاينسّب إلى عصر طارق الأدبيّ ، وإنما إلى عصرٍ متأخرٍ جداً عن القرن الأوّل ، ولذلك يرى أنّ هذه الخطبة ، هي أقرب إلى خصائص أواخر العصر العباسيّ ، وربما إلى ما بعد ذلك .

كما أنّ ورود هذه العبارة في الخطبة : « وقد اختاركم أمير المؤمنين من الأبطال عربانا » ، مما يزيد من حظّ الشك ويقوي الارتياب . لأنّ الجنود لم يكونوا عربا . بل كانوا برابرة .

واعتماداً على هذه الأدلّة الأربعة ، يخلص الدكتور أحمد هيكل ، إلى حكم . يرجّح فيه أن تكون الخطبة وضعت على لسان طارق من بعض الرواة المتأخرين كثيراً عن الفتح . والمتأثرين كثيراً بأسلوب أواخر العصر العباسيّ ، وربما العصر المملوكيّ .

ويرى بعد ذلك . أنّ طارقاً قد يكون خطب جنوده ، وقد يكون قد تغنّى انتصاراته مفاخراً مباهياً . ولكنّ المعقول أن يكون فعل ذلك بلغته البربريّة . التي كان يجيدها . والذي كان جنوده يفهمونها (١٣٥) .

(١٣٥) انظر كتابة : الأدب الأندلسي (٨٠ – ٨٣) نقلا عن مقال بمجلة دعوة الحق – العدد الخامس (١٢٦ – ١٢٧) .

ويرتاب في نسبة هذه الخطبة إلى طارق ، الدكتور عبد الرحمن على الحجيّ ، ويبني شكّه على : أنّ تعرّض القليل جداً من مؤرخينا الأندلسيين المتأخرين دون المتقدّمين – للخطبة ، قد يشير إلى عدم شيوعها وعدم معرفة المؤرخين لها ، وهو أمر يمحو أويقلّل الثقة بواقعيتها . كما لم تذكر المصادر الأندلسيّة ، لاسيّما المبكّرة منها ، هذه الخطبة . ولم تكن الخطبة بما فيها من أسلوب ذلك العصر (القرن الأول الهجري) ، وغير متوقّع لقائد جيش أن يعتّني بهذا النوع من الصياغة . والمعاني التي تناولتها الخطبة لاتتلاءم والروح الاسلامي العالية ، التي توفرّت لدى الفاتحين ، ومقدار حبّهم للاسلام وإعلاء كلمته ، ورغبتهم في الاستشهاد من أجل ذلك . . . . . (١٣٦) .

ويلاحظ في الخطبة عديد من الأخطاء ، ويلاحظ بها التناقض في المعاني ، وبعض ما فيها يخالف لحقائق تأريخيّة ، كاستعمال : « اليونان » التي ربما جاء ذكرها للسّجع ، فالمؤرخون الأندلسيون اعتادوا أن يستعملوا في هذه المناسبة القوط أو الرُّوم (١٣٧) ،وكذلك: (العلوج والعجم ، أو المشركين والكفار(١٣٨) ، وليس لدينا نصّ يحتوي على مثل هذا الاستعمال . ثمّ : « وقد انتخبكم الوليد ابن عبد الملك أمير المؤمنين . . . . »(١٣٩) ، فالذي انتخبهم موسى بن نصير وليس الوليد .

وكان المتوقع أن تحتوي الخطبة على آيات من القرآن الكريم وأحاديث الرسول الأمين صلى الله عليه وسلم ، أو وصايا وأحداث ومعاني إسلاميّة أخرى ، تناسب المقام ، كالمعهود (١٤٠) ، ثمّ إنّ طارقاً وأكثر الجيش

---

(١٣٦) تاريخ افتتاح الأندلس (١٣٨ – ١٣٩) .
(١٣٧) انظر : نفح الطيب (٢٦٤/١ و ٢٦٩) والأحاطة (١ / ١٠٠) .
(١٣٨) انظر : نفح الطيب (٢٥٩/١ و ٢٦١ و ٢٦٣ و ٢٧٠ و ٢٧١) والبيان المغرب(١٤/١).
(١٣٩) ابن خلكان (٥ / ٣٢١ – ٣٢٢) ونفح الطيب (٢٤٠/١) .
(١٤٠) انظر : مثلا : تحفة الأنفس (٢٩ – ٣٣) .

كانوا من البربر ، مما يجعل من المناسب إن يخاطبهم بلغتهم ، إذ من المتوقع ألاّ تكون لغتهم العربية قد وصلت الى مستوى عال (١٤١) . كما أن وضوح تنافي الجُمل الأخيرة من الخطبة : « ولم يعوزكم بطل عاقل » ، « واكتفوا إليهم من فتح هذه الجزيرة بقتله .... » ، وأسلوب الفتح وحقيقته وأهدافه ، فضلا عن مجانبتها لخططه العسكرية ودقّتها التنظيميّة ومطالبها الفنيّة ، دليل أنّ طارقا لم يقل هذه الخطبة .

ويرى بعد ذلك ، أن كلّ ما تقدم، لا يمنع أن يكون طارق جيد الكلام ، وأنه خطب جنده ، يحثهم على الجهاد (١٤٢) .

ويرتاب الدكتور احمد بسّام السّاعي في نسبة هذه الخطبة الى طارق بن زياد ، فيرى : أنّ أسلوبها ليس أسلوب ذلك العصر — سنة اثنتين وتسعين الهجريّة — أي أواخر القرن الأول الهجري ، فالسجع الذي انتظم كثيرا في عباراتها ، والذي كان يتتالى على مدى خمس جُمل أحياناً ، لم يعرفه العرب في أساليب تلك المدة الزمنية . ثمّ إنّ طارق بن زياد ، كان أول عهده بالاسلام والعربية عام تسع وثمانين للهجرة ، وهو العام الذي استولى فيه موسى بن نُصير على المغرب ، فاستولى الاسلام على قلوب أهلها ، واستولت لغته العربيّة على ألسنتهم ، فهل يُعقل أن يكون قد اكتسب في هذه السنوات الثلاث اللسان العربي الفصيح والملكة البلاغيّة الرفيعة التي تُؤهّله لالقاء مثل هذه الخطبة التي احتلّت تلك المكانة الرفيعة بين خطب فصحاء العرب؟ أما العربان الذينَ ذكرهم طارق في خطبته : « وقد انتخبكم الوليد من الأبطال عربانا » ، فلم يكونوا في حقيقة الأمر ، وتبعاً للمصادر التاريخيّة الموثوقة ، عربانا ، بل كان معظم أفراد الجيش الذي جهز منه طارق حملته من برابرة المغرب . وإذن ، فلابد من

(١٤١) انظر : تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس (٧٨) .
(١٤٢) التاريخ الأندلسي (٥٨ — ٦١) .

الوقوف وقفة شكّ كبير أمام هذا التنافر بين الواقع التاريخي بجوانبه المتعددة ، وواقع الخطبة التي بين أيدينا .

ومما يزيد هذا الشك رسوخاً ، تلك الحقيقة التاريخية التي عُرفت عن الجيوش الاسلامية عامة — ولاسيما في تلك القرون الأولى من حملات الاسلام — وهي أنّ هذه الجيوش لم تكن تغزو للغزو والغنائم التي ينالها الغزاة عامة . بل كانت تغزو في سبيل فكرة وعقيدة .

ثم يقول : « ..... ومع ذلك . فنحن لا نملك أن نجزم بأنّها ليست لطارق ابن زياد حقا » (١٤٣) .

وكان بطرس البستاني . قد شكّك في نسبة هذه الخطبة إلى طارق ، فهو يرى أنّ طارقاً فارسيّ الأصل متعرِّب لا بربريّ حديث العهد بالعربية والاسلام وأنّه كان حسن الكلام فما هو تأثير خطبته في جيش من البرابرة يجهل العربية في مجموعة . ولم يزل على طفولته في الدين الجديد . تعنى فئة قليلة من العرب بتعليمه القرآن وفرائض الاسلام كما يتعلّمها كلّ شعب غريب إذا أسلم ، وكان يجهل العربية . ولا يبعد أن يكون فيه من البرابرة الذين لم يتركوا دينهم القديم . وإنّما هم مرتزقة حاربوا مع المسلمين رغبة في الغزو والغنيمة ......

ومما يحمل على الشك في خطبة طارق قوله لجيشه : « وقد انتخبكم الوليد ابن عبد الملك من الأبطال عربانا » . فجمعُ العربان ليس من اللغة الفصحى ، ولا يصحّ أن ينطق به خطيب في صدر الاسلام . ثمّ كيف يجعلهم عرباً وهم ... من البرابرة ، ليس فيهم إلاّ ثلاثمائة من العرب ؟ فلا يعقل أن يوجه بخطبته إلى الفئة القليلة دون السّواد الأعظم ، والبرابرة أحوج من العرب المسلمين إلى التّحضيض والأغراء .

(١٤٣) مجلة العربي الكويتية — العدد ٢٩٣ — نيسان (أبريل) ١٩٨٣ م — (٩٦ — ٩٧) .

ثم يقول : « فالخطبة كما يتبين لنا مصنوعة ...... ، فما ينبغي الركون إليها ولو أثبتها بعض المؤرخين » (١٤٤) .

تلك هي موجز أمثلة من آراء الرافضين من العرب المسلمين وغير المسلمين أيضاً ، ذكرناها على سبيل المثال لا على سبيل الحصر ، وهي في نقاطها الجوهرية تضرب على وتر واحد ، تكاد تتفق في المعاني وتختلف في الألفاظ .

ثانياً : القبول :

تصدّى الأستاذ عبدالله كنّون مفنّداً بعض أدلة الرافضين ، ومجمل ماذكره : أنّ طارقاً البربري ، نشأ في حضن العروبة والاسلام ، فأبوه هو الذي أسلم بدليل اسمه : « زياد » ، ولاشكّ أنّه كان من مسلمة الفتح المغربيّ الأول ، وانتقل إلى المشرق حيث نشأ ولده في كنف موسى بن نُصَيْر . ولا غرابة في نبوغ طارق البربري في العربيّة ، فقد نبغ فيها أمثاله كعِكْرِمة البربري وسلمان الفارسيّ . وليس في الخطبة من الصنعة البيانية ما يمنع نسبتها لطارق ، أنّ بلاغتها في معانيها ، والمعـاني ليست وقفاً على عربيّ ولا عجميّ .

ثم يضيف : نعم قد تكون الخطبة تعرّضت لبعض التّصرف بالزيادة أو النقصان من الرواة ، غير أن هذا لا يسوّغ نفى أصل الخطبة ، وليس بحجّة للتشكيك في نصّها الكامل (١٤٥) .

ويردّ الدكتور عبدالسلام الهرّاس على الدكتور أحمد هيكل فيذكر : أنّه لا يشاطر الدكتور هيكل في حكمه الذي بناه على حيثيات لا يعتمد البعض منها إلاّ على افتراضات ، والبعض الآخر يعتمد على أساس النص الوارد في : نفح الطيب . فكون طارق مثلا حديث عهد بالاسلام ، لم يتصل بموسى بن نُصير إلاّ عند تولية هذا قيادة المغرب سنة تسع وثمانين الهجريّة — أمر لا يمكن

(١٤٤) بطرس البستاني — معارك العرب (١/ ٥٥ — ٥٦) — بيروت — ١٩٤٤ م — ط ١ .
(١٤٥) النبوغ المغربي (٢٢/١ — ٢٣) ، نقلا عن مجلة : دعوة الحق — العدد الخامس (١٢٧) .

التّسليم به ، لأنّ طارقاً ابن لمسلِم وهو زياد ، وحفيد لمسلم وهو عبدالله ، حسبما ذكره ابن عذاري في نسبه ، فله على الأقل أبوان في الاسلام ، وهكذا لم يعد هذا القائد البربري حديث عهد بالاسلام ، ولم تعد المدّة التي قضاها في الاسلام لا تتعدى ثلاث سنوات . وما لنا لا نفترض — وهو أقرب الى المعقول ، أنّ أباه وجدّه هو الذي كان في المشرق ؛ فنشأ الابن والحفيد في بيئة عربية صرف ، أتاحت له حذق لغتها والنبوغ فيها ، والفوز بثقة بلاط دمشق ليتولىّ مكانة مرموقة في الدولة الأموية ، مما أهّله لقيادة جيش الفتح . ثم إنّ أحداً من القدماء ، لم يقل بأن طارقاً خطبَ بالبربريّة ، أو نفى الخطبة بالعربية . أما كونها لم ترد إلاّ في المصادر المتأخرة كثيراً ، كنفح الطيب ، فليس الأمر كذلك ، إذ وردت في مصادر أقدم بكثير من عصر المقري ، فقد أوردها ابن خلكان وهو من القرن السابع الهجريّ ، ووردت في تحفة الأنفس لابن هذيل وهو من القرن الثامن الهجري ، وأهم من هذا أن صاحب الامامة والسياسة قد أثبتها وهو من رجال القرن الثالث الهجري ، كما وردت قطعة منها في كل من : « ريحانة الألباب » ، للمراعيني (توفي ٥٧٠ هـ — ١١٦٨م) وكتاب : « استفتاح الأندلس » ، لعبدالملك بن حبيب (١٤٦) .

وقد أضاف الشيخ عبدالله كنّون إلى المصادر الخمسة التي ذكرت خطبة طارق في صفحاتها والتي ذكرها الدكتور عبدالسّلام الهرّاس مصدراً جديداً ، فذكر أنّه يضيف إلى هذه المصادر مصدراً آخر لا يقل عن : ابن خلكّان ، تثّبتاً وتحرّياً وثقة ، وهو من أهل القرن الخامس وأوائل القرن السادس الهجريين . الامام أبو بكر الطرطوشي ، صاحب كتاب : « سراج الملوك » . وقد ذكر خطبة طارق غير شاعر بأدنى شكّ في صحّة نسبتها إليه ، وأورد طرفاً منها

(١٤٦) مجلة دعوة الحق — العدد الخامس (١٢٧ — ١٢٨) .

في الباب الحادي والستين من كتابه المذكور ، الذي عقده لذكر الحروب وتدبيرها وحيلها وأحكامها . (١٤٧) .

وأضاف الأستاذ عبدالعزيز الساوري مصدراً سابعاً إلى المصادر المذكورة : هو كتاب صلة السِّمط وسمة المرط في شرح سمط الهدى في الفخر المحمّدي ، للمؤرخ التونسيّ محمد بن علي بن محمد بن الشباط المصري التوزري ، الذي عاش في القرن السابع الهجري ، وتوفى بمدينة توزر سنة إحدى وثمانين وستمائة الهجريّة (١٢٨٢ م) . فقد ذكر هذا العالم الحجّة خطبة طارق مسلّماً لها غير شاعر بأدنى شك في صحّة نسبتها إليه (١٤٨) .

وأستطيع أن أذكر ، بعض ما يمكن أن يعتبر ردّاً علمياً على الرافضين نسبة خطبة طارق إليه ، فمن الواضح أنّ طارقاً لم يتصل بموسى بن نُصَير سنة تسع وثمانين الهجريّة ، بل لابدّ أن يكون اتّصاله به قبل ذلك ، فأبو طارق وجدّه مسلمان ، وقد عاش في بيئة إسلامية ، ومثل هذه البيئة لها صلة مباشرة قويّة بالعربيّة الفصحى تكلماً وتعلّما . وحتى في هـذه الأيام ، في القرن الخامس عشر الهجري لا نجد بيئة إسلامية شرقاً وغربا ، إلاّ وفيها مَنْ يُتقن العربية الفصحى ، فاذا أضفنا أنّ والد طارق وجدّه مسلمان ، في أيام الفتوح والاتصال المباشر بين الأقوام والأمم ، تحت ظلّ الاسلام ، فلا نستبعد أنّ والد طارق وجدّه انتقلا إلى بلاد العرب ، وكان معهما طارق ، فأتقن العربية الفصحى ، وحتى لو لم ينتقل إلى المشرق ، فأنّ إسلامه يشجعه على قراءة القرآن وتفهّم الحديث وأقوال الدعاة العرب المسلمين ، فكثير

---

(١٤٧) سراج الملك (١٥٤) – المطبعة الأزهرية – القاهرة ، انظر مجلة : دعوة الحق – العددان السادس والسابع السنة الحادية عشرة – صفر ١٣٨٨ هـ – ص (١١١) .

(١٤٨) تاريخ الأندلس لا بن الكردبوس ووصفه لابن الشباط – نصان جديدان – ص (١٥٤ – ١٥٥) – تحقيق د . أحمد مختار العبادي – معهد الدراسات الاسلامية – مدريد – (١٩٧١م) نقلا عن مجلة : دعوة الحق – العدد (٢٢٥) – ص (١٠٠ – ١٠١) .

ممن نراهم في الهند وباكستان والاتحاد السوفيتي مثلا ، ممن يتقنون العربية الفصحى ، لم ينتقلوا الى البلاد العربية ، بل تعلّموا العربية الفصحى في عقر دارهم ، وأذكر أنني كنت في زيارة رسمية للباكستان سنة (١٣٨٤ هـ — ١٩٦٤م) ، فصلّيتُ الجمعة في مسجد كراجي الكبير ، وكان خطيب الجامع يخطب بالعربية الفصحى ، ولم يخطب بالأوردية اللغة المحلية ، فقيل للخطيب : « لماذا لا تخطب بلغة قومك ؟ » ، فقال : « لا أخطب بغير لغة القرآن ولغة النبيّ صلىّ الله عليه وسلّم » ، فما يدرينا أنّ طارقاً خطب بالعربية الفصحى في مثل ذلك الموقف العصيب ، الذي يكون فيه المرء أقرب الى الموت منه الى الحياة ، وهو يوقن بأنّ النصر من عند الله ، فهو بهذه النيّة يخطب بهذه اللّغة تبرّكاً وتقرّباً إلى الله ورسوله .

وقد عملت في الجندية ردحاً طويلاً من الزمن ، وخطبت بالضباط والجنود في الوحدات الصغرى والكبرى بالتدريج ، حسب تقدمي رتبة ومنصباً . وكثيراً ما كانت الوحدة التي أقودها مؤلفة من غير العرب ، كالأكراد مثلا ، فكنت ألقي خطبتي بالعربية ، وأضع مع مَن لا يفهم العربية مَن يترجم لهم كلامي نصاً وروحاً ، وهذا ما فعله طارق حين خطب بالعربية الفصحى في رجاله البربر ، فلم ينس أن يجعل بينهم مَنْ ينقل إليهم كلماته ، وليس ذلك صعباً بل هو سهل ميسور .

وكانت الحماسة للاسلام في البربر عظيمة جداً ، وأكبر دليل على ذلك إنجازهم الرائع في الفتوح واستقتالهم في ميدان القتال ، والاستقتال عادة يكون من أجل العقيدة . والحماسة للعربية الفصحى متساوقة مع الحماسة للاسلام ، لأنّ العربية الفصحى لغة الدين الحنيف ، فلا يستغرب إقبال البربر على تعلم العربية الفصحى بحرص واندفاع ، ليتفهموا القرآن وتعاليم الدين ، وطالما رأينا مسلمين من غير العرب ، يفهمون العربية ولا يحسنون الكلام بها ، ومن الممكن أن يكون مسلمو البربر يومئذ كذلك .

ولا أدري إلى متى يبقى المؤرخون العرب والمسلمون ، يثقون بما يقوله الأجانب أكثر من ثقتهم بما يقوله أبناء أمّتهم ودينهم ؟

وفي دراستي لطارق بن زياد وفتح الأندلس ، وهي هذه الدراسة التي تقرأ في هذا البحث ، اكتشفت أنّ قسماً من مؤرخي الأجانب ادّعوا أنّ يليان شخصية أسطورية لا وجود لها في الواقع ، فتابعهم في ذلك بعض مؤرخي العرب والمسلمين . وأخيراً جاء مَنْ يثبت ، أن يليان شخصية حقيقية لا مجال للشك ولا للتّشكيك فيها ، فتابعهم في ذلك بعض مؤرخي العرب أيضاً ، ورجع مَنْ بقي منهم على قيد الحياة عن متابعتهم الأولى !!!

ويزعم بعض مؤرخي الغرب من الأجانب ، أنّ قصة اعتداء لذريق ، على على عفاف ابنة يليان وأثر ذلك في يليان من ناحية التعاون مع موسى بن نُصير وطارق بن زياد في فتح الأندلس ، قصة أسطورية لا نصيب لها في الواقع ، فتابعهم في ذلك كثير من مؤرخي العرب والمسلمين ، مع أن القصة لا يُستغرب حدوثها قديماً وحديثاً ، ولا أدري كيف يصدّق مؤرخو العرب والمسلمين تشكيك المؤرخين الأجانب ، ويكذّبون المصادر العربيّة الاسلامية المعتمدة دون مسوغ منطقي معقول .

بل لا أدري كيف يتابع قسم من مؤرخي العرب والمسلمين ، ويقتبسون مزاعم قسم من المؤرخين الأجانب ، وبخاصة ممن ثبت انحرافهم وتحريفهم وثبتت عداوتهم للعربية لغةً والاسلام دينا ، ولا يتابعون المؤرخين العرب والمسلمين ، فيقتبسون حقائقهم الثابتة ، وبخاصة ممن ثبتت استقامتهم وعدلهم ، وثبت إخلاصهم للعربية لغةً والاسلام دينا !!

والمؤرّخون العرب والمسلمون حقاً ، يرصدون مؤتمرات : إعادة كتابة التاريخ ، لقسم من البلاد العربية ، فلا يُدعى إلى تلك المؤتمرات غير المستشرقين المنحرفين المحرّفين المعروفين بعداوتهم للعربية لغةً والاسلام دينا ، وغير

المستغربين المقلّدين للمستشرقين ، من مؤرخي العرب والمسلمين الذين لا صلة لهم بالعربية لغةً والاسلام دينا ، وصلتهم بالمستشرقين المنحرفين المحرّفين صلة عضويّة أنستهم مؤرخي العرب والمسلمين القُدامى والمحدثين .

والتقيت أحدهم في المجمع العلمي العراقي ، فسمعته يُباهي باصدار مؤتمرهم مجلّدات في التاريخ ، فقلت له : « لقد أضفتم مجلّدات جديدة إلى مجلّدات كايتاني ، فاتّقوا الله في العرب والمسلمين يا أبناء العرب والمسلمين ».

ومن المذهل حقاً ،أن نجد مَن يشايع المنحرفين من المستشرقين في انحرافهم من مؤرخي العرب والمسلمين ومَن يوافقهم منهم على تحريفهم ، يفخرون بالانحراف والتحريف ، ما دام قادماً من الأجنبي ، وكأن ذلك علامة من من علامات التحرّر وسمة من سمات الانطلاق ، وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا :

إنّني مع الذين ينسبون هذه الخطبة لطارق ، على الذين يرفضون نسبتها إليه ، أو يشكّون في نسبتها إليه ، أو يشكّكون في نسبتها إليه ، لأنّ الأدلة مع مَن ينسبون هذه الخطبة لطارق ، على الذين يرفضونها . كما أعلم منزلة الذين ينسبون هذه الخطبة لطارق صدقاً واستقامة وعلماً وتثبّتاً ، فما ينبغي رفض ما يقولون دون مسوّغ ، وبخاصة إذا علمنا أنّ الذين شكّوا في تلك الخطبة او شكّكوا بها ابتداءاً من المؤرخين الأجانب ، ثم سرى شكّهم وتشكيكهم الى مؤرّخي العرب المسلمين بحسن نيّة او بسوء نيّة ، فما ينبغي أن نصدّق كلّ مستورد من الخارج . وإلاّ خسرنا كلّ شيء دون أن نربح شيئاً .

إنّ الاستعمار الفكري من أخطر أنواع الاستعمار ، ولم نفعل شيئاً إذا لم نطهرّ عقولنا ونفوسنا معاً منه إلى الأبد .

ثالثاً : في المصادر والمراجع :

١ ـ في المصادر :

نص ابن حبيب(١٤٩)

عبدالملك بن حبيب الألبيرى (ت ٢٣٨هـ)

في كتابه

استفتاح الأندلس

روى بعض أصول الخطبة المعروفة حالياً ، فقال : « فلما بلغ طارقاً دنوُّه منه ، قام في أصحابه ، فحمد الله وأثنى عليه ، ثم حضّ النّاس على الجهاد ، ورغّبهم في الشّهادة ، ثم قال :

« أيّها الناس ، أين المفرّ ؟ والبحر من ورائكم ، والعدوّ أمامكم ؟ فليس لكم والله إلاّ الصّدق والصّبر ، ألا وإني عامد إلى طاغيتهم بنفسي ، لا أقصر حتى أخالطه أو أقتل دونه » .

نصّ ابن قتيبة(١٥٠) (ت ٢٧٦هـ)

في كتابه

الامامة والسياسة(٢)

فلما بلغ طارقاً دنوُّه (أي لذريق) منهم ، قام في أصحابه ، فحمد الله ، ثمّ حضّ الناس على الجهاد ، ورغّبهم في الشّهادة ، وبسط لهم في آمالهم ، ثمّ قال :

« أيها الناس ، أين المفر ، البحر من ورائكم ، والعدوّ أمامكم ، فليس ثمّ والله إلاّ الصدق والصبر ، فانّهما لا يُغلبان ، وهما جندان منصوران ، ولا تضرّ معهما قِلَّة ، ولا تنفع مع الخور والكسل والفشل

(١٤٩) مجلة معهد الدراسات الاسلامية في مدريد (٥ / ٢٢٢) - (القسم الفرنجي) ، نقلا عن كتاب : التاريخ الأندلسي للدكتور عبد الرحمن علي الحجي (٥٩) .

(١٥٠) هناك من يرى أن هذا الكتاب ليس لابن قتيبة ولكنه منسوب إليه .

والاختلاف والعجب كثرة . أيّها الناس ، ما فعلت من شيء فافعلوا مثله ، إنْ حملتُ فاحملوا ، وإن وقفت فقفوا ، ثمّ كونوا كهيئة رجل واحد في القتال . ألا وإني عامد إلى طاغيتهم بحيث لا أتهيّبه حتى أُخالطه أو أُقتل دونه (١٥١) ، فان قُتلت فلاتهنوا ولا تحزنوا ، ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم ، وتولّوا الدّبر لعدوّكم ، فتبدّدوا بين قتيل وأسير . وإيّاكم أن ترضوا بالدنيّة ، ولا تعطوا بأيديكم ، وارغبوا فيما عجل لكم من الكرامة ، والراحة من المهنة والذلّة ، وما قد أُحلّ لكم من ثواب الشّهادة ، فإنّكم إن تفعلوا والله معكم ومعيذكم تبوءون بالخسران المبين ، وسوء الحديث غداً بين مَن عرفكم من المسلمين . وها أنا ذا حامل حتى أغشاه ، فاحملوا بحملتي(١٥٢)» فحمل وحملوا .

نصّ ابي بكر(٢) الطرطوشيّ (ت ٥٢٠هـ) في كتابه سراج الملوك

ذكر هذا العالم الحجّة خطبة طارق ، مسلّماً بها ، غير شاعر بأدنى شكّ في صّحة نسبتها إليه . وأورد طرفاً منها ، وذلك في الباب الحادي والستين من كتابه المذكور ، الذي عقده لذكر الحروب وتدبيرها وحيلها وأحكامها(١٥٣).

وهذا هو نصّ الخطبة في هذا الكتاب .

ولما عبر طارق مولى موسى بن نُصَيْر إلى بلاد الأندلس ليفتحها ، وموسى إذ ذاك بافريقية ، خرجوا في الجزيرة الخضراء ، وتحصّنوا في الجبل الذي يسمى اليوم : (جبل طارق) ، وهم في ألفٍ وتسعمائة رجل ، فطمعت

(١٥١) في الأصل : (وأقتل) ، وهو تصحيفٌ .
(١٥٢) الأمامة والسياسة (٧٤/٢) - القاهرة - ١٣٧٧ هـ - ط ٢ .
(١٥٣) الأستاذ عبد الله كنون - مجلة دعوة الحق - العددان السادس والسابع - صفر ١٣٨٨ هـ - ص (١١١) .

الرّوم فيهم ، فاقتتلوا ثلاثة أيام ، وكان على الرّوم تدمير ، استخلفه لذريق ملك الرّوم ، وكان قد كتب إلى لذريق يُعلمه : أنّ قوماً لا ندري هم من الأرض أم من السّماء قد وصلوا إلى بلادنا ،وقد لقيتهم ،فانهض إليّ بنفسك . فأتاه لذريق في تسعين ألف عنان ، فلقيهم طارق وعلى خيله مُغيث الرّوميّ مولى الوليد بن عبدالملك ، فاقتتلوا ثلاثة أيام أشدّ قتال . فرأى طارق ما الناس فيه من الشدّة ، فقام فحضّهم على الصّبر ، ورغّبهم في الشّهادة ، وبسط آمالهم ، ثمّ قال :

« أين المفر ، البحر من ورائكم ، والعدوّ أمامكم ، فليس إلاّ الصّبر منكم والنّصر من ربّكم . وأنا فاعل شيئاً ، فافعلوا كفعلي ، فو الله لأقصدنّ طاغيتهم ، فامّا أن أقتله ، وإما أن أُقتل دونه .. .. » (١٥٤) .

نصّ ابي محمد بن ابراهيم « ابن خيرة » المراعينى الأشبيلى (ت ٥٦٤هـ) في كتابه ريحان الألباب وريعان الشباب في مراتب الآداب(١٥٥)

« ولما أجاز طارق البحر . وعظ أصحابه وأمرهم (١٥٦) وقال : « إنّكم بين عدوّين : بين أهل الكفر ، وبين البحر ، فمن كان يرجو لقاء ربّه فليعمل عملاً صالحا . وأحرق سفن الجواز ... فلما أشرف على جمعهم ، قال لأصحابه :

(١٥٤) سراج الملك (١٥٩) – المطبعة الأزهرية بالقاهرة ، نقلا عن مجلة دعوة الحق – العددان السادس والسابع ص (١١١) .

(١٥٥) مخطوط بالخزانة الملكية (الرباط) ، وتوجد منه نسختان : الأولى رقمها ١٤٠٦ ورقة ١٣٧ ، والثانية رقمها ٢٦٤٧ ص ٣٨١ ورقة وهو لأبي محمد بن إبراهيم المراعيني .

(١٥٦) في الأصل : ودمرهم ، وهو تحريف ولعل الصواب ما أثبتناه .

(كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة باذن الله ، والله مع الصابرين). وإنني مصمِّم بنفسي نحو طاغيتهم ، حتى يحكم الله بيني وبينه ، وقد فرض الله الواحد منكم للعشرة ، فاحملوا كما أمركم الله ينصركم : (وإنْ ينصركم الله فلاغالب لكم) (١٥٧) ، وحمل المسلمون يكبرون الله ... » (١٥٨) ، وبعد هذا يقول : « قال عبدالملك بن حبيب : دخل الأندلس من التابعين زهاء عشرين رجلا » .

وقد بذلت غاية الجهد للحصول على نصّ خطبة طارق كما هي مسجّلة في ريحان الألباب الخطيّ ، واتصلت بالسفير المغربي ببغداد ، وكتبت عدّة رسائل للمسؤولين في المغرب ، دون جدوى . واخيراً وبعد انتظار استمر اكثر من سنة اسعفني الأخ الدكتور عبدالسلام الهراس بدراسته عن خطبة طارق ، فتسلمت هذه الدراسة ، بعد أن فُقدت النسخة الأولى التي بعث بها إليّ بالبريد او حجبت عني عمداً ، والله أعلم ، فانتفعت بهذه الدراسة كثيراً وكان المفروض أن احظى بنص كتاب المراعيني من المغرب اشاعة للعلم ومعاونة للعلماء والباحثين ، ولكن ما كل ما يعني المرء يدركه .

نصّ ابن خلكان (ت ٦٨١هـ)
في كتابه
وفيّات الأعيان وانباء ابناء الزّمان

فلما نزل طارق من الجبل بالجيش الذي معه ، كتب تُدْمِيْر إلى لذريق الملك ، أنّه قد وقع بأرضنا قوم لا ندري من السَّماء هم أم من الأرض ،

(١٥٧) الآية الكريمة من سورة آل عمران (٣ : (١٦٠) .

(١٥٨) ريحان الألباب وريعان الشباب في مراتب الآداب للمراعيني ، ليس به ترقيم الصفحات ، مخطوط الخزانة الملكية المغربية رقم (٢٦٤٧) نقلا عن بحث : طارق بن زياد وخطبته ، للدكتور عبد السلام الهراس ، مستخرج من دراسات عربية وإسلامية - القاهرة - ١٤٠٣هـ ، كما جاءني النص من الأخ الأستاذ الدكتور عبد الهادي التازي مدير المعهد الجامعي في المغرب بتاريخ ١٩٨٦/٥/١٣ ، أما السفارة المغربية فقد بعثت إلى مشكورة بنص الكتاب مرسل من الأستاذ الجليل عبد الرحمن الفاسي ، فلهم شكري وتقديري .

فلما بلغ ذلك لذريق ، رجع عن مقصده في سبعين ألف فارس ، ومعه العَجَل يحمل الأموال والمتاع ، وهو على سريره بين دابتين عليه قبّة مكلّلة بالدرّ والياقوت والزبرجد . فلما بلغ طارقاً دنوُّه ، قام من أصحابه ، فحمد الله سبحانه وتعالى ، وأثنى عليه بما هو أهله ، ثمّ حثّ المسلمين على الجهاد ، ورغّبهم في الشّهادة ، ثمّ قال :

أيّها الناس ، أين المفرّ ، والبحر من ورائكم والعدو أمامكم ؟ فليس لكم والله إلاّ الصدق والصّبر . واعلموا أنّكم في هذه الجزيرة أضيع من الأيتام في مآدب اللئام وقد استقبلكم عدوّكم بجيشه وأسلحته ، وأقواته موفورة ، وأنتم لا وَزر لكم غير سيوفكم ، ولا أقوات لكم إلاّ ما تستخلصونه من أيدي أعدائكم ، وإن امتدت بكم الأيام على افتقاركم ، ولم تنجزوا لكم أمراً ، ذهبت ريحكم ، وتعوّضت القلوب برعبها منكم الجراءة عليكم . فادفعوا عن أنفسكم خذلان هذه العاقبة من أمركم بمناجزة هذا الطاغية (١٥٩)، فقد ألقت به إليكم مدينته المحصّنة ، وإنّ انتهاز الفرصة فيه لممكن إن سمحتم بأنفسكم للموت ، وإني لم أحذركم أمراً أنا عنه بنَجْوة . ولا حملتكم على خطّة أرخَص مُبتاع فيها النفوس إلاّ وأنا أبدأ فيها بنفسي . واعلموا أنّكم إن صبرتم على الأشقّ قليلا . استمتعتم بالأرفه الألذّ طويلا ، فلا ترغبوا بأنفسكم عن نفسي ، فما حظّكم فيه بأوفر من حظّي . وقد بلغكم ما أنشأت هذه الجزيرة من الحور الحسان من بنات اليونان ، الرافلات في الدّر والمرجان، والحلل المنسوجة بالعقيان ، المقصورات في قصور الملوك ذوي التيجان . وقد انتخبكم الوليد بن عبدالملك من الأبطال عربانا (١٦٠) . وَرضيكم للملوك

(١٥٩) في طبعة بولاق (٢/١٧٧ – ١٧٨) م : هذه الطاغية ، وكذلك في النسخة (ب) من هذا الكتاب .

(١٦٠) وردت في بعض النسخ بالزاي المعجمة ، عزبان : جمع عزب ، وسنعلق على ذلك في المتن بعد تسجيل نصوص الخطبة .

هذه الجزيرة أصهاراً وأختانا ، ثقة منه بارتياحكم للطعان ، واستماحكم لمجالدة الأبطال والفرسان ، ليكون حظّه معكم ثواب الله على أعلاء كلمته ، وإظهار دينه بهذه الجزيرة ، ويكون مغنمها خالصاً لكم من دونه ومن دون المسلمين سواكم ، والله تعالى وليّ إنجادكم على ما يكون لكم ذكراً في الدارين. واعلموا أنّي أوّل مجيب إلى ما دعوتكم إليه ، وأني عند ملتقى الجمعين حامل بنفسي على طاغية القوم لذريق فقاتله إن شاء الله تعالى ، فاحملوا معي ، فان هلكت بعده فقد كفيتكم أمره ، ولن يعوزكم بطل عاقل تسندون أمركم إليه ، وإن هلكت قبل وصولي إليه فاخلفوني في عزيمتي هذه ، واحملوا بأنفسكم عليه ، واكتفوا الهمّ من فتح هذه الجزيرة بقتله ، فإنّهم بعده يخذلون » (١٦١) .

نصّ ابن الشباط (ت ٦٨١هـ)
محمد بن علي بن محمدّ بن الشباط المصري التوزريّ
في كتابه
صلة السّمط وسمة المرط في شرح سمط الهدى
في الفخر المحمّديّ

ذكر هذا العالم الحجّة خطبة طارق ، مسلّماً لها غير شاعر بأدنى شكّ في صحّة نسبتها إليه ، وأوردها في النصّ الذي عقده لذكر فتح الأندلس في كتابه المذكور .

إلاّ أنّه يجب أن أشير مسبّقاً ، إلى أنّ هناك اختلافاً يسيراً ما بين نصّ هذا العالم ونصّ ابن قُتَيْبَة في : الامامة والسياسة ، وهو اختلاف بسيط لا يخرج عن دائرة اللغة .

وهذا هو النصّ :

(١٦١) وفيات الأعيان (٤ / ٤٠٤ — ٤٠٥) — تحقيق الشيخ محمد محي الدين عبد الحميد — القاهرة — ١٣٦٧ هـ — ط ١ .

« ...... ولما بلغ طارقاً دنوُّه منهم ، قام في أصحابه خطيباً (١٦٢) . فحمد الله عزّ وجلّ وأثنى عليه ، ثمّ حضّ الناس على الجهاد ورغّبهم في الشّهادة ، وبسط من آمالهم ، ثم قال :

« أيّها الناس ، إلى أين المفر ؟ البحر من ورائكم ، والعدو من أمامكم (١٦٣) وليس والله إلاّ الصدق والصّبر . فانّهما لا يُغلبان ، وهما جندان منصوران . لا تضرّ معهما قِلّة ، ولا تنفع مع الخور والكسل والفشل والاختلاف والعجب كثرة . أيّها الناس . ما فعلت من شيء فافعلوا مثله . إن حملتِ فاحملوا ، وإن وقفت فقفوا ، وكونوا كهيئة رجل واحد في القتال . ألا وأنّي عامدٌ إلى طاغيتهم لا أتهيّبه . حتى أخالطه أو أقتل دونه . فأن قُتلتُ فلا تهنوا ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم . وتُولّوا الدّبر عدوّكم . فتبدّدوا بين قتيل وأسير ، وإياكم أن ترضوا بالدنيّة . ولا تعطوا بأيديكم ، وارغبوا فيما عجل لكم من الكرامة والرحمة من الذلّة والمهنة ، وما قد أجّل لكم من ثواب الشّهادة . فانكم إن تفعلوا والله معيذكم . تبوءون بالخسران المبين وسوء الحديث غداً بين مَن عرفكم من المسلمين . وها أناذا حامل حتى أغشاه . فاحملوا لحملتي » . ثمّ حمل وحملوا . فلما غشيهم اقتتلوا قتالاً شديداً ، فقُتل الطاغية ، وهُزم قومه (١٦٤) .

(١٦٢) خطيباً : ساقطة في كتاب الامامة .

(١٦٣) من : ساقطة من كتاب الامامة .

(١٦٤) تاريخ الأندلس لابن الكردبوس ، ووصفه لابن الشباط ، نصان جديدان (١٥٤ — ١٥٥) تحقيق الدكتور أحمد مختار العبادي — معهد الدراسات الأسلامية بمدريد ١٩٧١ م .

نصّ ابن هُذَيْل (ت ٧٦٣هـ)
على بن عبدالرحمن بن هُذَيْل
في كتابه
تحفة الأنفس وشعار اهل الأندلس
نقلاً عن كتاب : محمد عبدالله عِنان(١٦٥) ـ دولة الاسلام في الأندلس

« أيّها الناس ، أين المفر ؟ البحر من ورائكم ، والعدوّ أمامكم ، وليس لكم والله إلاّ الصدق والصّبر . واعلموا أنكم في هذه الجزيرة أضيع من الأيتام في مأدبة اللّئام . وقد استقبلكم عدوّكم بجيوشه وأسلحته ، وأقواته موفورة ، وأنتم لا وَزَرَ لكم إلاّ سيوفكم ، ولا أقوات لكم إلاّ ما تستخلصونه من أيدي عدوّكم ، وإن امتدّت بكم الأيام على افتقاركم ولم تنجزوا لكم أمراً ، ذهبت ريحكم ، وتعوّضت القلوب عن رعبها منكم الجرأة عليكم ، فادفعــوا عن أنفســكم خذلان هــذه العــاقبة من أمركم ، بمناجزة هذا الطاغية . فقد ألقت به إليكم مدينته الحصينة ، وإنّ انتهاز الفرصة فيه لممكن . إن سمحتم لأنفسكم بالموت . وإني لم أحذركم أمراً أناعنه بنجوة ولا حَمّلتكم على خطة أرخص متاعاً فيها للنفوس ، أبدأ بنفسي . واعلموا أنكم إن صبرتم على الأشق قليلاً ، استمتعتم بالأرفه الألذّ طويلا ، فلا ترغبوا بأنفسكم عن نفسي ، فما حظّكم فيه بأوفى من حظّي . وقد بلغكم ما أنشأت هذه الجزيرة من الحور الحسان من بنات اليونان ، الرافلات في الدرّ والمرجان . والحلل المنسوجة بالعقيان . المقصورات في قصور الملوك ذوي التيجان ، وقد انتخبكم الوليد بن الملك أمير المؤمنين من الأبطال عربانا ، ورضيكم لملوك هذه الجزيرة أصهاراً وأختانا ، ثقة منه بارتياحكم للطعان ، واستماحكم بمجالدة الأبطال والفرسان ، ليكون حظّه منكم ثواب الله على

(١٦٥) دولة الاسلام في الأندلس (١/ ٤٦ – ٤٧) ، ولم يشر الأستاذ عنان إلى المصدر عند إيراده نص الخطبة ، بل عقب على الخطبة بقوله : « ويشير صاحب كتاب تحفة الأنفس إلى خطبة طارق . . . » ، وليس لدي نسخة من كتاب تحفة الأنفس لأقارن بين النصين .

إعلاء كلمته ، وإظهار دينه بهذه الجزيرة ، وليكون مغنمها خالصة لكم من دونه ، ومن دون المؤمن سواكم ، والله تعالى وليّ إنجادكم على ما يكون لكم ذكراً في الدارين . أيّها الناس ، مافعلت من شيء فافعلوا مثله ، إن حملت فاحملوا وإن وقفت فقفوا ، ثمّ كونوا كهيئة رجل واحد في القتال . وإني عامد إلى طاغيتهم بحيث لا أنهيه حتى أخالطه وأمثل دونه ، فان قُتلتُ فلا تهنوا ولا تحزنوا . ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم ، وتولّوا الدبر لعدوّكم فتبدوا بين قتيل وأسير . وإياكم إياكم أن ترضوا بالدنيّة ، ولا تعطوا بأيديكم ، وارغبوا فيما عجل لكم من الكرامة والراحة من المهنة والذلّة ، وما قد أحلّ لكم من ثواب الشّهادة ، فانكم إن تفعلوا، والله معكم ومفيدكم تبوءوا بالخسران المبين ، وسوء الحديث غداً بين من عرفكم من المسلمين ، وها أنا حامل حتى أغشاه ، فاحملوا بحماتي » (١٦٦) .

نصّ المقّري (ت ١٠٤١هـ)
احمد بن محمد المقّري التلمساني
في كتابه
نفح الطيب
من غصن الأندلس الرّطيب

« فلما بلغ طارقاً دنوُّه ، قام في أصحابه ، فحمد الله وأثنى عليه بما هو أهله ، ثمّ حثّ المسلمين على الجهاد ، ورغبّهم ، ثم قال :

« أيّها الناس ، أين المفر ؟ البحر من ورائكم ، والعدوّ أمامكم ، وليس لكم والله إلاّ الصّدق والصبّر ، واعلموا أنكم في هذه الجزيرة أضيع من الأيتام في مأدبة اللّئام . وقد استقبلكم عدوّكم بجيشه وأسلحته ، وأقواته موفورة ، وأنتم لا وَزَرَ لكم إلاّ سيوفكم ، ولا أقوات إلاّ ما تستخلصونه من أيدي عدوّكم ، وإن امتدّت الأيام على افتقاركم ولم تنجزوا لكم أمراً

(١٦٦) تحفة الأنفس ، نقلا عن : دولة الاسلام في الأندلس (١/٤٦ – ٤٧) .

ذهبت ريحكم ، وتعوّضت القلوب من رُعْبها منكم الجراءة عليكم ، فادفعوا عن أنفسكم خذلان هذه العاقبة من أمركم بمناجزة هذا الطاغية ، فقد ألقت به إليكم مدينته الحصينة ، وإنّ انتهاز الفرصة فيه لممكن إن سمحتم لأنفسكم بالموت . وإني لم أُحذّركم أمراً أنا عنه بنَجْوَة ، ولا حملتكم على خُطة أرخص متاع فيها النفوس (إلاّ وأنا) (١٦٧) أبدأ بنفسي . واعلموا أنكم إن صبرتم على الأشقّ قليلاً ، استمتعم بالأرْفَهِ الألذّ طويلا ، فلا ترغبوا بأنفسكم عن نفسي ، فما حظّكم فيه بأوفى من حظّي . وقد بلغكم ما أنشأتْ هذه الجزيرة من الحور الحسان ، من بنات اليونان ، الرافلات في الدرّ والمرجان ، والحُلَل المنسوجة بالعِقْيان ، المقصورات في قصور الملوك ذوي التيجان ، وقد انتخبكم الوليد بن عبدالملك أمير المؤمنين عُربانا ؛ ورضيكم للملوك هذه الجزيرة أصهاراً وأختانا ، ثقة منه بارتياحكم للطعّان ، واستماحكم بمجالدة الأبطال والفرُسان ، ليكون حظّه منكم ثواب الله على إعلاء كلمته ، وإظهار دينه بهذه الجزيرة ، وليكون مَغْنَمها خالصة لكم من دونه ومن دون المؤمنين سواكم . والله تعالى وليّ إنجادكم على ما يكون لكم ذكراً لكم في الدارين ، واعلموا أني أوّل مجيب إلى ما دعوتكم إليه ، وأني عند مُلْتَقى الجمعين حامل بنفسي على طاغية القوم لُذَريق فقاتله إن شاء الله تعالى ، فاحملوا معي ، فان هلكتُ بعده فقد كفيتكم أمره ، ولم يُعْوزكم بطلٌ عاقل تسندون أموركم إليه ، وإن هلكتُ قبل وصولي إليه فاخلفوني في عزيمتي هذه ، واحملوا بأنفسكم عليه ، واكتفوا الهمّ من فتح هذه الجزيرة بقتله ، فانهم بعده يُخْذلون » (١٦٨) .

(١٦٧) زيادة عن ابن خلكان .
(١٦٨) نفح الطيب – تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد (١ / ٢٢٥) – القاهرة – ١٣٦٧ هـ ، وتحقيق الدكتور احسان عباس (١ / ٢٤١ – ٢٤٢) – بيروت – ١٣٨٨ هـ .

تلك هي ثمانية مصادر معتمدة ، سجّلت خطبة طارق ، ونسبتها إليه ، دون أن تشك في نسبتها أو تشكّك في نسبتها إلى طارق ، وليس كما ادّعى قسم من المستشرقين والمستغربين ، أنّ المقّري في : نفح الطيب ، هو وحده الذي سجلّها : « أقدم مصدر للخطبة ، فيما نعلم ، كتاب المقّري المتوفى سنة (١٠٤١ هـ) ، أي بعد أكثر من تسعة قرون من تاريخ الخطبة ، وهو زمن أخطر من أن يُستهان به » (١٦٩) ، إذ تبيّن لنا أنّ الذين سجلوها فعلوا ذلك قبل صاحب نفح الطيب بأكثر من تسعمائة سنة ابتداء من سنة (٢٣٨ هـ) كما ورد في هذه الدراسة .

ولا أدّعي أنني استطعت تسجيل المصادر المعتمدة كافة التي سجّلت الخطبة ، فهذا ما اتمنى أن يفعله غيري من الباحثين باذن الله ، وقد اعتمدت في تسجيل نصوص الخطبة على باحثين سبقوني ، وقد أشرت إلى أسمائهم وأسماء مؤلفاتهم ومقالاتهم ليعود الفضل إلى أصحاب الفضل ، وساعود الى ذكرهم في الحديث عن المراجع الحديثة التي نسبت الخطبة إلى طارق ، ودافعت عن هذه النِّسبة إلى طارق .

وقبل أن أختتم الحديث عن الخطبة في المصادر ، أريد أن أركزً على نقطتين :

وردت كلمة : (عربانا) في نص : ابن خلكان ، ونص ابن الشباط ، ونص المقّري . وقد وردت في بعض النسخ بالزاي المعجمة (عُزْبان : جمع عَزَب) ، وعلى هذا الوجه ينتفى الشك الذي أثاروه ، فقالوا : « لم يكونوا عربانا . بل كانوا برابرة » . وحتى لو بقيت كما هي ، فلا تدل على النسب العربي بقدر دلالتها على الفخر بهذا النسب ، الذي قصده طارق ، بنسبة هؤلاء البربر إلى العرب رفعاً لمعنوياتهم وأقدارهم ، باعتبار أنّ العرب

---

(١٦٩) د . أحمد بسام الساعي – خطبة طارق بن زياد هل قالها حقاً ! (٩٧) – مجلة العربي الكويتية – العدد ٢٩٣ – جمادى الآخرة ١٤٠٣ – نيسان (أبريل) ١٩٨٣ م .

يومئذ هم الدعاة والحماة والخلفاء والقادة والمجاهدون والفاتحون ، وكلّ إنسان يحب أن ينسب إليهم ، ليحظى بهذه المكانة الرفيعة .

ومن المدهش حقاً ، أن البربر – على الرغم من محاولات الإستعمار الحديث – لا يؤلمهم أن يقال عنهم : إنّهم عرب ، بل يؤلمهم أن يقال عنهم : إنّهم ليسوا عربا (١٧٠) .

وهناك أدلة كثيرة على أنّ العرب والبربر من أرومة واحدة ، يلتقون بأنسابهم وأحسابهم بالعرب الأقدمين، وبأمّهم الرءوم : جزيرة العرب (١٧١) .

وأساليب البلاغة العربيّة كثيرة ، فاذا قال قائد لرجاله : أنتم أسود ، تقوية لمعنوياتهم ، وحثاً لهم على الثبات ، فقد لايفهم غير العربيّ مثل هذا التعبير ، لأنه لايفهم العربية ، أما ألاّ يفهم العربيّ مثل هذا التعبير ، فالأمر مختلف جداً . وكذلك بالنسبة لتعبير : (عربانا) الي وردت في خطبة طارق ، فاذا عجز غير العربي عن فهم هذا التعبير كما ينبغي ، وفهمَهُ بمعناه اللّفظيّ لابمعناه المجازى ، فله ما يسوّغ هذا العجز عن الفهم ، أما العربيّ ، فلا مسوّغ له بمتابعة مَن لم يفهم ، وهو الذي يجب ان يفهم .

ومع ذلك ، فانّ الذين لم يفهموا هذا التعبير أو فهموه ، قد بالغوا كثيراً في استنتاج أنّ الخطبة ليست لطارق ، استناداً على كلمة (عربانا) ، فليس من السهل ردّ الحقائق بالظنون .

وإذا كان فتح المسلمين ، لبلد من بلاد النصارى ، كبلاد الأندلس مثلاً ، وبقاؤهم فيه قروناً طويلة – كما هو معروف ، حافزاً للمستشرقين من غير المسلمين على تصيّد ما يستطيعون به الشك والتشكيك في تاريخ الفتح الأندلسي وتاريخ المسلمين في الأندلس ، فما الحافز للمسلمين في تقليد الشاكين والمشكّكين؟

(١٧٠) عقبة بن نافع الفهري – (٣٥) – بيروت – ١٣٩٢ ﻫ .

(١٧١) انظر التفاصيل في : عقبة بن نافع (٢٣ – ٥٣) .

ومن غير المعقول أن نطبّق الأفكار الشائعة في هذا القرن حول التفرقة بين الأقوام . على القرن الهجري الأول ، الذي ساد فيه الأخاء الإسلامي ، وأصبح التفاضل بين الأفراد بالتقوى لا بالنسب ، فلا فضل لعربيّ على أعجميّ إلاّ بالتقوى ، فما أراد طارق بتعبير : (عربانا) نسبا ، بل أراد غير ذلك ، وعلى الباحث دراسته كما كان لا كما يريده أن يكون ، ليستخلص الواقع ويبتعد عن الخيال .

تلك هي النقطة الأولى .

أما النقطة الثانية ، فهي أنّ أسس خطاب طارق واحدة في النصوص الثمانية التي سجلتها المصادر المعتمدة الثمانية ، ولكنّها تختلف في بعض الكلمات وبعض التعابير بما لا يمسّ بأسس معاني الخطاب ، كما تختلف في حجم الخطاب طولاً وقصراً ، والظاهر أنّ قسماً من المؤلفين سجّلوه حرفياً دون أن يختصروا منه شيئاً . وقسماً منهم سجّلوا أبرز ما ورد في الخطاب من جُمَل ، وحذفوا ما بقي منه . وبخاصة الجمل ذات المعاني العامة الشائعة التي يكثر ترديدها في الخطب والمواعظ وغيرها . أي أنّهم أبقوا في الخطاب ما ورد فيه من معان خاصة يتميّز بها عن الخطب الأخرى ، وحذفوا ما ورد فيه من معان عامة تتكرر في الخطب وفي المواعظ وعلى ألسنة الناس .

إنّ النصوص المسجّلة للخطبة مختصرة ومطوّلة ، تتّفق بالمعاني الخاصة التي يتميّز بها خطاب طارق عن سائر الخطب ، ولكنّها تختلف في المباني إيجازاً وتفصيلا . والمعاني أهم من المباني . واتفاق المصادر على المعاني ، دليل جديد على أنّها لطارق لالغيره من الناس .

(٢) . في المراجع :

لايمكن ذكر جميع المصادر الي أيدّت نسبة خطبة طارق إليه ، فهي كثيرة جداً ، فلا بأس من ذكر قسم منها ، وبخاصة التي اطّلعت عليها وذكرتها في هذا البحث .

فقد جزم الأستاذ عبد الله كنون من جملة انطباع البربر بالطابع العربيّ البحت ، وأيدّ نسبة الخطبة إلى طارق ، في كتابه : النبوغ المغربيّ (١٧٢) .

كما أيدّ الدكتور عبد السّلام الهرّاس نسبة الخطبة إلى طارق ، في مقالين اطلعت عليهما (١٧٣) ، كما نشر بحثاً في القاهرة لم أطلع عليه ، وحماسة الهراس وغيرته مما يُحمد عليها .

كما نشر الأستاذ عبد العزيز الساوري مقالاً ، أيدّ فيه نسبة الخطبة إلى طارق ، وأضاف مصدراً جديداً سجّل الخطبة هو كتاب : صلة السمط لابن الشباط (١٧٤) .

كما نشر الشيخ محمد أبو زيد طنطاوي بحثاً عنوانه : فتح العرب للأندلس ، أيدّ فيه نسبة الخطبة إلى طارق بن زياد (١٧٥) .

تلك أمثلة على مَن أيدّ نسبة خطبة طارق إليه ، إما بتدوينها في سير أحداث الفتح ، أو في مناقشة الرافضين الاعتراف بنسبة تلك الخطبة إلى طارق ، وهي عبارة عن البحوث التي اطّلعت عليها ، ومن المؤكد أنّ الدراسات والبحوث التي لم أطّلع عليها ، أكثر بكثير من البحوث والدراسات التي اطلعت عليها ، ومن المفيد أن يتمّ الاطّلاع عليها والتنويه بها .

ويمكن أن نتبيّن أن رفض الخطبة ارتفع مدّه في النصف الأخير من القرن الرابع عشر الهجري والنصف الأول من القرن العشرين الميلادي ، حتى تكاثر الرافضون وأصبح الرفض أمراً مسلّماً به في الدراسات الأندلسيّة . وانقسم الرافضون إلى قسمين : قسم يصرّح برفضه ، وقسم يغفل الخطبة إغفالاً كاملاً ،

---

(١٧٢) النبوغ المغربي (١ / ٢٢ — ٢٣) .

(١٧٣) دعوة الحق — العدد الخامس — السنة الحادية عشرة ، والعدد (٢٢٨)

(١٧٤) دعوة الحق — العدد ٢٢٥ — (١٠٠ — ١٠١) .

(١٧٥) مجلة الجامعة الأسلامية بالمدينة المنورة — العدد الثاني — السنة العاشرة — رمضان ١٣٩٧ هـ آب وأيلول (اغسطس سبتمبر ١٩٧٧ م — (٤٣ — ٦٧) — مكة — ١٣٩٧ هـ

فلا يذكرها في دراسته ولا يشير إليها ، كأنّ رفضها حقيقة لاغبار عليها ، يخجل الباحث من الاعتراض على الرفض ، أو من التطرّق إلى الخطبة من قريب أوبعيد .

وللتاريخ أذكر ، أنّ أوّل مَن رفض الرّفض وردّ عليه ، هو الأستاذ عبد الله كنون ، في كتابه : النبوغ المغربي ، ثم توالت الردود في نماذج تطرّقنا إلى ما اطلعنا عليه ، واستفدنا منه في هذه الدراسة .

واليوم أصبح هناك مَن لايخجل من رفض الرفض والردّ عليه ، بل أصبح هناك مَن يخجل من السّكوت عن رفض الرفض والنهوض بأعبائه ، فالساكت عن الحق شيطان أخرس .

وظهرت الدراسات التي تؤكّد نسبة خطبة طارق إليه ، داحضة حجج الرافضين ، وهذه الدراسات هي أوّل الغيث ثمّ ينهمر باذن الله ، فلا يقتصر على خطبة طارق ، بل يشمل كلّ ما شك فيه المؤلفون الأجانب وعلى رأسهم المستشرقون وشككوا فيه بدون حقّ ولأسباب بعيدة عن المنهج العلمي قريبة من التعصب الدينيّ على الاسلام والمسلمين ، وعلى الواقع والتاريخ .

ب . حرق السُّفن :

ذكر الشريف الادريسي في معجمه الجغرافيّ : (نزهة المشتاق) ، عند الكلام على جغرافية الأندلس ، أنّ طارقاً أحرق سفنه بعد العبور بجيشه إلى الأندلس (١٧٦) ، وقد نقلت بعض المصادر والمراجع المتأخرة هذه الرواية عن الادريسي فيما يرجّح ، وفيما عدا ذلك فان جميع المصادر العربية والاسلاميّة تمرّ عليها بالصمت المطلق (١٧٧) .

(١٧٦) نزهة المشتاق في اختراق الآفاق (١٧٨) – طبع رومة .
(١٧٧) دولة الأسلام في الأندلس (٤٨) .

وقد يقال ، إنّ في خطاب طارق ما يؤيِّد صحّة هذه الرواية ، فطارق يستهلّه بقوله : « أيّها الناس ، أين المفر ؟ البحر من ورائكم ، والعدوّ أمامكم ، وليس لكم والله إلاّ الصدق والصّبر » ، وفي ذلك مايمكن أن يفسّر أنّ الجيش الإسلاميّ الفاتح ، قد جُرِّد من السفن التي حملته من سبتة إلى الأندلس .وتفسير أقوال طارق هذه ، هو أنّ السفن ليست ملكاً للفاتحين ولا تحت تصرّفهم في جميع الأوقات ، وأنّها عادت إلى صاحبها يَليان ، ولم تبق على الساحل الأندلسي ، جاهزة لتأمين انسحاب الفاتحين من الأندلس إلى السّاحل الإفريقيّ .

إنّ يليان هو الذي قدّم السُّفن لنقل الفاتحين إلى الأندلس في بعثتهم الاستكشافية الأولى بقيادة طَريف بن مالك . وهو الذي قدّم السُّفن إلى الفاتحين بقيادة طارق ، وهي ليست ملكاً للمسلمين ليُقدم طارق على حرقها ، بل هي ملك صاحبها يليان ، فاذا ألتحقت به بعد إنجاز واجبها في حمل الفاتحين إلى البرّ الأندلسيّ ، وبعد إكمال إنزال الفاتحين من تلك السُّفن إلى البر الأندلسي ، فلا تبقى سفن على السّاحل الأندلسي يركن إليها المسلمون في انسحابهم من الأندلس إلى السّاحل الإفريقيّ ، كما لايبقى مسوِّغ لإحراق تلك السُّفن .

كما أنّ طارقاً ومَن معه من مجاهدين ، جاءوا إلى الأندلس ، للجهاد من أجل عقيدة ، وكانوا مستعدين للشهادة من أجل عقيدتهم ، فلا مسوِّغ لإحراق السُّفن من أجل وضعهم وجهاً لوجه أمام الدِّفاع عن أرواحهم ، فما كانوا بحاجة إلى مَن يضعهم هذا الموضع الحرج ، لأنّ أرواحهم لم تكن في حال من الأحوال أغلى عليهم من عقيدتهم ، وما أنجزوه قبل عبورهم إلى الأندلس وبعد عبورهم إليها خير دليل على استقتالهم من أجل قلوبهم لا من أجل جيوبهم ، ومن أجل عقيدتهم لا من أجل أرواحهم .

والواقع أنّ الإقدام على حرق سفن العبور ، يصعب تصديقه ويصعب مجرّد التصوّر أنّ طارقاً يمكن أن يفعله ، فاذا كانت تلك السُّفن ليليان ، كما هو

معروف ، فليس من حقّ طارق إحراقها ، وإذا كانت للمسلمين فليس حرقها عملاً عسكرياً سليما ، إذ يخالف مبدأ الاقتصاد بالقوّة ، أحد مبادئ الحرب المهمة ، ولا يتفـق مع المنطق والعقل .

لذلك لم تُشر المصادر الأندلسية العربية الأولى ، إلى قصّة إحراق السفن ، والمصادر التي ذكرت تلك القصّة نقلتهـا عن الشريف الإدريسي وكذلك المراجع (١٧٨) ، ومنها المصادر والمراجع النصرانية ، وبخاصة المصادر الإسبانية والمراجع ، وقد تأثر بتلك القصة قسم من قادة الإسبان ، فقلّدوا تلك القصة عملياً في قسم من عملياتهم العسكرية (١٧٩) .

وعلى كلّ حال ، فقصّة إحراق السفن لاسبيل إلى تصديقها ، لأنّها تناقض حماسة المجاهدين يومئذ الذين لايحتاجون إلى حوافز جديدة للاستقتال ، ولأنّ السُّفن لم تكن ملكاً للمسلمين بل ملكاً لغيرهم ، ولأنّ هذه القصّة دوّنت لأوّل مرة في القرن الخامس الهجري ، أي بعد فتح الأندلس بأكثر من ثلاثة قرون صُنِّفت خلالها كثير من المصادر الأندلسية المعتمدة ، دون أن تشير إلى هذه القصة أو تتطرّق إلى ذكرها ، كما لم تؤيّدها أية رواية إسلامية أخرى قبل رواية الإدريسي لهـا .

---

(١٧٨) صفة الأندلس (من نزهة المشتاق) للادريسي (١٧٧) وتاريخ الأندلس (٤٦) والروض المعطار (٧٥) ونفح الطيب (٢٥٨/١) والحلل السندسية (٨٢/١) ، وانظر دولة الاسلام في الأندلس (٤٨ — ٤٩) .

(١٧٩) يقدم لنا تاريخ إسبانيا الحديث ، مثلا للمحتل الذي حرق سفنه التي عبر عليها جيشه ، لكي يقطع على جنده كل تفكير في الانسحاب والرجعة . فقد أحرق القائد المكتشف الأسباني هرناندو كورتيث الذي احتل المكسيك سفنه ، حينما أشرف على شوطئ المكسيك مستكشفاً في سنة ١٥١٩ م ، تلك السفن التي حملت جيشه من إسبانيا إلى المكسك . ومن المعقول أن يكون هذا القائد الأسباني ، قد تأثر في عمله بالعمل الذي ينسب إلى طارق بن زيادة ناتح الأندلس ، أنظر دولة الأسلام في الأندلس (٤٩) في الهامش (١) .

٥ ـ المعركة الحاسمة
معركة وادي بَرْباط او وادي لكّة

(أ) قوات الطرفين :

اولاً : المسلمون :

اثنا عشر ألفاً ، (١٨٠) إنضمّ إليهم يليان في قوة صغيرة من أصحابه وأتباعه (١٨١) . ولا يزال مدى مشاركة يليان في فتح الأندلس موضع اختلاف بين المؤرخين ، وهناك أدلّة تشير إلى أنّ مهمّته كانت مساعدة الفاتحين وإعطاء توجيهات عامة لهم في أثناء العبور ، وكان أيضاً عيناً لهم على الأعداء(١٨٢) ، ولكن بعد هزيمة القوط ، ترك يليان الجزيرة الخضراء إلى إسْتِجَة (١٨٣) (Ecija) وقرّر أن يبدى مساعدة أكبر لطارق بتزويد الفاتحين بأدلاّء من رجاله ، لأنجاز افتتاح الأندلس (١٨٤) .

وأرى أنّ يليان لم يرسل جنوده ليقاتلوا ، إذ لا يستعين المسلمون بغير المسلمين في القتال ، وإنما كانت معاونة يليان وتعاونه للمسلمين في إبداء الرأي والمشورة ، وتقديم الأدلاّء ، وتأمين العيون لنقل الأخبار من القوط إلى المسلمين ، والمعاونة في القضايا الاداريّة كتقديم السُّفن للعبور ، أما مباشرة القتال في ساحة القتال ، فقد اقتصر على المسلمين حسب . وما يقال عن يليان ورجاله ، يقال عن أعداء لذريق من القوط النصارى الذين التحقوا بالمسلمين قبل بدأ القتال في المعركة الحاسمة ، فلم يباشروا القتال مع المسلمين أيضاً ، للمحاذير التي ذكرناها .

---

(١٨٠) نفح الطيب (٢٣٩/١) .

(١٨١) دولة الاسلام في الأندلس (٤٢) .

(١٨٢) فتوح مصر والمغرب (٢٠٦) والرازي (٩٨ – ٩٩) وأخبار مجموعة (٧) وابن الأثير (٥٦٢/٤) والنويري (٢٧/٢٢) .

(١٨٣) إستجة : اسم كورة بالأندلس متصلة بأعمال (رية) ، بينها وبين قرطبة عشرة فراسخ ، وأعمالها متصلة بأعمال قرطبة ، أنظر التفاصيل في معجم البلدان (٢٢٤/١) .

(١٨٤) الاحاطة (١٠٠/١) وأخبار مجموعة (١٠) والبيان المغرب(٩/٢) ونفح الطيب(٢٦٠/١) .

ثانياً . القوط :

اجتمع يومئذ للقوط جيش تعداده مائة ألف مقاتل (١٨٥) ، وأقل تقدير له أربعون ألفاً (١٨٦) ، ولا يمكن معرفة تعداد جيش القوط اليوم بالضبط ، فهو على كلّ حال بين هذين التّعدادين ، أي نحو سبعين ألفاً . كما جرى تقديره في بعض المصادر العربيّة المعتمدة (١٨٧) .

على الميمنة ششبرت بن أخيكا ، وعلى الميسرة أبه بن أخيكا ، وعلى القلب لذريق ، وهو القائد العام والملك .

وقد اعتصم القوط في ساعة الخطر الدّاهم بالاتّحاد ، فاستطاع لذريق أن يجمع حوله معظم الأمراء والأشراف والأساقفة ، وحشد هؤلاء رجالهم وأتباعهم ومَن يلوذ بهم ، كما استعان بأفراد العائلة المالكة السّابقة في قياداته ، لتوحيد الجبهة الداخلية ، وإذابة الخلافات المحليّة ، وحشد جهود القوط كافة وطاقاتهم الماديّة والمعنوية لحرب المسلمين .

ب . التّوقيت :

تلاقى المسلمون والقوط يوم الأحد لليلتين بَقِيَتا من شهر رمضان . واتّصلت الحرب بينهم إلى يوم الأحد لخمس خَلَوْن من شهر شوّال بعد تتمة ثمانية أيام (١٨٨) ، أي كان لقاء الجيشين المحاربين في الثامن والعشرين من شهر رمضان سنة اثنتين وتسعين الهجرية (١٩ تموز (يولية) سنة ٧١١ م) واستمرت ثمانية أيام فقط الى اليوم الخامس من شوّال سنة اثنتين وتسعين الهجرية (٢٦ تموز (يولية) ٧١١ م) .

---

(١٨٥) ابن الأثير (٢١٤/٤) ونفح الطيب (١٢٠/١) ، ويقدره في مكان آخر بسبعين ألفاً ، أنظر نفح الطيب (٢٣٣/١) ، ويأخذ جيبون بهذه الرواية ، فيقدره بتسعين ألفاً أو مائة ألف (الفصل الحادي والخمسون) .

(١٨٦) ابن خلدون (١١٧/٤) ونفح الطيب (٢٣٣/١)

(١٨٧) نفح الطيب (١١٢/١) .

(١٨٨) نفح الطيب (٢٥٩/١) وتاريخ الأندلس (١٣٥) .

أي أنها بدأت وانتهت خلال ثمانية أيام فقط (٢٨ رمضان ــ ٥ شوال سنة ٩٢ هـ (١٨٩) ــ ١٩ ــ ٢٦ تموز ٧١١ م) (١٩٠) .

جـ . ميدان القتال :

كان ميدان القتال في كورة شَذُونَة (Sidonia) جنوب غربي إسبانيا (١٩١) في سهل الفرنتيرة (Fron tera) جنوب بحيرة الخندق (Janda) ونهر بَرْبَاط (Barbate) المتّصلة به . وقد تُعرف أحيانا معركة وادي برباط في الرواية الإسلاميّة بمعركة وادي بكه او لَكُّهْ (Gudalete) (١٩٢) ، لعله مأخوذ من (Logo) وهو البحيرة ، أي : بحيرة الخندق (١٩٣) ، فأصبحت البحيرة علماً على المكان (١٩٤) . أما وادي لَكُّهْ (Guadalete) المعروف في الجغرافية الإسبانية الحديثة ، فيقع إلى الشمال منه ، ويصب في خليج مدينــة قادِس (١٩٥) (Cadiz) ؛ ويصب نهر برباط في المحيط الأطلسي عند طَرَف الأغَرّ (Trafalgar) (١٩٦)

---

(١٨٩) تجمع الرواية الاسلامية تقريباً ، أن المعركة كانت في ذلك التاريخ ، ولكن ابن حيان مؤرخ الأندلس يقول : إنها كانت في السابع من ربيع الأول سنة ٩٢ هـ ، أنظر نفح الطيب عن ابن حيان (١١٦/١) ، ولعله ينفرد بهذا الخلاف ، أنظر دولة الأسلام في الأندلس (٤٤).

(١٩٠) الفتح والأستقرار العربي الأسلامي في شمال إفريقيا والأندلس (١٦٨) .

(١٩١) تاريخ الأندلس (١٣٥–١٣٦) نص ابن الشباط ، ونفح الطيب (٢٥٨/١) .

(١٩٢) الروض المعطار (١٦٩ و ١٩٣) ونفح الطيب (٢٤٩/١ و ٢٥٨) ودولة الأسلام في الأندلس (٤٢/١ – ٤٤) .

(١٩٣) فرحة الأنفس – ابن غالب – مجلة معهد المخطوطات العربية (٢٩٤/١/١) والحلة السيراء لابن الأبار (٣٣٣/٢) وأخبار مجموعة (٧) و

Levi - Provenfal Histoire L' Espagne Musulmane, 1,21

(١٩٤) نفح الطيب (٢٥٧/١ – ٢٥٨) ، قارن نصوص عن الأندلس–ابن العذري (١١٨ و ١١٩).

(١٩٥) قادس : جزيرة في غربي الأندلس ، تقارب أعمال شذونة ، طولها اثنا عشرة ميلا قريبة من البر ، بينها وبين البر خليج صغير ، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٤/٧–٥).

(١٩٦) التاريخ الأندلسي (٥٦) .

وغير بعيد أن يكون اسم وادي لَكُّهْ في الرواية الإسلامية ، لم يُقصد به وادي بَرْباط — ولو أحياناً — بل قُصد به أصلاً وادي لَكُّهْ (Guadalete) كما هو معروف اليوم ، الذي يصبُّ في المحيط عند قادس ، ويقترب أحد فروعه من ميدان المعركة الواسع أو كان شاملاً له . وجَعْل هذا الوادي : وادي لَكُّهْ ضمن كورة شَذُوْنَة (Sidonia) (١٩٧) التي كانت مدينتها شَذُونة (Medina Sidonia) ، ميداناً لمعركة البرباط : « وبها كانت الهزيمة على لذريق (١٩٨) » ، يزيل اللّبس . وعلى ذلك فلا وجود لاشتباه او خلط او تغليب في تسمية الرواية الإسلامية لوادي لَكُّهْ ، وعندها تنصرف التّسميات المتعلّقة بهذه المعركة الى تسمياتها الأصليّة (١٩٩) .

وهناك دراسات حديثة عديدة بشأن : ميدان القتال ، الذي حدثت فيه المعركة الحاسمة بين لذريق وطارق ، فيرى أحد المستشرقين حدوث معركتين : الأولى وقعت قرب مدينة شَذونة ، بين جبل رتين (Sierro del Retin) وبحيرة لاغاندا (Lago dela Janda) ، وحدثت الثانية عندما هرب لذريق نحو الشمال . وحارب المسلمين قرب (Segoyuela) (٢٠٠) ويتفق معه مستشرق آخر (٢٠١) ، بينما يعارض مستشرق ثالث ما ذهب اليه هذان المستشرقان (٢٠٢) . ويؤيده مستشرق رابع الذي يتفق مع المؤرخين العرب على أنّه كانت هناك معركة واحدة كبيرة فقط بين المسلمين والقوط ،

---

(١٩٧) تاريخ الأندلس (١٣٤) نص ابن الشباط .

(١٩٨) تاريخ الأندلس (١٣٥) .

(١٩٩) التاريخ الأندلسي (٥٦ — ٥٧) .

(٢٠٠) Saavedra, PP. 68-69, 99-101 ، وانظر الرازي — نشر سافيدرا (١٥٤) و Alfonso, 111,P. 612

(٢٠١) F. Simonet, op. 23-51.

(٢٠٢) Provencal, Vol. 1. PP. 20-21, 25.

وهي التي حدثت قرب ضفاف نهر وادي بَكّهْ او لَكّهْ في كورة شَذونَة وأنّ لذريق هزم وقتل قرب هذا النهر (٢٠٣) .

وقد ذهب بعض المؤرخين المستشرقين ، بعيداً في تحديدهم لميدان القتال ، فيفترض أحدهم أنّ المعركة حدثت قرب نهر (Sangonera) الذي يسمى أيضاً بوادي الطين . وهو (Guadalentin) أو (Gudatin) ، وهو فرع من نهر شقورة (Seguar) في محافظة مُرْسِيَة (٢٠٤) شرقي إسبانيا (٢٠٥) .

وعلى كلٍّ حال ، فان دراسات المستشرقين الحديثة ، لم تأت بجديد ، وأقربها للصواب هي التي اتّفقت مع المؤرخين العرب في مصادرهم المعتمدة ، التي ذكرت أن ميدان القتال جرى على وادي برباط على مقربة من شذونة(٢٠٦) . أما التي اختلفت مع تلك المصادر ، فلم تأت بشيءٍ يُطمئنّ إليه ، وتاهت في غمرات التيه دون أن تأت بجديد .

د . سير القتال :

فرّق نهر بَرْباط بين الجيشين المتحاربين مدى أيام ثلاثة ، شُغلت بالمناوشات البسيطة بين الجيشين ، وقد كان جيش القوط في الضفة الشمالية من النهر ، وكان جيش طارق في الضفة الجنوبيّة منه . وفي اليوم الرابع التحم الجيشان ، ونشبت بينهما معركة عارمة . وظهر لذريق في وسط الميدان في حلل

---

(٢٠٣) C. Sànchez - Albornoz, ((Otra Vez Guadalete y Covadonga)), Cuadernos de Historia de España, 1-11, 1944 , PP. 12, 42, 56,58 , 67.

(٢٠٤) مرسية : مدينة بالأندلس من أعمال تدمير ، أنظر التفاصيل في معجم البلدان (٢٤/٨ – ٢٥).

(٢٠٥) انظر أحمد مختار العبادي – نصان جديدان – مجلة معهد الدراسات الأسلامية بمدريد – العدد الثالث عشر – ١٩٦٥ – ١٩٦٦ – ص (٢٨ – ٤٠) .

(٢٠٦) أنظر نفح الطيب (٢٥٧/١ – ٢٥٨) وتاريخ الأندلس (١٣٥ – ١٣٦) نص ابن الشباط والروض المعطار (١٦٩ و ١٩٣) .

ملوكيّة ، فوق عرش تجرّه الخيول المطهّمة ، وهو منظر أثار سخرية جيبون ولاذع تهكّمه ، إذ يقول عنه : « ولقد يخجل ألاريك (مؤسّس دولة القوط) عند رؤية خلفه لذريق ، متوّجاً بلآليء ، متّشحاً بالحرير والذهب ، مضطجعاً في هودج من العاج (٢٠٧) .

وأظهر البربر المسلمون من غُمارة قدرة عظيمة على القتال ، فقد كانوا من المحاربين من بين إفراد تلك القبيلة المعروفين بالاقدام والشجاعة ، ومن المدرّبين على التّعابى العسكرية أحسن تدريب . وكان طارق قد قدم نفراً من السُّودان (٢٠٨) أمام جيشه ، ليتلقوا بما عُرف عنهم من الصبر والثبات الصدمة الأولى من الجيش القوطي ، التي تكون عادة صدمة مدبّرة تؤثر في المعنويات للمتقاتلين ، فترتفع معنويات المنتصر ، وتنها ر معنويات المنكسر .

وأظهر فرسان القوط قدرة قتالية عظيمة في أوائل المعركة ، وثبتوا لضغط العرب والبربر والسُّودان المسلمين ثباتاً عظيماً ، وكبدوا المسلمين خسائر بالأرواح كبيرة .

وكان قوّاد الفرسان من القوط ، أعداء لذريق ، غاضبين عليه وناقمين منه . وكان يليان ورجاله نشطين طوال المعركة في تخذيل الناس عن لذريق وصرفهم عنه ، وكانوا يؤكدّون للذين حول لذريق أنّ المسلمين لم يُقبلوا الى هذه البلاد للفتح والاستقرار ، بل للقضاء على لذريق والظّفر بالغنائم ، وأنّهم إن خذلوا لذريق اليوم صفت لهم بعد ذلك . ولم يلبث أثر هذا الكلام أن ظهر بين رجال

---

(٢٠٧) تشير معظم الروايات الاسلامية إلى هذا المنظر ، فيقول الطبري نقلا عن الواقدي . « فزحف الأدرينوق في سرير الملك ، وعلى الأدرينوق تاجه وقفازه وجميع الحلة التي كان يلبسها الملوك » ، انظر الطبري (٤٦٨/٦) ونفح الطيب (١١٢/١) والبيان والمغرب (٢ / ٩) .

(٢٠٨) لم يذكر هؤلاء السود من المؤرخين المحدثين إلا سافدرا الاسباني ، مع أنهم قاموا بدور خطير جداً في الفتح . Saavedra. op. cit. P. 71

لذريق ، وكان كثير منهم كارهاً له ناقماً عليه ، فلم يلبث فرسانه وهم خيرة جنده ، أن خرجوا من المعركة وتركوه لمصيره (٢٠٩) .

واستمرت المعركة هائلة مضطرمة بين الجانبين أربعة أيام ، ثم انهزم القوط وقُتل منهم خلق عظيم ، أقامت عظامهم بعد ذلك بدهر طويل ملبّسة بالأرض (٢١٠) .

ويقال : إنّ انتصار طارق كان بسبب تعرّض لذريق للخيانة ، وتذكر الحوليات اللاتينية ، أن المسلمين عبروا إلى الأندلس ، وهزموا الجيش القوطي بسبب خيانة أولاد غيطشة (٢١١) . وتشير بعض المصادر العربية أيضاً إلى أنّ مباحثات جرت في طنجة قُبيل الفتح بين طارق بن زياد وأحد اولاد غيطشة (٢١٢) ، بينما يقول آخرون إنّ هذه المباحثات جرت قُبيل بدء المعركة بوقت قصير ، عندما أصبح طارق فعلاً في إسبانيا ، فعرض أولاد غيطشة . أن يتخلوا عن لذريق ، ويؤيِّدوا طارقاً برجالهم ، شريطة أن يضمن لهم كلّ ممتلكات والدهم التي تبلغ ثلاث آلاف ضيعة ، وهي التي سُمِّيت فيما بعد بصفايا الملوك ، وذلك بعد أن يُخضع إسبانيا جميعها المسلمين (٢١٣) .

(٢٠٩) تجمع المصادر العربية على ذلك ، وتؤكد أن خيانة لذريق وسط المعركة ، إنما وقعت بناء على تدبير سابق محكم بين آل غيطشة والمسلمين . وقد ناقش سافدرا هذا الموضوع ، وانتهى إلى أن الذي قام بترتيب المؤامرة كانا أخوى غيطشة ، ششبرت بن أخيكا ، وأبه بن أخيكا ، وكان أحدهما على خيل لذريق في هذه المعركة . وقد تعجب سافدرا من أن لذريق يعهد في أمر مهم كهذا لواحد من أعدائه ، ولكن فاته أن بعض المصادر العربية تذكران لذريق سعى في الصلح مع آل غيطشة قبل المعركة الحاسمة ، وهذا واضح من قول ابن القوطية : « فلما دخل طارق بن زياد الأندلس أيام الوليد بن عبد الملك ، كتب لذريق إلى أولاد الملك غيطشة – وقد ترعرعوا وركبوا الخيل يدعوهم إلى مناصرته وأن تكون أيديهم واحدة على عدوهم . . . » ، ابن القوطية – افتتاح الأندلس (٢ – ٣) ، وانظر الهامش (١) من كتاب فجر الأندلس (٧٤) .

(٢١٠) المقرى برواية الرازي (١٢١/١) .

(٢١١) Chronicon Albeldense, p. 193, Alfonso 111. p. 612.

(٢١٢) البيان المغرب (٦/٢) .

(٢١٣) افتتاح الأندلس (٥) والروض المعطار (٩ – ١٠) ونفح الطيب (٢٥٨/١) .

وقد أورد مؤرخون عرب آخرون ، تفسيرات أكثر احتمالا وواقعية ، بشأن هذه المسألة . ولاتعرض مصادرهم لأية مباحثاتبين طارق وأولاد غيطشة ، ويقتصر الأمر على أن اولاد غيطشة وبعض نبلاء القوط ، قرّروا التخلي عن لذريق في ساحة المعركة ، لأنهم اعتقدوا أنّ المسلمين لا ينوون الاستقرار في البلاد ، بل إنهم جاءوا من أجل الغنائم . وبعد أن يندحر لذريق ، فانّ العرش سيعود إلى أصحابه الشرعيين ، الى أولاد غيطشة (٢١٤) .

وقد كان الجيش القوطي نفسه مؤلفا في معظمه من العبيد المجندين ، وهم من المرتزقة المضطرين على القتال اضطراراً ، إذ لا ناقة لهم في الحرب ولا جمل ، فهم يقاتلون بقدر خشيتهم لأسيادهم ، وبقد ما تدر عليه مهنتهم من مكاسب ماديّة . قد لا تُسمن ولا تغني من جوع في أغلب الأحيان .

ويبدو أنه لم يكن هناك أيّ أمل في أن يتمكن هذا الجيش القوطي من مقاومة الهجوم الإسلامي . وإنّ دور أسرة غيطشة في ترجيح كفّة المسلمين ، قد تعرّض إلى كثير من المبالغة (٢١٦) . وكانت صفوف الجيش القوطي تتألف من أتباع آل غيطشة وأتباع حلفائهم من الزعماء والأمراء الناقمين على لذريق ، والذين تظـاهروا بالأخلاص في وقت الخطـر ، وكلّهم يتحيّن الفرصة للايقاع بالملك المغتصب لذريق (٢١٧) . فكانت الخيانة تمزّق جيش القوط شرّ ممزق . واستمال يليان والأسقف أوباس وهما في صفّ المسلمين كثيراً من جند القوط . وبثّا بدعايتهما في الصفوف الموالية للذريق كثيراً

(٢١٤) أخبار مجموعة (٧ – ٨) وفتح الأندلس (٦ – ٧) وابن الأثير (٤ / ٥٦٣) وابن الشباط برواية عريب (١٠٦ – ١٠٧) والنويري (٢٢ / ٢٧) ونفح الطيب برواية ابن حيان (١ / ٢٣١ – ٢٣٢ – و٢٥٧ – ٢٥٨) .

(٢١٥) Thompson. pp. 265 - 267, cit. Lv.v. 3.4.7.19.

(٢١٦) الفتح والاستقرار العربي الأسلامي في شمال إفريقيا والأندلس (١٦٩) .

(٢١٧) ابن الأثير (٥٦٣/٤) ونفح الطيب (١٢١/١) ودوزى (٢٧٢/١) .

من عوامل الشقاق والتفرقة ، فأخذ كلّ أمير يسعى في سلامة نفسه (٢١٨) . وكان ذلك كافياً ليوقع الفوضى في جيش لذريق ، فاضطرب نظامه ولاذ مَن بقي منه بالفرار وأسياف المسلمين في أقفيتهم . وقد قتل من القوط في تلك الأيام عدد عظيم ، ولم يعثر للذريق على أثر . وتذهب المصادر العربيّة إلى أنّه أراد أن يعبر وادي البرباط على عجل ، فغرق فيه ، ولم يعثر المسلمون إلاّ على خفّه (٢١٩) . وتقول بعض الروايات النصرانية ، إنّه بقى في ميدان القتال حتى قُتل مدافعاً عن عرشه وأمته ، وتقول بعضها : إنه فرّ عقب الهزيمة على ظهر جواده ، ولكنّه غرق في مياه النّهر . وتميل الروايات الاسلامية إلى تأييد غرقه ، وتقول : إن ملك القوط مات غريقاً ، وإنهم عثروا على جواده وسرجه الذهبيّ . ولم يعثر إنسان بجثته . وتزعم بعض الروايات النّصرانية ، أنّ لذريق استطاع أن يلوذ بالفرار ولكنّه قُتل بعد ذلك ، أو أنّه فرّ إلى بعض الأديار في البرتغال وترهّب ، وعاش متنكراً حيناً من الدّهر . وينفرد صاحب كتاب : الامامة والسياسة ، بين المشارقة برواية أخرى ، وهي : أن طارقاً ظفر بجثّة لذريق ، فاحتز رأسه ، وبعث به إلى موسى بن نُصَيْر ، وبعث به موسى بن نصير إلى الخليفة في دمشق ، ويتابعه في ذلك مؤلف أندلسيّ هو صاحب كتاب : تحفة الأنفس (٢٢٠) هذا إلى روايات كثيرة .

والمرجّح من هذه الروايات كلّها ، أن لذريق فقد حياته في الموقعة التي فقدَ فيها ملكه ، وأنّه مات قتيلاً او غريقاً على الأثر (٢٢١) .

---

(٢١٨) دولة الأسلام في الأندلس (٤٤) .

(٢١٩) . لا يقطع ابن عذاري في البيان المغرب بموت لذريق ، ويكتفي بقوله : « ولم يعرف للذريق موضع ولا وجدت له جثة ، وانما وجد له خف مفضض ، فقالوا : إنه غرق . وقالوا : إنه قتل ، والله اعلم » ، انظر البيان المغرب (١٠/٢) وفجر الأندلس (٧٤).

(٢٢٠) . الأمامة والسياسة (٧٥/٢ — ٧٦) وانظر دولة الأسلام في الأندلس (٤٥) .

(٢٢١) . يقول ابن الأثير (٢١٤/٤) : إنه غرق في نهاية المعركة ، ويقول المقري في نفح الطيب (١٢١/١) : إنه رمى بنفسه الى النهر مختاراً ، وقد نقلته أيضا رواية ، اخبار مجموعة (٦) . انظر التفاصيل في الفقرة (٢) من الهامش في كتاب : دولة الأسلام في الأندلس (٤٥) .

تلك مجمل ما جاء في المصادر والمراجع ، حول أهم أسباب انتصار طارق على لذريق ، آثرت ذكرها باختصار غير مُخِلّ ، مع الإشارة إلى مصادرها ومراجعها ، لكي أناقش آراءها ، وأبدي ما أراه حولها .

والمتتبِّع لسير القتال في هذه المعركة الحاسمة ، يجد أنّ القتال كان ضارياً بين الجانبين المتحاربين : المسلمين من جهة ، والقوط من جهة أخرى . فثبات البربر من غُمارة ، وإظهارهم القدرة العظيمة على القتال ، دليل على أنّ زخم القوط في المعركة كان شديداً ، ولا يقاتل بهذه الشِدّة رجال تنخر بين صفوفهم الإشاعات الضارّة ، ويتآمرون على السُّلطة القائمة المتمثّلة بلذريق ملكاً وقائداً عاما .

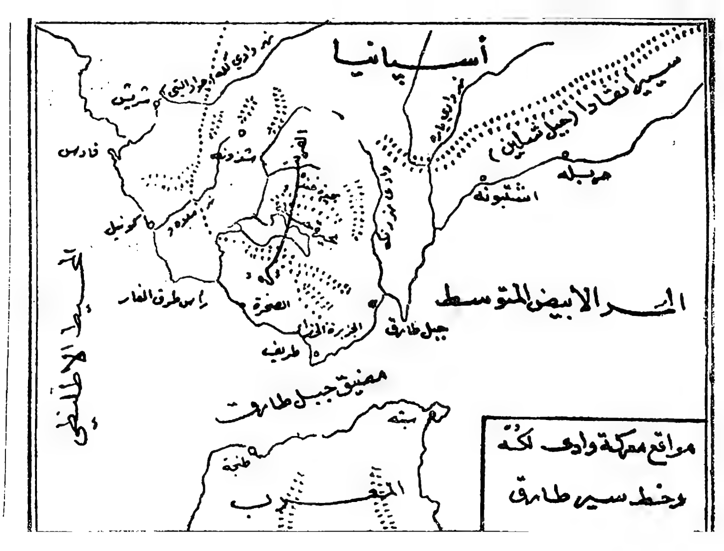
وقد أظهر فرسان القوط في اليوم الرابع من المعركة ، بعد أن حمي الوطيس قدرة قتالية عظيمة ، وثبتوا لضغط المسلمين الشديد ، ولا يمكن أن يُظهر مثل هذه القُدرة متآمر أو مقاتل تعصف بأرادته القتالية الأشاعات الضّارة .

كما أنّ تصدىّ السُّودان المسلمين البطوليّ العزوم للقوط ، يدلّ على أنّ القوط كانوا يقاتلون في المعركة كما يقاتل الرجال .

وكان تعداد جيش المسلمين في هذه المعركة – كما ذكرنا – اثنى عشر ألف مجاهد ، استُشهد منهم في المعركة ثلاثة آلاف مجاهد . أي أنّ خمسة وعشرين بالمئة من جيش المسلمين استُشهدوا في هذه المعركة ، وهي نسبة عالية جداً ، إنْ دلّت على شيء ، فانّما تدّل على شدة مقاومة القوط في المعركة ، وأنهم قاموا بواجبهم في القتال . فقد قسم طارق الغنائم بعد هذه المعركة على تسعة آلاف من المسلمين (٢٢٢) ، أي أنّ هؤلاء هم الذين سلموا ، وقُتل الباقون .

---

(٢٢٢) . نفح الطيب (١٦٣/١) ، وانظر فجر الأندلس (٧٥) .



مواقع معركة وادي لكة
وخط سير طارق

أما التركيز على إشاعة أنَّ المسلمين جاءوا من أجل الغنائم إلى الأندلس وليس من أجل الفتح ، فهم قدموا ليرحلوا ولم يأتوا ليبقوا ، فمن الصعب تصديقها ، لأنّ ورثة غيطشة اشترطوا أن يستعيدوا قراهم وضياعهم بعد الفتح ، فلماذا يشترطون مثل هذا الشرط على المسلمين إذا كان المسلمون سيعودون بالغنائم الى قواعدهم في الساحل الإفريقي ، ويعود العرش وملك الأندلس إلى ورثة غيطشة الشرعيين ؟ !

ثم إنّ المسلمين قدموا إفريقية من أمد طويل ، بدأ قبل سبعين سنة (أي سنة (٢٢ هـ)) ، ولم يرحلوا عنها بل توسعوا في فتوحهم بالتدريج ، فلماذا يرحلون عن الأندلس بعد فتحها ؟

ومن الواضح أنَّ أخبار المسلمين في شمالي إفريقية ، كانت معروفة لدى حكام الأندلس بخاصة ، وأهل الأندلس بعامة ، فهم لا يمكن أن يتقبلوا بسهولة الاشاعة التي تزعم : أنّ المسلمين جاءوا ليرحلوا لا ليبقوا .

ومع ذلك ، فيمكن أن يعتذر بمثل هذه الإشاعة الهارب ، عن جريمة هربه من المعركة ، مع الادعاء بأن هربه كان نكاية بالملك لذريق وانتصاراً لآل غيطشة والناقمين عليه من النبلاء . وارضاء للمسلمين المنتصرين .

وإذا كان قادة فرسان القوط قد خرجوا من المعركة بمن معهم من الفرسان – وهم خيرة جند لذريق – وتركوه لمصيره ، فمن أين غنم المسلمون الخيل ؟ لقد غنم المسلمون خيلاً كثيرة ، حتى لم يبق منهم راجل ، فمن أين غنم المسلمون هذا العدد الضخم من الخيول ، إذا كان الفرسان القوط قد انسحبوا من المعركة بالتواطىء مع المسلمين ؟ وهل يمكن أن يغنم المسلمون خيول مَن تواطأوا معهم على نصرتهم ؟

وقد قُتل في المعركة ششبرت أخو غيطشة ، وكان أبرز قادة فرسان القوط ، فكيف قُتل وهو قد تخلى عن لذريق طمعاً في الغنيمة والسلامة ؟!

ومع ذلك ، فلا يمكن إنكار أن آل غيطشه ومَن يشايعهم من النبلاء ، كانوا ناقمين على لذريق الذي اغتصب عرش غيطشة ، فهم يطمعون أن يستعيدوا عرشهم بزوال لذريق ، وبرحيل المسلمين عن الأندلس ، وكان رحيل المسلمين عن الأندلس من الأماني التي يتعلّلون بها ولا يعتقدونها . وقد ورد نص في : أخبار مجموعة ، يفيد هذا الاتجاه ويشير اليه : « .... ومعهم يليان – أي مع المسلمين – في جماعة من أهل البلد ، يدلهم على العورات ، ويتجسس لهم الأخبار ، فأقبل اليهم رُذريق (لذريق) ، ومعه خيار أعاجم الأندلس وأبناء ملوكها ، فلما بلغتهم عدّة المسلمين وبصائرهم ، تلاقوا بينهم – أي أولاد الملوك – فقال بعضهم لبعض : هذا ابن الخبيثة قد غلب على سلطاننا ، وليس من أهله ، وإنمّا كان من سفالنا ، وهؤلاء قوم لا حاجة لهم بإيطان بلدنا ، إنمّا يريدون أن يملوا أيديهم ، ثمّ يخرجون عنّا ، فانهزِم بنا بابن الخبيثة إذا لقينا القوم ، فأجمعوا لذلك ، وكان رُذريق قد ولّى ششبرت ميمنته وأبه ميسرته ، وهما أبناء غيطشة (٢٢٣) ، الذي كان ملكاً قبله ، وهما رأس مَن أدار عليه الانهزام » (٢٢٤) ، فالاتفاق على الهزيمة لم يكن مع طارق ، بل كان بينهم لايعرف عنه طارق شيئاً ، لذلك اقتتل الطرفان المتحاربان اقتتالاً شديداً (٢٢٥) ، حتى ظنّوا أنّه الفناء (٢٢٦) ، فلم تكن بالغرب مقتلة أعظم منها (٢٢٧) ، واستمرت المعركة ثمانية أيام ، ولا يمكن أن تستمر معركة من المعارك ثمانية أيام ، وهي مدّة طويلة جداً بمقاييس ذلك الزمن ، إلاّ إذا كانت المعركة ضارية إلى أقصى الحدود ، وإلاّ إذا كان الجانبان المتحاربان

---

(٢٢٣) . هما إخوة غيطشة وليسا ابنيه ، كما ذكرنا ذلك من قبل .

(٢٢٤) . اخبار مجموعة (٧ – ٨) .

(٢٢٥) . اخبار مجموعة (٨) والبيان المغرب (٧) .

(٢٢٦) . البيان المغرب (٧) .

(٢٢٧) . البيان المغرب (٧) .

قد بذلا جهوداً قتالية جبارة في المعركة : « فالتقيا يوم الأحد ، وصدق المسلمون القتال ، وحملوا حملة رجل واحد على المشركين ، فخذلهم الله وزلزل أقدامهم وتبعهم المسلمون بالقتل والأسر ، ولم يُعرف لملكهم لذريق خبر ، ولا بانَ له أثر ، فقيل : إنّه ترجّل وأراد أن يستتر في شاطىء الوادي ، فصادف غديراً فغرق فيه فمات » (٢٢٨) . في حين تذكر بعض المصادر ، أنّ لذريق فرّ من الميدان ، والتقى بالمسلمين في معركة أخرى ، شمالي الأندلس ، فقتل فيهـا (٢٢٩) ، لكنّ هذا الرأي ضعيف لاتدعمه الأدلة والمصادر المعتمدة الأخرى.

يمكن أن نستنتج ، بعد عرض ما جاء في المصادر والمراجع العربيّة ، ومناقشة ما جاء فيها من معلومات ، أنّ المعركة الحاسمة بين المسلمين بقيادة طارق، والقوط بقيادة لذريق ، قد بذل خلالها الجانبان المتحاربان أقصى جهودهما المادية والمعنويـّة لأحراز النصر ، وقد شُغل الجانبان بالمناوشات الاستطلاعية لمدة ثلاثة أيام ، وفي اليوم الرابع حمى الوطيس بين الجانبين ، واستمرت المعركة شديدة عارمة أربعة أيام ، تكبّد خلالها الجانبان خسائر فادحة بالأرواح ، مما يدل على ثباتهما الرّاسخ العنيد في القتال . وقد ثبت قلب القوط ثباتاً أفضل من ثبات الميمنة والميسرة ، ويبدو أنّ قائدي الميمنة والميسرة اللذين كانا مع لذريق في الظّاهر وعليه في الباطن ، آثرا الانسحاب في اليوم الرابع من الاصطدام العنيف بين الجانبين،وفي اليوم السابع من حصول التماس المباشر بينهما ، فأصبح قلب القوط يقاتل وحده ، مما جعل المسلمين يكتسحونه بسهولة ، لأنّ قواتهم ركزت عليه ، وكانت من قبل تقاتله وتقاتل الميمنة والميسرة . وقد استطاع آل غيطشة تنفيذ مؤامرتهم على لذريق ، بعد أن كبدّ المسلمون ميمنة القوط وميسرتهم خسائر فادحة ، بحيث أوشكت الميمنة والميسرة على الانهيار تحت

---

(٢٢٨) . تاريخ الأندلس (٤٨) و (١٣٥) ، والبيان المغرب (٢/٧ و ٨ و ٩) ونفح الطيب (٢٤٢/١ و ٢٤٩ و ٢٥٨ – ٢٥٩) .

(٢٢٩) . تاريخ الأندلس (٢٩ وما بعدها) .

ضغط قوّات المسلمين ، إذ لم يكن بالامكان تنفيذ مؤامرتهم قبل أن يكبد المسلمون الميمنة والميسرة خسائر فادحة بالأرواح ، لأنّ لذريق وهو في قوّته لايمكن أن يسكت على المتآمرين ، إذ يقابل تآمرهم بالقوة ، ويصفيّ المتآمرين جسدياً قبل أن ينجحوا في تصفيته .

ولا أرى ، أنّ آل غيطشة كان لهم صلة بطارق ، ولا علم لطارق بمؤامرتهم ، إذ لم يثبت أنّهم اتّصلوا به قبل المعركة أو في أثنائها ، فقد كتموا نواياهم ، ولم يظهروها لأحد ، وإلاّ سهل على لذريق اكتشافها في الوقت المناسب ، وسهل عليه وضع حدّ نهائي لها قبل فوات الأوان .

وحين وجد لذريق ، أنّ المسلمين ، قد أجهزوا على القلب الذي يقوده ، لم يكن أمامه إلاّ الهرب تحت ضغط مطاردة عنيفة ، فغرق في وادي الوحل أو قتل ، والنتيجة واحدة ، هي أنّه لم يبق بعد تلك المعركة الحاسمة على قيد الحيـــاة .

وهكذا خسر لذريق ، في هذه المعركة جيشه ، كما خسر روحه .

وقد طارد المسلمون فلول القوط بعد انسحابهم من ميدان المعركة مطاردة عنيفة ، فأبادوا مَن لم يستَسلم من القوطِ ، وبذلك جرت معارك محليّة بين المسلمين وبين القوط ، هي معارك استثمار الفوز ، في جنوبي مدينة شَذُونَة وشماليِّها ، فسميِّت هذه المعركة الحاسمة بعدّة أسماء مختلفة ، هي أسماء تلك المعركة الحاسمة وأسماء تلك المعارك المحليّة : معارك المطاردة ، مثل معركة البحيرة ، ومعركة وادي بكّـه ، ومعركة وادي لكّه ، ومعركة وادي البرباط ، ومعـــركة شِـــرِيْش (٢٣٠) ، ومعـــركة السَّواني ، ومعـــركة

(٢٣٠) . شريش : مدينة كبيرة من كورة شذونة ، انظر التفاصيل في معجم البلدان(٥/٢٦٠)

السّواقي (٢٣١) ، فهي معركة كورة شَذُونَة بأسرها التي تقع في جنوبي غربي الأندلس (٢٣٢) .

ولا مجال لتصديق ، أنّ لذريق هرب بعد هذه المعركة نحو الشمال ، واصطدم بالمسلمين بموقعة جديدة (٢٣٣) ، لأن لذريق خسر قوّاته الضاربة في معركة وادي لكُّه . ولم تكن لديه قوّات احتياطية ليقاتل بها المسلمين ، كما أنّ مطاردة المسلمين بعد المعركة كانت شديدة ، بحيث لم يفسحوا المجال لنجاة الهاربين من ساحة القتال وتجمّعهم بقيادة واحدة مسئولة ، لتجديد القتال مع المسلمين من جديد .

وجرى القتال بالنسبة للقوط ، بالنظام الحماسي للقتال : المقدّمة ، والمؤخرة والميمنة والميسرة ، والقلب ، وهو نظام أصلح لإجراء الحركة المرنة بسهولة ويسر ، وأكفل للثبات بوجه الهجمات ، وأمنع لمباغتة العدو .

أما المسلمون ، وكان أكثرهم من البربر ، فقاتلوا بأسلوب : الكرّ والفرّ . قال ابن خلدون : « إنّ الكرّ والفرّ هو قتال البربر من أهل المغرب » (٢٣٤) ، ولا يزال البربر يقاتلون بهذا الأسلوب حتى اليوم ، في قتالهم غير النظامي ، المرتبط بقياداتهم غير النظاميّة . أما الذين ارتبطوا بالجيوش الحديثة ، فقد أصبحت أساليبهم القتالية أساليب حديثة ، أسوة بغيرهم كما هو معروف .

وأسلوب الكرّ والفرّ ، هو أن يهجم المقاتلون بكلّ قوّتهم على العدو : النَشّابة منهم ، والذين يقاتلون بالسيوف ويطعنون بالرماح ، مشاةً وفرساناً ،

---

(٢٣١) . فتوح مصر والمغرب (٩-١٠) وابن القوطية (٧) وفتح الأندلس (٧) واخبار مجموعة (٢٠٦) وابن الأثير (٥٦٢/٤) وابن الشباط برواية عريب (١٠٦) والبيان المغرب برواية الرازي (٨) والنويري (٢٧/٢٢) والحميري (١٦٩) وابن خلدون (٢٥٤/٤) ونفح الطيب برواية ابن حيان (/٢٤٩) و(٢٥٨/١) .

(٢٣٢) . الفتح والاستقرار العربي الاسلامي في شمال افريقيا والاندلس (١٦٨)

(٢٣٣) Saavedra. pp. 68-69 — F. simonet, op. citp. 23-2 وانظر الرازي، نشر : سافيدرا ص (١٥٤) .

(٢٣٤) . ابن خلدون (٨٢٣/٢) .

فان ثبت لهم العدو أو أحسّوا بالضّعف نكصوا ، ثمّ أعادوا أنتظامهم وكرّوا ، وهكذا يكرّون ويفرّون حتى يكتب لهم النصر أو الاندحار (٢٣٥) .

واستطاع المسلمون إحراز النصر على القوط ، بالرغم من تمتّع القوط بمزايا عسكرية يتفوّقون بها على المسلمين ، منها أنّ تعداد القوط كان ثمانية أضعاف تعداد المسلمين ، ومنها أنّ غالبية جيش القوط كانوا من الفرسان ، وكان غالبية جيش المسلمين من المشاة ، والفرسان يتفوّقون على المشاة بسرعة الحركة وبالتأثير الحاسم في القتال ، وكان القوط في حالة إدارية : إعاشةً وكساءً وغطاءً ، متميزة على المسلمين الذين كانوا في حالة إدارية متواضعة . كما أنّ قيادة القوط لم تكن واهنة كما يتوهم قسم من المؤرخين ، فقد كان لذريق يهتمّ بالمظاهر الحلاّبة ، ولكنه كان طموحاً شجاعاً ، كما أنّه قائد ميدانيّ ، دأب على قيادة رجاله بنفسه ، ولم يتخل عن قيادتهم لغيره من قادته المرءوسين ، فكان يقود رجاله في حرب الخارجين عليه من الأسبان في الشمال ، قبل إنزال المسلمين إلى برّ الأندلس ، وقاتل المسلمين بنفسه ، كما أنّه لم يكن من العائلة المالكة في إسبانيا ، فحملته قيادته وثقة الشعب به إلى القضاء على الملك غيطشة وتولىّ الملك خلفاً له بقيادته لابنسبه وحسبه ، فليس لذريق قائداً متخلّفاً بل كان قائداً لامعاً بحق ، فكانت قيادة القوط قيادة قادرة ذات كفاية عالية ، كما كانت قيادة المسلمين كذلك متمثلة بطارق بن زياد .

إنّ انتصار المسلمين على القوط ، ليس بسبب تعرّض لذريق للخيانة ، كما تردّد ذلك بعض المصادر عن حسن نية أو عن سوء نيّة ، بقصد إخفاء سبب النصر الحق ، فقد انتصر المسلمون بعقيدتهم الراسخة ، فكانوا يتميّزون على القوط بمعنوياتهم العالية المتميّزة ، وهذه المعنويات العالية هي التي تجعل الفئة القليلة تغلب الفئة الكثيرة باذن الله .

(٢٣٥) . الرسول القائد (١٠٤) ط ٣ ، وعقبة بن نافع الفهري (٥٠) — ط ٤ .

وليس معنى ذلك ، أنّ جيش القوط خلا من الخيانة ، فقد ظهرت الخيانة بعد اندحار القوط لا حين كانوا أقوياء ، وبعد الاندحار تكثر الادعاءات ويكثر الأدعياء .

وقد كان البربر قبل إسلامهم مستعبدين للروم وللإسبان . فتبدّل حالهم بالإسلام من حال إلى حال .

وكان سرّ انتصار المسلمين في معاركهم الحاسمة : في غزوة بدر الكبرى . والقادسية ، واليرموك ، ونَهاوند ، هو سر انتصارهم في معركة وادي برباط أو وادي لَكُّهْ ، فبالإسلام انتصروا ، وقد رفعت تعاليم هذا الدين معنويات المجاهدين قادةً وجنوداً . وبعثت فيهم إرادة القتال التي لا تُقهر .

وكان هذا السرّ وراء فتوحاتهم شرقاً وغرباً ، فقضت على الفُرس ، وهزمت الرُّوم ، وسارت رايات النصر من بلد إلى بلد ، فأصبحت بلاد المسلمين لاتغيب عنها الشمس أبدا .

وبالإضافة إلى أن هذا الدين رفع المعنويات وبعث إرادة القتال ، فقد أعطى الفرصة لظهور القادة المتميزين والجنود المتميِّزين أيضاً ، لتستكمل حلقات عوامل النصر المعنوية والمادية المعروفة ، وهي : المعنويات العالية ، والقيادة المتميِّزة ، والجنود المتميِّزون ، وكانت تلك الحلقات متوفِّرة في المسلمين الفاتحين ، فقد كان طارق قائداً متميزاً حقاً . برزت سماته القيادية طيلة أيام المعركة الحاسمة . كما برزت في إصراره الشديد على المطاردة المتّصلة التي لا هوادة فيها . كما كان جنود طارق جنوداً متميِّزين حقّاً . برزت سماتهم القتالية في إدامة التّماس بالقوط . وإدامة قتالهم ليلا ونهاراً بلا كلل ولا ملل ، بدون إعطاء فرصة للقوط للاستراحة من عناء القتال . ودون أن يكترثوا بتصاعد أعداد الشهداء الذين تساقطوا في ميدان القتال . فقد استُشهد واحد من كلّ أربعة ، ولا بدّ أن يكون الجرحى أضعاف الشهداء ، فانتصروا

على القوط بالشهداء المُقبلين ، وانهزم القوط بالقتلى المدبرين ، وهذا هو الفرق بين الجيش الذي يتحلّى بالمعنويات العالية المرتكزة على العقيدة الراسخة ، والجيش الذي لا يتحلّى بالمعنويات العالية .

وكما فتحت معركة القادسية الحاسمة أبواب العراق للمسلمين الفاتحين ، وفتحت معركة اليرموك الحاسمة أبواب بلاد الشّام لهم ، وفتحت معركة نَهاوَند أبواب بلاد فارس ، وفتحت معركة نابليون الحاسمة أبواب مصر للفاتحين ، فقد فتحت معركة وادي لَكُّهْ الحاسمة أبواب الاندلس للمسلمين الفاتحين ، فكانت معارك الفتح التي تلتها معارك ثانوية ، لأنها معارك : استثمار الفوز ، كما يطلق على أمثال تلك المعارك الثانوية التي تجرى بعد المعركة الحاسمة ، معارك استثمار الفوز ، في المصطلحات العسكرية الحديثة ، لأن الفاتحين يقابلون فيها جيوشاً محلية ، تتّسم بصغر حجمها ، وقلّة تدريبها ، وجمع كثير من جنودها على عجل قسراً وبدون استعداد كافٍ ولا تدريب مناسب ، وبضعف قيادتها المحلّية ، وبانهيار معنويات رجالها .

وليس معنى ذلك ، أن المقاومة في معارك استثمار الفوز ، تكون مقاومة واهنة باستمرار ، بل قد تشتدّ المقاومة أحياناً ، كما سنلمس ذلك في معارك فتح الأندلس ، التي تلت معركة الفتح الحاسمة ، ولكن النّصر يكون مضموناً ، مهما اشتدت المقاومة وتأخّر الفتح أياما معدودات ، ولن يكون ذلك شيئاً مذكوراً إلى جانب النّصر المحقّق المضمون .

وقد فتح طارق شطر الأندلس ، وفتح موسى بن نُصَيْر شطر الأندلس ، ولكن ينبغي أن يُعزى فضل الفتح كلّه لطارق ، لأنّه المنتصر في المعركة الحاسمة لفتح الأندلس ، وما فتحه طارق ، وما فتحه موسى ، بعد تلك المعركة الحاسمة ، كان من نتائج معارك استثمار الفوز ، التي تثمر باستمرار النّصر المحقّق المضمون .

٦ ـ فتوح طارق قبل عبور موسى بن نصير الى الاندلس

(أ) الموقف العام بعد المعركة الحاسمة :

لم تكد أخبار انتصار المسلمين على جيش لذريق في معركة حاسمة على أرض الأندلس ، تصل إلى المسلمين في شمالي إفريقية ، حتى أقبل المسلمون نحو طارق من كلّ وجه ، وخرقوا البحر على كلّ ما قدروا عليه من مركب وقُشْر (٢٣٦) ، فلحقوا بطارق (٢٣٧) . وفاض البربر على الأندلس ، وأخـذوا يستقرون في النـواحي المفتوحة . وتضخّم تَعـداد جيش طارق إلى حدٍّ يصعب معه تقديره ، بعد هذه المعركة الحاسمة ، وأسلم الآراء هي القول ، بأن جيش المسلمين تضخـّم تضخما عظيما . ورأى طارق ، أنّه لن يستطيع التقدّم للفتح بمثل هذه الجحافل الضّخمة من المجاهدين دفعة واحدة ، لصعوبة السيطرة على أرتالها المتزايدة . ولصعوبة تعسكرها في مكان واحد في وقت واحد ، ولمشاكل تأمين أرزاقها ومياهها وعلف حيواناتها من مكان واحد في وقت واحد . فآثر أن يفرّقهم إلى أرتال صغيرة بقيادات مسئولة ، للنهوض بواجبات معيـّنة في الفتح (٢٣٨) .

وكان من نتائج انتصار المسلمين على القوط في المعركة الحاسمة . ظهور اضطراب في شئون الأندلس كلّها . التي لا تزال تحت سيطرة القوط : « وارتفع أهل الأندلس عند ذلك إلى الحصون والقلاع ، وتهاربوا من السهل ، ولحقوا بالجبال » (٢٣٩) . وحسب حزب غيطشة . أنّ الفرصة قد سنحت لهم ،

---

(٢٣٦) . القشر : في الأصل ، السمكة قدر شبر ، ويراد بها هنا ، الزورق الصغير .
(٢٣٧) . نفح الطيب (٢٤٣/١) وتاريخ الأندلس (٤٨) نص ابن الكردبوس .
(٢٣٨) . انظر : فجر الأندلس (٧٥) .
(٢٣٩) نفح الطيب (١٦٣/١) برواية الرازي .

لإعلان واحد منهم ملكاً مكان الطاغية المهزوم (٢٤٠) ، وفعلاً بذل وَقـلَـة (أخيلا) جهداً كبيراً لكي يستصدر من مجلس طايطلة قرراً ، باعتباره ملكاً على الأندلس . خلفاً للملك لذريق ، ولكنّ الأمر لم يستقرّ له ، لأنّ الشائعات كانت تملأ الجوّ بأنّ لذريق لم يُقتل ولايزال حيّاً يرزق . وعمل حزب غيطشة من جهة أخرى ، على تشجيع طارق ، للاستمرار في التقدم فاتحا ، حتى يتمّ لهم القضاء على لذريق وأنصاره نهائياً ، وما كان طارق بحاجة إلى تشجيع أحد للنهوض بالفتح ، فقد سار قدماً في تطبيق خطته العامة لفتح الأندلس. أما يليان ، فقد ثبت بقواته في ناحية الجزيرة الخضراء (٢٤١) .

ذلك هو الموقف العام بالنسبة للمسلمين من جهة ، وبالنسبة للقوط من جهة أخرى ، قبل أن يستثمر المسلمون انتصارهم على القوط في المعركة الحاسمة ، لتحقيق أهدافهم في الفتح .

ب . فتوح المدن الثانويّة :

كانت المعركة الحاسمة ، وما جرى بعدها من مطاردة طارق للقوط الهاربين ، حول مدينة شَذُونَة ، دون أن يفتح المسلمون هذه المدينة . ويبدو أنّ أهلها ومَن لاذ بها من القوط الهاربين وحامية المدينة من الجيش القوطي المحليّ ، قد قرّروا الدفاع عن المدينة ما استطاعوا إلى ذلك سبيلا . وبدأ طارق يجني ثمار جهاده وانتصاره في وادي لَكُهْ ، فبدأ بحصار شذونة (Medinesidonia) وفتحها عَنْوَة بعد حصار .

---

(٢٤٠) Saavedra. OP. Cit. P. 76. ، وللرازي اشارة هامة تؤيد هذا الرأي ، فقال : « إن يليان قال لطارق : قد فضضت جيوش القوم ورعبوا ، فاصمد لبيضتهم ، وهؤلاء أدلاء من أصحابي مهرة ، ففرق جيوشك معهم في جهبات البلاد ، واعمد أنت الى طليطلة ، فاشغل القوم عن النظر في أمرهم والاجتماع إلى أولي رأيهم ، « مما يدل على أن كبار القوط كانوا يدبرون شيئا في عاصمتهم ، وأن يليان نصح طارقاً بالأسراع إلى طليطلة رأسا ليتدارك الأمر ، أنظر نفح الطيب (١٦٤/١) برواية الرازي .

(٢٤١). البيان المغرب (١٠/٢) .

ومضى إلى مدينة المُدُور (٢٤٢) (Almodovar) ، وهي مدينة مَوْرور (Moron) (٢٤٣) ، فافتتحها أيضا .

ثمّ عطف طارق على مدينة قَرْمُونَة (٢٤٤) (Carmona) ففتحها أيضا.

واتجه طارق نحو مدينة إشْبِيلِيَة (٢٤٥) (Sevilla , Seville) ، فتمّ له فتحها صلحاً إذ صالحه أهلها على الجِزْيَة .

وزحف طارق إلى مدينة إسْتَجَّة (٢٤٦) ، فعسكر حول المدينة ، وضرب حولها الحصار . وقد أبدت حامية المدينة ، مقاومة مستميّة للدفاع عنها ، وكانت المدينة تمثلّ المركز الأول للمقاومة ، إذ كانت فلول القوط قد تجمّعت هناك (٢٤٧) . وبعد معركة قاسية ، حقّق المسلمون نصراً آخر على الرغم من مقتل وجرح العديد من رجالهم (٢٤٨) ، وغنموا في هذه المعركة العديد من الخيول التي كانوا في حاجة ماسّة إليها ، وتفرّق مَن بقى من فلول القوط إلى المدن الأندلسيّة الأخرى .

---

(٢٤٢) المدور : حصن حصين مشهور بالأندلس ، بالقرب من مدينة قرطبة ، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٤١٧/٧) ، وانظر ابن الشباط (١٠٩) برواية عريب ، ونفح الطيب (٢٦٠/١) برواية الرازي .

(٢٤٣) . التاريخ الأندلسي (٦٣) وجغرافية الأندلس واوروبا (٦٤) .

(٢٤٤) . ورد اسمها في : معجم البلدان (٦٢/٧) : قرمونية ، وهي كورة بالأندلس ، يتصل عملها بأعمال أشبيلية غربي قرطبة وشرقي اشبيلية ، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٦٢/٧) ، وانظر : تاريخ الأندلس (١٣٥)–١٣٨) نص ابن الشباط حول فتحها .

(٢٤٥) . اشبيلية : مدينة كبيرة عظيمة بالأندلس ، ليس بالا ندلس اعظم منها ، وبها قلعة ملك الأندلس ، وهي قريبة من البحر ، يطل عليها جبل (الشرف) ، وهو جبل كثير الشجر والزيتون ، وهي على شاطيء نهر عظيم تسير فيه المراكب ، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٢٥٤/٤) وتقديم البلدان (١٧٤ – ١٧٥) .

(٢٤٦) . استجة : اسم كورة بالأندلس متصلة باعمال (رية) ، بينها وبين قرطبة عشرة فراسخ ، واعمالها متصلة بأعمال قرطبة ، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٢٢٤/١) .

(٢٤٧) . أخبار مجموعة (٩) ونفح الطيب (٢٤٤/١) .

(٢٤٨) . ابن الشباط برواية عريب (١١٢) والرازي (٦٧ – ٦٨) وابن القوطية (٩) واخبار مجموعة (٩ – ١٠) وفتح الأندلس (٧– ٨) وابن الأثير (٥٦٣/٤) والبيان المغرب برواية الرازي (٨/٢) ونفح الطيب برواية الرازي (١/ ٢٦٠) .

ومن الطريف ، أن طارقاً ظفر بالعِلْج صاحب إسْتَجَّة ، فقد كان مُغتَرّاً سَيِّىء التدبير . فخرج إلى النهر وحده لبعض حاجاته ، فصادف طارقاً هناك قد أتى لمثل ذلك ، وطارق لا يعرفه . ووثب عليه طارق في الماء ، فأخذه وجاء به إلى معسكر المسلمين ، فلما كاشفه اعترف له بأنه أمير المدينة ، فصالحه طارق على ما أحبّ ، وضرب عليه الجزية ، وخلى سبيله ، ولعلّه عاون في استسلام المدينة للمسلمين ، فقد كانت في موقع حصين ، يساعدها على الدّفاع المدبّر ، كما كان فيها حماة من القوط الهاربين ومن أهل المدينة بأعداد لا يستهان بها ، ساعدتهم على الدّفاع المديد ، ولكنّ المسلمين فتحوها أخيراً بعد أن تكبّدوا خسائر لا يستهان بها من الشهداء والجرحى .

وازدادت خشية القوط من المسلمين ، وبشكل خاص عندما تبيّن لهم أنّ هيمنة طارق أصبحت هيمنة مؤثرة وفعّالة في مناطق عديدة من بلاد الأندلس . وقد كان بعضهم يعتقد أوّل الأمر ، أنّ هدف طارق ، هو الحصول على الغنائم والعودة إلى الشمال الإفريقي ، كما فعل طَريف بن مالك من قبله ، ولكنّهم حين رأوا تقدّمه السريع ، هجروا مناطق السهول من البلاد ، ولجأوا إلى الجبال وبقية المدن الحصينة الأخرى (٢٤٩) . وأصبحت حالة القوط ممزّقة بعد موت لذريق (٢٥٠) ، نتيجة من نتائج انتصار المسلمين الحاسم ، وعمد دوق (Duke) كلّ منطقة إلى الاستقلال بناحيته ، وضرب الخوف والارتباك أطنابها في صفوف القوط ، فاتخذت البلاد المهمّة مثل قُرْطُبَة وطَلَيْطُلَة وماردة والبيرة لها حكّاماً مستقيلين (٢٥١) .

---

(٢٤٩) . أخبار مجموعة (٩-١٠) وابن الأثير (٥٦٣/٤) والبيان المغرب (٢/٨-٩) برواية الرازي ، ونفح الطيب (٢٦٠/١) برواية الرازي .

(٢٥٠) . Chr. 754, p. 147. (no. 36) حولية سنة ٧٥٤ م .

(٢٥١) . الرازي نشر جاينجوس (٦٩) ،

والواقع أنَّ لهذه المدن ، ولغيرها في أيام لذريق وأسلافه من ملوك الأندلس . حُكّاماً مستقلين ، ولكنّهم كانوا يرتبطون بالملك ويخضعون لأوامره وتوجيهاته . فلما قضى المسلمون على لذريق ، كما قضوا على معظم جيشه الذي هو جيش المملكة المسئول عن حمايتها والدفاع عنها . وليس جيشاً محلياً مسئولاً عن حماية منطقة معيّنة والدفاع عنها . لم يبق في الأندلس ملك يجمع شمل الحكّام تحت سيطرته ورايته ، ولم يبق جيش للملك يفرض سيطرته على الحكّام وعلى مناطقهم . ويعين الملك على فرض سيطرته . ويسيطر على أرجاء البلاد كافة ويجمع شملها ويوحد كلمتها ، فأصبح حكام المدن الأندلسيّة والمناطق الأندلسيّة بطبيعة الحال حُكّاماً مستقلين . كلّ واحد منهم هو المسؤول الأول عن حماية مدينته أو منطقته والدفاع عنها ، إذ لم يبق مَن يدافع عنهم بعد القضاء على الملك وجيشه . بفضل انتصار المسلمين على القوط في معركة وادي لكّة الحاسمة . وليس كما يحاول إظهاره بعض المؤرخين الأجانب . بأنّه أثر من آثار يليان وحزب غيطشة في القوط ، لا أثر من آثار انتصار المسلمين على القوط .

واستبان لطارق كثرة مَن معه من المجاهدين ، وصعوبة الاستفادة منهم جميعاً في حملة واحدة . وضعف مقاومة القوط المندحرين . فاستمع الى نصيحة يليان بأن يفرّق جنده في بعوث جانبية قائلا له : « قد فتحتَ الأندلس ، فخذ من أصحابي أدلاء ، ففرّق معهم جيوشك.وسر معهم إلى مدينة طُلَيْطُلَة». ففرّق جيوشه من إسْتِجَّة (٢٥٢) .

ووجّه طارق من إسْتِجَّة سرايا من جنده إلى عدّة جهات . فبعث جيشاً بقيادة مُغيث الرّومِيّ مولى الخليفة الوليد بن عبدالملك لفتح مدينة قُرْطُبَة

(٢٥٢) . فتح الأندلس (٨) .

(Cordoba) ، في سبعمائة فارس . فاستطاع مغيث فتح المدينة دون مشقّة كبيرة بفضل شجاعة وصدق المجاهدين المسلمين (٢٥٣) .

وأرسل جيشاً إلى مدينة مالَقَة (٢٥٤) (Malaga) ، وآخر إلى كورة إلْبِيْرَة (٢٥٥) (Elvira) ، حيث افتتح مدينتها غَرْناطة (٢٥٦) (Granada) ، وكذلك إلى كورة تُدْمير (٢٥٧) (Tudmir)) ، وكانت قاعدتها أورْيُولة (٢٥٨) (Orihuela) – التي حلّت مدينة مُرْسِيَة (٢٥٩) (Murcia) محلّها قاعدة لكُوْرَة مُرْسِيَة بدلا من تُدْمير (٢٦٠) .

وقد حدثت معارك عديدة في هذه المناطق ، فاستطاع المسلمون فتح عدّة مدن فيها (٢٦١) يقول الرازي : « ففرّق طارق جيوشه من إسْتِجَّة ، فبعث مُغيثاً الرُّومي مولى الوليد بن عبدالملك إلى قُرْطُبَة – وكانت من أعظم مدائنهم – في سبعمائة فارس ، لأن المسلمين ركبوا جميعاً خيل العجم ، ولم

(٢٥٣) . نفح الطيب (٢٦١/١) .
(٢٥٤) . مالقة : مدينة بالأندلس عامرة من اعمال (رية) : سورها على ساحل البحر بين الجزيرة الخضراء والمرية ، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٣٦٧/٧) .
(٢٥٥) . إلبيرة : كورة كبيرة من الأندلس ، واسم مدينة ايضاً ، بينها وبين قرطبة تسعون ميلا ، وفيها عدة مدن منها قسطيلية وغيرها ، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٣٢٢/١) و (٣٣٠/٢) .
(٢٥٦) . غرناطة : أقدم مدن كورة إلبيرة من أعمال الأندلس أوعظمها وأحسنها وأحصنها ، يشقها نهر قلوم ويعرف الآن بنهر حداره ، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٢٨٠/٦).
(٢٥٧) . تدمير : كورة بالأندلس تتصل بأحواز كورة جيان ، وهي شرقي قرطبة ، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٣٧١/٢ – ٣٧٢) ، وانظر ما جاء حول الفتح في : البيان المغرب (٩/٢ – ١١) والاحاطة (١٠١/١) ونفح الطيب (٢٥٩/١ – ٢٦٥) .
(٢٥٨) . اوريولة : مدينة قديمة من اعمال الأندلس من ناحية تدمير بساتينها متصلة ببساتين مرسية ، انظر معجم البلدان (٣٧٣/١) .
(٢٥٩) . مرسية : مدينة بالأندلس من اعمال تدمير ، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٨-٤٤ ٢)
(٢٦٠) . الروض المعطار (٣٤ و٦٢ و ١٨١) ونفح الطيب (٢٥٩/١ – ٢٦٥) .
(٢٦١) . التاريخ الأندلسي (٦٤) .

يبق فيهم راجل ، وفَضَلت عنهم الخيلُ ، وبعث جيشاً آخر إلى مَالَقَة ، وآخر إلى غرناطة مدينة إلْبِيْرَة ، وسار هو في معظم الجيش إلى كورة جَيَّان يريد طُلَيْطلة (٢٦٢) » .

ثمّ ينقل المَقّري عن الرازي ما يتعلق بفتح تُدْمير ، فيقول : « وأما مَن وُجِّه إلى مَالَقَة ففتحوها ، ولجأ علوجها إلى جبال هناك ممتنعة ، ثمّ لحق ذلك الجيش بالجيش المتوجِّه إلى إلبِيْرَة ، فحاصروا مدينتها غَرْناطة ، فافتتحوها عَنْوَة » (٢٦٣) . « ومضى الجيش إلى تُدْمير ، وتُدْمير : اسم العِلْج صاحبها . سُميَت به . واسم قصبتها : أُرْيُولَة ، ولها شأن في المَنَعَة ، وكان ملكها عِلْجاً داهية » (٢٦٤) . وهذا يعني ، أن سرية مَالَقَة التحقت بعد فتح مَالَقَة بسرية إلْبِيْرَة ، وافتتحا تُدْمير سويّة ، فتكون على هذا – عدد السرايا التي ارسلها طارق ثلاثاً ، بدلاً من أربع (٢٦٥) .

وقد اعترض بعض المؤرخين المحدثين ، على عملية طارق في فتح جنوب شرقي الأندلس وكبار مدائنه مثل مَالَقَة وغَرْناطة وأُرْيُولَة ، وادّعوا أن ذلك غير صحيح ، لأن المسلمين لم يفتحوا هذه النواحي إلاّ في ولاية عبدالعزيز ابن موسى بن نُصَيْر (٢٦٦) . وذكروا : أنّه لا يُستبعد أن يكون طارق قد بعث سرايا صغيرة إلىهذه النواحي وغيرها لمجرّد الأستطلاع لا للفتح ، وكان الجند عنده قد كثروا . ففرّق أعداداً منهم في جماعات من رجال يليان يدلونهم على الطريق (٢٦٧) .

---

(٢٦٢) . نفح الطيب (١/٢٦٠ – ٢٦١) والاحاطة في اخبار غرناطة – ابن الخطيب (١٠١/١).
(٢٦٣) . نفح الطيب (٢٦٣/١) والاحاطة (١٠١/١) .
(٢٦٤) . نفح الطيب (٢٦٤/١) .
(٢٦٥) . التاريخ الأندلسي (٦٥) .
(٢٦٦) . انظر ترجمته في كتابنا : قادة فتح الأندلس .
(٢٦٧) . فجر الأندلس (٧٧) .

وهذا الاعتراض خطأ بلاشك ، لأنّ المصادر المعتمدة تؤكد أنّ طارقاً بعث السرايا لهذا الفتح كما أنّ طارقاً لا يمكن أن يتقدّم شمالاً باتجاه طُلَيْطِلَة ويترك جناحه الأيمن ومؤخرته في خطر التعرض المعادي ، لوجود بلدان تخضع للقوط وتعادي المسلمين . وبدون تطهير تلك المناطق، تبقى خطوط مواصلاته معرّضة للتهديد المعادي المباشر ، وهذا ما لايسكت عنه قائد حصيف قادر، مثل طارق ولا يمكن أن يغض الطرف عنه في أي حال من الأحوال .

وكان فتح عبدالعزيز بن موسى بن نُصَير لهذه المناطق ليس فتحاً جديداً ، بل إنّ مدنها انتقضت على المسلمين ، فأعاد عبدالعزيز فتحها من جديد .

وهناك روايات تنص على أنّ طارقاً هو الذي قاد جيش قرطبة وفتحها(٢٦٨)، ويبدو أنّ الرواية الأولى أصّح ، لأنّ هدف طارق في فتح قرطبة كان ثانوياً بالنسبة إلى هدفه في فتح طليطلة عاصمة البلاد ومركز مقاومتها ، كما سيرد ذلك وشيكا .

جـ . فتح قُرْطُبَة :

عهد طارق إلى مُغيث الرُّومي بقيادة الحملة المتوجِّهة إلى قُرطبة . ويقال بأنّ مغيثاً هذا ، كان أسيراً رومياً من الشرق ، وإنّه كان مولى للخليفة الوليد ابن عبدالملك أو لأبيه عبد الملك بن مروان (٢٦٩) . ولكنّ الأكثر احتمالاً هو أنّ مغيثاً كان رومياً من شمالي أفريقية ، ويؤيد هذا الرأي اطلاع مغيث ومعرفته الواسعة بهذه المنطقة وبالأندلس أيضاً (٢٧٠) . وقد تقدّم مغيث على رأس سرية مؤلّفة من سبعمائة فارس من إستجَّة إلى قُرطبة ، بينما زحف طارق ببقية رجاله إلى طليطلة .

---

(٢٦٨). قارن : ابن القوطية (٩) والرقيق (٧٦) وابن الشباط (١١٥ – ١١٦) والرسالة الشريفية (١٩٢) .

(٢٦٩). فتوح مصر والمغرب (٢٠٧) واخبار مجموعة (١٠) والبيان المغرب (٩/٢) ونفح الطيب برواية ابن حيان (١٢/٣ – ١٣) .

(٢٧٠). قارن : اخبار مجموعة (٣١) .

وصلُ مُغيث إلى ضواحي قرطبة ، وعسكر في شَقُنْدَة (Seconda) قرب ضفاف نهر الوادي الكبير ، فوجد أنّ حاكم المدينة القوطي لايزال موجوداً هناك ، ترافقه حامية مكونة من نحو أربعمائة أو خمسمائة رجل ، أما بقيّة سكان المدينة ، فقد غادروها إلى طُليطلة . وأفلح مغيث في أقتحام المدينة بسبب تهدّم أسوارها ، فانسحب حاكمها مع حاميته ، وتحصنوا في كنيسة تقع خارج الأسوار تدعى : ســان أسيكلو (San Acisclo) . حيث ضرب عليهم حصار لمدة ثلاثة أشهر . وعندما أيقن هؤلاء بعدم قدرتهم على الاستمرار في المقاومة ، حاول حاكم المدينة وقائد حاميتها الهرب إلى طليطلة ، ولكنه وقع في أسر المسلمين ، وأبيدت الحامية بأجمعها . وبعد ذلك اتخذ مغيث قصر المدينة مسكناً له ، بينما سكن رجاله في المدينة (٢٧١) .

وكان من عوامل انتصار المسلمين على القوط ، أنّهم استطاعوا قطع المـاء عن المحصورين . وكان يجري إلى الكنيسة في مجرى تحت الأرض ، فلم يفطن إليه المسلمون أولاً ، حتى اكتشفه رجل من السود ممن كان مع المسلمين (٢٧٢) ، ولكن المحصورين صبروا صبراً طويلاً رغم قطع الماء عنهم ، حتى استسلموا أخيراً ، وأسر حاكم المدينة وقائدها (٢٧٣) . وأبيد رجاله (٢٧٤) .

---

(٢٧١) . الرازي نشر جاينجوس (٦٩ - ٧٠) وأخبار مجموعة (١٣-١٤) وفتح الأندلس (٨) والبيان المغرب (٩/٢-١٠) ونفح الطيب برواية الرازي (٢٦١/١ - ٢٦٣) ، وقارن Saavedra. P. 85

(٢٧٢) . نفح الطيب برواية الرازي (١٦٥/١) .

(٢٧٣) . فجر الأندلس (٨٢) .

(٢٧٤) . البيان المغرب (١١/٢) .

رواية مصنفات الحافظ أبي بكر الخطيب
في العدوتين الأندلس والمغرب

الأستاذ عبد الرحمن الفاسي

إن من المرقصات المطربات لطالب علم يرى حظوة المعرفة فوق كل حظوة وكل اعتبار ، أن يتلقى الدعوة الكريمة من المجمع العلمي بالعراق ، لموسم لقاء محدث بغداد ، ومؤرخ العراق والشام ، الحافظ أبي بكر الخطيب ، الذي سار ذكره مسير الشمس ، وانتظم ناحية الشرق والغرب ، وإن حظّي ليزكو لهذه البهجة وذلك الطرب ، حيث قدّر لي أن أشارك بهذا الفصل أعلاماً جلة ، شرفوني أمس بالانتماء الى هذه الساحة ، واعتدّوا اليوم بكلمات يأتي بها من أقصى المغرب من يعزم التحدث عن شخصية علمية من أجل وأعظم رجال الفكر الإسلامي في المشرق ، ولن أخادع الحقيقة في اعتقادي ، فموقع الإجادة في مثلها ، مما يعز على غير أساتذة بغداد ، فأين أنا من إفادة تُذكر ، أو قول يعتبر ، ولست في هذا المجال — وأيم الله — غير ذاك الذي استبضع التمر الى هجر .

ولئن كان ورد الفكر العربي نبعاً مشاعاً بين جميع من نطق بالضاد ، فان أهل دار السلام ، والمربعين على شاطىء دجلة والفرات أوعى للمأثور ، وأدرى بالمكنون المذخور ، فإليهم مَردُّ القول الفصل بالتحليل والنقد ، وبيان وتبيان مسارح ذهنية ذلك الإمام ، والدلالة على ماهو نافذ للطريف الجديد ، وما يخلص منها للتليد ، فيعتد به في التأصيل ، وإقامة ذلك الجديد على أساس من الذاتية العربيـة مكين .

على أنني لن أشرد عن النبع ، فقد كرعت منه عللا بعد نهل ، ومن يدي الخطيب شربت الكأس الأولى ، وباليمين والشمال احتضنتها ، وان أصداء تنزّل

الرحمات على محدث بغداد ومؤرخها الخطيب ، لتتردد في السمع الآن ، كما كانت تتردد على عهد دراستي في أبهاء جامعة القرويين حين يعرض اسم حافظ المغرب أبي عمر بن عبد البر ، فيبادر شيخ المجلس ليقول : وفي نفس السنة التي توفي فيها حافظ المغرب لقي الله أيضاً أبو بكر الخطيب حافظ المشرق ، وتسري الهمهمة في المجلس بالترحم على الحافظين ، رحم الله الجميع .

وحين يتشعب الدرس الى الهداية والإرشاد ، تنقلب صيغة إملاء الشيخ الى فقرات مرتلة ترتيلا ، وبنبرات خاصة للفت الانتباه الى ما سيروى لنا عن الخطيب صاحب كتاب « اقتضاء العلم العمل » الذي قال : (ولا تأنس بالعلم ما كنت مقصراً في العمل) (وماشيء بأضعف من عالم ترك الناس علمه لفساد طريقته) .

واذا ما ذكر القاضي عياض أشهر أعلام المغرب وحافظ المذهب ، نبه شيوخنا على اعتداده بمصنفات أبي بكر الخطيب ، وبحرصه على إعلان التنويه بمكانته .

وأدركت من شيوخ فاس الإمام أبا عبد الله محمد بن جعفر الكتاني (من أسرة صاحب فهرسة الفهارس) المتوفى سنة خمس وأربعين وثلاث مئة وألف، ولم أكن عندها في سن الدرس، وبعدها اطّلعت على بعض مصنفاته ومن أجلّها « الرسالة المستطرفة لبيان مشهور كتب السنة المشرفة » ، ويلفت النظر في كتابه هذا عنايته الخاصة بكتب الحافظ أبي بكر الخطيب ، فهو كلما ذكر مصنفات باب من أبواب الكتب الراجعة الى السنة المطهرة ، يعنى بتسجيل ما للحافظ الخطيب من مصنفات فيها ، وقد ذكر منها أكثر من عشرة مع تعليق على بعضها للتقويم والتنويه ، أو الإشارة الى من جاء قبله بمثلها ، أو من ذيّل عليها ،فحينما ذكر مثلا كتاب « المؤتلف تكملة المختلف » قال فيه : (إن الخطيب وضعه جمعاً بين كتاب الدارقطني وكتاب الحافظ المشهور عبد الغني المصري ، وزاد عليهما ، وجعله كتاباً مستقلا سماه «المؤتلف تكملة المختلف») ، ثم زاد أن الحافظ

المعروف ابن ماكولا زاد على هذه التكملة وضـم اليها الأسماء التي وقعت له وجعله أيضاً كتاباً مستقلاً وسماه « الإكمال » ، وتابع التعليق أنّ الحافظ ابن نقطة ذيله بما فاته أو تجدد بعده ، وهكذا ذهب مع سلسلة الذيول الى النهاية .

ولا مراء في أنّ هذا الشـافعي العظيم ، قد اقتحم اسـمه عنوة أبهاء جامعة القرويين وهي معقل المالكية على مدى الدهور والسنين ، ويتأكد بهذا أن رحابة علم واعية بغداد قد جنبته عندهم كل تأنيب وتثريب ، وحمته من أيّ سهم مصيب أو غير مصيب ، وكأنهم تفرّسوا في سعة أفق نظراته نفس رحابة معرفته ، فاستروحوا من قبله نفحة مالكية بإقباله على التصنيف في الرواة عن إمام مذهبهم مالك ، وبقراءته قطعاً من موطئه بالشام ، في مجالس من سـنة إحدى وخمسين واثنتين وخمسين وأربع مئة ، وقد كانت نسخ الموطأ في جملة ما حرص الخطيب على إحضارها معه إلى دمشق ، وذلك لدى خروجه من بغداد بأثر فتنة البساسيري ، وهي التي أطاحت برأس أبي القاسم بن المسلمة وزير القادر ، الذي حسنت صحبته له ، وانسدل عطفه عليه . ونسخ الموطأ هذه مروية من رواية القعنبي ، ومن رواية ابن وهب ، ومن رواية سويد بن سعيد الحدثاني ، ومن رواية معن بن عيسى القزاز ، وكانت مع هذه النسخ نسخة أخرى غير مقروءة ، وهذا الى كتب أخرى مما يدل على اهتمام بالغ باستقراء حتى ما قيل عن مالك في غرائبه ، (كغرائب مالك) لأبي القاسم عبد الله الجرجاني و (غرائب حديث ما لك لدعلج) ، و (غرائب حديث مالك للطبراني) ، و (غرائب مالك لأبي بكر النيسابوري) وكلها من جملة ما حرص الخطيب على أن يرد بها معه دمشق ، وهو التفات متبادل بوجهيه التقديري والنقدي كما سنرى من شأن القاضي عياض مع الخطيب فيما سيأتي . ومردّ ذلك في الحقيقة عند كل منهما الى عواطف الإعجاب والتقدير بكل تأكيد .

وتتشبح مغربية الخطيب في أذهان شيوخنا بروايته « فضائل الصحابة الأربعة على مذهب المغاربة » ، فمن المعروف أنه درس بالجامع الأموي في دمشق

فضائل الصحابة » للإمام أحمد بن حنبل ،و« فضائل العباس » لشيخه ابن زرقويه ، وهي من الكتب التي أحضرها معه إلى دمشق أيضاً .

وتشاء الأقدار أن تسجل لنا نفس الإكبار والإعظام لحافظ المشرق لدى أهل عدوة الأندلس أيضاً . وهذا أبو عبدالله بن محمد بن أحمد بن محمد المالكي الأندلسي ، يتولى وضع قائمة الكتب التي ورد بها الخطيب دمشق — وهي كما يقول الأستـاذ يوسف العـش في كتابه أبي بكر الخطيب — : من محفوظات المكتبة الظاهرية ضمن مجموع تحت الرقم الثامن عشر على الرقم السادس . وبعنوان : (تسمية ما ورد به الخطيب البغدادي دمشق من روايته من الأجزاء المسموعة والكبار المصنفة ، وما جرى مجراها سوى الفوائد والأمالي والمنثور) .

ومن المنتظر أن يقع الحافر على الحافر ، وتتحد الرؤية لكل مروي ومسموع بالنسبة الى أهل العدوتين — المغرب والأندلس — وذلك لقرب الشقة ، والانضواء أزماناً تحت راية حكم واحدة ، وظل مذهب واحد ، وعقيدة واحدة ، ومشيخة متحدة ، ومنابع الأخذ في الرحلة الى المشرق واحدة ، ولهذا يبدو أن لأهل العدوتين اهتماماً ملحوظاً برواية مصنفات الخطيب رحمه الله .

وقد نسجتُ هذا الفصل على الروايتين معاً ، وسجلت أولاً طبقة من روى مصنفاته عنه مباشرة ، ثم طبقة من رواها عن تلامذته ، ثم طبقة من روى عن تلامذة تلامذته مع التنصيص على من جمع بين الرواية بالسماع وبالإجازة ، ثم من روى بمجرد الإجازة .

ولعل الحافظ الباجي — وقد تدبّج مع الحافظ أبي بكر — أول من يثب إلى الذهن من رواة مصنفاته ، وأولى من يوضع في ترتيب المتحدثين عنه .

الحافظ القاضي ابو الوليد الباجي[1]
(٤٠٣ ـ ٤٩٤هـ)

سليمان بن خلف بن سعد بن أيوب بن وارث الباجي ، أصل سلفه من بطليوس حاضرة ثغر الأندلس الجوفي ، ثم انتقلوا الى باجة ، ولم تكن أسرته ذات سعة في الرزق ، فلم يجر وراء مهنة تدر عليه الكفاف وبلغة العيش ، وإنما انصرف الى مجالس العلم ، فدرس وسمع على جهابذة عصره ، مثل أبي الأصبغ ، وأبي محمد مكي ، وأبي شاكر ، ومحمد بن اسماعيل ، وغيرهم . وتطلعت همته العلمية المشبوبة الى الأخذ عن علماء المشرق ، وشبابه يؤمئذ في العنفوان ، فرحل الى المشـــرق سنة ست وعشرين وأربع مئة ، وامتدت رحلة الدرس والسماع ثلاثة عشر عاماً ، حيث أقام أولاً بالحجاز ، فحج مرات وسمع ، ثم انتقل الى بغداد فالشام ، وسمع من السمسار ونظرائه ، ثم دخل الموصل حيث درس الأصول على السناني ، وسمع بمصر من أبي محمد بن الوليد وغيره .

وفي بغداد ، أخذ عن الفقهاء كأبي الفضل بن عمروس إمام المالكية ، وأبي الطيب الطبري ، وأبي اسحاق الشيرازي الشافعي ، وأبي عبدالله الدامغاني ، والصيمري ، وجماعة من الفقهاء . وروى عن الحافظ أبي بكر الخطيب ، وروى الخطيب أيضاً عنه ، لماسيأتي تفصيله . ويقول القاضي عياض (إنه حاز الرئاسة بالأندلس ، فسمع منه خلق كثير ، وتفقه عليه خلق ، وممن تفقه عليه أبو بكر الطرطوشي والقاضي ابن شبرين ، وسمع منه أيضاً من أهل الأندلس

---

(١) . أنظر ترتيب المدارك ٨٠٢/٤ – ٨٠٨ ط بيروت ـ الصلة لابن بشكوال ١٩٩/١ ـ ٢٠١ القواصم والعواصم لا بن العربي ط تونس – بغية الملتمس للضبي ص ٢٨٩ – تذكرة الحفاظ ٣٤٩/٣ – وفيات الاعيان ٤٠٨/٢ تحقيق الأستاذ احسان عباس – ابن فرحون في الديباج ص ١٢٠ – ١٢٢ . وفي ترتيب « المدارك » و «الديباج » جملة من مصنفاته وبقية شيوخه – نفح الطيب ٦٧/٢ وما بعدها .

الحافظان أبو علي(٢) الجياني الغساني . والصدفي(٣) ، والقاضي أبو القاسم المعافري ، والسبتي(٤) ، وابن جعفر المرسي ، وغيرهم) .

وممن أخذ عنه أيضاً حافظ المغرب أبو عمر بن عبدالبر صاحب الاستيعاب والتمهيد وغيرهما ، والحافظان أبو عبدالله محمد بن أبي نصر بن فتوح الحميدي الميورقي الآتي ذكره (٤٢٠ — ٤٨٨هـ) ، وأبو بكر محمد بن حيدرة بن مفوز(٥) (٤٦٣ — ٥٠٥هـ) ، ووقعت بينه وبين أبي محمد بن حزم مناظرات وفصول ، سجل بعضها الحافظ أبو بكر بن العربي في العواصم والقواصم .

ومن القواصم السائرة فيما وقع بينه وبين أبي محمد بن حزم قوله لابن حزم : « أنا أعظم منك همة في طلب العلم ، لأنك طلبته وأنت معان عليه تسهر بمشكاة الذهب . وطلبته وأنا أسهر بقنديل بائت السوق » ، فقال ابن حزم : « هذا الكلام عليك لا لك . لأنك إنما طلبت العلم وأنت في تلك الحال رجاء تبديلها بمثل حالي ، وأنا طلبته في حين ما تعلمه وما ذكرته ، فلم أرجُ به إلا علو القدر في الدنيا والآخرة » ، فأفحمه .

وبالرغم من هذا الحوار اللاهب فقد روى ابن بسام :« بلغني عن الفقيه أبي محمد بن حزم أنه كان يقول : لم يكن لأصحاب المذهب المالكي بعد القاضي عبدالوهاب مثل أبي الوليد الباجي » . وهي كلمة صدق صادرة عن طهارة قلب

---

(٢) . أنظر الصلة : ج ١٤٢/١ — معجم أصحاب الصدفي لابن الأبار ، ٦٩ — تذكرة الحفاظ ١٢٣٣/٤ — الديباج ص ١٠٥ — شجرة النور الزكية ص : ١٢٣ — هدية العارفين : ٣١١/١ — طبقات الحفاظ للسيوطي ص : ٤٥١ .

(٣) . الصلة ج ١٤٤/١ — بغية الملتمس : / ٢٦٩ — تذكرة الحفاظ : ١٢٥٣/٤ — الديباج ص ١٠٤ — طبقات الحفاظ ص ٤٥٥ .

(٤) . أبو محمد عبدالله بن جماح الكتامي السبتي المتوفى سنة ٤٧٠ هـ وقد كان يستخلفه الباجي في تدريس أصحابه إذا سافر . انظر ترجمته في الصلة ج ٢٩٨/١ .

(٥) . ترجمته في الصلة ٥٦٦/٢ — بغية الملتمس ص ٧٢ — معجم أصحاب الصدفي ١٠٠ — تذكرة الحفاظ ١٢٥٥/٤ — طبقات الحفاظ ٤٥٦ .

ذلك الإمام العظيم الذي لم يمار في أهمية الآثار الحديثية والفقهية التي دفق بها علم الباجي ، كشرح الموطأ المسمى « بالاستيفاء » ، ومختصره المنتقى ، و« كتاب الإيماء» و « مختصر المنتقى » ، و« شرح المدونة » و« أحكام الفصول في إحكام الأصول » ، وكتاب « الناسخ والمنسوخ » . وكتاب « التعديل والتجريح » ، وغيرها(٦) من كتب الفقه والحديث(٧) .

وتلك آثار كانت كافية وحدها لتضفي عليه من جاه العلم وغنى النفس ، وتذهب عنه نكد الزمان ومرارة الحرمان ، ولكن شاء الله إلا أن يبدل عسره يسراً بعدما كان يتبذل في مهنة ضرب ورق الذهب في عقر الأندلس ، فكان يخرج الى الإقراء وعلى يده آثار المطرقة ، مثلما قيل إنه كان في بغداد يستعين بأجرة حراسة أحد دوربها بالليل . ولكن سرعان ما أقبلت عليه دنياه وابتسم له الحظ ، حينما فشا علمه واشتهرت تآليفه ، فاتسع حاله ، وكثر كسبه ، وعظم جاهه،فقربه الرؤساء ، واستعملوه في الأمانات والقضاء في غير ما موضع من

(٦) . وكتبه المذكورة في الفقه أكثر من كتبه في الحديث،ومن ثم نستجلي فيما وقع الينا والى شيوخنا من آثاره نزعة فقهية ظاهرة ، على ماهي عليه آثار الحافظ الخطيب ، كما أن له في الشعر جولة ككل مثقفي الأندلس الذين كانوا يأخذون بطرف من علم اللغة والأدب، وتلقن لهم في الكتاب منذ حداثة السن كما هو معروف ، وتوجد نسخة خطية من كتابه « أحكام الأصول » في الخزانة الملكية بالرباط،وأخرى بمكتبة القرويين بفاس،ومنها رقيقة « ميكروفيلم » بالخزانة العامة بالرباط .

(٧) . ومن آثاره التي طبعت أخيراً : « رسالة في الحدود» نشرها الأستاذ جودة عبدالرحمن هلال في مجلة « المعهد المصري للدراسات الإسلامية بمدريد » المجلد ٢ العدد الأول ١٩٥٤ ، ونشرت أيضاً حديثاً مستقلة – ومما نشر له حديثاً أيضاً في نفس المجلة المجلد الأول العدد الثالث ١٩٥٥ وصية الباجي لولديه المعروفة في بعض المصادر بـ« النصيحة » . ومن آثاره الموجودة أيضاً ضمن ميكروفيلم بدار الكتب الوطنية بتونس كتاب « المنهاج في ترتيب الحجاج » ، وقد طبع مؤخراً بباريس بتحقيق الأستاذ التركي (من تونس) .

من الأندلس ، وأجزلوا له الصلاب(٨) . ولقد كان من مظاهر الإقبال الذي وافاه ، تهافت الطلاب عليه من جميع أنحاء الجزيرة ، ولم يبعد من قال إن خلقاً قد رووا عنه . وتفقهوا على يده ،وذلك أنه كاد يكون في طليعة من رحل اليه طلاب الفقه والحديث من جميع أقاليم الأندلس . فقد شدت اليه الرحلة من بلدة ميورقة — ومن قرطبة — ومن مالقة — ومن شاطبة — ومن مرسية — ومن أريولة — ومن دانية — ومن جزيرة شقر — ومن طرطوشة — ومن بلنسية — ومن أندة — ومن موربيطر — ومن لورقة — ومن اشبيلية — ومن المرية — ومن طليطلة — ومن مدينة فرج — ومن مدينة سالم — ومن سرقسطة — ومن وشقة ومن تطيلة — ومن لاردة — ومن لشبونة — ومن شنترين — ومن يابرة .

كما ورد عليه من أهل المغرب أبو محمد بن عبدالله بن جماح الكتامي السبتي (المترجم في الصلة) المتوفى سنة ٤٧٠ هـ ، الذي كان يستخلفه الباجي في تدريس أصحابه اذا سافر .

وقد ظل على هذه الحال من غنى العلم وغنى المال الى أن وافته منيته رحمه الله « بالمريه » سنة ٤٩٤ هـ .

وتلك هي مقومات النباهة العلمية التي التفت اليها ولاريب الحافظ الخطيب ، فكما روى عنه الباجي روى الخطيب عنه . ويقول الخطيب : وأنشدني أبو الوليد لنفسه :

---

(٨) . المعروف أنه كان يقيم تارة تحت ظل صاحب « ميورقة »،وتارة عند المقتدر بن هود صاحب « سرقسطة ». ومن مآثره رحمه الله أنه حينما اشتدت قبضة « الفونصو السادس » على ملوك الأندلس وظهرت بوادر نهدته الى الاستيلاء على طليطلة ، وتوالى صريخ أهل الأندلس ، وهبوا للاستنجاد بأمير المسلمين في نحو سنة ٤٦٦هـ (أنظر الحلل الموشية) ، هب أبو الوليد الباجي باشارة من المتوكل بن الأفطس صاحب « بطليوس » ، فطاف بالقواعد والولايات الأندلسية صائحا ، منذرا ، ومحذراً من عواقب التفرق ، مهيبا بالملوك أن يتحدوا ويسارعوا الى نجدة « طليطلة ». وبذلك يكون قد خرج من لعنة الإمام ابن حزم التي أرسلها على فقهاء ذلك الزمان الذين خنعوا للذلة ، وأكلوا على حد تعبيره من حلوى الملوك أهل الفرق — والفرقة

اذا كنت أعلـم علمـاً يقينـاً
بأن جميـع حيـاتـي كسـاعه
فلِـمْ لا أكـون ضنينـاً بهـا
وأنفقهـا فـي صـلاح وطـاعه ؟

وروى الباجي عن الخطيب كتاب « الفصل للوصل » و « المكمل بيان المهمل »(٩) وهما من كتب العلل التي لا مثيل لها كما قال أبو بكر بن خير ، و « الموضح لأوهام أبي عبدالله البخاري في التاريخ الكبير » .(١٠)

ومن هذه الطبقة التي روت كما أشير سابقا عن الحافظ أبي بكر الخطيب(١١) .

الإمـام الحميدي
(ت ٤٨٨هـ)(١٢)

أبو عبدالله محمد بن أبي نصر بن فتوح « بتشديد التاء » بن عبدالله بن حميد ابن يصل الأزدي الميورقي ، عرف بالحميدي نسبة الى جده حميد ، وعزي الى « ميورقة » مسقط رأسه ، وهي احدى الجزر الثلاث بشرق الأندلس : ميورقة – ومنورقة – ويابسة . وأصل سلفه من قرطبة من ربض الرصافة منها . وقد ولد كما قال قبل العشرين وأربع مئة ، حافظ مؤرخ ، وثقة ثبت ، وأديب شاعر. وصف شعره بالملاحة وذكر له ديوان غير معروف وبعض مقطعاته في الصلة

(٩) أنظر فهرسة ابن خير ١٨٢ ، ط مدريد .
(١٠) المصدر السابق ص ٢٢٤ .
(١١) ارشاد الأريب الجزء ٥٨/٦ ط الأولى بتصحيح مرجليوت .
(١٢) أنظر ترجمته في الصلة لابن بشكوال ٥٠٢ – ٥٠٤ طبعة مدريد – بغية الملتمس للضبي ١١٣ – ارشاد الأريب الجزء ٥٨/٧ ط الأولى بتصحيح مرجليوت – تذكرة الحفاظ للذهبي ١٢١٨/٤ ترجمة ١٠٤١ – نفح الطيب ١١/٢ دار صـادر بيروت ترجمة ٦٣ – وفيات الاعيان ٢٨٢/٤ – الوافي بالوفيات ٣١٧/٤ – المنتظم لابن الجوزي ٩٦/٩ – شذرات الذهب ٣٩٢/٣ ط نشر مكتبة القدسي مصر . مرآة الجنان ١٤٩/٣ ، وانظر بحثا مسهبا عن الحميدي للدكتور محسن جمال الدين في مجلة كلية الآداب بجامعة بغداد – العدد العاشر نيسان ١٩٦٧ .

لابن بشكوال، وفي الوافي بالوفيات، وفي نفح الطيب للمقري، وفي تذكرة الذهبي، كما أنه كاتب مترسل حسبما توحي بذلك آثاره الآتية الذكر . وله مرويات أكثرها في المواعظ ، ومتشاغل بالعلم كشيخه الباجي ، وفي عداد مشاهير الراحلين من المغرب الى المشرق للأخذ والسماع سنة ثمان وأربعين وأربع مئة ، بعدما سمع بالأندلس على أبي القاسم أصبغ بن مالك بن موسى الزاهد القبري ، وأكثر الأخذ بالأندلس عن الإمام أبي محمد بن حزم الظاهري حيث طال لقاؤهما بين عامي ثلاثين وأربع مئة وأربعين وأربع مئة ، وقرأ عليه أكثر مصنفاته ، واشتهر بصحبته . بالرغم من أنه لم يكن يتظاهر بذلك ، كما سمع بها من حافظ المغرب ابن عبد البر وأبي العباس العذري ، وغيرهما من أصحاب هذه الطبقة . وسمع بأفريقية في أثناء رحلته . ولقي بمكة كريمة بنت أحمد المروزية(١٣). ثم قدم على مصر . وسمع بها كثيراً ، وأقام بواسط للسماع ، ثم انتقل الى بغداد مستوطناً في بداية قيام حكم السلجوقيين ، على عهد القائم بأمر الله . وبها روى عن الخطيب البغدادي كما سيأتي تفصيله ، وكتب عن الكثير من الأعلام(١٤) وروى عنه الأمير أبو نصر بن ماكولا وكان صديقاً له. والقاضي أبو بكر بن اسحاق . وأبو عبدالله القضاعي . وأبو اسحاق الحبال ، وابن بقا الوراق . وجماعة منهم أبو الفتح البطي .

---

(١٣) للمروزية سماع قديم أغري به الخطيب البغدادي، فقرأ عليها صحيح البخاري كافي تذكرة الحفاظ وطبقات الشافعية للسبكي .

(١٤) تحتوي ترجمة الحميدي في المراجع المشار اليها على جملة شيوخه ، وكا حظي بالرواية عن هؤلاء المشارقة وخصوصاً أعلام بغداد . تجملت ترجمته بكلمات بعضهم في التنويه به كأبي نصر علي بن ماكولا الذي قال فيه : « إنه من أهل العلم والفضل والتيقظ ، ولم أر مثله في عفته . ونزاهته ، وورعه ، وتشاغله بالعلم »، وهو تنويه ورد حتى على ألسنة مواطنيه الأندلسيين ، فأبو علي الصدفي — الذي سيأتي ذكره — يصفه بالنباهة ، والمعرفة ، والإتقان ، والدين ، والورع ، وهي فقرات تسند كلمات ابن ماكولا السالفات ، وهمك بالنباهة واليقظة عند أصحاب التجريح والتعديل ، فهي العيار الدقيق الذي لا يزكي به غير الأثبات من المؤرخين والمحدثين .

وللحميدي مصنفات كثيرة متنوعة تنوع محصوله ، ومن أشهرها مصنفه في « الجمع ما بين الصحيحين »(١٥). وهو أشهر كتبه الحديثية(١٦) ، وكتاب تفسير غريب ما في الصحيحين،وهو شرح لما في كتابه « الجمع ما بين الصحيحين من الغريب »(١٧) ، وكتاب « ما جاء من الآثار في حفظ الجار » . ودالية في النقض على من عاب الحديث وأهـــله ، وكتاب جذوة المقتبس في تاريخ علماء الأندلس: ألفه ببغداد. وهو من أشهر كتبه. وطبع بتحقيق المرحوم الأستاذ محمد بن تاويت الطنجي . ويقول الضّبيّ في « بغية الملتمس » : إنه اعتمد على « الجذوة » ، وكتاب في تاريخ الاسلام ، وهو الذي يذكر تارة عند القدامى باسم (جمل من تاريخ الاسلام) . وله كتاب في علماء الحديث(١٨) ، وكتاب « ترسل مخاطبات الأصدقاء في المكاتبات واللقاء » . وكتاب « تسهيل السبيل

---

(١٥) كتب الجمع بين الصحاح كلا أو بعضاً ، وبينها وبين بعض المسانيد ، وبينها وبين بعض المعاجم ، كمعجم الطبراني ، قد أغري المغاربة في المدونين بالتأليف على منوالها أسوة بالمشارقة ، ومن أشهرها « الجمع بين الصحيحين » لأبي عبد الله محمد بن حسين بن أحمد ابن محمد الأنصاري المري (بفتح الميم وكسر الراء وكذا ينسبون الى : المرية) المتوفى عام ٥٨٢هـ وقد أخذه عنه الناس كثيراً ، ومنها أيضاً الجمع بين الصحيحين لأبي محمد عبد الحق الاشبيلي المتوفى عام ٥٨٢ صاحب كتاب « الأحكام الشرعية الكبرى »،ومنها في الجمع بين الأصول الستة كتاب « التجريد للصحاح والسنن » لأبي الحسن رزين (بوزن أمير) ابن معاوية العبدري السرقسطي الأندلسي المتوفى بمكة سنة ٥٣٥ ، وقد تفرعت عن هذا الصنف من الجمع عملية المصنفات المجردة والمنتقاة من كتب الأحاديث المسندة خصوصاً أو عموماً ، كالتجريد الصحيح لأحاديث الجامع الصحيح لشهاب الدين أبي العباس أحمد ابن عبد اللطيف الشرجي الزبيدي الحنفي ، ومن أشهر وأحفل ما للمغاربة في هذه المنتقيات كتاب الأحكام الشرعية الكبرى الآنف الذكر في ست مجلدات لعبد الحق الاشبيلي ، وقد وضع عليه الحافظ الناقد أبو الحسن علي بن محمد بن عبد الملك الحميري المعروف بابن القطان (ت ٦١٨هـ) كتابه العظيم « بيان الوهم والايهام الواقعين في كتاب الأحكام » .

(١٦) منه نسخة في الموصل،وأخرى بدمشق،ونسختان بدار الكتب المصرية بالقاهرة حسبما أشار اليه المرحوم محمد بن تاويت في مقدمة (جذوة المقتبس) .

(١٧) أنظر مقالة للمرحوم أحمد تيمور في مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق .

(١٨) ينقل عنه ابن بشكوال كثيراً في الصلة .

الى علم الترسيل »(١٩) ، وكتاب « المشتاق في ذكر صوفية العراق »،و« الذهب المسبوك في وعظ الملوك(٢٠) ، وكتاب « نوادر الأطباء » ، وكتاب « المتشاكه فيأسماء الفواكه »(٢١)،وغيرها مما يوجد أكثره في « هدية العارفين » ، وعند ابن شاكر الكتبي في « عيون التواريخ » . وقد توفي الحميدي رحمه الله ببغداد عام ثمانية وثمانين وأربع مئة ، ودفن بمقبرة باب أبزر،ثم نقل الى باب حرب حيث دفن عند بشر الحافي . وباب أبزر اليوم في محلة الفضـــل ببغداد ، كما سمعت من د . جمال الدين عند إقامتي ببغداد .وقد تدبج الحميدي مع أبي بكر الخطيب البغدادي . فكتب عنه أكثر مصنفاته . وروى الخطيب عنه أكثر مصنفاته.والمذكور بالاسم من هذه المصنفات : « الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع » ، ورواه عن الحميدي كما سيأتي ذكره .

وممن أخذ عن الحافظ أبي بكر الخطيب مباشرةً :

ابن قطري النحــوي

(ــ ه ٥٠١)(٢٢)

هو أبو عبد الله محمد بن عمر بن قطري الزبيدي الاشبيلي ، نزيل سبتة والمتوفى بها سنة احدى وخمس مئة ، وهو من شيوخ إمام المغربالأكبر القاضي عياض الآتي ذكره . وقد ترجم له في فهرسته المعروفه بـ « الغنية » ، من بيوتات أشبيلية المتأصلة في العلم والجاه . دّرس النحو والعربية والأدب . وله حظ وافر في الأصول والاعتقاد . وكان متسع السماع . وسمع بالأندلس القاضي

(١٩) ذكر المرحوم الأستاذ ابن تاويت أنه ذكر في « عيون التواريخ » و « سير النبلاء » باسم كتاب « الترسل » ، ومنه نسخة بدار الكتب المصرية .

(٢٠) منه نسختان في دار الكتب المصرية كما أشار المرحوم ابن تاويت .

(٢١) ذكرا معا في فهرسة ابن خير ، ص ٣٥٨ ، ط مؤسسة الخانجي القاهرة .

(٢٢) انظر ترجمته في بغية الوعاة ص ٨٥ ط السعادة ، وترجمة تلميذه القــاضي عياض في فهرسته (الغنية) ١٤٣ .

أبا الوليد الباجي قرين أبي بكر الخطيب ، والدلائي ، وأبا عبد الله بن سعدون القروي ، وأبا الليث السمر قندي ، وغيرهم . وله رحلة الى المشرق ، عرج فيها على صقلية ، ولقي في رحلته بالمشرق المشاهير كالحافظ أبي بكر الخطيب ، وابن بابشاد ، والحسين الطبري .

سمع من أبي بكر الخطيب فصولا ، وحدثه بكتاب « المؤتلف والمختلف » وبكتاب « الفقيه والمتفقه » . وأورد القاضي عياض في ترجمته المشاراليها جملة أشعار وأخبار مما حدثه به الزبيدي عن الخطيب .

وفي طليعة من أخذ مصنفات أبي بكر الخطيب عن قرينه أبي الوليد الباجي :

ابن موهب
(٤٤١هـ ٥٣٢هـ)(٢٣)

الشيخ أبو الحسن علي بن عبد الله المعروف بابن الزقاق .

وهو أبو الحسن علي بن عبد الله الجذامي من أهل المرية ، ويعرف بابن الزقاق : محدث راوية ، ومسند عارف ، من أهل العلم والمعرفة والذكاء والفهم . من شيوخه القاضي الباجي ، وابن عبد البر ، وأبو العباس العذري ، وقد روى عنه كثيراً ، واختص به . ومن تلامذته القاضي أبو القاسم عبد الرحمن بن محمد ، وأبو محمد عبد الله بن محمد بن عبد الله ، وأبو جعفر أحمد بن الأزدي . وله تأليف عظيم في تفسير القرآن .

أخذ عن الباجي من كتب الخطيب « الفصل للوصل » ، وكتاب « المكمل في بيان المهمل »(٢٤)،ويروي أيضاً عن الباجي كتاب « الموضح لأوهام أبي عبدالله البخاري في التاريخ(٢٥) .

---

(٢٣) انظر ترجمته في : بغية الملتمس،الترجمة تحت رقم ١٢٢٢ - الصلة لابن بشكوال ص ٤١٩ ط مدريد - شذرات الذهب ٩٩/٤ - طبقات المفسرين للسيوطي ص ٢٤ ط ليدن - ارشاد الأريب ٢٤٤/٥ط بعناية وتصحيح الدكتور مرجليوث ط هندية بالموسكي بمصر .

(٢٤) فهرسة ابن خير ص ١٨٢ ط مدريد .

(٢٥) فهرسة ابن خير ٢٢٤ ط مدريد .

ومن روى عن تلامذة أبي بكر الخطيب :

الحافظ الفقيه الشيخ ابن وضاح(٢٦)
(ت ٥٣٩هـ)

وهو أبو عبدالله محمد بن أحمد بن موسى بن وضاح القيسي المرسي ، التدميري الأصل ، سكن « المرية » : فقيه حافظ مشاور ، عارف بالمسائل كما حكاه ابن عبدالملك في الذيل والتكملة ،وروى بالأندلس عن أبي عبدالله أحمد ابن محمد الخولاني ، وابن علي الصدفي فأكثر عنه . ورحل الى المشرق فحج ، وأخذ في رحلته عن أبي بكر الطرطوشي ، وأبي الحسن بن المشرف الأنماطي ، وأبي زكرياء يحيى بن ابراهيم بن عثمان بن أبي طاهر السِّلَفِيّ .

قرأ من مصنفات الخطيب « الرسالة المجهولة(٢٧) في الإجازة وتنويعها وانقسامها » بالاسكندرية سنة ٥١١هـ على أبي زكرياء يحيى ابن ابراهيم بن عثمان (٢٨) بن عمر بن شبل الذي قرأها على الحافظ الخطيب .

---

(٢٦) انظر ترجمته في : ميزان الاعتدال ١٤٥/٣ – البغية ١٢٣ – البداية لابن كثير ٨٢/١١ .

(٢٧) فهرسة ابن خير / ٢٢٦ ط مدريد .

(٢٨) مد ابن خير في « الفهرسة » نسبه بعد اسم عثمان،فذكر عمر بن شبل،في حين أن ابن عبد الملك المراكشي في « الذيل والتكملة » ج ٦٩/٦ جعل « عثمان » ابنا لأبي طاهر السلفي ، فيكون أبو زكريا يحيى بن شبل المذكور من حفدته ، ولم أقف لهذا الحفيد على ترجمة ، فيما عدا اشارة أبي بكر بن خير وابن عبد الملك المراكشي ، وهما مضطربتان في أسماء آبائه كما ذكر ، وورد يحيى بن ابراهيم بن عثمان بن شبل في نفح الطيب (ج ٥١١/٢) تحقيق الدكتور احسان عباس ، وذلك ضمن ترجمة أبي يوسف حماد بن الوليد الكلاعي حيث قال فيه : إنه حدث بالاسكندرية ، فسمع منه يحيى بن ابراهيم بن عثمان بن شبل .

ومن رواة مصنفات الخطيب عن تلامذته :

الحافظ قاضي قضاة اشبيلية وشيخ القاضي عياض
أبو بكر وابو يحيى بن العربي المعافري
٤٦٨ – ٥٤٣(٢٩)

محمد بن عبدالله بن محمد بن عبدالله بن محمد المعروف بابن العربي المعافري نسبة الى معافر بن يعفور أبي حي باليمن ، من أسرة علم ونباهة، فقد كان أبوه عبدالله من وجوه العلماء في دولة بني عباد ، كما كان خاله أبو القاسم الحسن بن أبي حفص بن الحسن الهوزني من الفقهاء المشاورين ، ومن أصحاب الأسانيد

(٢٩) انظر ترجمته موسعة في فهرسة تلميذه القاضي عياض « الغنية » طبع تونس ص ١٣٣ وما بعدها – وفي الصلة لابن بشكوال ص ٥٥٨ ط مدريد – صلة الصلة لابن الزبير « المخطوط » ونقله في « أزهار الرياض » – بغية الملتمس للضبي رقم الترجمة ١٧٩ – أزهار الرياض ج ٣ / ٦٢ ، ٨٦ ، ٩٥ – المغرب لابن سعيد ج ٢٤٩/١ – وابن الامام بواسطة «المغرب» – نفح الطيب ج الثاني / ٢٥ – ٤٣ ط دار صادر تحقيق د . احسان عباس – المطمح لابن خاقان ص ٧١ ط السعادة بمصر – المرقبة العليا ص ١٠٥ – وفيات الأعيان ج ٤ / ٢٩٦ – الوافي بالوفيات ٣ / ٣٣٠ – فوات الوفيات – ابن خلدون ج ٦ / ١٨٨ ط بولاق – الكامل لابن الأثير ١٠ / ١٤ – روض القرطاس لابن أبي زرع ص ٨٨ – الديباج لابن فرحون ص ٢٨١ – سلوة الأنفاس للشريف الكتاني ج ٣ / ١٩٨ – تاريخ الجغرافيا والجغرافيين في الأندلس للدكتور حسين مؤنس ص ٣٩٤ – ٤١٦ – مجلة « الأبحاث » التي تصدر عن معهد البحوث بالجامعة الأمريكية ١٩٦٣ ، انظر المقدمة التي صدر بها الأستاذ محب الدين الخطيب تحقيقه وتعاليقه على كتاب العواصم ط الدار السعودية للنشر – وانظر أيضاً صلب «العواصم من القواصم» عند الكلام على حادثة اقتحام الغوغاء دارأبي بكر ابن العربي بتأليب من الفقهاء ، ومن الرسائل الجامعية الصادرة عن دار الحديث الحسنية بالرباط ،رسالة عن كتابي ابن العربي : « الناسخ والمنسوخ ».و « قانون التأويل » : الرسالة الأولى د . عبد الكبير المدغري ، والثانية د. مصطفى الصفيري ، وليس بين علماء المغرب من أسدل عليه من نعوت الجلال والعلم ماكيل حقا وصدقا لهذا الشيخ ، فقد لقب بـ « العارف » و « بعلم الأعلام » و « بحجة الاسلام » و « الحافظ المستبحر » و« المقتدى به » و « تاج المفرق » و « فخر المغرب على أهل المشرق » و« ختام علماء الأندلس »،و« آخر أئمتها وحفاظها وخزانة العلم وقطب المغرب في العلوم » ، و« من لولم ينسب لاشبيلية الا هذا لكان لها به من الفخر ما يرجع عنه الطرف وهو كليل » ، هذا الى ما يحلى به عند ابن خاقان من عظيم الألقاب لغاية ضرورة الفواصل والأسجاع .

العالية في الحديث . وكانت أمه من بيت علم ورياسة في اشبيلية أيضاً ، حسبما ذكر جميعهم ابن بشكوال في الصلة . سمع من أبيه عبدالله بن محمد وهو عمدته في طلب العلم ،ومن خاله، كما سمع ببجاية وبالمهدية ، واكتملت مقومات علمه الجم برحلته المشرقية التي أزمعها للطلب سنة خمس وثمانين وأربع مئة ، وسنه يومئذ نحو سبعة عشر عاماً ، وقد كان في رفقة والده الذي قصد الحج وهو يشد أزراره على كتاب من أمير المؤمنين يوسف بن تاشفين الى خليفة بغداد « المستظهر » يعرض فيه الانضواء تحت خلافة العباسيين(٣٠). ثم دخل الشام كما تقول مصادر ترجمته ، وتفقه بها على أبي بكر الطرطوشي ، وعلى جماعة من الفقهاء والمحدثين ، وقد ذكرت الشام مجملة عند مترجميه من غير تعيين أية حاضرة فيها ، في حين نجد المترجم في كتابه « قانون التأويل » يركز(٣١) في حديثه عن مدينة القدس بالذات على الناحية العلمية التي بهرته بفراهة علم علمائها ، فيذكر أنه قصد مدرسة الشافعية وألفى بها جماعة علمائهم يتناظرون ، فقرر الإقامة لطلب العلم . واتخذ منها على حد تعبيره للعلم مباءة ، وأكثر

---

(٣٠) لما فتح يوسف بن تاشفين المغرب ، واتسعت حدوده ، أوعز اليه شيوخ المغرب باتخاذ سمة الخلافة . ولكنه اكتفى باتخاذ لقب أمير المسلمين،وأصدر مرسوماً بذلك سنة ٤٦٦ ، ثم في آخر عهده أوعز اليه الفقهاء – وكانوا عماد حكمه – أن يحصل على الولاية من خليفة بغداد « المستظهر » ليظفر بطاعة الناس كافة ، فوجه اليه كتاباً مع أبي عبد الله محمد بن العربي والد ابن العربي في هذه الرحلة (التي صاحبه فيها ولده لطلب العلم) ومعه هدية كالمعتاد في مثلها ، فبعث اليه الخليفة بمرسوم الخلافة والخلع المعهودة ، وتوجد سكة مرابطية باسم الخليفة المستظهر .

(٣١) هكذا يعبر صديقنا وقريبنا الأستاذ الكبير ابراهيم الكتاني حين جلب فقرات من رسالة ابن العربي « قانون التأويل » ونصوصاً أيضاً من كتاب « الناسخ والمنسوخ » لابن العربي ومن « القبس » له أيضاً ، ومن هذه النصوص ومما سجله الدكتور حسين مؤنس في « تاريخ الجغرافيا والجغرافيين » ص ٣٩٨ يتجلى مدلول الشام المذكور مجملا في « الصلة » وفي « سلوة الانفاس » وغيرهما (مع العلم بأنه دخل دمشق بعد المقدس) ، وبذلك يتعين أن يذكر أخذه عن الطرطوشي ببيت المقدس من الشام بالذات – (العدد الخاص بالقدس من مجلة « دعوة الحق ») شوال ١٤٠١ – غشت ١٩٨١ .

فيها القراءة ، وخصوصا بباب السلسلة ، كما أفاد أنه حضر مجلساً للمناظرة بين المسلمين والنصارى واليهود ، برئاسة الإمام المغربي أبي بكر الطرطوشي ، ويقول في هذا الإمام الذي زاره بصحبة والده : « إنني شاهدت هديه وكلامه ، فامتلأت عيني به ، وأذني منه ، فأعلمه أبي في نيتي من الإقامة ، فأجاب ، وانفتح اليّ للعلم الباب . وهكذا لم يغادر ابن العربي بيت المقدس الا بعد ثلاث سنوات في الكد والتحصيل ، وخصوصاً في علم الكلام وأصول الفقه ، ومسائل الخلاف مع الإقبال على مطالعة كتب التفسير والحديث والكلام للمؤلفين والمخالفين ، وعرّج عند صدره عنها الى « عسقلان » فألفى بها (بحر أدب يعب عبابه ويغب ميزابه)،فأقام بها ستة أشهر للارتواء من ذلك العباب ، ومن عسقلان دخل دمشق،ثم بغداد وسمع بها من أبي الحسين المبارك الصيرفي ، ومن أبي بكر بن طرخان وغيرهما ، ثم رحل الى الحجاز في موسم تسع وثمانين وأربع مئة،وسمع بمكة من أبي عبدالله الحسين بن علي بن الحسين الطبري الشافعي ، وابن طلحة وغيرهما . ثم عاد الى بغداد ثانية في نحو سنة تسعين وأربع مئة فسمع من شيوخها اذ ذاك ما بين شافعية ، وحنبلية ، ومعتزلة ، وبها صحب أبا بكر الشاشي ، وأبا حامد الغزالي الذي سبق له الاجتماع به في المطاف بمكة . وببغداد أخذ الأدب عن أبي زكريا الخطيب الذي كان يدرّس بالنظامية في نفس التاريخ(٣٢) ثم صدر عن بغداد الى مصر والإسكندرية ، وسمع بها في هذه المرة عن الأنماطي ، وأقام بها عند شيخه وعمدته أبي بكر الطرشوشي وبها

---

(٣٢) جاء في سياق « سلوة الأنفاس » عند ترجمة ابن العربي ما يفهم منه أن قراءة الأدب على أبي زكريا الخطيب كانت بمكة ، ويظهر أنه محض اضطراب في ترتيب الحواضر التي أخذ بها ابن العربي ، لأن أبا زكريا كان يدرس الأدب بالمدرسة النظامية ببغداد في هذه المرحلة — وهي المدرسة التي كان ينتصب فيها الغزالي للتدريس في نفس الوقت — ويذكر عادة عند رحلته الى بغداد أنه لقي بها المهدي بن تومرت.ولكن هذا قد بحث فيه من جهة الموازنة بين التواريخ — ومن جهة أخرى إن ابن العربي لما سئل في المغرب عن هذا اللقاء ، جمجم ولم يبن .

توفي والده سنة ثلاث وتسعين وأربع مئة ، وفي نفس السنة عاد الى اشبيلية بلده بعدما قضى في رحلته تسعة أعوام في الدرس والتحصيل ، ومصداق هذا ماجاء به الحجاري في « المسهب » حين قال فيه : « انه ملأ الشام والعراق بأوابده ، وطبق الآفاق بفوائده »، وقال هو عن رحلته : « كل من رحل لم يأت بمثل ما أتيت به أنا والقاضي الباجي ». وهذه المقومات هي التي رفعته(٣٣) الى الشورى والقضاء ببلده اشبيلية مدة من سنة ثمان وعشرين وخمس مئة وبقرطبة أيضاً (كما في بعض المصادر) ، وتهافت بالرحلة للأخذ عنه خلق ، حيث درس الفقه والأصول ، وجلس للوعظ وتفسير القرآن الكريم .

وقد خلّف مصنفات في مختلف العلوم الدينية ، منها ديوان كبير الحجم(٣٤) باسم « أنوار الفجر » ، وكتاب « أحكام القرآن

(٣٣) وربما أهله لذلك أيضاً مشاركته لوالده في مهمته السياسية ببغداد كما تحدث عنها في رسالة « شواهد الجلة » وفي كتاب « ترتيب الرحلة » الذي سجل فيه محتويات مسودة رحلته الضائعة . ويلفت النظر هنا ، أن الدكتور حسين مؤنس (تاريخ الجغرافيا والجغرافيين في الأندلس) قد بحث في موضوع هذه المهمة سواء بالنسبة الى الوالد أو الولد أو لعهد يوسف بن تاشفين بالذات ، والدكتور يطعن في كل ما جاء به ابن العربي في هذا الصدد بما في ذلك رسالة من أبي حامد الغزالي ، وأخرى من أبي بكر الطرطوشي في تزكية حكم المرابطين ، وكأني بالدكتور يعتمد في عزمه هذا على ما هو مذكور من توهين بعض الفقهاء خصوم ابن العربي لمروياته التي أغرب فيها ، فاتخذ الدكتور من ذلك طريقاً الى التشكيك فيما جاء به . ويظهر أن هذا مردود عليه ، لأن جميع مؤرخيه وإن أشاروا الى ما قيل فيه فانهم يكرون عليه بالنقض ، ويزكون عدالة ابن العربي والثقة فيه ، وقد قال فيه ابن بشكوال من المغرب : « انه ختام علماء الأندلس وآخر أئمتها وحفاظها »، ويقول فيه من المشارقة الحافظ ابن ناصر الدين في « شرح بديعية البيان » :- « كان أحد الحفاظ المشهورين والأئمة المعتبرين من الثقات الأثبات » . هذا الى ان هناك ملابسات تاريخية على عهد يوسف بن تاشفين غفل عنها الدكتور مؤنس ، وهي مما يوهن ما ذهب اليه ، إضافة الى أن هناك نقودا مسكوكة في المغرب تعطينا الخبر اليقين .

(٣٤) - قيل إنه في الأمداح النبوية ، وأورد له بعض مؤرخيه قصائد ومقطعات في غير هذا الباب ، ونجدها متناثرة في بعض المصادر ولا سيما في « نفح الطيب » ، وأطال الضبي في « البغية » على غير عادته ، فجلب بائية طويلة لم يخاطب بها اخوانه ببغداد ، وقطعة دالية يصف فيها كثرة الناس ، واحتفالهم في المصلى يوم العيد .

الكبرى »(٣٥) « والأحكام الصغرى » وغيرها مما يصل تعداده الى نحو الأربعين بين ما هـــو مطبوع ومخطوط(٣٦) ، وبينهـــا ما تعددت أجزاؤه ككتاب « الإنصاف في مسائل الخلاف » الذي يقع في عشرين مجلداً ، وكتفسير القرآن « أنوار الفجر » الذي قيل إنه يطلع في ثمانين سفراً ، كل سفر يطلع في ألف ورقة ، ورآه بعضهم بخزانة السلطان أبي عنان المريني بمراكش في ثمانين مجلدا .

والى جانب التأليف انصرف القاضي مدة الى التدريس بعد انتهاء مدة قضائه باشبيلية،وقرأ عليه جماعة من أمثال الحافظ القاضي عياض ، وكتب عنه واستفاد منه ، وابن بشكوال صاحب « الصلة » ، وأبي بكر بن خير صاحب الفهرسة ، وعالَم من هذه الطبقة .

وقد نكب أيام تدريسه بمحنة تألب الفقهاء عليه،فكبس منزله الغوغاء ونهبوا كتبه (العواصم من القواصم)،واضطر أن يفر من سطح منزله ناجياً بنفسه .

---

(٣٥) – وكتاب « الاحكام » من الكتب الرائجة بين علماء المغرب،وأدركنا من شيوخنا من يستظهرها ، والمعول في مجالس القرويين عند اختلاف الأقوال على ما انتهى اليه ابن العربي في الأحكام .

(٣٦) – عدد منها الشريف الكتاني في « سلوة الأنفاس » ثلاثة وثلاثين ، وبقي عليه ذكر كتاب « ملجئة المتفقهين الى معرفة غوامض النحويين »،ورسالة « شواهد الجلة » التي ذكرها الضبي،و«رسالةالمستبصر»،وثلاثتها من محفوظات الخزانة العامة بالرباط،كما أن من بين المحفوظات بهذه الخزانة كتاب « القبس » في شرح موطأ الإمام مالك – وكتاب « الناسخ والمنسوخ » – و « رسالة المستبصر » ذكر في غضونها فهرسته في طلب العلم » و« ترتيب الرحلة الى المشرق » وهي ضمن مجموع ، وفي مكتبة جامع ابن يوسف مخطوطة كتاب « الوصول الى معرفة الأصول » ، وقد نشر الدكتور احسان عباس لابن العربي « ترتيب الرحلة » في مجلة « الأبحاث » (كما في هامش مصادره)، وهذه الرحلة تعد أول رحلة علمية أسلوبية في تاريخ الرحلات ، وأعني أنها خرجت عن الجانب الجغرافي البحت .

وعندما ظهر أمر الموحدين بعد المرابطين ، وتم استيلاؤهم على مراكش نرى ابن العربي أكبر شـيوخ الوافـدين على الخليفة عبد المؤمن بن علي الكومي لتقديم الولاء ، وكأنها كانت ظاهرة لنشوته السياسية ، استيقظت فيه بقيام الدولة الموحـدية .

وكانت وفاته رحمه الله منصرفه من مراكش الى فاس ، فأدركته المنية في الطريق على مرحلة منها بموضع يعرف بمغيلة الى اليوم ، وقد حمل على الأعناق ميتاً الى فاس. ودفن بها لثلاث خلت من شهر ربيع الأول سنة ثلاث وأربعين وخمس مئة ، وأقبر بباب المحروق ، وعلى قبره قبة ، وهي من مزارات فاس .

هذا هو العلامة الفذ الذي دخل بغداد مرتين، فطاب له بها المقام ، وأفاد واستفاد بالدرس والتدريس ، ولم يفته أن يكون من رواة مصنفات أبي بكر الخَطيب حافظ بغداد ، وهكذا أخذ عن أبي محمد جعفر السـراج(٣٧) عن الخطيب : « كتاب شـرف أصحاب الحديث » — وكتاب « تقييد العلم » — وكتاب « الرحـلة في طلب العلم »(٣٨) « وكتاب أسـماء من روى عن مالك بن أنس » .

كما أخذ عن أبي محمد السراج المذكور جزءاً فيه كتاب « النصيحة لأهل الحديث » ، وفيه أيضاً « الرسالة المجهولة وتنويعها وانقسامها »(٣٩) .

وأخذ أيضاً عن أبي الحسين الطيوري(٤٠) عن الخطيب .

---

(٣٧) — هو أبو محمد جعفر بن أحمد بن الحسين السراج المعروف بالقاريء: حافظ عصره وعلامة زمنه ، وشاعر مكثر. من تصانيفه « مصارع العشاق » . ومن الآخذين عنه أبو طاهر السلفي الذي كان يعتز بروايته . توفي ببغداد سنة ٥٥٠هـ . انظر ترجمته في وفيات الأعيان، وفي العبر للذهبي ج ٣٥٥/٣ ، والمنتظم لابن الجوزي ج ٥١/٩ .

(٣٨) — فهرسة ابن خير ، ص ١٨١ — ١٨٢ .

(٣٩) — فهرسة ابن خير ، ص ٢٢٦ .

(٤٠) — هو أبو الحسين المبارك بن عبدالجبار الصيرفي البغدادي المحدث المتوفى سنة ٥٠٠هـ (انظر العبر للذهبي ج ٣٥٦/٣) تحقيق فؤاد السيد — الكويت ١٩٦١

ومن الآخذين مصنفات أبي بكر الخطيب عن تلامذته :

الامام الحافظ الكبير فخر الأندلس ابو على الصدفي

(٤٥٢ – ٥١٤)(٤١)

أبو علي الحسين بن محمد بن فيرة (بكسر الفاء وتشديد الراء مع فتحها ، اسم اسباني ومعناه الحديد) بن حيون(٤٢) الصدفي ، ويعرف بابن سكرة (بضم السين وفتح الكاف مع التشديد)، كما يعرف بابن الدّراج ، من شرق الأندلس ، ، ومن أهل سرقسطة ، ولد بها سنة اثنتين وخمسين وأربع مئة ، وسكن مرسية .

روى بالأندلس في سرقسطة عن القاضي أبي الوليد سليمان الباجي المتقدم الذكر ، وبها أخذ القراءات عن أبي الحسن بن محمد صاحب أبي عمرو الداني إمام القراءات بالأندلس ، وسمع ببلنسية عن أبي العباس العذري ، وسمع بالمرية عن أبي عبدالله بن سعدون القروي ، وأبي عبدالله بن المرابط . وممن أخذ عليهم بالمغرب حافظ المغرب أبو عمر بن عبدالبر ، وسمع منه القاضي عياض السبتي الآتي الذكر واعتمد عليه ، وأبو محمد بن عيسى ، وأبو علي بن سهل ، وأخذ عنه بالمرية جماعة ، لطول مقامه بها، وأجاز كما سيأتي أمثال أبي القاسم بن بشكوال من المغاربة ، وأبي الطاهر السلفي من المشارقة ، وغيرهما .

(٤١) – أنظر مصادر ترجمته في : « الصلة » لابن بشكوال ج الأول – ١٤٥ – ١٤٨ – الترجمة ص ٣٢٧ ط مدريد – « بغية الملتمس » ص ٢٥٣ – ٢٥٤ ط مدريد – ومصور بمكتبة المثنى – شذرات الذهب ج ٤٣/٤ مكتبة المقدسي القاهرة – مرآة الجنان الجزء ٢١٠/٣ ط حيدر أباد – كشف الظنون ج الثاني / ١٧٣٦ – الديباج لابن فرحون ص ١٠٤ – « الغنية » وهي فهرسة القاضي عياض » ص ١٩٢ = ٢٠١ رقم الترجمة ٤٧ ط تونس – أزهار الرياض ٥١/٣ –فهرس الفهارس ج الثاني /١١٠. وأفرد ابن الأبار الآخذين عنه بكتاب « معجم أصحاب أبي علي الصدفي » المطبوع بمدريد ومصر .

(٤٢) – تصغير يحيى في لسان الأندلسيين .

رحل الى المشرق سنة احدى وثمانين وأربع مئة،وحج من عامه . ومن أهم من لقيهم بمكة أبو بكر الطرطوشي ، وأبو عبدالله الحسين الطبري إمام الحرمين . ثم صار الى البصرة ، فلقي بها جماعة من أعلامها كأبي يعلى المالكي ، وأبي العباس الجرجاني،وغيرهما . ثم خرج الى بغداد يوم الأحد السادس عشر لجمادى الآخرة سنة اثنتين وثمانين وأربع مئة . فأقام بها خمس سنين ، وسمع من جماعة منهم أبو يعلى المالكي ، وأبو الفضل بن خيرون قرين أبي بكر الخطيب . واختص بأبي بكر الشاشي الفقيه الشافعي طوال مدة مقامه ببغداد ، فتفقه عليه ، وعلق عنه تعليقته الكبرى في مسائل . كما سمع بها من أبي الفوارس طراد بن محمد الزينبي ، ومن أبي المعالي الاسفراييني ، وجماعة من هذه الطبقة ، من رجال بغداد ومن القادمين عليها ، كما حدث أيضاً ببغداد ، وسمع على جماعة من القراء . ثم دخل واسطَ ، وسمع من أبي المعالي محمد ابن عبدالسلام الأصبهاني وغيره . ثم رحل سنة سبع وثمانين الى دمشق ، ومن ثم ذكره الحافظ ابن عساكر في التاريخ ، وسمع من أبي الفتح نصر المقدسي وطبقته ، وسمع بمصر من القاضي أبي الحسن علي بن الحسين الخلعي وغيره ، وأجاز له بها أبو اسحاق الحبال مسند مصر في وقته . كما سمع بالاسكندرية من أبي القاسم مهدي بن يوسف الوراق وغيره .

والواقع أنه لا تمكن الإحاطة بشيوخه ، وانما أقتصر هنا على ما يعطي صورة عن طبقته،(٤٣) وان اتساع روايته على هذا الوجه قد جعلت منه كما قال مؤرخوه حافظاً عارفاً بالحديث وطرقه وأسماء رجاله ونقلته ، وعلله ، بصيراً منهم بالمعدلين والمجرحين . مستظهراً لمصنفاته ، حتى إنه قال لبعض الفقهاء :« خذ

---

(٤٣)– وقد خصه القاضي عياض السبتي بتأليف في شيوخه فذكر له مئة وستين شيخاً ، كما أفرد تلميذه الفقيه المحدث الكاتب البارع أبو بكر القضاعي والمشهر بابن الأبار معجما.(وهو المعروف المطبوع باسم المعجم في أصحاب القاضي الإمام أبي علي الصدفي) ويقول في المقدمة أنه ضاهى به أبا الفضل عياض في جمع شيوخه وحصرهم .

الصحيح فاذكر أي متن أردت ، أذكر لك سنده ، وأي سند أردت أذكر لك متنه » . ومن إقباله على الحديث أنه كتب بخطه المذكور بالجودة صحيح البخاري(٤٤) وصحيح مسلم .

وقد كانت عودته من هذه الرحلة الى بلده الأندلس في صفر من سنة تسعين وأربع مئة،وقصد مرسية ، وقعد يحدث الناس بجامعها ، ورحل اليه الطلاب من جميع جهات الأندلس للأخذ عنه .

ويضاف الى علم هذا الشيخ بالحديث والفقه علوم القراءات التي سمعنا منذ لحظات شيوخه فيها من أهل سرقسطة وبغداد .

ومن تمام كماله زهده ، حيث أكره على القضاء بمرسية فوليه ، ثم اختفى بالمرية ، وأخذ الناس عنه فيها .

---

(٤٤) — توجد بطرابلس الغرب كما في كتاب « المزايا » (خ) للحافظ ابن عبدالسلام الناصري نسخة بخط الحافظ الصدفي في مجلد واحد مدمج ، وبخط غير منقوط ، وفي هذه النسخة سماع عياض من الشيخ الصدفي بخطه ، وفي أول النسخة كتابة بخط ابن جماعة ، والحافظ الدمياطي ، وابن العطار ، والسخاوي قائلا : هذا الأصل هو الذي ظفر به شيخنا ابن حجر العسقلاني ، وبنى عليه شرحه « الفتح » واعتمد عليه .
وقد أشار أيضاً الحافظ عبدالسلام الناصري في رحلته الصغرى الى هذه السماعات . ووصف هذه النسخة أيضاً جد كاتبه الفقيه المدرس أبو العباس أحمد بن محمد بن أحمد بن محمد ابن الشيخ أبي البركات وأبي السعود محمد عبدالقادر الفاسي في رحلته الحجازية (عام ١٢١١هـ) فقال : وقفت على نسخة من البخاري في سفر واحد . وبعد ذكر صفحاتها وما ابتدئت به قال : وبآخرها عند التمام ما صورته (آخر الجامع الصحيح الذي صنفه أبو عبدالله البخاري رحمه الله والحمد لله على ما من به ، واياه أسأل أن ينفع به ، وكتبه حسين بن محمد الصدفي من نسخة بخط محمد بن علي بن محمود مقروءة على أبي ذر رحمه الله وعليها خطه،وكان الفراغ من نسخه يوم الجمعة ٢١ محرم عام ثمانية وخمسمئة والحمد لله كثيراً كما هو أهله وصلواته على (محمد) (ص) كثيراً أثيراً ، وعلى ظهرها كتاب الجامع الصحيح من حديث رسول الله (ص) وسننه تصنيف أبي عبدالله محمد بن اسماعيل البخاري رضي الله عنه رواية أبي عبدالله محمد بن يوسف الفربري عنه رحمه الله الحسين ابن محمد الصدفي) ، ثم ذكر أبو العباس أحمد الفاسي الواقف على النسخة من وقفه عليها ، وذكر له أنه اشتراها من اسلامبول .

وأخيراً تجملت هذه الحياة المعطرة بالسنة النبوية . بشهادة مرضية ، وذلك في وقعة « قتندة »(٤٥) سنة أربع عشرة وخمس مئة .

أما روايته مصنفات أبي بكر الخطيب، فقد لاحظنا أن من بين من أخذ عنهم في بغداد أبا الفضل بن الحسن بن خيرون(٤٦)، فعن تلميذ الخطيب هذا وعن تلميذه أيضاً الشيخ أبي بكر محمد بن عبدالباقي(٤٧) كتاب « شرف

(٤٥) – ويقال أيضاً « كوتندة » بالكاف المضمومة وبالتاء المضمومة والنون الساكنة من حيز « دورقة » من عمل سرقسطة ، حيث خرج مع أحد أقرانه في الفضل غازيين ، فكانا فيمن فقـد فيها ، وقد كانت في هذه الوقعة الكائنة على المسلمين ، ويقال إن القاضي أبا بكر بن العربي حضر هذه الوقعة، وسئل مخلصه منها عن حاله، فقال : « حال من ترك الخبا والعبا » .

(٤٦) – هو الحافظ أبو الفضل أحمد بن الحسن بن أحمد البغدادي المعروف بابن خيرون المتوفى سنة ٤٨٨ تدبج مع الخطيب فهو من أكبر تلامذته وأقرانه . حلاه الذهبي بالحافظ العالم الناقد ، في شيوخه كثرة ، وتنزل حتى سمع من أقرانه ، وتفرد باجازة طائفة ، ووثقه السمعاني وأثنى عليه ، وكان يقال فيه :هو في زمانه كيحيى بن معين في زمانه ، اشارة الى كلا مه في شيوخ العصر جرحاً وتعديلا مع الانصاف ، ناله كلام وهنه (ولعل هذا سر ذكره في « لسان الميزان ») بسبب ما كان يلحقه من الحواشي على تاريخ الخطيب ، وقد نافح عنه الذهبي وبين أنه مأذون بذلك من الخطيب .

يروي المغاربة فهرسة ابن خيرون من طريق القاضي عياض عن أبي علي الصدفي ، بل ان ابن خيرون أجاز بها جميع المسلمين الموجودين وقت الاجازة سنة ٤٨٦ – انظر ترجمته في تذكرة الحفاظ ج ١٢٠٧/٤ الترجمة ١٠٣٤ – شذرات الذهب ج ٣٨٣/٣ – لسان الميزان ج ١٥٥/١ – فهرس الفهارس ج ٢٨٧/١ .

(٤٧) – أبو بكر محمد بن أحمد بن عبدالباقي بن منصور البغدادي الدقاق المعروف بابن الخاضبة المتوفى سنة ٤٨٩ ، حلاه الذهبي بالحافظ الإمام القدوة ، مفيد بغداد (المقصود بالمفيد في اصطلا حهم من يفيد طلاب العلم حتى باعارة الكتب وتمليكها والاعانة على الطلب) ، قرأ الكثير وكتب وخرج وأفاد ، مع صحة القراءة في شيوخه كثرة، منهم أبو بكر الخطيب ، وحدث عنه بعدد من كتبه ، وروى عن ابن المسلمة ، ورحل الى الشام ، وسمع طائفة ، وقال فيه أبو الحسن الفصيحي : ما رأيت في المحدثين أقوم باللغة من ابن الخاضبة . وروى عن أبي بكر بن عبدالباقي أبو علي الصدفي، وقال الصدفي فيه : كان محبوباً الى الناس كلهم ، فاضلا حسن الذكر ، وما رأيت مثله على طريقته – وكان لا يأتيه مستعير كتابا الا أعطاه أو دله عليه . انظر ترجمته في تذكرة الحفاظ ص ١٢٢٤ الترجمة ١٠٤٤ – شذرات الذهب ج ٣٩٣/٣ .

أصحاب الحديث » وهو ثلاثة أجزاء – وكتاب « تقييد العلم » – وكتاب « الرحلة في طلب العلم » – وكتاب « أسماء من روى عن مالك المبوب على حروف المعجم » (٤٨) .

وعن أبي بكر محمد بن أحمد بن عبدالباقي المذكور يروي كتاباً فيه « خطبة عائشة في الثناء على أبيها رضي الله عنهما »، ومن ابن عبدالباقي الى أبي بكر الخطيب (٤٩) .

وعن الشيخ أبي بكر بن عبدالباقي أيضاً يروي الصدفي الجزء الذي خرجه الخطيب،فيه خطبة عائشة في ذكر أبيها وذكر عمر بن الخطاب أيضاً، وفيه أحاديث غريبة ومنامات ورقائق وانشادات في الزهد (٥٠) .

وعن ابن عبدالباقي أيضاً يروي عن أبي بكر الخطيب شرح غريب هذه الخطبة لابن الانباري (٥١) .

وحدثه من المغاربة الحافظ أبو عبدالله الحميدي بكتاب « الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع » الذي حدثه به مصنفه الخطيب (٥٢) .

وممن تدبج مع ابي علي الصدفي ويعد في الرواية من طبقته :

ابو الحسين بن الطلاء

(٤٧٥ – ٥٥١)(٥٣)

هو أبو الحسين (٥٤) عبدالملك بن محمد بن هشام بن سعد، بن الطلاء

(٤٨) – فهرسة ابن خير الاشبيلي ، ص ١٨١ ط مدريد .

(٤٩) – فهرسة ابن خير ، ص ١٦٦ .

(٥٠) – فهرسة ابن خير ، ص ١٧٩ ط مدريد .

(٥١) – فهرسة ابن خير ، ص ١٦٦ ط مدريد .

(٥٢) – فهرسة ابن خير ، ص ١٨٢ ط مدريد .

(٥٣) – انظر ترجمته في « الصلة » لابن بشكوال ٤٤٦ ت ٩٧٢ ط مدريد – « بغية الملتمس» ص ٣٢١ ترجمة ١٠٥٥ – « الذيل والتكملة » لابن عبدالملك ص ٤٢/٥ – ٤٤ معجم اصحاب ابي علي الصدفي لابن الأبار ٢٥١ ترجمة ٢٣٢ – وفي التكملة له ٦١٤ ترجمة ١٧١٥ .

الشلبي(٥٥) القيسي المجد،الحافظ المتسع الرواية الضابط المتقن،البصير بالحديث والمنوه عنه بآخر علماء الحديث من غرب الأندلس ، الوافر الحظمن علوم اللسان ، استقضي وشوور ، وخطب . روى ببلده شلب عن أبي عبدالله بن شبرين،وعنه أخذ علم الكلام وأصول الفقه ، كما حذق عليه معرفة اللغة والأدب وعلم اللسان ، والأنساب والمشاركة في علم الاعتقادات وأصول الديانات ، وباشبيليه عن أبي الحسن الأخضر ، واختلف اليه كثيراً في علوم اللسان وعليه معوله ، وأبي الحسن شريح بن محمد،وجماعة.ورحل الى أبي علي الصدفي فسمع منه الصدفي .وله رواية عن أبي القاسم أحمد بن أبي الوليد الباجي،وأبي عبدالله الخولاني،وجماعة من أهل مرسية أيضاً . وسمع من أهل المشرق جماعة،منهم قرين أبي بكر الخطيب أبو الفضل بن خيرون ، وأبو بكر الطرطوشي ، وأبو الطاهر السلفي . وغيرهم من أعلام هذه الطبقة .

وأخذ عنه جماعة من جلة الشيوخ.في طليعتهم أبو بكر بن خير صاحب الفهرسة الآتي ذكره . كما حصل على اجازات مغربية ومشرقية متعددة ، فمن الأندلس أجاز له أبو الاصبغ عبدالعزيز الحضرمي الميروقي ، وأبو بكر الطرطوشي نزيل الاسكندرية.وأبو الحسن شريح . وابن الطلاع . ومن المشارقة : أبو الحسن بن الأنماطي . وأبو طاهر السلفي . وأبو الفضل بن خيرون الذي أجازه إجازة عامة . وبحكم هذه الإجازة العامة التي حدث بها يكون إسناده متساوياً مع أبي علي الصدفي المعرف به قبل . فهو يروي بالإجازة من مصنفات الخطيب كل ما رواه به أبو علي الصدفي منها ، وبذلك يكون أوفر المترجمين حظاً من رواية مصنفات أبي بكر الخطيب .

---

(٥٥) – كان أبوه يطلي اللجم وغيرها بالفضة،فنسب الى ذلك (التكملة لابن الأبار) ترجمه في الصلة ٣٤٦/١ الترجمة رقم ٧٥٠ ط مدريد – وانظر فهرسة ابن خير ، ١٨١ – ١٨٢ – معجم أصحاب الصدفي ، ص ٢٣٥ الترجمة ٢١٥ ط مدريد – بغيه الملتمس ٣٣٥ الترجمة ١٠٣١ ط مدريد .

وممن روى بالأجازة عن أصحاب أبي بكر الخطيب ، وبالسماع من تلامذة أصحابه :

ابن غشليان

(- ٥٤١ هـ)

أبو الحكم عبد الرحمن بن غشليان بن عبد الملك بن غشليان الأنصاري : من أهل سرقسطة ، وسكن قرطبة . وعرف بالذكاء والمعرفة واليقظة ، روى عن جماعة من الأندلسيين ، وتدبج مع الشيخ أبي القاسم خلف بن عبد الملك ابن بشكوال صاحب الصلة ، وأجاز له جماعة من علماء المشرق ، وأخذ الناس عنه .

روى إجازة عن الحميدي قرين الخطيب عن الخطيب كتاب « الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع » . وروى إجازة عن تلميذي الخطيب أبي بكر بن عبد الباقي وأبي الفضل أحمد بن الحسن بن خيرون إجازة أيضاً عن أبي بكر الخطيب : كتاب شرف أصحاب الحديث ثلاثة أجزاء ، وكتاب تقييد العلم ، وكتاب الرحلة في طلب العلم . وكتاب أسماء من روى عن مالك بن أنس مبوباً على حروف المعجم من تأليف أبي بكر .

وحدثه بها القاضي أبو بكر بن العربي عن أبي محمد جعفر بن أحمد بن الحسين السراج عن أبي بكر الخطيب .

وممن يروي مصنفات الخطيب سماعاً تارةً بواسطتين وتارةً بثلاث ، ويرويها أيضاً إجازة بواسطتين :

الامام الحافظ ابو بكر محمد بن(٥٦) خير
(٥٠٢ – ٥٧٥ هـ)

وهو أبو بكر محمد بن خير بن عمر بن خليفة مولى ابراهيم بن محمد ابن يعمور اللمتوني الأموي كما كان ينتسب . لازم أبا الحسن شريح بن محمد ، واختص به الى وفاته ، وعنده برع في الإقـراء ، وبذلك عد في المقرئين المجودين ؛ سمع منه ومن أبي بكر بن العربي ومن طبقته ، ولقي بقرطبة أبا الحسين بن الطلاء السابق ذكره ، وجماعة من هذه الطبقة التي يعزى اليها تبريزه في اللغة والنحو والأدب .

كما أجاز له من أعلام الأندلس ابن موهب السابق ذكره ، وأبو محمد ابن عتاب . والرشاطي . ومن المشرق أبو طاهر السلفي ، وأبو عبدالله المازري . وقد امتاز بالإكثار من السماع ،والتبحر في الرواية ، وتقييد الآثار ، فعني بالأخذ حتى عن أصحابه الذين شاركهم في السماع ، واستوعب فهرسته المشهور نيفاً ومئة رجل . وهذا أصل ما سنلحظه بعد لحظات من تنوع روايته عن الخطيب البغدادي رحمهما الله .

كما امتاز في تقييده وروايته بالضبط والإتقان . حتى قيل : « انه لم يكن له نظير في هذا الشأن » . وبهذا عرف واشتهر . فتغالى(٥٧) الناس بعـد موته في اقتناء كتبه . وتوفي رحمه الله بقرطبة سنة خمس وسبعين وخمس مئة .

ويروي أبو بكر بن خير عن أبي بكر بن العربي عن أبي محمد جعفر ابن أحمد السراج (تلميذ الخطيب المتقدم ذكره في حاشية سابقة) عن الخطيب :

---

(٥٦) – أنظر ترجمته في : التكملة لابن الأبار تحت رقم ٧٨٠ – تذكرة الحفاظ للذهبي ١٣٦٦/٤ – طبقات الحفاظ للسيوطي ص ٤٨٣ تحقيق محمد علي عمر

(٥٧) – توجد بمكتبة القرويين بفاس نسخة من صحيح مسلم التي قابلها ابن خير مراراً،وسمع فيها وأسمع ، وبها تعد أعظم أصل موجود من صحيح مسلم في افريقية ، وعليها طرود وفوائد وشروح .

شرف أصحاب الحديث ـ تقييد العلم ـ الرحلة في طلب الحديث ـ كتاب أسماء من روى عن مالك بن أنس مدوناً على حروف المعجم(٥٨) .

ويرويها أيضاً عن أبي الحسين عبد الملك بن محمد بن هشام (المتقدم الذكر) عن أبي علي الصدفي عن تلميذي الخطيب أبي بكر بن عبد الباقي بن منصور وأبي الفضل بن خيرون عن الخطيب(٥٩) .

ويرويها إجازة عن أبي الحكم بن غشليان عن ابن عبد الباقي وابن خيرون المذكورين إجازة عن الخطيب .

ويروي عن ابن موهب الشيخ أبي الحسن علي بن عبد الله عن القاضي الباجي عن الخطيب : الفصل للوصل ـ المكمل في بيان المهمل(٦٠) .

ويروى عن الشيخ أبي الحسين عبد الملك بن محمد بن هشام عن أبي علي الصدفي عن القاضي الحميدي عن الخطيب : كتاب الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع .

ويرويه إجازة عن أبي الحكم بن غشليان عن الحميدي إجازة أيضاً عن الخطيب .

ويروي عن أبي الحسن علي بن عبد الله بن موهب عن الباجي عن الخطيب :

كتاب الموضح لأوهام أبي عبد الله البخاري في التاريخ الكبير(٦١) .

ويروي عن القاضي أبي بكر بن العربي عن أبي محمد السراج عن الخطيب جزءاً فيه النصيحة لأهل الحديث فيه الرسالة في الإجازة المجهولة وتنويعها وانقسامها(٦٢) .

(٥٨) ـ فهرسة ابن خير ، ص ١٨١ ـ غاية النهاية ١٣٩/٢ الترجمة رقم ٢٩٩٨ .
(٥٩) ـ فهرسة ابن خير ، ص ١٨١ ط مدريد .
(٦٠) ـ فهرسة ابن خير ، ص ١٨٢ ط مدريد .
(٦١) ـ فهرسة ابن خير ، ص ٢٢٤ .
(٦٢) ـ فهرسة ابن خير ، ص ٢٢٦ .

ويروي الاجازة المجهولة أيضاً(٦٣) وذلك بالإجازة عن الشيخ أبي عبد الله محمد بن أحمد بن موسى بن وضاح الآتي الذكر عن أبي زكريا بن شبل قراءة عليه بالاسكندرية سنة ٥١١ قراءة على الخطيب بمدينة (صور) ، ويروي إجازة عن ابن موهب ، إجازة عن الباجي عن أبي بكر الخطيب : كتاب « تقييد العلم » ، و « الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع » ، و « شرف المحدثين » (فهرسة ابن خير ٢٦٠ – ٢٦١) .

ومن أشهر وألمع رواة مصنفات الحافظ الخطيب عن تلامذته ثم عن تلامذة تلامذته أيضاً ، علم المغرب الأشهر :

شيخ الاسلام حافظ المذهب المالكي
القاضي أبو الفضل عياض اليَحْصُبِي
(٤٩٦ – ٥٤٤هـ)(٦٤)

هو عياض بن موسى بن عياض بن عمرو (أو عمرون) بن موسى بن عياض بن محمد بن عبد الله بن موسى بن عياض . كان منزل آبائه بالأندلس

(٦٣) – فهرسة ابن خير ، ص ٢٢٦

(٦٤) – اليحصبي نسبة الى يحصب القبيلة اليمنية ، خصه بكتاب في ترجمته كل من المقرى صاحب « النفح » بكتابه « أزهار الرياض » في خمسة أسفار ،وهو مطبوع بالرباط ، كما أفرد جزءاً لترجمته ولده القاضي أبو عبدالله،وهو المعروف بكتاب « التعريف » الذي طبع أخيراً بالرباط بتحقيق وتقديم الأستاذ الكبير محمد بن شريفة ، كما خصه بالتأليف مسند أفريقية محمد بن جابر الوادياشي التونسي ، وترجمته أيضاً في « الصلة » لابن بشكوال ج ٤٤٦/٢ ترجمة ٩٧٢ ط مدريد، وفي « بغية الملتمس » رقم الترجمة ١٢٩٦ – « قلائد العقيان » لابن خاقان ص ٢٥٥ وما بعدها طبع تونس – معجم أصحاب أبي علي الصدفي ص ٢٩٤ ط مدريد – « جذوة الاقتباس » لابن القاضي ٤٩٨/٢ المطبعة الملكية بالرباط – الديباج لابن فرحون ص ١٦٨ مطبعة السعادة – « الإعلام بمن حل بمراكش وأغمات من الأعلام » لقاضي مراكش ومؤرخها المرحوم عباس بن ابراهيم السملالي ٣١٩/٩ = ٣٩٧ (المطبعة الملكية بالرباط) – « اظهار الكمال »

بجهة (بسطة)(٦٥)، ومنها انتقلوا الى فاس،ثم الى مدينة سبتة ، وكان لهم استقرار بالقيروان قبل أو بعد نزولهم بالأندلس .

وبسبتة ولد ست وسبعين وأربع مئة ، وسبتة يومئذ معبر الغادين والرائحين من الأعلام بين الأندلس وبين عدوة المغرب والقيروان ، وبسبتة اكتملت ثقافته قبل أن يغادرها الى الأندلس لمجرد الحرص على التأكد من سلامة النقل وإكمال منهجه بالتوسع في الرواية ولقاء الشـيوخ ، فلم يكن به من حاجة الى الرحلة في طلب العلم بالمشرق(٦٦) بعد امتلاء عَيْبَتِـه وكظة وطابه بجماع معارف عصره ، فشيوخ عياض الذين استوعبتهم فهرسته « الغنية » يقاربون المئة ، منهم : ابن العربي المعافري (كما أشير اليه سابقاً) ، وأبو بكر بن عطية —

= ص ٨٣ وما بعدها (طبعة حجرية) – السعادة الأبدية لابن الموقت ج الأول ص ٧٧ ط حجر – فهرس الفهارس ج ٢ ص ١٨٣ – الاحاطة لابن الخطيب ج ٢٢٢/٤ تحقيق عبدالله عنان – تذكرة الحفاظ المجلد الثاني ج /١٣٠٥/٤ – « وفيات الأعيان » ج ٤٨٣/٣ تحقيق الدكتور احسان عباس – « روضات الجنات » ص ٥٠٦ – « الوافي بالوفيات » ج ٥ مجلد ٣ ورقة ٥٩٦ خ – « النجوم الزاهرة » ج ٢٨٥/٥ . ط المؤسسة المصرية العامة وقد ذكره غير ما واحد من أصحاب التراجم والمؤرخين من مشارقة ومغاربة كالشعراني في الطبقات ، وأبي الحسن الحريشي في « فتح الفياض » وهو شرحه على الشفا للقاضي عياض،وابن مريدة المراكشي في « الكواكب السيارة في الحث على الزيارة » كما فسحت له الفهارس المغربية والمشرقية في صفحاتها ، كفهرسة الشهاب العجمي،وفهرسة الشيخ ابن الحسن بناني ، و« ثبت » الشيخ الأمير ، والشمس القاوقجي في أوائله ، وغيرها – أصدرت مجلة « المناهل » التي تصدرها وزارة الثقافة المغربية عددها (١٩) خاصا بالقاضي عياض ، كما أن هذه الوزارة أقامت له ندوة حوله ألقيت فيها بحوث متنوعة وهي قيد الطبع الآن .

(٦٥)– بسطة في الشمال الشرقي من مدينة غرناطة ، على بعد ١٢٣ كلم .

(٦٦)– قد نقع على بعض المصادر الأندلسية التي تقول : رحل الى الشرق،ولكن هذا انما يعني عندهم شرق الأندلس حيث أم مرسية في أثناء غيبة شيخه الإمام أبي علي الصدفي عنها فراراً من ولاية القضاء ، وهذا الاصطلاح الأندلسي في مفهوم كلمة الشرق قد انجر الى مؤرخي الأندلس من فقرة المؤرخ الرازي حين قال : « والأندلس أندلسان شرق وغرب حتى انهم في مقدمات تواريخهم الجغرافية يستعيرون نفس الفقرة بحروفها » .

الآتي ذكره – على أن شهرته العلمية قد أظفرته بشيوخ مشارقة ، فكتب اليه من القاهرة أبو نصر النهاوندي ، وأبو بكر الطرطوشي ، وأبو طاهر السلفي ، ومن المهدية أبو عبدالله المازري ، وغيرهم .

وإن ما تزخر به كتبه من فيض العلوم والتفنن في الآداب والتجمل بمحمود الخلال ثم انطلاق التنويه به(٦٧) والإعجاب بآثاره من المشرق والمغرب على السواء ، يغري الباحث بالالتفات الى شبه كبير بينه وبين الحافظ أبي بكر الخطيب الذي ظفر بنعوت الكمال في علمه وأوصاف الجلا ل ما هو قمين به .

لقد قيل عن عياض : لولا عياض ما ذكر المغرب .

وقيل في أبي بكر الخطيب : ما أخرجت بغداد بعد الدارقطني أحفظ من الخطيب .

ولعل هذا أيسر الكثير الذي قيل في حقهما ، فلا حاجة الى مزيد .

وإن التشابه في محصولهما العلمي ليماثل تشابههما الخلقي ، والإنساني ، والجمالي . فاذا كان الخطيب البغدادي يثب الى أذهاننا في زينة حسن سمته الذي كان – كما قيل – في درجة الكمال ، والرتبة العليا خلقا وهيأة ومنظراً ، فالقاضي أبو الفضل عياض قائم في خيالنا وهو ماض الى تدريس الحديث متجملا بأحسن الثياب . ومتضمخاً بنفحات الطيب . واذا كان أبو بكر الخطيب قد خلف في وصيته مجموعة من الألبسة ، لتباع ويوزع ثمنها على طلاب الحديث . فالمعروف عن أبي الفضل عياض أنه كان كجده يغدق الكثير على ذوي الخصاصة وعلى طلاب العلم .

(٦٧) – أنظر في فهرس الفهارس للكتاني جملة من شهادات أعلام المشرق له : كالذهبي ، وابن خلكان ، وابن صعد صاحب النجم الثاقب ، والسخاوي ، وانظر تنويهات المغاربة بعلمه في فهرسته « الغنية » ، وفي كتاب التعريف لولده ، وفي المقدمة التي استهل بها المرحوم الأستاذ محمد بن تاويت الطنجي تحقيقه لكتاب « ترتيب المدارك » .

والتشابه بينهما يبدو أشد وضوحاً في محصول معرفتهما ، فالإمامة معقودة لهما في الحديث وعلومه ، وفي الفقه وأصوله ، وفي التاريخ ، وفي اللغة والأدب ، وقرض الشعر ، وترسيل النثر ، وفي منهاجية التأليف القائمة على الإتقان ، والترتيب والتبويب والعرض البديع والبيان والتبيين .

لقد أضفي على أبي الفضل عياض لقب حافظ المذهب المالكي ، وفي الحديث جمع الكثير ، وصنف غير ما كتاب في علومه ، وانزوى في كسر بيته السنين لتصنيف « الشفا بتعريف حقوق المصطفى » فحمله الناس عنه ، ولم ينازعه أحد في الانفراد به ، ولا أنكروا السبق اليه ، وصارت نسخه شرقاً وغرباً ، وتشوف أهل الآفاق للوقوف عليه ، وتعدد شراحه مشرقاً ومغرباً(٦٨) ، وأفردت أحاديثه المسندة — وهي ستون — بالتأليف ، ورواه عنه خلق ، وأدى السند اليه الرحالة ابن جبير الى المشرق فنفق ، فهو المرجع في آفاق الإسلام لكل من أراد رواية الكتب الستة من طريق مؤلفه عياض ، ولا يقل كتابه « مشارق الأنوار »(٦٩) نفاسة وشهرة ، وهو الذي نوه به أبو عمرو بن الصلاح الشهرزوري شعراً ، وأيسر ما قيل فيه نثراً : لو كتب بالذهب أو الجوهر لكان قليلا ، ومن أهمها — وهو مطبوع(٧٠) كسابقيه — « الإلماع في ضبط الرواية وتقييد السماع » .

(٦٨) — أنظر في كشف الظنون (٦٢/٢) أسماء بعض من شرحه من أعلام المشرق ، ومن أنفس الشروح المغربية « مفتاح الشفا » للحافظ أبي زيد عبدالرحمن بن شيخ الإسلام عبدالقادر الفاسي .

(٦٩) — طبعت ملزمة منه قديماً في عهد السلطان مولاي عبدالحفيظ ثم طبع الجزء الأول منه مؤخراً بعناية وزارة الأوقاف والشؤون الاسلامية .

(٧٠) — حققه وقدم له الأستاذ صقر — دار التراث القاهرة ، وقد قلده أبو عمرو بن الصلاح ، وأغار عليه ، كما استقى منه السيوطي ، والزركشي ، والبلقيني ، وابن جماعة ، والسخاوي ، وغيرهم .

ويتجلى في أكثر كتبه تبحره في اللغة حين تصديه لشرح الأحاديث ، وفي كتابه « بغية الرائد » في « شرح حديث أمّ زرع »،وهو من المطبوعات أيضاً بالرباط.وفيه قال الحافظ ابن حجر في الفتح : إنه أجمع الشروح وأوسعها ، ومنه أخذ غالب الشراح بعده .

وتتصدر مصنفات أبي الفضل عياض آثاره التاريخية ، فقد دون في فرع تاريخ المدينة ، وتاريخ الدولة ، وتاريخ الرجال(٧١) .

ومادة الأدب ماثلة في كتابه « بغية الرائد » المذكور،ويعرضه علينا باذخ الغنى في متن اللغة وشواردها .

وكل منهما خطب بالمساجد الجامعة ، وقد حفظت للقاضي عياض خطب من هذا القبيل مطرزة ببيانه البديع .

وكل منهما رويت له نتف ومقطعات من الشعر الذي يختلف ببداعته عن شعر الفقهاء والمحدثين .

وكل منهما سارت بذكر بعض مؤلفاته الأشعار .

وكل منهما ناظر المخالفين . فقد ناقش القاضي عياض في كتبه المعتزلة ، والفلاسفة . والخوارج ، كما هو ماثل في كتابه « الشفا » .

وتجمع بينهما أيضاً نحلة أشعرية سدت باعتدالها عند الخطيب في الأخذ بالعقل مسد تحكيم العقل عند المعتزلة الذين خفتت أصواتهم على عهده ،

---

(٧١) – من جملة آثاره التاريخية « كتاب التاريخ ». وهكذا سماه مؤلفه عياض في ترجمة عبدالله بن ياسين ، وسماه الذهبي جامع التاريخ وقال : « انه أربى على جميع المؤلفات » ، وهو مفقود ، وله « العيون أو الفنون الستة في أخبار سبتة » ويقال إنه في مجلدات ، وله « ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك » وقد صدر منه خمسة أجزاء بعناية وزارة الأوقاف بالرباط .

وكانت بالنسبة الى أبي الفضل عياض اتجاهاً رائداً في المغرب على عهد المرابطين وهو اتجاه ماثل بوضوح في آثاره ، وفي آثار شيوخه الذين أخذ عنهم بسبتة(٧٢) .

ولعل أوجه الشبه هذه لم تخف على أبي الفضل عياض وهو يطلع على آثاره ، فنراه يعتمده بتقدير ، وقد ذكره في مقدمة كتابه « المدارك » بين من اعتمد عليهم من المشارقة في تأليفه « جمهرة رواة مالك »،ولم يفصح عياض عن أسماء كتب من سماهم مع الخطيب ، والواضح من موضوع التأليف الذي هو استيعاب الرواة عن مالك أنه يعني بالنسبة الى الخطيب كتابه في « من روى عن مالك » وهو من مرويات الأندلسيين .

وكذلك أورد القاضي اسم الخطيب باعتداد في مقدمة كتابه المذكور عندما سجل أسماء كبار المصنفات الحديثية والتاريخية التي استصفاها ، ويستفاد منه أنه وقع له بعض من تاريخ بغداد .

وعندما استعرض القاضي في مقدمة « المدارك » أوهام بعض كبار المحدثين الفقهاء من أندلسيين ومشارقة ، وجلب أمثلة من أوهام بعض كبار المحدثين والفقهاء قال : « وكذلك ذكر أبو بكر الخطيب على تقدمه وحفظه عبدَالملك ابن حبيب في الرواة عن مالك ، وأدخل له حديثاً من المعنعن عنه ، وهو غلط عظيم ، لاسيما من مثله ، وعبدالملك بن حبيب انما رحل سـنة ثمان ومئتين بعد مالك بنحو ثلاثين سنة ، وإنما ولد بعد موت مالك بسنتين » .

---

(٧٢)– ان الرجوع الى نصوص كتب شيوخه والى كتبه يدل دلالة واضحة على أن كتب الأشعرية في علم الكلام كانت متدارسة في أنحاء المغرب ، والأشعرية راسخة ، وهذا ما يرد قول أكثرية المؤرخين – وفي طليعتهم ابن خلدون – الذين سجلوا على علماء المغرب على عهد المرابطين تعلقهم بالنقل واستدبارهم النظر بالعقل ، فلم تكن لهم معرفة بالجدل والنظر ، وان التجسيم كان غالبا عليهم في الاعتقاد الى أن جاء المهدي بن تومرت بعقيدة التوحيد . انظر مقدمة المرحوم ابن تاويت التي استهل بها تحقيقه لكتاب « المدارك » ، وانظر رأي ابن خلدون المشار اليه في تاريخه « العبر » ج ٢٢٦/٦ ، ٢٢٩ ، ٢٦٦ .

وقد اقتبس القاضي عياض في « الإلماع »(٧٣) من مصنفات أبي بكر الخطيب عن شيوخه ، وبمقابلة اقتباساته في كتابه « الإلماع » بما جاء في « الغنية » يمكن سوق مصنفات الخطيب التي رواها عياض على هذا الوجه :

روى عن شيوخه عن الخطيب ، ومن هؤلاء الشيوخ: أبو عبدالله بن قطري الزبيدي الاشبيلي المتقدم الذكر ، سمع منه فصولاً ، وحدثه بكتابي « المؤتنف من المؤتلف والمختلف » و « الفقيه المتفقه »،وساق عياض جملة أشعار وأخبار مما حدثه به شيخه عن الخطيب .

ومن شيوخه أيضاً أبو الحسن علي بن أحمد بن علي بن عبدالله الربعي المقدسي الشافعي(٧٤) ، وللقاضي عياض من هذا الشيخ إجازة بما روى ، منها إجازته إياه بجميع كتب الخطيب ورواياته التي أجازه الخطيب بها ومنها ما سمعه عليه .

وفي شيوخ عياض طبقة روت عن أصحاب الخطيب، كعبدالملك بن أبي مسلم (٧٥) الذي سمع من أبي بكر بن عبدالباقي بن الخاضبة الأنصاري صاحب الخطيب ، وقد أجاز ابن أبي مسلم هذا القاضي عياضاً بجميع رواياته ، ومن بينها ــ كما هو واضح ــ مصنفات الخطيب .

ومن هذه الطبقة أيضاً من شيوخه حافظ المغرب ومفخرته أبو بكر بن العربي الذي روى عن ابن الطيوري وأبي محمد بن السراج ، كلاهما عن الخطيب .

وكأبي علي الصدفي عن أبي منصور المالكي عن الخطيب .

---

(٧٣) ص ٢٣٥ ، ٢٤٥ – ص ٦٤ .

(٧٤) ترجمته في « الغنية » ٢٤٦ .

(٧٥) « الغنية » ص ٢٣٦ .

ومن الآخذين بالإجازة مصنفات الحافظ أبي بكر الخطيب :

الامام القاضي عبدالحق بن عطية

(٤٨١ ـ سنة ٥٤١)(٧٦)

الإمام الفقيه المشاور أبو محمد عبدالحق بن غالب بن عبدالرحيم بن غالب ابن تمام بن عطية المحاربي الأندلسي . وعطية المنسوب اليه هو الجد الداخل الى الأندلس ، من أسرة أصيلة في العلم ، وأحد رجالات الأندلس الجامعين الى الفقه والحديث ، التفسير والأدب والشعر(٧٧) ، ويعدّ في الصدور من رجال الحديث والتفسير والأحكام . أكثر أخذه عن أبيه غالب . كانت له رحلة ، لقي فيها أبا القاسم بن الجلاب ، وحمل عنه كتاب التفريع . وأجازه أبو علي الصدفي،ثم لقيه بمرسية ، وحمل عنه كتاب التفريع ، كما لقي أبا علي الغساني بغرناطة سنة خمس وتسعين وأربع مئة وهو يومئذ صغير السن ، فاستجازه ، وسمع منه ألفاظاً في اللغة وأبياتاً في الشعر.وكان ممن اختص به بعد أبيه مثلما اختص بأبي علي البادش ، ولي القضاء بالمرية في آخر دولة المرابطين ، وكان يكثر الغزوات في جيوشهم .

---

(٧٦) أشار ابن بشكوال في صلته الى الاختلاف في سنة وفاته بين سنة احدى وخمسين واثنتين وخمسين ، وجملة المتأخرين كصاحب « شجرة النور الزكية » وصاحب فهرس الفهارس وصاحب « الديباج » الى ترجيح سنة احدى وأربعين وخمسمئة،وبه قال ابن حيان في مقدمة تفسيره ـ انظر ترجمته في بغية الملتمس ص : ٣٧٦ ـ « الصلة » لابن بشكوال تحت الترجمة ٨٢٥ ط . مدريد ـ « قلائد العقيان » ص ١٣٧ ط باريز ـ « المرقبة العليا » ص : ١٠٩ ـ معجم أبي علي الصدفي : ٢٥٩ ـ رايات المبرزين ص : ٥٤ ط . مدريد ـ « نفح الطيب » ٥٢٦/٢ ـ الاحاطة . . . . . . وفيات ابن قنفد : ٢٦٣ ـ « الديباج » . . . . . .فهرس الفهارس : ٢٣٤/٢ ـ مقدمة تفسير ابن حيان ـ « شجرة النور الزكية » ص : ١٢٩/١ طبقات المفسرين للداوودي ٢٦٠/١ ـ « طبقات المفسرين » للسيوطي : ١٦ .

(٧٧) وفي « قلائد العقيان » قصائد ومقطعات من شعره ، وكذلك في « نفح الطيب » وغيره من مصادر ترجمته .

توفي بلورقة مصدوداً عن دخول « مرسية » صدر الفتنة المبيرة ، وقد كان قاصداً صهره عبدالرحمن بن طاهر الذي كان يومئذ رئيسها .

وقد اشتهر ببرنامج شيوخه وبتفسيره الجليل المعروف بالوجيز (٧٨) .

كتب اليه (كما ذكر في فهرسته) الفقيه الجليل المهيب شيخ الصدق أبو عبدالله الحضرمي(٧٩) ، الساكن بالإسكندرية إجازة بخطه ، خاصة في رواية الشيخ أبي محمد عبدالله بن الوليد الأندلسي نزيل مصر ، وتواليف الشيخ أبي بكر أحمد بن علي بن ثابت الخطيب البغدادي ورواياته ، وبعدما ذكر في فهرسته المصنفات التي أجازه بها الحضرمي قال : و « تاريخ بغداد » ، و « شرف المحدثين » ، و « رحلة الحديث » ؛ و « كتاب الفصل » ، و « كتاب تقييد العلم » ، جميعها من تأليف أبي بكر بن ثابت الخطيب ، أخبرني بها عنه وبجميع تواليفه ورواياته .

ومن الذين رووا مصنفات الخطيب :

الامام الراوية المحدث الرحال ابو القاسم التجيبي السبتي(٨٠)

(هـ - ٧٣٠ هـ)

وهو القاسم بن يوسف بن محمد بن علي بن القاسم التجيبي الضابط المحقق المشهور ببرنامجه العظيم في مشيخته ، وبرحلته المشرقية المسماة « مستفاد الرحلة

(٧٨) طبع تفسيره مؤخراً على يد وزارة الأوقاف بالرباط باشارة من صاحب الجلالة الحسن الثاني ملك المغرب ، كما طبع برنامج شيوخه في دار الغرب الاسلامي ببيروت بتحقيق الأستاذ محمد أبي الأجفان ومحمد الزاهي .

(٧٩) هو محمد بن منصور بن محمد بن الفضل الحضرمي الاسكندرى ، مقرئ . قرأ على أحمد ابن نفيس ، وقرأ عليه لورش أحمد بن الحطيئة ،وقال الذهبي: وهو جد محمد بن عبد الرحمن الحضرمي ، ورخ وفاته مفضل المقدسي سنة عشر وخمسمئة ،أنظر ترجمته في« غاية النهاية » لابن الجزري ٢٦٦/٢ الترجمة ٣٤٨٥ .

(٨٠) أنظر ترجمته في « نيل الابتهاج » لأحمد بابا التانبكتي ضمن ترجمة سميه القاسم بن أبي بكر بن مسافر اليمني التونسي ص ٢٢٢ ط السعادة .« اختصار الأخبار مما بثغر سبتة من سني الآثار » ط المطبعة الملكية بالرباط – الدرر الكامنة ٢٤٠/٣ – فهرس الفهارس ج الأول ، ص . ١٩١ .

والاغتراب ».وقد وقف ابن حجر عليها فقال إنها في ثلاث مجلدات ضخمة ، والقسم المعروف منها (٨١) يدل على صنيعه فيها ، فبالإضافة الى ذكر الشيوخ والترجمة لهم بتفصيل مع بسط جميع ما تلقاه عنهم قراءة أو إجازة ، فهو يعني في هذا القسم بوصف طريق الحج من « قوص » الى « عيذاب »،ويتحدث عن كل ما يصادفه في طريقه من مدن ، وقبائل ، ويشير الى أحوالها ، والحكم فيها ، وغير ذلك من التفاصيل الدقيقة . ويبتدىء هذا الجز بذكر مدينة القاهرة المعزية ، ومن رجالها الذين ترجم لهم عبدالمؤمن الدمياطي،وابن دقيق العيد.وممن لقيهم بمكة وترجم لهم أبو اسحاق ابراهيم الطبري(٨٢) . قرأ التجيبي عليه بالمسجد الحرام أمام الكعبة المشرفة جزءاً فيه مسألة « الإجازة للمجهول والمعلوم » وذلك بحق إجازته وبسنده بالإجازة الى أبي المعالي الفضل بن سهل ابن بشر الاسفرايني (٨٣) بإجازته من مصنفه الخطيب(٨٤) .

وسمع بمكة الشمس أبا عبدالله الجياني (٨٥) ومما سمع عنه من مصنفات أبي بكر الخطيب : كتاب « الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع » ،

---

(٨١) لم يطبع منها غير قسم من الجزء الثاني مع بتر في أوله،بتحقيق الأستاذ عبد الحفيظ منصور (الدار العربية للكتاب – ليبيا – تونس) .

(٨٢) هو كما قال عنه التجيبي في الرحلة الشيخ الفقيه الزاهد العابد العالم العامل أبو اسحاق ابراهيم ابن محمد بن ابراهيم بن أبي بكر بن محمد بن ابراهيم الطبري المحتد ، المكي الدار والمنشأ والمولد ، المنعوث بالرضي وبالبرهان ، مفتي أصحاب الإمام الشافعي ، حدث وسمع منه أكثر ماعنده ، وسمع العالي والنازل .

(٨٣) هو المسند الفضل بن المحدث سهل بن بكر الاسفرايني ثم الدمشقي الملقب « بالأثير » ، ذكره في « تذكرة الحفاظ » ص ١٣١٣ ضمن المتوفين سنة ٥٤٨هـ .

(٨٤) مستفاد الرحلة والاغتراب ٣٩١ .

(٨٥) وهو الشيخ الفقيه الإمام الفاضل أبو عبد الله محمد بن غالب بن يونس بن غالب بن محمد ابن شعبة الشافعي الأنصاري الأندلسي الجياني ، المتوفى سنة اثنتين وسبع مئة . أنظر « مستفاد الرحلة » ص . ٤٣٧ – « الدرر الكامنة » ٤ — ١٣٣ .

وسمعه الجياني على الشيخ المسنِد تقي الدين(٨٦) أبي محمد اسماعيل بن ابراهيم التنوخي بأسانيده الى الخطيب .

ومن المتأخرين المسندين الذين اتصلت أسانيدهم المغربية برواة مصنفات الخطيب :

ابن سليمان الروداني

(١٠٣٧ – ١٠٤٩هـ)(٨٧)

وهو الإمام الجليل المحدث الفرد في العلوم كلها محمد بن محمد بن سليمان ابن الفاسي (اسم لا نسب لبني الجد الفهريين المعروفين بالفاسيين) المراكشي المسفيوي من أهل تارودانت – الروداني نسبة الى تارودانت(٨٨) ، نزيل الحرمين الشريفين المتوفى سنة ١٠٩٤هـ . قرأ بالمغرب على جلّة العلماء الكبار كقاضي القضاة مفتي مراكش الشهير أبي مهدي عيسى السكاني ،وعلى العلامة محمد بن سعيد المرغيتي (صاحب المقنع)،وعلى محمد (بالفتح) بن أبي بكر الدلائي ،وسعيد بن ابراهيم المعروف بقدّورة ، ولازم طوال أربعة أعوام أبا عبدالله محمد بن ناصر الدرعي (ت ١٠٨٤) صاحب زاوية تامكروت(٨٩) ومؤسسها . في دراسة التفسير والفقه والتصوف ، وبه تخرج .

(٨٦) لقبه الذهبي بكبير المحدثين ، أنظر « تذكرة الحافظ » ضمن وفيات سنة ٦٧٢/ص . ١٤٩٠ .

(٨٧) أنظر ترجمته في « رحلة العياشي » ٢ / ٣٠ – ٤٦ – الإعلام بمن بمراكش وأغمات من الأعلام للمراكشي العلامة عباس بن ابراهيم السملالي ط أولى المطبعة الجديدة فاس – فهرس الفهارس للكتاني ٣١٧/١ – ٣٢١ – خلاصة الاثر للمحبي ٢٠٤/٤ ط الوهبية مصر .

(٨٨) تارودانت بتاء مثناة بعدها ألف ثم راء مضمومة بواو ثم دال مهملة فنون ساكنة : قرية بالسوس الأقصى .

(٨٩) تامكروت بالكاف المعقودة باقليم ورزازات : مقاطعة زاكورة بالكاف المعقودة، وبها المكتبة الشهيرة الحافلة بالمخطوطات النادرة .

ورحل الى المشرق ودخل مصر ، وأخذ عن جلة علمائها كالشيخ علي الأجهوري شارح المختصر بثلاثة شروح ، والخفاجي شارح « الشفا » للقاضي عياض ، وإمام المقرئين الشيخ سلطان . وتوجه الى « الروم » – وهي تركية عند المؤرخين المغاربة والمشارقة – وعرّج على الرملة ، وأخذ بها عن شيخ الحنفية خيرالدين الرملي ، كما أخذ بدمشق عن نقيب الشام وعالمها السيد محمد ابن حمزة . ثم رجع الى مكة، وحصلت له بها الرئاسة العظيمة التي لم يعهد مثلها، ففوض اليه النظر في أمور الحرمين ، ونيطت به الأمور العامة والخاصة .

من مؤلفاته : « تخليص التلخيص في مختصره في المعاني » ، وكتاب « جمع الفوائد من جامع الأصول وجامع الزوائد » وهو مطبوع ؛ و« مختصر التحرير » لابن الهمام، و«مختصر مفتاح العلوم» للسكاكي، و«منظومة في الميقات وشرحها» .

كما أن له برنامجه المشهور : « صلة الخلف بموصول السلف(٩٠) » .

وفيه حدّث بسنده المتصل بأبي أحمد عبدالكريم بن حمزة السلمي الحداد(٩١)، ومن طريقه يروي من كتب أبى بكر الخطيب : كتاب « شرف أصحاب الحديث » . ويروي « تاريخ بغداد » من طريق أبي منصور عبدالرحمن ابن محمد القزاز بن زريق الشيباني(٩٢) . ويروي كتاب الرحلة في طلب الحديث بسنده الى مسعود بن الحسن الثقفي الأصبهاني(٩٣) .

---

(٩٠) مخطوط بالخزانة العامة تحت رقم ٥ ح .

(٩١) هو مسند الشام الثقة ، روى عن الحافظ الخطيب وعن ابي القاسم الحناني وأبي الحسين ابن مكي .

(٩٢) كا روى عن الحافظ الخطيب روى عن أبي جعفر بن المسلمة والكبار ، وكان كثير الرواية. انظر ترجمته في الشذرات ١٠٦/٤ .

(٩٣) توفي سنة ٥٦٢ . أنظر : شذرات الذهب ٢٠٦/٤ – تذكرة الحفظ ١٣١٩/٤ ضمن ترجمة تاج الإسلام أبي سعيد عبد الكريم السمعاني .

ويروي كتاب « الجامع لآداب الراوي والسامع » من طريق الحافظ أبي محمد بن الأكفاني (٩٤) .

ويروي جزءاً فيه صلاة التسبيح وما ورد فيها للخطيب من طريق عبدالكريم ابن حمزة السلمي السالف الذكر عن الخطيب .

وروى كتاب « روايات الصحابة عن التابعين » للخطيب ، من طريق هبة الله عبدالله الشروطي الواسطي عن الخطيب (٩٥) .

وروى من طريق هبة الله بن أحمد الشروطي الواسطي المتقدم الذكر كتاب « الزهد » ، وكتاب « السابق واللاحق » لأبي بكر الخطيب .

ومن المتأخرين المسندين الذين اتصلت أسانيدهم بمصنفات الخطيب :

الامام المشارك أبو عبدالله محمد (فتحا)
الفاسي بلداً ولقباً الفهري نسبا

(١٠٥٨ — ١١٣٤ هـ) (٩٦)

من بني الجد الفهريين سلالة القاضي أبي بكر بن الجد الاشبيلي ، ومنه الى أمير الأندلس عبدالملك بن قطن . ومن حفدة الشيخ أبي المحاسن يوسف الفاسي آخر الشاذلية بالمغرب . وجده المباشر الشيخ الإمام أبو السعادات عبدالقادر الفاسي دفين زاويته بفاس . فمترجمنا هو محمد بن الحافظ أبي زيد (صاحب

---

(٩٤) هبة الله بن أحمد بن محمد الأنصاري الدمشقي المتوفى سنة ٥٢٤ هـ . سمع من أبيه وطبقته . وكان ثقة شديدة العناية بالحديث والتاريخ ، انظر : « النجوم الزاهرة » ٢٣٥/٥ ط المؤسسة المصرية العامة ـ وتذكرة الحفاظ ١٢٧٥ — شذرات الذهب ٧٣/٤ .

(٩٥) يكنى أبا القاسم . روى عن الخطيب وابن المسلمة ، المتوفى سنة ٥٢٨ — انظر شذرات الذهب ٨٦/٤ .

(٩٦) أنظر مصادر ترجمته في نشر المثاني للقادري ج ٢ / ١٢٢ — صفوة من انتشر للمؤرخ الأديب محمد الصغير الأفراني المراكشي : ٢٢٦ ط حجرية فاس — التقاط الدرر للقادري خ الخزانة العامة رقم ٦٧٦ وعناية أولى المجد بذكر آل الفاسي ابن الجد لأمير العلماء السلطان الجليل مولانا سليمان قدس روحه، ص ٥١ (المطبعة الجديدة فاس ١٢٤٧ هـ) — فهرس الفهارس ٣٠/٢ ، ط الأولى بالمطبعة الجديدة بطالعة فاس .

الأقنوم(٩٧) ، « وابتهاج القلوب »،وغيرهما) ابن شيخ الإسلام عبد القادر الفاسي الفهري المذكور ،ويلقب مترجمنا بالصغير للفرق بينه وبين عمه محمد (فتحا) . ولد بفاس،وقرأ بحسب التقليد المعروف بالقراءات السبع ، وأدرك جده شيخ الإسلام فأخذ عنه كما أخذ عن أبيه أبي زيد عبدالرحمن،وعمه الشيخ أبي عبدالله محمد (فتحا) ، وغيره من أعلام أسرته . كما أخذ عن العلامة محمد ابن محمد المرابط بن أبي‌بكر الدلائي (نسبة الى زاوية الدلاء) ، والإمام المسناوي، وأبي عبدالله ميارة الصغير . وأبي سالم العياشي صاحب الرحلة،وابن سليمان الرُّوداني المتقدم الذكر قبله . وأجازه بالمكاتبة من المشارقة :الزرقاني شارح مختصر خليل ، والخرشي شارحه أيضاً . والكوراني . والعجيمي .

وبهذا الاتساع في الأخذ تمت له المشاركة الكاملة في الأصلين،والمنطق، وعلوم اللسان ، والتفسير ، والتاريخ ، والأنساب ، والفرائض . والفلك .

وأخذ عنه جماعة من العلماء المعتبرين،كالشيخ محمد بن عبدالسلام بناني ، وحفدة عمه أبي القاسم محمد ، وغيرهم .

وقد خلف فهرسته المشهور المسمى « المنح البادية (٩٨) في الأسانيد العالية » اقتصر فيه على شيوخه الذين أجازوه بأسانيدهم العالية .

وذكر في القسم الثاني منه عند روايته للمؤلفات والمصنفات الحديثية أنه روى تأليف أبي بكر الخطيب البغدادي من طرق ثلاث :

---

(٩٧) الأقنوم ، موسوعة منظومة أتى فيها بنحو مئة وخمسين علماً مع تفصيل القول في موضوعاتها ، وهي فيما يظهر أقدم موسوعة منظومة من هذا النوع في تاريخ الفكر الإسلامي ، رتبها على طريقة تقسيم العلوم وتنويعها عند الأقدمين .

(٩٨) مخطوط الخزانة العامة (ع . ك . رقم ١٢٤٩ أول مجموع) .

الأولى طريق أبي علي الصدفي (ابن سكرة) عن القاضي أبي القاسم علي ابن محمد بن أحمد المحاملي ، وأبي بكر محمد بن أحمد بن عبدالباقي ، وأبي منصور عبدالمحسن محمد (٩٩) بن علي ، كلهم عن الخطيب البغدادي .

والثانية طريق ابن طبرزد عن أبي منصور عبدالرحمن بن محمد القزاز (١٠٠) ، عن أبي بكر الخطيب .

والثالثة طريق الحافظ الذهبي الى أبي بكر أحمد بن مهدي الحافظ ، عن أبي بكر الخطيب .

هذه جملة ما وقع إليّ من رواة مصنفات الحافظ أبي بكر الخطيب من أهل العدوتين الأندلس والمغرب . والمعروف أن من هؤلاء المذكورين ومن غيرهم من روى من طريق أبي بكر الخطيب صحاحاً ، أو مصنفات ، أو أحاديث مفردة ، أو أشعاراً ، وهذا مما لا يدخل في نطاق مصنفاته أو مخرجاته التي قصدتها في هذه الورقات ، والله المستعان على أي حال .

---

(٩٩) الشيحي السفار المتوفى سنة ٤٨٩ هـ أنظر تذكرة الحفاظ ١٢٢٧/٤ ضمن ترجمة ابن الخاضبة .

(١٠٠) الشيباني البغدادي القزاز ، ويعرف بابن زريق ، وكما روى عن الخطيب روى عن أبي جعفر ابن المسلمة والكبار ، وكان كثير الرواية - أنظر ترجمته في الشذرات ١٠٦/٤ . وأما ابن طبرزد فهو أبو حفص موفق الدين عمر بن محمد بن معمر الدار قزى المؤدب مسند عصره (٥١٦ - ٦٠٧ هـ) - سمع من ابن الحصين وطبقته ، وروى الكثير . وسمع عليه من لا يحصى بدمشق . ثم رحل الى بغداد ، وبها توفي - العبر ٢٤/٥ ، الشذرات ٢٦/٥ .

موادُّ البيانِ لعليّ بن خلفٍ الكاتبُ

الدكتور نوري حمودي القيسي
كلية الاداب ــ جامعة بغـداد

لقد كان من خير المكتبة العربية التي توجت بنتاج الفكر العربي وازدهرت بثمرات الاوراق التي قدمتها العقول النيّرة وابدعتها افكار الرواد الاوائل ان تفيض على العالم بعلوم نافعة واداب جمة ، بقيت فضائلها تشع على الآخرين بما تظهره وتغني الحضارات بما تقدمه لتضيء جوانبها وتملأ صفحاتها وتتسرب الى ثقافتها .. فكانت مناراً يُهتدى بها واقباساً تنير زواياها . وقد كتب على هذه المكتبة التي ظلت مصدرا دافقاً ترفد العصور بعطائها وبقيت ينابيع ثرّة تنهل من عيونها الاجيال أن تتعرض لما تعرضت اليه حضارتها وتصاب بما اصيبت به كثير من مظاهرها لتُصبح نهباً للضياع وعرضة للطمس ومجالاً لعبث الزمن وعوادي الدهر فضاع منها ما ضاع وفُقد ما فقد واندثر ما اندثر وكتب على اكداس منها أن تفترش السقوف والحيطان والتراب لتظل مغمورة فيها . وعلى امتداد الزمن الطويل الذي يفصل بين زمن المؤلفين وزماننا قيّض اللهلبعض المحققين ان يهتدوا الى بعض تلك المخطوطات فنفضوا عنهاغبارها ومسحوا عن وجهها قتامة الزمن وازاحوا عن كنوزها حجب النسيان لتظهر وقد اكتست رداءها واشرقت قسماتها وتجلّت افكارها بعـد أن اجهدت هـذه النخبة من المحققين بما تعرضت له من متاعب وتحملته من مشاق وصادفته من عوائق ولكن ايمانها بهذه الكنوز وارتضاءها بما عاهدت ضميرها عليه نفسها واخذته عليها من عهـد كان أقوى مما تعرضت له وأصلب مما تحملته واشد مما احاط بها فنهضت بمهمتها خير نهوض لتضع بين الدارسين من هذه الكنوز ما يصحح الاحكام ويُعين على متابعة الافكار ويهيء المناخ الملائم

لمعرفة الوجوه المختلفة في كل علم من العلوم . وقد سَنّتْ بعض الجامعات المصرية في بداية هذا القرن سنّة حسنة حين وجهت طلاب الدراسات العليا الى أن يتقدموا مع رسالاتهم العلمية تحقيقا لمخطوط يمت بالصلة الى موضوع الرسالة وعسى ان يأتي اليوم الذي يكون فيه هذا الامر ضريبة علمية لابد من ادائها .(١) وما احرانا ونحن نتبنى احياء التراث العربي من اعادة هذه السنة الحميدة في كل ضرب من ضروب المعرفة اسهاما في نشر التراث وتواصلا مع الغاية العلمية واحياءً لما طوته العوادي في بطون الضياع ... لنعيد بعض ما ندعو اليه ونقوّم ثقافة الابناء بوقوفهم على نتاج العلماء الاجلاء الذين قدموا ثماراً يانعة في كل باب من ابواب المعرفة واخلصوا نياتهم لكل ما يُعين الامة على النهوض والتقدم واذا حفل العصر بتحقيق اعداد كبيرة من المخطوطات أو الوقوف على مجاميع منها في كل ابواب المعرفة واذا استطاعت هذه الكتب المحققة او المجاميع الشعرية ان تضيف ما يصحح بعض الاراء او يقوم جانبا من الافكار او يغني بعض الدراسات فان كتاب مواد البيان لعلي بن خلف الكاتب المتوفى بعد سنة ٤٣٧ يعد حلقة وصل بين مرحلتين من مراحل التأليف في صناعة الكتاب والبلاغة وادب الترسل . وعلى الرغم من اعتماد الكتب المتأخرة عليه حيث نقل منه صاحب صبح الاعشى . اكثر من مائة وثمانين موضعاً حتى اصبح مصدراً رئيسيا من مصادره ولكن نسبة النقول تتفاوت بين جزء وآخر ففي الجزء الأول والثاني اعتمد عليه عشر مرات في كل جزء ولم نجد له ذكراً في الجزء الرابع والخامس وتقفز نسبة اعتماده الى اكثر من اربعين مرة في الجزء السادس وهي نسبة تؤكد مدى اعتماد القلقشندي عليه في هذا الجزء لتوافق مواده موضوعات صاحب صبح الأعشى .

ومن الطبيعي ان نسبة التفاوت هذه تظهر حين نجد مفردات صبح الاعشى تطابق ومفردات مواد البيان لتأخذ مساحتها الواسعة في هذا السفر الكبير

---

(١) عبد السلام هارون . نوادر المخطوطات القسم الاول (المقدمة) ١٩٧٢ .

واذا كان عنوان الكتاب قد اخذ هذا الحجم فان اسم المؤلف يأخذ مساحة اخرى حين نراه يذكره بالاسم (٢٤) مرة دون المؤلف .

• ان ضآلة المعلومات المتعلقة بمواد البيان وندرة المعارف التي تحدد طبقة المؤلف او تعرض للتعريف به حملت المؤلفين المحدثين على ان يجتهدوا في ايجاد ترجمة له او يلحقوا به اوصافاً ليست له بها علاقة ولكنهم حاولوا أن يتابعوا الاسماء المشابهة التماساً لما يرومون التوصل اليه ولكن المتابعة الدقيقة لتلك الاسماء وتواريخ وفياتها وما اسند اليها من وظائف تؤكد اخفاق تلك المحاولات وابتعادها عن العصر الذي عاش فيه المؤلف ويبقى (ابو الحسن علي بن خلف بن علي بن عبدالوهاب الكاتب) اسماً مفرداً بقدر المصادر المتوفرة ولعل مصادر اخرى تكشف لنا ترجمة وافية عن حياته التي لم تتعرض لها المصادر وتبقى اشارة حاجي خليفة (٢) يتيمة في ايراد اسم الكتاب ونعته بـ (موارد البيان) وهو تحريف بائن .. وتأتي عبارة المؤلف في الصفحة ٣٩٦ من المخطوط اشراقة لامعة في تحديد الحقبة التي كتب فيها الكتاب حيث يقول وهو يتحدث عن الخراج باعتباره من كتاب الدولة الفاطمية .

ويذكر الغاية في اختلاف السنين الشمسية والهلالية التي ذكرناها امام ذكر هذا الرسم والاضطرار الى الجمع بينهما اذا افترقا ... ومذاهبهم في ذلك واستمرارهم عليه الى أن اخترت الشريعة الهادية الاحكام على الشهور والسنين الهلالية فاجتبيت فيها الصدقات والجوالي والمقاطعات وأجر الرباع وسائر ما يجري على المشاهرات واجتبيت في السنين الشمسية اموال الخراج والمعاملات الديوانية وانه لو اغفل الحاق السنة الخراجية بالهلالية لكان بينهما من سنة الهجرة الى سنتنا هذه وهي سنة سبع وثلاثين واربعمائة اربع عشرة سنة بالتقريب .

(٢) حاجي خليفة . كشف الظنون عن اسامي العلوم والفنون : ١٨٨٨ .

لقد فكت هذه الفقرة لغز الكتاب وقدمت خدمة جليلة لتحديد السنوات التي كتب فيها .

ويذكر المؤلف كتاباً آخر له ورد ذكره في الصفحة ٣٢٦ من المخطوط حيث يقول وهو يتحدث في الباب السابع عن اوضاع الخط وقوانينه وترتيب الصدور والعنوانات والادعية والتواريخ والختم فيقول .. وتتفرع من هذين الاصلين اقلام عدة ذكرنا كثيراً منها في كتابنا الذي نعتناه بالة الكتاب والوجه في تصحيح حروف الهجاء ..

واذا كان القلقشندي قد وجد في مواد البيان بغيته في التأليف فان اشاراته المتفاوتة كانت تؤكد محاولات التنويع في النقل فهو يذكره « من انشاء علي بن خلف اوردها في مواد البيان » وبعبارة « قال في مواد البيان » وهي الاغلب الأعم . وبعبارة « انشاء علي بن خلف وعلي بن خلف هنا مجردة من كل صفة ويطيل احيانا فيذكر « وهذه نسخة اوردها علي بن خلف من انشائه في كتابه مواد البيان لترتيب الكتاب في زمن الفاطميين » (٣) .

او « وقد اورد علي بن خلف من انشائه في كتابه مواد البيان المؤلف في ترتيب الكتابة للدولة الفاطمية عدة تقاليد لارباب السيوف » (٤) .

ويأتي على ذكره احياناً بمقدمة . « من كلام المتقدمين علي بن خلف (٥) وهو في احيان كثيرة يجعله اول المستشهد بهم فيقدمه على ابن نباته وعلى غيره من صناع الكتابة وهذا تقويم لمنزلته وتأكيد لدوره في هذه الصناعة .

وتدل النصوص الكثيرة والرسائل المعتمدة التي استغرق بعضها احيانا ثلاثين صفحة على منزلته الرفيعة في عصره واستجابته لمتطلباته وبراعته في هذا الفن

---

(٣) القلقشندي صبح الاعشى ٣٨٦/٩ .
(٤) القلقشندي صبح الاعشى ٣٨٩/١٠ .
(٥) القلقشندي صبح الاعشى ٣٣/٩ .

الذي مهّد لعصر القاضي الفاضل وغيره من صناع هذا الفن الرائع . بعد ان اكتملت اصوله وبانت فضائله وتخصصت اساليبه واتضحت اغراضه واصبح لكل مقام مقال فالاطالة لها تبريرها والتكرار والاعادة لها دواعيها والايجاز له ضروراته . وما يحتاج الى كيفية نظم الكلام يختلف عن جهة كثرة اللفظ وخاصة ما يكتب من السلطان في امر الاموال وجبايتها واستخراجها والإحماد والأذمام والثناء والتفريط والذم والاستصغار والعذل والتوبيخ لأن هذه المواقف تحتاج الى أن يشبُع الكلام فيها ومثل هذه الأحوال تكون عند الكتابة الى العمال والامراء والكتب الصادرة عن السلاطين في الأمور العظيمة والمسائل الجسيمة والفتوح الجليلة . والترغيب في الطاعة والنهي عن المعصية وسبيلها ان تكون مشبعة فتملأ الصدور ، مقنعة تأخذ بمجامع القلوب ..

ومن خلال متابعتنا لرسائل علي بن خلف التي اعتمدها القلقشندي وسقطت من الجزئين التاسع والعاشر وشيء من الجزء الثامن تؤكد هذا التوجه الذي يَعدّ امتدادا لخصائص الكتابة في القرنين الثاني والثالث من حيث الاعتناء في جزالة اللفظ والاختلاف في الاسلوب والتنوع في الأيجاز والاقتضاب والمبالغة في المعنى .

وقد افاضت كتب البيان وصناعة الكتاب بدراسة الحقب الادبية ومراحل تطورها وما عرفته من مذاهب الترسل توافقاً مع تغير الازمنة والدول وما ذهب اليه البعض من الكتاب باقتفاء طريقة القدماء من اتيان جزل الالفاظ وصحيح المعاني من غير التفات الى الاسجاع التي اخذها متأخر والكتاب الإ ما جاء من ذلك عفواً من غير استدعاء . وما إقتفى فيه الآخرون من الكتاب في بلاد الأندلس خطى المشرقيين في الكتابة شأنهم شأن الشعراء حرصاً على التواصل ووفاءً للموارد التي نهلوا منها وحفاظاً على الاموال التي اخذوا انفسهم باحترامها وتقديرها ...

ويبقى النثر المرسل هو المحمود في عصر مؤلف مواد البيان اذا اشتمل على شيء من السجع يجيء عفواً كما يقول الثعالبي . بعد أن اصبح السجع في موضعه لازمة يجود به الكاتب عن سماحة القريحة وان يكون في بعض الكلام لا في جميعه لأن الاطالة فيه جهل وعي كما يقول قدامة بن جعفر (٦) .

ولان الاجادة في فن السجع لا تواتي الا الافراد القلائل بعد الالتزام بما تتطلبه اوصاف البلاغة وما تحدّده ضوابط الاداء السليم ..

ويعتمد علي بن خلف في كتابه مواد البيان على مجموعة من المصادر منها الاساسية التي الفها ابو الفرج قدامة بن جعفر الذي اعتمد عليه في اكثر من اربعة عشر موضعاً وابو علي الفارسي وابن المعتز اكثر من عشر مرات لكل واحد منهما .

و الحاتمي اكثر من تسع مرات وينقل احياناً عن الخليل بن احمد والاصمعي والرماني وابن دريد والثعالبي وآخرين . . ولم يحدد مصادر النقل احيانا ويذكرها في الاحايين الاخرى فيذكر الخراج لقدامة والبديع لابن المعتز وحلية المحاضرة والحالي والعاطل للحاتمي واجناس التخصيص للثعالبي . .

ومن خلال المتابعة للتعريفات البلاغية التي يقتصر فيها ابن المعتز وقُدامة بتعريفات لا تدخل الا في نطاق التحديد المعرفي لحالة الاضافة او شرح المصطلح او الايجاز الذي يؤدي فيه المعنى المطلوب نجد ان صاحب المواد يقدم تعريفات تخرج عن هذا الاطار وتغني المعاني بالضياءات جديدة التي لا نجد لها نظائر عند البلاغيين فالبلاغة عنده صور قائمة في النفس بمعانٍ جامعة لتلك الصور محيطة بها والفاظ مطابقة لتلك المعاني مساوية لها والبلاغة (كما يقول) عند العرب اشارة الى المعنى بلمحة تدل عليه لانهم يستحبون ان تكون الألفاظ أقلّ من المعاني في المقدار والكثرة ويأتي على تعريفات كثيرة والبيان اختصار المعنى

---

(٦) قدامة بن جعفر . نقد النثر ١٠٧

للنفس في صيغة توصله اليها من غير مهلة وانما قالوا من غير مهلة ليفرق بينه وبين الدلالة لأن الدلالة تحصر المعنى للنفس وان ابطت والبيـان الكشـف عن المعنى حتى تدركه النفس من غير توقف ، وانما قبل من غير توقف لانه قد يأتي التعقيد في الكلام الدال فلا يستحق اسم البيان على الاطلاق لموضع الحاجة الى التوقف عليه ومراجعة الفكر فيه .

واذا تحدث عن الترتيب قال : وضع الشيء في حقه ويقال ايقاع الشيء في موقعه ويقال تصيير الشيء في مرتبته وله حظ عظيم في تهذيب المعاني وتنقيحها وتعديل اقسام الكلام وتصحيحها ولما كان الكلام هو الطريق الى الأبانة عما في الاوهام وكان منه المستقيم والخطل والمرتب الحسن والمخلّط القبيح أحتيج الى تميزه ليسلم من وقوع عيب فيه لأن التخليط إذا وقع في الكلام افسد بنيته وسلب حليته وقبّح صيغته فان زاد فيه مع تخليطه ما ليس منه زاد ذلك في قبحه (٧) واذا دخل في تعريف الاجزاء كان التسهيم عنده (٨) .

لقب مُحدث لم تخلص له عبارة مهذبة من طريق الاشتقاق ، قالوا ومعناه ان يُصاغ الكلام صياغة معتدلة الاقسام كاعتدال خطوط البُرد المُسهّم التي لا تتفاوت ولا تختلف فانه اذا كان كذلك سَبَق السامع الى استخراج قوافي منظومه وفواصل منثوره قبل ان ينتهي اليها مورده وكان تعريف التوشيح عنده أن يخلف لشاعر او يخلف غيره باشياء تتعلق بغرضه المقصود وتدخل في هذا الباب الذي هو فيه (ارادة الابداع) بتوشيح الكلام ثم يصرّح ويكشف المعنى ويفصح عما في نفسه .

---

(٧) المخطوط / ١٦٧ .

(٨) المخطوط / ٢٣٠ .

وتعريف المؤلف هذا لا يدخل في مجال التعريف الذي يذكره ابن المعتز او يحدده قدامة وانما يتجاوزه الى حالة ارادة الابداع التي تعطي هذا التعريف لوناً جديداً تحدده قدرة الانسان وثقافته .

واذا تابعنا المؤلف الى الباب السابع الذي يتحدث فيه عن اوضـــاع الخط وقوانينه وترتيب الصدور والعنوانات والادعية والتواريخ والختم كان قوله في الخط واحكامه .. ان الخط واللفظ يتقاسمان فضيلة البيان ويشتركان فيها اذ الخط دالّ على الألفاظ والالفاظ دالة على الاوهام ولاشتراكهما في هذه الفضيلة وقع التناسب بينهما في كثير من احوالهما وذلك ان الخط واللفظ يعبران عن المعاني الإ ان اللفظ معنى متحرك والخط معنى ساكن وهو وان كان ساكناً يفعل فعل المتحرك بايصاله ما يتضمنه الى الافهام وهو مستقر في حيّزه ومكانه (٩) واللفظ فيه العذب الرشيق السائغ في الاسماع والخط فيه الرائق المستحسن الاشكال والصور واللفظ فيه الجزل الفصح وهو الذي يستعمله مساقع الخطباء ومفالق الشعراء ومنه المبتذل السخيف الذي يستعمله العوام في المكاتبة والمخاطبة والخط فيه المحرر والمحقق الذي تكتب به الكتب السلطانية والامور المهمة ومنه المُطلق المرسل الذي يكاتب فيه الناس ويستعملونه فيما بينهم ...

ولما اشترك اللفظ والخط في الفوائد العامة التي جعلت فيهما وقع الاشتراك ايضا بين آلتيهما وذلك أن الة اللفظ اللسان والة الخط القلم وكل منهما يفعل فعل الآخر في الابانة عن المعـــاني الا أن اللفظ لما كان دليلا طبيعيا جُعلت آلته آلة طبيعية والخط لما كان دليلا صناعياً جُعلت آلته آلةٌ صناعية ولما تقاسمت الآلتان الدلالة ايضا ونابت احداهما مناب الإخرى اوقعوا اسم اللسان على القلم واشركوا بينهما فيه فقال بعضهم القلم احد اللسانين وقال الآخر القلم

(٩) المخطوط / ٣٢٣ .

انطق اللسانين وقالوا الاقلام السنة الافهام ... ثم ينتقل الى الحديث عن الخطوط فيقول .. فان لكل خط من الخطوط قلماً من الاقلام المختلفة نظير آلات الصنائع المختلفة التي يصنع الصانع كل آلة منها جزءً وينتقل بعد الباب السابع الذي عرض فيه الى القول في العنوان والدعاء والتاريخ والختم الى الباب الثامن وفيه رسوم المكاتبات .

لقد سبق ان اكدنا في اكثر من دراسة الى أن العصور المتأخرة التي شهدت تحديات خطيرة كانت داعية في استيعاب التراث وممتلكة زمام الاحتفاظ بذخائره على وفق الوسائل المتاحة في عصرها بعد أن امتدت نظرتها الشاملة لتجد عصراً زاخراً وتاريخا حافلا وحضارة رائدة . وان استيعابها وتصنيفها وتنسيقها في اطار التآليف الكبيرة والموسوعات العلمية التي عبرت عن ازدهار المرحلة واستطاعت ان توفر منها ذخائر وتؤلف منها خزائن وتقدم عبر الزمن الممتد نوادر اوشكت ان تكون في عداد الذخائر المفقودة .

واذا كان الاهتمام باللغة يمثل التوجه الحقيقي للحفاظ على الشخصية القومية فان الانصراف الى تدوين التاريخ وتوثيق السيرة وما تحفل به من ايام وتزخر به من مآثر وتسجله من مواقف كان الصورة الاخرى التي مهدت الطريق للاعتزاز بالتاريخ القومي الذي اعطي الامة مآثورا حديدا وجدد في نفوس ابنائها استمرار الدعوة لكل ما يحفظ لهذا التوجه سلامته ويحقق للاجيال صورة التواصل بما يجعله مبعث استلهام ودافع اعتزاز لرسم مستقبل يليق بهذا المأثور وينسجم مع عطائه الذي ظل موضع ثقة واقتدار .

ان هذه الحقيقة التي تجلت في المراحل الاولى والتي عبر عنها علماء العربية تحدد المسار الواضح لحركة التاريخ وترسخ الاهتمام المباشر الذي قدم فيه هؤلاء العلماء مجاميع ضخمة من التراث اللغوي وكتب السيرة والمغازي والايام والاخبار وما اتصل بهذه العلوم من معارف (١) .

وكان اثرها واضحا في اغناء الحركة العلمية الواسعة التي مهدت لازدهار الثقافة ووسعت دائرة البحث وفتحت مجال الاجتهاد الفكري في اطار المبادىء الاسلامية فكانت ابواب المعارف ميدانا لكل فكرة .

وعندما بدأت عوامل الضعف تدب في جسد الامة واسباب الخلاف تأخذ بخناقها وعناصر التفتت تمزق وحدتها وتغري بها خصومها وتنازعتها الاهواء واختلفت بها السبل كانت الحملة الصليبية بداية لتهديد الجناح الغربي ومحاولة لانتزاع ارض فلسطين واتخاذها جسرا للسيطرة على بقية الاجزاء . وفي الثلث الاول من القرن السابع تعرض الجناح الشرقي لتهديد اخر من ارتال التتر الذين عصفوا بحضارة بغداد بعد ان دام الصراع لاقتحامها ربع قرن تقريبا .

ان احداث هذين القرنين اثارت في نفوس الابناء نزعة الحفاظ ثانية على تراث الامة وهو يوشك ان يتبدد وحملتهم على ان يهيئوا انفسهم لاعادة جمعه وتنسيق افكاره وتوحيد اجزائه بعد ان امتد العصر ليتسع الى ثمانية قرون بضمنها فترة العصر الجاهلي وقد تكدس التراث الادبي طبقة بعد طبقة وتعاقب العلماء جيلا بعد جيل واتسعت الذاكرة العربية لتضم علوما مختلفة وفنوناً متنوعة وعاشت في اذهان علمائها صور العصور وهي تفيض فكرا خلاقا وثقافة مبدعة وصوتا انسانيا يحمل قيم الخير ويسعى لبناء المجتمع الانساني وتتابعت احداث الايام وهي تؤرخ لفترات ازدهرت في رواقها حلقات الاجتهاد وتمكنت في عقول ابنائها مدارس المناطقة واصحاب الكلام وتعالت في مدارس العلم اصوات الفقهاء وهم يستنبطون الاحكام ويقعدون القواعد ويمهدون الطريق امام الواقع الذي اوشكت ان تضيق به السبل وتحده حالات الوقوف عند النص . انها فترة العودة لكل ما اعطى الحياة رونقها فكانت صفة الجمع بين الاشياء ومحاولة التأليف بينها على تباعدها وجها من وجوه العصر وظاهرة متميزة من ظواهره بعد ان ظل ابناء العصر يجمعون من ثمار القرون السالفة مايعينهم على تزيين كتبهم

فانحصر ابداعهم في عرض تلك الثمار وتقديمها موسوعات شاملة وكتبا جامعة وتواريخ متواصلة ومعجمات لغوية للتراث الذي قدمته عبر القرون الماضية والجهد المحمود الذي انتجه العقل العربي الخلاق خلال الفترات منطلقين من ايمانهم باهمية التراث الذي خلفته الاجيال ومستمدين من روحه مايعينهم على جمع شتاته وتوحيد فصوله والحفاظ عليه من موجة الضياع التي اوشكت ان تعصف ببعض مراكزه واستباحة مؤسساته العلمية وتشتيت حملة الفكر والقلم .

ويحتفظ كتاب صبح الأعشى بمادة وفيرة منه في البابين التاسع والعاشر من كتاب مواد البيان اللتين سقطتا من المخطوطة وسنحاول في هذه المقدمة ان نثبت ما اورده القلقشندي لعلي بن خلف من انشائه في كتابه مواد البيان المؤلف في ترتيب الكتابة للدولة الفاطمية عدة تقاليد لارباب السيوف . وهو نص واحد من عشرات النصوص التي ستأخذ طريقها لاكمال الناقص واتمام الساقط واعادة ترميم النسخة الفريدة من هذا المخطوط .

في الجزء العاشر قال صاحب صبح الاعشى وهو يتحدث عن مذاهب الكتاب .

وقد اورد عليّ بن خلَف من إنشائه في كتابه « موادّ البيان » المؤلّف في ترتيب الكتابة للدولة الفاطمية عدّةَ تقاليدَ لأرباب السُّيوف .

منها — تقليد في رسم ما يُكتَب للوزير ؛ [وهو] :

الحمدُ لله المنفرِد بالملَكُوت والسلطان ، المستغنْي عن الوُزَراء والأَعْوان ؛ خالِق الخَلْق بلا ظَهير . ومُصوِّرهم في أحسَنِ تَصْوير ؛ الذي دبَّر فأتقَن التدبير ، وعَلاَ عن المُكَلِّف والمُشير ؛ المانّ على عباده بأن جعلهم بالتوَازُر إخوانا ، وبالتظافُر أعوانا ؛ وأفقر بعضَهم إلى بعض في انتظامِ أُمورهم . وصلاح جُمْهورِهم .

يحمدُه أمير المؤمنين أن استخلفه في الأرض . وناطَ به أسبابَ البَرْم والنقض ؛ واسترعاه على بَرِيّته ، واستخلصه لِخلافته ؛ وقَيّضه لإعْزاز الإسلام ، وحياطةِ الأَنام ، وإقامةِ الحُدُود وتنفيذِ الأحكام ؛ ويسألُه الصلاةَ على سيدنا محمد خاتَم الأنبياء ، وخيرة الأصفياء ؛ المؤيَّدِ بأفضل الظُّهَراء ؛ وأكمل الوُزَراء : عليٍّ بن ِ أبى طالب المتكفّل في حياته ، بنَصْره وإظهار شريعتهِ ، والقائم بعد وَفاته ، مقامَه في أُمّته صلى الله عليهما ، وعلى الأئمة من ذرِّيتهما ، مفاتيح الحقائِق ، ومصابيح الخلائق ؛ وسلّم ، وشرَّف وكرّم .

وإنَّ الله تعالى نظَر لخلْقه بعين رحمته ، وخصَّ كُلاًّ منهم بضَرْب من ضُروب نعمته . وأقْدرَهم بالتعاضُد . على انتظام أُمورهم الوُجودِية ، وأوْجدهم السُّبُل بالترافُد ، إلى استقامة شئُونِهم الدُّنْيويه : لتنبجسَ عيُونُ المَعاوِن بتوازُرِهم . وتَدِرَّ أخلافُ المَرافِق بِظافُرِهم .

وأوْلى الناس بأتّخاذ الوُزَراء ، واستخلاص الظُّهَراء ، من جعله اللهُ تعالى إلى حقّهِ داعيا . ولخلْقه راعيا ؛ ولدار الإسلامِ حاميا ، وعن حَماه مُراميا . واستخلفه على الدّنيا وكلّفه سياسةَ المسلمين والمُعاهَدين ، ولذلك سأل موسى عليه السلامُ وهو القَويّ الأمين ، في استخْلاص أخيه هارُونَ لوزَارته . وشدّ أزْره بمُوازَرتِه . فقال : (واجْعَلْ لي وَزيراً مِنْ أَهْلِي هارُونَ أُخِي اشْدُدْ به أَزْرِي) . واستوزر محمدٌ صلى الله عليه وسلم وهو المؤيّد المعصومُ الذي لا ينْطِق عن الهوى ابن عمه علياً سيدَ الأوصياء ؛ بدليل قوله له : « أنْتَ مِنّي كَهارُونَ من مُوسى إلاَّ أَنّه لا نَبِيَّ بَعْدِي» لأن الإمام لو تولى كلَّ ما قَربَ وبعدُ بنفسه ، وعوّل في حيطَتِه على حواسّه ، لنصَّ ذلك بتطرّق الخَلَل . ودخول الوَهْن والشَّلَل ؛ وإنما تستعينُ الأئمةُ على ما كفّلها الله بكُفاة الأعوان . وأهلِ النُّصْرة في الأديان ؛ وذَوِي الاستقلال والتشمير . والمعرفة بوجُوه السياسة والتدبير ؛ والخِبْرة بمَجارى الأعمال . وأبواب الأَموال ، ومَصالح الرجال .

وإنَّ أمير المؤمنين لم يزل يرتادُ لوزارته حقيقاً بها مستحقاً نعتَها ؛ جامعا بين الكفَاية والغَناء ، والمناصَحة والولاء ، والأُبوَّة والاختصاص ، والطاعة والإخلاص ؛ والنُّصْرة والعزْم ، وأصالةِ الرأي والحَزْم ؛ ونَفاسة السياسة والتدبير . والنَّظَر بالمصلحة في الصغير والكبير ؛ والاحتيال والتأْديب ، وملابَسة الأيَّام والتجريب ؛ والانتماء إلى كريم المَناجب ، بضمير المَنَاصب ؛ ويكرِّر في الاختيار تقليده (١٠)، ويُجيل في الانتقاء تأمُّله وتدبُّره . وكلَّما عرَضت له مَخيلةُ قَمِن تُوافِق إيثارَه ، أخلفَ نَوءُها ، وكلما لاحتْ له بارقةٌ تُطابقُ اختياره ، خبَا ضَوءُها ؛ حتى إنتهت رَوِيَّتُه إليك ، وأوقفه ارتيادُه عليك ؛ فرآك لها من بيْنِهم أهْلا ، وبتقَمُّص سِرْبالها أوْلى ؛ وبالاستبداد بإمْرتِها أحقَّ وأحْرى : لاشتمالك على اعيان الخصائص التي كان زِيادٌ [لها] جامعا ، وحلُولِك في أعيان المنَاقِب التي لم تزل ترومها متحلِّيا بفرائدها ، وماشُهِرت به من إفاضة العدْل والإقْساط ، وإغاضة الجَوْر والإشْطاط ؛ وإنالة الحقِّ والإنصاف ، وإزالة الظُّلم والإجْحاف ؛ ومراعاة النُّصْح بانسانك شاهدا ، ومناجاتِه بحذَارك جاهِدا ، ولنُهُوضك بالخَطْب إذا ألَمَّ وأشكل ، والحادثِ إذا أهَمَّ وأعضل ؛ وتفرُّدِك بالمَسَاعي الصالحة ، والآثار الواضِحة ؛ والطرائق الحميدة ، والمذاهبِ السَّديدة ؛ والتحلِّي بالنَّزاهة والظَّلف والعَـطَل من الطَّبَع والنَّطَف ؛ وفضل السِّيرة ، وصِدْق السَّريره ؛ ومحبة الخاصَّة والعامَّة ، والمعْرِفة بقدر الأمانة ، والاضطلاع بالصَّنيعة ، والحفظ للوديعة .

فرأى أميرُ المؤمنين برأيه فيما يريْه ، ويقضي له بالصلاح فيما يعزم عليه ويُمضيه ويسدِّد مَرامِيَه ومساعيه ؛ ويتعهَّدُه في جميع مقاصده بلُطف تحلُو ثِمارُه ، وتحسُنُ عليه وعلى الكافَّة آثارُه ؛ أن قد وَلاَّك النظر في

(١٠) لعله « تخيره » تأمل .

مملكته . وأعمال دولته : بَرِّها وبحرِها ، وسَهْلِها ووَعْرِها ، وبَدْوِها وحَضَرِها ؛ وردّ إليكَ سياسـة رجالها وأجنادِها ، وكُتّابِها وعُرَفائها . ورعيّتِها ودواوينها . وارتفاعِها ووجُوه جباياتِها واموالها ؛ وعَدَقَ بك البَسْطَ والقبْض ، والبَرْم والنَّقْض ؛ والحطّ والرفع ، والعطاء والمَنْع ، والإنعام والوَدْع ، والتصريفَ والصَّرْف ؛ ثقةً بأن الصواب مَنُوط بما تُسْدِي وتُلحِم ، وتُفيض وتنظِم ، وتَنْقُض وتُبرِم ؛ وتُصدر وتُورد ، وتُقرّر وتأتي وتَذَر .

فَلْتَهْنَأ هذه النعمة متمليًّا بَملْبَسها ، سارياً في قَبَسها ؛ وتَلَقَّها من من الشكر بما يَسْتَرْهِنُها ويُخَلِّدها ، ويقِرّها ، عليك ويؤبِّدها ؛ واعرِفْ ما أهَّلك له أمير المؤمنين من هذا المقام الأثير ، والمحلّ الخَطير فإنّما ذلك فضْلُ الله يُؤْتِيه مَنْ يشاء والله ذُو الفضل العظيم .

وأنت وإن كنْتَ مكتفياً بفضل حَصَافتك ، وثَقَابة فِطْنتك ، وحُسْن ديانَتك ، ووَثَاقة تَجْرِبتك — عن التبصير ، مستغْنيا عن التنبيه والتذْكير ، فإن أمير المؤمنين لا يمتَنِع أن يزيدكَ من مَرَاشده ، ما يقِفُك على سَنَن الصواب ومَقَاصده ، وهو يأمُرُك بتقوى الله تعالى في سِرّك وجهْرك ، واستشعارِ خَشْيته ومراقَبته ؛ والله قد جعل لمن اتَّقاه مَخْرَجا من ضيقِ أمره وحرَجه . ونصبَ له أعلاماً على مَنَاهج فَرَجه . وأن تستعملَ الإنصافَ والعدل ، وتُسْبِغ الإحسان والفضْل ؛ وتُلينَ كَنَفك ، وتُظهر لُطْفك ؛ وتُحسن سَيْرك ، وتُفيضَ بِرّك ؛ وتصْفَح وتَحلُم ، وتعفُوَ وتكرُم ؛ وتُبصِّرَ ممن ترجُو صلاحَه وتفَهّمَه . وتُنْصِفَ من أفرطَ جِماحُه وتُقوّمَه ؛ وتأخذَ بوثَائق الحَزْم . وجوَامِع العَزْم ؛ والغلظةِ والشدّةِ على مَنْ طغى ولَجَّ في غيِّه وعتا ؛ وبارزَ الله وأميرَ المؤمنين باالخلاف والشِّقاق ؛ والانحراف والنِّفاق ؛ مستعملاً فاضلَ التدبير عند المُوادَعه . وفاصلَ

المُكافحة عند المُقارَعَة ؛ مُصْلِحا للفاسد ، مشتِّتا للشارد ؛ مكثّرا لأولياء الدولة وخُلَصائها ، وحاصداً لبُغاتها وأعدائها ؛ واعظاً مذكّرا للغافل ، مؤمِّنا للمظلوم الخائف ، مخيفاً للظالم الحائف ؛ مستَصْلِحا للمسيئين ، مذكّرا بإحسان المحسنين ؛ منجِّزا لهم الجزاء على بلائهم في الطاعة وآثارهم في الخدْمة . وأن تنظرَ في رجال الدولة على اختلافهم نظرا يَسْلُكُ بهم سبيلَ السَّداد ، ويُجْري أمورهم على أفضل العُرْف المعتاد. فأما الأماثلُ والأُمَراء . والأعيان والرؤساء . فتحفَظُ على من أحْمِدت طريقتُه . وعُرِف إخلاصـه وطاعتُه . شِعارَ رياسته ، وتزيدُ في تكرمته ، وتنتهي به إلى ما تترَاءى إليه مَواضِي هِمَّته .

وأمّا طوائفُ الأجناد فتُقِرُّهم على مَرَاتبهم في ديوان الجيش المنصور ، وتخُصُّهم من عِنايتك بالنصيب الموْفُور . وتستخدِمُهم في سَدِّ الثُّغور وتسْديد الأُمُور ؛ وترُاعِى وُصُولَ أطماعِهم إليهم ، أوقَاتَ الاستحقاقِ إليهم : وانفاقهم نصاب (١١) الوجوبِ منهم .

وأما الكُتَّاب المستخْدَمون منهم في استخراج الأموال . وعِمارة الأعمال فتخُصُّ كُفاتَها بما تقتضيه كفايَتُهم . وأُمناءهم بما تُوجبه أماناتهم ؛ وتَستبدلُ بالعاجز الخبيثِ الطُّعْمه ، والطَّبِع المستشعرِ شعارَ المذَمَّه : ليتحفظ النَّزِه المأمونُ بنزاهته وأمانته . ويُقْلِع الدَّنِسُ الخئُون عن دَنَسه وخيانته ؛ وتأْمُرْ من تختارُ لخدمة أمير المؤمنين منهم أن يَسيروا بالسِّيَر الفاضلة ، ويعمَلُوا على الرُّسُوم العادلة ؛ فلا يضيِّعوا حقّاً لبيت مال المسلمين، ولا يُخيفوا أحداً من المعامَلين .

وأما الرعيَّة ، فيأمرُك أن تحكُم بينها بالسَّويه . وتعتمِدَها بعَدْل القضية ؛ وترفعَ عنها نيْر الجوْر ، وتحميهَا من وُلاَة الظلم ؛ وتسُوسَها

(١١) المراد قيامهم بما يجب عليهم من استجادة الخيل والسلاح .

بالفضل والرأفة متى استقامَتْ على الطاعة . وتأدّبتْ في اتّباعه ؛ وتُقَوِّمها متى أجْرَتْ إلى المنازح والافتتان . وأصرّط على مَغْضَبَة السلطان .

وأما الأموالُ وهي العُدّة الّتي تُرْهِف عزائم الأولياء ، وتَغُض من نَواظِر الأعداء ؛ فتستَخرِجها من مَحَقّها ، وتضَعُها في مستحقّها ؛ وتجتهدُ في وُفورها ، وتتوفّر على ما عاد بدُرُورها ؛ وأن تُطالعَ أمير المؤمنين بذَرّه وجلّه ، وعقْد أمرك وحَلّه ؛ وتُنْهِيَ إليه كل ما تعزِم على إنهائه . وترجعَ فيه إلى رائه: ليُكْرِمك من موادّ تبصيره وتعريفه ، ويزيدَك من هدايته وتوقيفه ؛ بما يُفضى بك إلى جادّة الخير وسبيله . ويوضِّح لك عَلَم النّجاح ودليله .

هذا عهدُ أمير المؤمنين إليك : وقد أوْدَعه من تلويح الإشارة . ما يُكتفى به عن تصريح العبارة ؛ ثقةً بأنك الأريبُ الألْمعِيّ ، والفَطِنُ اللّوْذَعيّ ، الذي تنتهي به مُتونُ التذكير إلى أطرافه وحواشيه ، وتفْضى به هوادي القول إلى أعجازه وتَواليه .

فتقلّد ما قلدكَ أميرُ المؤمنين . وكُنْ عند حُسْن ظَنّه في فضلك . وصدِّقْ مَخيلتَه في كمالك . والله تعالى يعرّف أمير المؤمنين وجه الخيرة في تصيير أمره إليك . وتَعْويله في مهماته عليك . ويوفقك لشُكْر المَوْهبة في استخْلاصك . والمِنْحة في اجتبائك . ويُنْهضك بما حمّلك من اعباء مُظاهَرته . وجَشّمك من أثقال دَوْلته . ويُسَدّدك إلى مايُدِرُّ عليك أخلاف]نعمته[. والسلامُ عليك ورحمة الله وبركاتُه .

❊ ★ ❊

ومنها ــ ما أورده في رَسْم تقليد زَمّ الأقارب : وهو التقدمة على أقارب الخليفة ، وهذه نسخته :

الحمدُ لله الذي ابتدأ بنعْمته ابتداءً واقتْضابا ، وأعادَها جزاءً وثواباً ؛ وميَّز من اختصَّه بهدايةِ خلْقه ، واستخْلصه لإظهار حقِّه ، بأصْفاها عِطافا ، وأصْفاهَا نَطافا ؛ وأحسَنِها شعارا ، وأجملها آثارا ؛ واستَخْرجهم من أطيب البريَّة أعْراقا ، وأطْهرِها شيَما وأخلاقا ؛ وأقدمِها سُؤْدَداً ومَجْدا ، وأكرمِها أباً وجدَّا . وتوحَّد بأفضل ذلك وأعْلاه ، وأكمله وأسْناه ، محمداً صفْوتَه من خُلَصائه ، وخيرتَه من أنبيائه ؛ فأظهره من من المَنْجَب الكريم ، والمَنْجَم الصَّميم ، والدَّوْحة الطاهِر عُنْصُرها ، الشريف جوهرُها ، الحُلْوِ ثَمرُها ؛ ورَشَّح من اختاره من عتْرته لسياسة بريَّتَه ، والدعاء إلى توحيده وطاعته .

يحمدُه أمير المؤمنين أنْ شرّفه بميراث النبوّه . وفضَّله بأكرمِ الولادة والأبُوَّه ؛ وأحلَّه في الذِّروة العالية من الخِلافة ، وناطَ به أمورَ الكافه ؛ ويسألُه الصَّلاةَ على جدّه محمد وعليٍّ أبيه . صلى الله عليهما .

وإن أمير المؤمنين يرى أنَّ من أشرف نعم الله عليه مَوْقعا ، وألطف مواهبه لديْه موْضعا ؛ توفيقَه المحافظةِ على مَنْ يُواشجه في كريم نَسَبه ، ويمازجُه في صميم حَسَبه ، ويدانيه في طاهِرِ موْلِده ؛ ويُقاربه في طِيب مَحْتِده ؛ وتنزيل كلِّ ذي تميُّز منهم في دِين وعِلم ، ودراية وفهم ، وإحلاله بالمنزلة التي يستوجبُها بفاضل نَسبه ، وفضلٍ يكتَسبه ؛ ويبعثُ أنظاره على التحلي بخِصاله . والتزيُّن بخِلاله : ليحصِّل لهم من فضْل الخلائِق والآداب ، مايُضاهي الحاصِل لهم من عرَاقة المناجب والأنساب ؛ ولذلك لايزالُ ينُوطُ أمورَهم ، ويكِلُ تدبيرَهم ، إلى أعيانِ دولته ، وأماثِل خاصَّته ؛ الذين يعْتادُون حضرته ويراوحُونها ، ويطالِعُونه بحقائق أحوالهم ويُنْهونَها ؛ ويستخرجُون أمْرَه في مصالحهم بما يُذلِّل لهم قُطوفَ إحسانه وطَوْله ، ويُعْذِب لهم مَشارعَ بِرِّه وفضله ؛ وما توفيقُ أمير المؤمنين إلا بالله عليه يتوكَّلُ وإليه يُنِيب .

فإن كان العهد إلى خادم ، قال :

ولما كنتَ بحضرة أمير المؤمنين معدُودا في أُولي النَّباهه ، المترشّحين للاستقلال بأعباء دولته وذوي الوجاهه ، المُستخلَصين لاستكفاء جلائل مملكته : لمَا اجتمع فيكَ من إباء النفس وعزّتها ، ووثاقة الدّيانة وحصافتها ؛ وسداد السِّيرة واستقامتها ، ونقاء السريرة وطهارتها وتقيُّلك منهج أمير المؤمنين ومذهبه ، وتمثُّلك بهديه وأدبه ونشئك في قصُور خلافته . وارتضاعك درّ طاعته — رأى — والله تعالى يعزم له على الخير في آرائه ، ويوفّقه لصالح القول والعمل في انحائه — أنْ قلّدك زمّ بني عمّه الأشراف الإسماعيليين ثقةً بسياستك وحميدِ طريقتك ، وإنافةً لمنزلتك وإعرابا عن أثير مكانتك .

وإن كان العهد الى شريف قيل بدلاً من هذا الفصل :

ولمّا كنتَ بحضرة أمير المؤمنين ممن زيّن شريفَ محتِده ، بمُنيف سؤْدَده . وطاهرَ مولِده ، بظاهر محتِده ؛ وكريمُ تالده بنفيس طارفه ، وجليلَ سالفه ، بنهيل آنفه ؛ مقتفياً سَنَن أوليّتك ، مفرّعا على أصول دوْحتك ؛ ضارباً بالسّهم المُعلىٰ في الدين والعلم ، حائزاً خصَل السَّبْق في الرّجاحة والفهْم — رأى أمير المؤمنين أنْ قلّدك نقابة بني عمه الأشراف القلانيين : ثقةً بأنك تعرف ما يجمعُهم وإيّاك من الأرحام الواضحة ، والأواصر المتمازجة ؛ وتحسين السِّيرة ، والتعهُّدَ لهم والتوفر عليهم .

ثم يوصل الكلام بأيّ الخطابين قُدّم فيقال :

فتقلّد ما قلّدك أمير المؤمنين مستشعراً هوى الله وطاعته ، معقداً ومراقبته ؛ سائراً فيمَنْ ولاك أمير المؤمنين بسيرته ، مستّناً بسُنته ، متأدباً بآدابه . مقتفيا مناهج صوابه ؛ وإكْرام هذه الأسرة [التي] خصّها الله تعالى بكرامته ، وفرض مودتها على أهل طاعته ؛ ونزّهها عن الأدناس ،

وطهرها من الأرجاس ، فقال جل قائلاً : (أنّما يُريدُ اللهُ ليُذهبَ عنْكُمُ الرِّجْسَ أهْلَ البيْتَ ويُطهركُم تطْهيرا) .

واعْرِف لهم حقّ مراتبهم الدانية من أمير المؤمنين . ونزّلهم بحيثُ نزّلهم اللهُ من الدُّنيا والدِّين ، واعتمِدْ تعظيمَ مشايخِهم وتوْقيرَهم ، وسياسةَ شُبّانِهم وتدْبيرهم ، وتقْويم أخلاقهم وتثقيفهم ؛ وخُذْهم بلُزُوم الطرائق الحميدة ، والمذاهب السَّديدة - التي تليقُ بأُصُولهم الطاهرة ، وفُروعِهم المُثْمِرة ؛ ومَنَاحِتهم الصَّميمة ، ومَناجبهم الكريمة ، وتفقّد مَنْشاهم ومَرْباهم ، وخُلَطاهم وقُرْباهم ، فمن تناكرتْ أعراقُه ، وأخلاقُه ، وأنسابُه ، وآدابُه ، بالغْتَ في تنبيهه وتعْريفه ، فإن نَجعَ ذلك فيه وإلا بَسطْتَ يدَكَ إلى تهذيبه ، وإصلاحه وتأديبه : ليَستيقظَ من منامةِ غِرّته . ويرجع إلى اللائق بشَرَف ولادته ؛ وانظُر فيما أُوقِف عليهم من الأملاك والمستغَلّات ، والضِّياع والإقطاعات ، والرُّسُوم والصِّلات ؛ وانْدبُ لتولِّي ذلك مَنْ تسكُن إلى ثقته وأمانته من الكُتّاب ، وراعِ سيرتَه في عِمارته ، وطريقتَه في تَثْمير ماله وزيادته ، فإن ألفيْته كافياً أميناً أقررتَه ، وإن وجدْتَه عاجزاً خَئُونا صرفْته ؛ واستبدلْت به من يُحْسِن خبَرَك ، ويُطيب أثرَك ، وأجر الأمْرَ في قسمته بين ذُكورهم وإناثهم على الرسوم التي يشهَدُ بها ديوانُهم ؛ واكتُبِ الرِّقاع عنهم الى الحضرة في اقتضاء رُسُومهم ، وما يَعْرِض من مهمّات أمورِهم ، وتنجز كلَّ ما يتعلقُ بهم وتنوبُ عنهم فيه : لتستقيم شئُونهم بسياستك ، وتنتظمَ أحوالهم بحُسْن سيْرتك .

هذا عهدُ أمير المؤمنين إليك فاعملْ به وانتهِ إلى متضمّنه إن شاء الله تعالى .

* ★ *

ومنها – ما أورده في رَسْم تقليدٍ بنِقابة العَلَويِّين ، وهو :

الحَمد لله الذي انجبَ من أسْرار عباده قادَةً جعلهم لمَصالحهم نِظاما . وانتخب من أخْيار خليقَتِه سادةً صيرَّهم لأُمورهم قِوَاما ؛ وعَدَق بهم هدايةَ مَنْ ضلّ . وتقويمَ من دَلّ ؛ وتعليمَ من جَهِل ، وتذكيرَ من غَفَل ، ونَصَبهم أعلاماً على طُرُق الرَّشاد ، وأدلةً على سُبُل السَّداد .

يحمدُه أميرُ المؤمنين أن اختصَّه بأُثْرِه الخلافةِ والإمامة ، وميَّزه بزيَّة الوذ بمزيَّة الولايةِ على الأُمَّة والزَّعامة ، وأنهضه بما كَلَّفه من سياسة بريَّته وتنزيلِهم منازلَهم من اختصــاصِه وإيثاره ، وإحْلالهـــم في مَحالهِّم من استخلاصه واختياره ، ويسأله الصلاةَ على أشرف الأُمم نِجَارا وأطيبِهم عُنْصُرا . وأعظمهم مَفْخَرَا ؛ سيدنا محمدٍ صلى الله عليه وعلى أخيه وابن عمِّه . وبابِ حِكْمته وعِلْمه . أمير المؤمنين عليِّ بنِ أبي طالب الراسِخ في نَسَبه . المُدانِي [له] في حَسَبه ، سيفِه الباتر ، ومُعْجِزه الباهر ، ومكَاتِفه المُظاهِر ، وعلى الأئمة من ذريّتهما المهدْيِّين ، وسَلم تسليما .

وإنَّ أمير المؤمنين بما خَصَّهالله تعالى من شرَّف المَنْجَم والمَوْلدِ . وكَرَم المَحْتِد . وخوّله من مَنَاصب الخلفاء والأئمةً ، وناط به من إمامة الأُمَّة – يرى أنَّ من نَعم الله التي يجبُ التحدّثُ بشُكْرِها ، وتَحقُّ الإفاضةُ في نَشْرِها . توفيقَه للنظر في أحوال ذَوِي لُحمْته ، وأَولى مُناسَبته . المُواشِجِين له في أَرُومته . المعتَزِين الى كرم ولادته . وتوخِّيَهم بَما يُرْفِلُهم في مَلاَبِس الجمال . ويُوقِلُهم في هَضَبات الجَلال ؛ ويُرتبهُم في الرُّتَب التي يستوجبونها [ويراها] أوْلى بمَغَارسهم وأنسابِهم ؛ وماسَّاً بأنفسهم وآدابهم . ولذلك يصْرِف اهتمامَه إلى ما يجمع لهم بينَ شَرَف الأعراف . وكَرَم الأخلاق ؛ وطهارة العناصِر والأواصِر ، وحيازةِ المَناقب والمآثِر .

ولما كنتَ بحضرة أمير المؤمنين من جِلَّتهم العُلَماء ، وطَهرتهم الأزكياء ، وأبرارهم الصُّلَحاء ، وخيارهم الفُضَلاء ، الذين تضارعَتْ أخلاقُهم وأعرافُهم . وتقارَعتْ أنسابُهم وآدابُهم ؛ وتشاكهَتْ مواردُهم ومصادرُهم وتشابَهتْ أوائلهم وأواخِرُهم ، واتفقت جيُوبُهم ودخائِلهم ، وتوضَّحت عن الدين والخير مخاياهم . هذا مع ما يرعاه أميرُ المؤمنين من كريم مَساعيك في خدْمته ، وإصابة مراميك في طاعتِه ؛ واعتصامِك بحبلْ مابعتِه ، ونُهوضِك بحقوقِ ما أسبغه من نِعْمته – رأى أمير المؤمنين – والله تعالى يَقضى له في آرائه بحُسْن الاختيار ، ويُمده بالعون والتأييد في مَجارِي الأقدار – أنْ قلَّدك النَّقابةَ على الأشراف الطالبيِّين أجمعين ، المقيمين

بالحضرة وسائر اعمال المملكة شرْقا وغرْبا ، وبُعْدا وقُرْبا ؛ ثِقةً بأنَّك تصدِّق مَخيلته فيك واعتقادَه ، وتستَدْعى بكفايةِ ما استكفاك شُكْرَه وإحمادَه ؛ وتستدُّر بالاستقلال والغَنَاء أخلافَ إحسانه وفضلِه ، وتتمرى بالاضطلاع بمُضْلِع الأثقال فائضَ امتنانِه وطَوْله .

فتقلَّد ما قلَّدك أمير المؤمنين عاملاً بتقوى الله وطاعتِه ، مستشْعِراً لخيفتِه ومراقبته ؛ وأحسِنْ رعايةَ من عَدَق بك رعايتَه ، وسياسةَ من وكَلَ إليك سياستَه .

واعلم أنَّ أمير المؤمنين قد مَيزَّك على كافَّة أهل نَسَبك ، وجميع من يُواشِجُك في حَسَبك ؛ وجعلك عليهم رئيسا ولهم سائسا ؛ فاْعرِف لهم حقَّ القرابة والمشابكَة ، وتَشاجُر الأنساب والمُشاركة ؛ فإن الله تعالى يقول : (قُلْ لاَ أَسأَلُكُمْ عليْه أجراً إلاَّ المَودَّةَ في القُرْبى) . وعُمَّهم جميعا بالتوقير والإكرام ، والتفَقُّد والاهتمام ؛ واتَّخذْ شيْخَهم أبا ، وكَهْلَهم أخا ، وطِفْلَهم ولدا ؛ وافْرِض لهم من الحَنَان ، والإشفاق والفَضْل والإحسان ، ما تقتضيه الرَّحِم الدانيه ، والأواصِرُ المُتقاربة ؛ وكُنْ مع ذلك متفقِّداً لأحوالهم ، مطالِعا لِسيَرهم وأفعالهم ؛ فمن أَلْفَيته سالكاً

لأقصد الطرائق ، متخلقا بأجمل الخلائق ؛ حارساً لشرفه ، متشبها بسلفه ، فزده في الأثرة زيادة ترغب أمثاله في اقتفاء مذهبه ، وتبعثه على التأدب بأدبه ؛ ومن وجدته مستحسناً مالا يليق بصريح عرقه ، راكبا ما ليس من طرقه ، فأيقظه بنافع الوعظ ، وذكره بناجع اللفظ ؛ فإن استقام على الطريقة المثلى ، ورجع إلى الأجدر والأولى ، عرفت ذلك من فعله ، وفرضت له ما تفرضه لصلحاء أهله : فإن الله تعالى قد فتح باب التوبه ، ووعد بإقالة أهل الإنابة ، ومن انحرف عن التذكير ، وانصرف عن التبصير ؛ وأصر وتمادى ، وارتكب ما يوجب حدا ؛ امتثلت أمر الله تعالى فيه ، وأقمت الحد عليه ؛ غير مصغ الى شفاعه ، ولا موجب لحق ذريعه : فإن أمير المؤمنين يصل من ذوي أنسابه ، من وكدها بأسبابه ؛ ويقطع من أوجب الحق قطيعته ، ولا يراعى رحمه وقرابته . ووكل بهم من يروى إليك أخبارهم ، ويكشف لك آثارهم : ليعلموا أنهم ببال من مطالعتك ، وبعين من اهتمامك ومشاركتك ؛ فيكبح ذلك جامحهم عن العثار والسقط ، ويمنع طامحهم من الزلل والغلط . وتوخهم في خطابك بالإكرام . وميزهم عن محاورة العوام ؛ ولا تقابل أحدا منهم ببذاء ولا سب ، ولا قدح في أم ولا أب ؛ فإنهم فروع دوحة أمير المؤمنين وعترته الذين طهرهم الله من الأرجاس ، وفرض قراهم على الناس . ووفر اهتمامك على صيانة النسب من الوكس ، وحياطته من اللبس ، فإنه نسب الرسول صلى الله عليه وسلم الذي يتصل يوم انقطاع الأنساب ، وسببه الذي يتشج يوم انفراط الأسباب ؛ وأثبت أسماء كافة من يعتزى إلى هذا البيت منسوبة إلى أصولها : لتأمن من دخيل ملصق يتزور عليها ، ومختلق ملحق ينضم إليها . وإن عرف مدع نسباً لا حجة له فيه ، ولا بينة عنده عليه ؛ فغلظ له العقاب ، واشهره شهرة تحجزه عن معاودة الكذاب ؛ واحتط في أمر المناكح وصنها عن العوام ،

ووَقِّر كرائمَ أهل البيتِ عن مُلابسة اللئّام ؛ وإن ادّعى أحدٌ من الرعيةً حقاً على شريف فاحملّها على السويّة وعده بإنصاف خصمه ، وامنَعْه من ظُلْمه ، وإن ثَبَت أيضا في مجلس الحُكْم حقٌ على احد من الأشراف فانزِعْه منه [وول (١٢)] على من في البلاد ، أهل السَّداد منهم والرَّشاد ؛ ومُرْهم بتقيُّل مذهبك ، ونَقْل أدبك ؛ واصرِف اهتمامَك إلى حِفظ اوقافهم وأملاكهم ومستَغلاّتهم في سائر الأعمال ، وحُطْها من العفَاء والاضْمِحلال ؛ وتَوَفّر على تثمير ارتفاعها . وتزْجية مالها ؛ واستخدِمْ لضبط حاصلِها ، وجهات مُنْفقها ، من تسكُن إلى ثقته ، وتثِق بنهْضتِه ؛ ووَزِّع ما يرتفع من استغلالها بينَهم على رُتَبِهم التي يشهد بها ديوانهم .

هذا عهدُ أمير المؤمنين إليك فانته إليه منتهجا لتمثيله ؛ معتمِدا بدليله ؛ وطالعْ أمير المؤمنين بما التبسَ عليك وأبْهم ، وأشكَلَ واستَعْجم : ليَقفك على واضِح السَّنَن ، ويُرشدك إلى أحسن السُّنَن ؛ واستعِنْ بالله يهدك لمعونته ، واستهدِه يؤيدْك بهدايته ؛ إن شاء الله تعالى .

❋ ★ ❋

ومنها — ما أورده في رسم تقليد بزَمٍّ طوائف الرجال .

الحمدُ لله البديع تقديرُه ، الحكيم تدبيرُه ؛ الذي أتْقن ما صَنَع وأحْكمه ، وكملّ ما أبدع وتَممه ؛ وأعطى كلَّ مصلحة من مصالح عِباده نظاما ، وكُلَّ مَرْفَق من مرافق خلقه قِوَاما ؛ فلا يُقارب فيما خلَقَ وصوّر ، ولا يُشاكَل فيما قدّر ودبَّر ؛ ورأبَ ثَلْم بريَّته بمن استخلصه من خاصَّتها ، لسياسة عامَّتها ؛ وانتخبه من أشْرافها ، لتسديد أطْرافها ؛ وإقامة من سادَها لإصلاح فاسدها ، وتقويم مائدها ؛ وتوقيفها على سَنَن الصواب ، وتعريفها بمَحاسِن الآداب .

(١٢) الزيادة ليستقيم الكلام .

يحمده أمير المؤمنين أن أحلّه في المنزلة العليّة : من اصطفائه واستخلاصه ، والذّروة السنيّة : من اجتبائه واختصاصه ؛ وفوّض إليه تنزيلَ الرتب وتخْويلها ، وإقرارَ المنازل وتحويلَها ؛ وناط به البَرْم والنقض ، والرَّفع والخَفْض ، والرَّيْش والحصّ ، والزيادَة والنَّقْص ؛ وسوّغه الشُكر على مواهبه السابغ عِطافُها ، الفسيحة أكنافُها ، البعيدة أطرافُها ، و[يسأله] أن يصلي على نبيِّ الرحمة ، ومُفيد الحكمه ، سيدنا محمد خاتَم الرُّسُل ، ومُوضّح السُّبُل ؛ صلى الله عليه وعلى أخيه وابن عمّه ، وخليفته على أُمّته وقَومه : عليّ بن أبي طالب أمير المؤمنين ، ومَوْلى المسلمين ؛ وعلى الأئمة من ذُرّيتهما الطاهرين .

وإنَّ أمير المؤمنين بما فوّضَهُ الله تعالى إليه من حِمَاية الأنَام ، والمُراماة عن دار الإسلام ؛ وكَفّله من غَضِّ نواظر أهل العِناد ، وتنكيس رُؤس رؤساء الإلحاد ؛ لايزال ينظُر في مصالح عبيده ، وتَوَفُّر سياسة رجال دولته وجنوده ؛ الذين هم حِزْبُ الله الغالبُون ، وجندُه المنصورُون ؛ ويُرَدِّدُ النظرَ في أمورهم ، والتقدّمَ عليهم ؛ وزَمْ طوائفهم ، إلى خواصِّ دولته ، وأعيان مملكته ، الذين بَلاَ طرائقَهم ، وحَمِد خلائقَهم : من الغَناء والكِفاية ، والسَّداد وحُسْن السياسة ؛ ونَقَّلهم في الخِدم فاستقلُّوا بأعبائها وأثقالها ، ونهضوا بناهض أعمالها ، ومضتْ عزائمُهم في حِياطة البيضة ، واشْتدت صرائمهم في تحصين الحَوْزة ، وصدَقتْ نيّاتهم في المُراماة عن الملّه ، والمحاماة عن الدعوة والدّوْلة .

ولمّا كنتَ بحضرة أمير المؤمنين مُعَدّا لمهمّاته ، معدوداً في اماثِل كُفَاته ، مشهوراً بحسن السياسة لما تُورِده وتُصدِرُه ، معروفا بفضل السِّيرة فيما تأتيه وتَذَره – رأى أمير المؤمنين – والله يُرشده لأعْوَد الآراء بالصلاح والإصلاح ، وأدناها من الخير والنجاح – أنْ قَلّدك زِمَامَ طائفة

الرجال الفلانيين (ويوصفون بما تقتضيه مكانتهم من الدولة وحسن سيرهم في الخدمة) إنافةً بقَدْرك ، وإبانةً عن خَطَرك ، وتنويهًا بذكْرك ، وتفخيماً لأمرك .

وهو يأمُرُك بتقوى الله تعالى وطاعته ، واستشعارِ مراقبته ، ورياضةِ خلائقك على محبَّة العَدْل ، وإيثار الفَضْل ؛ واتِّباع اللُّطْف ، واجتناب العَسْف ؛ وتوخِّي الإنصاف ، وبَسْط الهيبةِ من غير إجْحاف ؛ وأن تخُصَّ هذه الطائفةَ من النظر في أمورها ، وتعهُّد صغيرها وكبيرِها ، بما يُسَدِّد أحوالَها ، ويحقِّقُ آمالَها ؛ وتأخُذَها بأحسَن الآداب اللائقة بأمثالها ، وسُلوك الطريقةِ المعهودة من أعيانها وأماثِلها ؛ وتُشْعِرها من أمير المؤمنين بما يشرَحُ صَدْرَها في خدمته ، ويُقِرّ عينها في طاعته ، والمسارعة إلى مكافحة أعدائه ، والتَّميزِ في نُصْرة أوليائه ، وتُطالَع بحال من يستحِقُّ الاحترام ، ويستوجبُ إفاضةَ الإنعام ، وتكتبَ الرِّقاع عنها (مستدْعيا للرِّباطات . في الأطماع والعاجزين شاملا في التعويد والتأمير والتلقيب والولايات قاصدا في ذلك ما يُفَسِّح آمالها في الآجال ، ويُوثِّقُها بدُرُور الأمثال) (١٣) ؛ فإنهم أمراءُ الحُروب ، وكُفَاة الخطوب ، الذين يجاهدُون عن الحَوْزة ، ويُرامُون عن الدولة ؛ وافْرِض لهم من الإكرام ، وتامِّ الاهتمام ؛ ماتقتضيه مَكانَتُهم في الدولة ، ومَوْضعهم من الخِدْمة ، وتكفَّلْ اوساطَهم بالرِّعاية ، واصْرِف إليهم شَطْرا موفوراً من العِناية ؛ والحِق من بَرَّز منهم وتقدَّم ، ونَهَض وخَدَم ، بنظرائه وأمثاله ، وساوِ بينه وبينَ أشكاله ؛ وتعهَّد أطرافهم بملاحَظتك ، وتفقَّدْهم بسِياستك ؛ وخُذْهم بلُزُوم السِّيَرِ الحميدة ، والمذاهب السَّدِيدة ؛ والتوفُّر على مايُرْهف عزائمهم ويؤيِّد أيدِيَهم ؛ ولا تُفَسِّح لأحد من هذه المذاهب في مخالطة العَوَام ولا مشاركةِ

(١٣) كذا في النسخ ولم نهتد الى المراد منها .

التُّجَّار والاحْتِراف ، ووكِّلْ بهم من النُّقباء من يَبْتَلي سيَرَهم ، ويُنْهِي إليك أخبارَهم ؛ فمن علمته قد اجْترأ إلى نَسْخ المَذْهب ، فتناولْه بأليم الأدَب ؛ واحْضُضْهم على الأدْمان في نَقْل السلاح ، والضَّرْب بالسيف ، والمطاعنة بالرمح ، والإرْماء عن القَوْس ؛ وميزٍّ من مَهَر واستقلَ ، وقَصرًّ بمن ضَجَّع وأخَلَّ ؛ فهم كالجَوَارح التي ينفعَها التعليم والإجراء ، ويضرُّها الإهمالُ والإبْقاء ؛ وفي صرفك الاهتمامَ إليهم ما يزيدُ في رَغْبةِ ذى الهمَّة العليَّة ؛ ويبعَثُ المعروفَ في النفس الدنيَّه . وأن تُطالَبهم بالاستعداد ، وارتباط الخُيُول الجياد ؛ والاستكثارِ من السِّلاح الشاك والجُنَن . ولْيَكُنْ ما تُطالبهم بإعداده من هذه الأصناف على حَسَب الفُروض من العَطَاء . ولا تُرَخِّص لأحد في الاقْتناع بما لا يليقُ بمنْزلته والرضا بما يقع دُون ما يعتَدُه أمائِلُ طَبقته . ومَنْ مات من هذه الطائفة وخلَّف ولدا يتيماً فضمَّه إلى أمثاله ، وانظُرْ في حاله ؛ ووَكِّل به من يفقِّهه في دينه ، ويعلِّمُه مالا غِنى به عن تَعْليمه من كتاب الله وسُنَّته ، ومَنْ يهذبه في الخدمة ويعلَّمه العملَ بآلاتها ، والتنقُّلَ في حالاتها ؛ ويطْلَقُ له من إنعام أمير ما يقُوم بكُلْفتها ولوازمها ، وخُذْ كلاً من تُقَدِّمهم بخدمها والجرْى على عادتها في النُّهوض بما يُسْتَنْهض به . ولا يُفَسَّح لها في التَّثاقُل عنه ؛ وسوٍّ بينَهم في الاستخدام ؛ ولا تخُصَّ قوماً دون قوم بالترفيه والإجمام ؛ فإنَّ في ذلك إرهافاً لعزائسهم ، وتقويةً لمُنَنِهم ، وإفاضة العدل عليهم .

هذا عهدُ أمير المؤمنين إليك ، قد وَكَّد به الحجة عليك ؛ فتأمَّلْه ناظرا ، وراجعه متدَبِّرا ؛ وانتَه إلى مَصَايِره ومَراشِده ، واعمل على رُسُومه وحدُوده ، يُوفق الله مقاصِدَك ، ويُسْعِد مَصالحك ويتولاك ، إن شاء الله تعالى .

ورُسوم هذه العهود يتفاضلُ الخطابُ فيها بحسب تَفاضُل الطوائف ومَن يولى عليها . وهذا الأنموذج متوسِّط تُمْكن الزيادةُ عليه والنقصُ منه .

* ★ *

ومنها – ما اورده في رسم تقليد بإمارة الحج ، وهذه نسخته :

الحمدُ لله الذي طهرَّ بيته من الأرْجاس ، وجعلَه مَثَابةً للناس ، وآمَنَ مَنْ حله ونزَله ، وأوْجبَ أجرَ من هاجر إليه ووصَلَه .

يحمدُه أمير المؤمنين أن خصَّه بحيازة البيتِ الأعظَم ، والحِجْر المكرَّم ، والحَطِيم وزَمْزَم ؛ وأفضى اليه ميراثَ النبوّة والإمامة ، وتراُثَ الخلافة والزَّعامة ، وجعله لفرْضه موفّيا ، ولحقوقه مؤدّيا ؛ ولحُدُوده حافظا ، ولشَرائعه ملاحِظا ؛ ويسألُه أن يصَلّيَ على مَنْ أمره بالتأذينِ في الناسِ بالحَجّ إلى بيته الحرام لشهادةِ منَافِعِهم ، وتأديةِ مناسكهم ؛ وقضاءِ تفَثِهم ، ووفَاء نَذْرهم ،وذِكْر خالقِهم ؛ والطــواف بحرَمه ، والشكر على نعَمه : سيدنا محمدٍ رسوله صلى الله عليه وعلى وصيه وخليفتِه ، وباب مدينة علمِه وحكمتِه : عليٍّ بن أبي طالب سيــد الوَصيِّين ، وعلى الأئمــةِ من ذريّتهما الطاهرين .

وإنَّ اولى ما صرَف أمير المؤمنين إليه همَّته ، ووفَّر عليه رعايتَه ؛ مُثابرا عليه ، وناهضاً لحق الله تعالى فيه ، النظرُ في أمر رُفَق الحجيج الشاخصة إلى بيتِ الله الحرام ، وزيارةِ قبْر نبيه عليه أفضلُ الصلاة والسلام ، وردُّه إلى من حلٍّ محلَّك من الدين ، وتميز بما تميزَّ به صُلَحاء المسلمين : من العلم ، ورجَاحة الحِلْم ، ونفَاذِ البصيرة ، وحُسْن السريرة ، وعَدْل السِّيرة ؛ ولذلك رأى أمير المؤمنين أنْ قلَّدك أمرَ رُفَق الحَجيج المتوجِّهة من موضع كذا إلى الحرمين المحروسين ، وولاّك الحرب والأحْداثَ بها : واثقاً باستقلالك وغنَائك ، وسَدَادك وإصابة آرائك ، فتقلَّد ما قلَّدك أميرُ المؤمنين بعزمٍ ثاقب ، ورأيٍ صائب ؛ وهمَّة ماضيه ، ونفْس سامية ؛ وشمِّر فيــه تشميــراً يُعْرِب عن محَلِّك من الاضْطلاع ، ويدُلُّ على استقلالك بحقِّ الاصْطِناع ، وخُصَّ الحجّاج بأتمِّ الأحُظّ ، وكُنْ من أمرهم على

تَيَقُّظ ، واعتمِدْ تَرقُّبهم في المَسير . وسوِّ في رعايتهم بين الصغير والكبير ؛ فإنهم جميعاً إلى الله متوجهون . وإلى بيته الحرام قاصدُون . وعلى رسوله صلى الله عليه وسلم وافدُون ؛ قد استقرّ بُوا بَعيدَ الشُّقَّة ، واستَدْمثُوا خَشِنَ المَشَقَّة ، رغبةً في ثواب الله وعفوه ، والنجاةِ من عِقابه وسَطْوه وتقرُّبا إليه بارتسام أمْره وطاعته ، وإيجابا للحرمة بالحلُول في عِراص بيته وأفْنيته ؛ فمُرافدَتُهم اجبه ، ومساعدَتُهم لازبه ؛ حتى يصلُوا إلى بغْيَتهم وقد شَمِلتهم السلامةُ في الأنفس والاموال . والامنةُ في الخيلْ والرجال : متوجِّهين وقارّين وقافلين ، بعد أن يشْهَدُوا منافعَهم ، ويؤدُّوا مَناسكهم ، ويعملُوا بما حُدَّ لهم . وردَّهم في سَيْرهم عن الازدحام ، ورتِّبهم على الانتظام ؛ ورَاعِهم في وُرُود المَناهل ، وامنعْهم من التحادُث عليها والكاثُر فيها حتى لا ينفصلُوا منها إلاَّ بعدَ الارتواء ، ووُقوع التَّساوي والاكتفاء ؛ وقدِّم أمامَهم من يمنَعُهم من التسرُّع ، وأخِّرْ وراءهم من يحفظهم من التقطُّع ؛ ورتِّب ساقتَهم . ولا تُخلِ بحفظهم من جميع جهاتِهم ؛ وطالِعْ أمير المؤمنين في كل منْزِل تنزلُه ومحلٍّ تحلُّه بحقيقة أمرك ليقِفَ عليها . ويُمدَّك بما يُنْهِضك فيها .

هذا عهدُ أمير المؤمنين إليك فتدبَّره عاملاً عليه ؛ متبصِّراً بما فيه ، عاملاً بما يحسُن موقِعُه لك . ويزيدك من رضا الله وثوابه ، إن شاء الله تعالى .

* ★ *

ومنها – ما اورده في رسم تقليد الإمارة على الجهاد ، وهذه نسخته :

الحمد لله الصادقِ وعْدُه ، الغالب جُنْدُه ؛ ناصر الحق ومُديله ، وخاذِل الباطل ومُذيلِه ؛ مُحِلِّ النَّكْب بمن انصرف عن سبيله ، ومُنْزِلِ العِقاب بمن تحرَّف عن دليله ؛ الذي اختار دين الإسلام فأعلى منَارَه ، ووَضحَ أنواره ؛ واستخلَص له من أوليائه اعضادا لا تأخُذُهم في الحق

لومةُ لائمٍ ، ولا يُغْمِضون عن المكافحة دُونَه جَفْنَ حالم ؛ وجزاهم على سعْيِهم في نُصْرته جزاءً فيه ينافسُ المتنافسُون ، وإلى غاياته يَرْتمي بالهِمَم المُجِدّون ؛ قصداً من الله تعالى في إعزاز دينه ، وانجازِ ما وعَد به خُلفاءَه من إظهاره وتمكينه ؛ وقَطّاً لشَوكة أهل العِناد ، وتَعْفِيةً لآثار ذَوي الفساد ؛ وتوفيراً لأَحاظي من بَذَل الاجتهاد من سُعَداء عبادِه في الجِهاد .

يحمدُه أمير المؤمنين أنِ اختصَّه بلطيف الصُّنْع فيما استرعاه ، ووفّقه للعمل بما يُرْضيه فيما ولّاه ؛ وأعانه على المُراعاة عن دارِ المسلمين ، والمحاماةِ ذِمَار الدّين ؛ ومجاهدة [مَنْ] ندَّعنهما صادفا ، ونَكَب عن سبيلهما مُنْصرِفا ؛ وإبادةِ من عَنَد عن طاعته واتخذ معه إلها آخرَ لا إلهَ إلا هو سبحانه وتعالى عما يقُول المُشْركون عُلُوّا كبيرا ؛ واستِنْزالهم من صَيَاصيهم قَهْرا واقتِسارا ؛ وإخراجِهم عن بُيوتِهم عِزًّا واقْتِدرا ؛ وإذاقتِهم وَبَالَ أمرهم [و] عاقبةَ كُفْرهم ، اتّباعا لقول الله تعالى إذ يقول : (يأيُّها الّذينَ آمَنُوا قاتِلُوا الّذينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الكُفّارِ ولْيجِدُوا فيكُمْ غِلْظَةً واعْلَمُوا أنَّ الله مع المُتَّقِين) .

ويسأله أن يصَلّيَ على أشْهر الخلقْ نُورا وفضلا ، وأطْهر البريةِ فَرْعا وأصلا ؛ وارشد الأنبياء دَليلاوأقصدِ الرُسُل سبيلا : محمدٍ رسوله الذي ابتعثه وقد توَعَّر طريقُ الحق عافيا ، وتَغَوّر نُورُ الهدى خافيا ؛ والناسُ يتَسَكّعُون في حَنَادِس الغَمَرات ، ويتورّطُون في مَهاوى الهَلَكات ؛ لا يعْرِفُون أنهم ضُلاّ ل فيستهْدُون ، ولا عُمْى فيستَبْصِرون ؛ فأيّده وعضَّده ، ووفّقه وسَدّده ؛ ونَصَره وأظهَره ؛ وأعانه وآزَرَه ؛ وانتخب له من صَفْوة خلْقه ، أوْلياء كاتَفُوه على ظُهور حقّه ، سَمَحُوا بالأنفس العَزيزة ، والأموال الحَرِيزة ؛ وجاهدُوا معه بايدٍ باسطةٍ ماضية ، وعزائمَ متكافية متوافية ؛ وقلوبٍ على الكفار قَسِيّة قاسِيَة ، وعلى المؤمنين رؤُفة

جانبيّة . فلمّا صدقوا ما عاهدوا الله عليه ، وارتسموا أمره وانتهوا إليه ، شركهم معه الوصف والثناء وأضافهم إليه في المدح والإطراء : فقال جل قائلا : (محمدٌ رسولُ الله والذينَ معهُ اشدّاءُ على الكفّار رُحماءُ بينهم) . صلى الله عليه وعلى أخيه وابن عمّه أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب سيف الله الفاصل ، وسنانه العامل ؛ ومُعجز رسوله الباهر ، ووزيره المظاهر ؛ مُبيد الشُّجعان . ومُبير الأقران ؛ ومُقطّر الفرسان ، ومُكسّر الصلبان . ومنكّس الأوثان ، ومُعزّ الإيمان ، الذي سبقَ الناسَ إلى الإسلام ، وتقدّمهم في الصّلاة والصّيام ؛ وعلى الأئمة من ذرّيتهما الميامين البررة الطاهرين ، وسلّم تسليما .

وإنّ أمير المؤمنين بما كلّفه الله تعالى من [أمر] دينه ، ووعده من إظهاره وتمكينه ؛ يرى أنّ أفضل مارنَا إليه ببصر بصيرته ، ورمى نحوه بطامح همتّه . ما شملت الدينَ والدنيا بركتُه ، وعمّت الإسلامَ والمسلمين عائدتُه . وحلّ محلّ الغيث إذا تدفّق وهمع . والنهار إذا تألّق ولمعَ . ولا شيء أعودُ على الأُمة . وأدعى إلى سُبُوغ النّعمة ، من عُلُوّ كلمتهم ، وارتفاع رايتهم . وتحصين حوزتهم . وإيمان منَصّتهم . وتأدية الفريضة في مجاهدة أعدائهم . وصرفهم عن غُلَوائهم ، واقتيادهم بالإذلال والصّغار ، وكبحهم بشكائم الإهوان والاقتسار . ومواصلتهم بغزو الديار . ونعفية الآثار ؛ وإيداع الرُّعب في صُدُورهم ، وتكذيب أمانيّ غُرُورهم ؛ ووعظهم بألسنة القواضب . ومكاتبتهم على أيدي الكتائب : لما في ذلك من ذُلّ الشّرك وثُبُوره . وعزّ التوحيد وظُهوره ، ووُضوح حجّة أولياء الله تعالى على اعدائه بما يُنزله عليهم من نصره ومعُونته ، ويؤيّدهم به من تأييده وعنايته ؛ لا جرَم أن أمير المؤمنين مصرُوف العزْمة ، موقُوفُ الهمّة . على تنفيذ البُعُوث والسّرايا . والمواصلة بالجيُوش والعرايا ؛ وتجهيز المرتزقة من اولياء الدولة ، وحضّ المُطوّعة من أهل الملة ، على

ما أمر الله تعالى به من غَزْو المشركين ، وجهاد المُلْحدين ، نافذاً في ذلك بنفسه ، وباذلا فيه عزيزَ مُهْجته ، عند تَسهُّل السبُل إلى البعثة ، ووجود الفُسْحة ؛ ومعوّلا فيه عند التعذُّر على أهل الشّجاعة والرّجاحة من أعيان أهل الإسلام الذين أَيْقَنَتْ ضمائرهم . وخلَصتْ بصائرهم ، ورغِبُوا في عاجل الذكر الجميل ، وآجل الأَجْر الجزيل ، وأميرُ المؤمنين يسأل الله تعالى أن يُجْرِيه فيما يُصْدِر ويورِد ، على أفضل ما لم يزَلْ يُولى ويُعوّد : من التوفيق في رأيه وعَزْمه ، والتسديد في تدبيره وحزْمه ، ويؤتيه من ذلك أفضلَ ما آتاه وليّاً استخْلَفه . وأميناً كفَّله عبادَه وكلّفه ، وما توفيقُ أمير المؤمنين إلا بالله عليه يتوكّلُ وإليه يُنيب .

ولما كنتَ بحضرة أمير المؤمنين ممن يُعِدّه لجلائل مهمّاته . ويَعُدّه من أعيان كُفَاته ؛ ورآه سِدادا للخلَل . وعِماداً في الحادثِ الجلَل ؛ وسَهْما في كنَانته صائبا . وشِهابا في سماءِ دولته ثاقبا ، وسيْفا بيدِ الدين قاطِعا ، ومِجنّاً عن الحَوْزة دافعا ـ رأى ـ وبالله التوفيق ـ أن يُقدّمك على جيُوش المسلمين . وبُعوثهم الشاخصة إلى جهاد المشركين ، فقلّدك الحَرْب والأحْداث بها . وعقَد لك لواءً بيده يلْوي إليك الأعناق ، ويُنكّسُ لك رُؤس أهل الشِّقاق ؛ وشرفَكَ بفاخِر ملابِسه وحُمْلانه ، وضاعفَ لديْك موادَّ إحسانه ، وحبَاك بطوْقٍ من التِّبْر ، مرَصّع بفاخر الدُّرّ ، عادقاً هذه الخدمةَ منك بالنّصيح المأمون ، والنّجيح الميْمُون؛ الذي تتوضّح فيه أنوار اللّبابة . وتلُوحُ عليه آثارُ النّجابه واثقاً بما تَنْطوي عليه من الإخلاص والوِلاَية ، وتتحلى به من الغَناء والكِفَاية ، ويفترِضه من الاستمرار على سنَنَ الطاعة ، والاستقامةِ على سَمْتِ الانقياد والتّباعه ؛ وتَوجيه من مناصحة المسلمين ، والتشميرِ في نُصْرة الدين .

فتقلّدْ ما قلّدك أميرُ المؤمنين مستشعراً تقْوى الله وطاعتَه في الإسرارِ والإعلان . معتقِداً خِيفتَه ومراقبَتَه في الإظْهار والإبْطان ؛ مخلِصَ

القلب ، رابط اللُّبّ ؛ واثقا بنصْر الله الذي يُسْبِغه على خُلَصائه، ويُفْرِغه على أوليائه ؛ آخذاً بوَثَائِق الحزم ، متمسكًا بعلائق العَزْم ؛ ناظراً من وراء العوَاقب . متفرسًا في وُجُوه التجارب ، مقلّصا سُجُوف الآراء بإِضْفَاء غيار التدبير ، مُمراً مرائر التقرير ، مُوغِلا في المخَاتِل والمكايد . حارساً للمطالع والمرَاصد ؛ يقْظَانَ النفْس والناظر ، متحرّزاً في موقف الواني والمُخَاطِر . وأن تتوجه على بركة اللهِ وعونهِ وحسن توفيقِه ، ويُمْن تأييده ، بعد أن تتسلّم من الجيُوش المنصورة جرائد بعدّةِ رجال أمير المؤمنين السائرين تحتَ رايتك . المنُوطين بسياستك ؛ وتَعْرضهمُ عليها . فتتخَيّرُ من شُهرت بسَالتُه وكفَاحه ، وعتقَ جوادُه وكَمُل سلاحه ؛ وعُرف بصدّق العزيمة في مُقارَعة الأعداء . وحُسْن الطويّة في الإخلاص والولاَء ؛ وتستبْدِلُ بالورَعَ الجبَان . والرّعديد الضعيف الجنَان ؛ الناقصِ العدة المقصّر النّجْدة ؛ المدخُولِ النيّة ، النّغل(١٤) الطّويّة ، فإذا كملتِ العدّة من أهل الجلَد والشّهامة . وأولى الحمَاسة والصّرامة ؛ استدعيْت من بيت المال ما يُنْفق فيهم من مستَحق أطماعهم . ومَعُونة طريقهم . وأجريتَ النفقةَ فيهم على أيدي عارضيهم وكُتّابهم ؛ فإذا أزحْتَ عِللهم فاستصْحِبْ من العُدّد والسّلاح والخيم والأزواد والأموال ما يُرْهبُ الأعداء ، ويُنْهِض الأولياء ؛ وأذِّنْ في مُطَّوّعة المسلمين ، بجهاد المُشْركين ؛ في [كل] بلْدة تنزلها . ومَحلّة تحلُّها ، وابذُلْ لهم الظّهرْ والميرة والمعُونة بالسلاح وما يستَدْعونه ؛ وأرْهِفْ عزائمهم في غزو الكفّار . وإجلائهم عن الأوطان والدّيار ؛ واسلُكْ الطريقَ القاصد . ولا تُفارقْ أهلَ المناهل والموَارد . ولا تُغذّ السيرَ إغْذاذا تنقطِعُ له الرجال وتتأخّرْ به الأزْواد ، ولا تتلوّمْ في المنَازل تلوُّما تتصرّم فيه الآماد ؛ ويُوجدُ المشركين مهْلَة للاحتيال والاستعْداد ؛ وراع جيْشك عند الحَلّ والترْحال .

(١٤) في الأصول المهروق الطوية ولم نجد هذه المادة .

ولا تُباعِدْ بين مَضارِبهم إذا نزلوا . ولا تمكِّنْهم من التفرُّد إذا ارتحلوا ؛ وخُذْهم بالاجتماع والالتئام ، والتآلُفِ والانتظام ؛ ولاسيمًّا إذا حصلُوا في ارض العَدُوّ فإنَّهم ربَّما اهْتَبَلُوا (١٥) الفرْصة في المَسير المتسرِّع ، والمَبيت المتفرِّد ، ونالوا منه ماتُوسِّم به المضيمةُ على إهل الإسلام ، والعياذ بالله .

وإذا دانيتَ القومَ فأعِط الحَزَامَةَ حقَّها ، مستعملا نارةً للدَّهاء والخِداع ، وأخرى للِّقاء والقِراع ؛ فربما أغنَت المُساتَرة ، عن المُكاشَرة ؛ ونابتْ مَخايِل التَّلَطُّف ، عن مَداخل التعسُّف ؛ وكفتْ غوائِلُ المخادَعة ، عن مَواقف المماصَعَة ؛ وقد قال إمامُ الحرب ؛ وزعيمُ الطَّعْن والضَّرب : « الحَرْبُ خَدْعة » .

وإذا عزمتَ على المصَاع والمُنافحة ، والإيقاع والمُكافحة ، فبُثَّ من سرَعان الفُرْسان الذين لا تشُكُّ في محض نُصْحهم . ولا ترتابُ بِصدْق نيَّاتهم . طلائعَ تُطْلِعك على الأخبار . وعيوناً تَكْشِف لك حقائقَ الآثار ، وتَغُضُّ الطَّرْف عن مجاوري الديار ؛ ومُرْ مَنْ تقدَّمه عليهم بأن لا يقْتحم خَطَرا ، ولا يرْكَب غرَرا ؛ وليكُنْ مَنْ تُنْفِذه في ذلك [من] أهل الخبْرة بالطُّرُق والساحات . والدخلات والأودية والفَجَوات ؛ حتى لا يتِمَّ للعدُوّ فيهم حيله . ولا ينالهم منه غيله ؛ فإذا أتَوْك بالخبَر اليقين ، وأقبَسُوك قَبَس النُّور المبين ؛ بدأتَ الحرب مستخيراً لله تعالى ، مقدِّمًا أمامَكَ الاستنْجاح به ؛ واستنزال النصر من عنده ، مرتِّبًا للكتائب ، معبياً للصُّفوف والمَقَانب ؛ زاحفاً بالراجل مَحَصّنا بالفارس والرامي مُجتنًّا بالتارس ؛ واشْحَن القلبَ والجناحين بالشُّجعان المستبقين ، والأبطال الحلاسين ؛ وأنْزِل إلى رحى الحَرْب مَنْ خفَّ ركابُه من الأنجادِ الراغبين

(١٥) أي اغتنموا الفرصة الخ .

في علُوّ الصيت والذكر ، الطالبين الفوزَ بالثواب والأجْر ؛ واجعل وراءهم ردْءا ، وأعدّلهم مَدَدا يُوازرونهم إن يجنهم مالا يطيقونه ويَحين (؟) ، ويُطايرونهم على ما خلص إليهم وادعين ؛ وقِفْ من التأخير والإقدام ، والنُّفُوذ والإحْجام ، موقفاً تُعْطى الحزامة فيه حَظّها ، والرويّة قِسْطها ؛ مصمّماً ما كان التصميم أدْنى لانتهاز الفُرْصة ، واهتبال الغِرّة ؛ متلوّما ما كان التلومُ أحمدَ للعاقبة ، وأسلم للمَغبّة .

واعلم أنّ ريح النصر قد تَهبُّ للكافرين على المسلمين ، فلا يكُنْ ذلك قادحا منك في الدّين . فإن الله تعالى يستَدْرِج بُسنَّة الباطل لابُسنَّة الإظفار ، ويُريهم الإقْدار في مَخَايِل الأقدار ؛ حتى إذا فَرِحُوا بما أُوتُوا اوردتهم كَوَاذبُ أمانيِّهم مواردَ الهلكَة ، وأُخِذُوا بَغْتَة ، ودالتْ دولةُ الحق لأوليائها مرفوعة الأعلام ، آخذةً بنَواصي العُداة والأقدام ؛ وتحققْ أن الأمورَ بخواتيمها ، والأعمال بتَمامها ؛ وأنه ولى [المؤمنين] . ما جَمَع موقِفٌ فِئتَيْ شكٍّ ويَقين ، وكُفْر ودين ؛ إلاّ كان الفَلْج والنصْر لأهل التقى والدّين ، والخسارةُ والبوارُ على الشاكين الكافرين ، تصديقاً لوعده تعالى إذ يقولُ : (ولَقَدْ سَبَقَتْ كَلمَتُنَا لِعِبادنَا المُرْسَلينَ إنّهُمْ لَهُمُ المَنْصُورُون وإنّ جُنْدنا لَهُمُ الغالِبون) .

وتحفظ بنَفْسك ولا تُلْقِها في المَهَالك متهوّرا ، ولا تَرْم بها في المتالف مخاطراً ، ولا تُساعدْها على مطاوعة الحميّة والنّخْوه ، وتحرّز – قَبْل السَّقْطة والهَفْوة ؛ فإنك – وإن كنتَ واحدا من الجيش – أوحَدُهم الذين يتبادَرُون إليه ، ويعتمدُون في السياسة علية ؛ ومادمتَ محفوظاً ملحوظا فالهيبة عاليّة ، والعين سامية ؛ وإن ألَمّ بك – والله يعصمُك – خَطْب ، أو تالك – والله يكْفيك – رَيْب ، توجّه الخَلَل ، وأرْهف حدّ الوَهْن والشَّلَل . وإن دعتْك نفسُك إلى الجهاد ، وحملك تصرفُك على الكِفَاح والجلاد ؛ فليكُنْ ذلك عندَ الإحجام ، توزَلْزُل الأقدام : فإنّ

ذلك يشحذ عزائم المسلمين، ويقوّي شكائم المتأخرين؛ غيرَ مضيّع للحذر، في الورد والصدر؛ وكذلك فاحرُس أماثلَ القوّاد، ووجوه الأجناد، الذين تُشفَى صدورُ الكفّار بمصارعهم، وتُنقَع غُلَلهم بمضايعهم؛ وحامِ عنهم حمايةَ الجفون عن المُقَل، وصُنْهم صيانةَ الصوارم من الخلل؛ ودافِعْ عن كافة [جند] المسلمين المرتزِقين والمتطوّعين، فإنّ الله تعالى قد كافى بينَ دمائهم، وسوى بين ضُعفائهم وأقويائهم؛ على أنه سبحانه قد وعدهم عن بذل الأنفس في مجاهدة المُلحِدين، وإبادة المشركين، الجزاءَ الجسيم، والنعيمَ المقيم؛ والبقاء الذي لا يعتوره فناء، والجذَل الذي لا يعترضُه انقضاء.

وقدِّمْ على الأساطيل والمَراكب الحربيّة وأعمالها ورجال البَحْر من تختاره لذلك من أماثل الأمراء المشهورين بالشدّة والنجدة، والبَصارة والمَهارة والخبرة بشُقّة البحر والقتال فيه؛ ومُرْه بالتسحيل وملازمة السَّيف والإرساء من الشُّطوط بحيثُ يتأمّلُ مَضاربَك، ليكون ما حُمِل عليها من ميرةٍ وعُدّة قريباً منك؛ فإنْ نازلتَ ثَغْرا من ثغور الساحل فاملأه بالخيل من بَرِّه، وبالسفائن من بَحْره واستخدِم لحفظ ما فيها من الأزْواد والأسلحة والعُدد والنِّفْط ودُهْن البَلَسان والحِبال والعرّادات وغيرها من الآلات مَنْ تَثِق بأمانته ومعرفته. وتقدّمْ إليهم بالحَوْطة على ما يخرجونه من من الدّواري واسترجاعه بعد الغنى عنه؛ واستظهرْ بذلك استظهاراً يُحمَدُ موقعُه لك، ويعرَف به رَصينُ رأيك؛ وسديدُ مذهَبك. واستخلص لمجالستك من أهل الأصالة والحَزْم، والرَّجاحة والفَهْم، والدِّراية والعِلْم، والتجارِب في ممارسة الحُروب، وملابسة الخُطوب، من ترجع إلى رأيه فيما أشكل، وتعتمدُ على تجربته فيما أعضَل؛ ولا تستبدَّ برأيك فإنّ الاستبدادَ يُعمّي المَراشِد، ويُبْهم المَقاصد.

ولمّا كانت الشّورى لِقاحَ الأفهام ، والكاشفةَ لغَواشِي الإبْهام ، أمر الله تعالى بها نبيّه عليه السلام فقال : (وشَاوِرْهُمْ في الأَمْرِ فإذا عَزَمْتَ فتَوكّلْ على الله إنّ الله يُحِبُّ المتوكّلين) .

ولا تُشاوِرْ جبَانا ولا مثبِّطا عن انتهاز الفرصة الممكنة ، ولا متهوِّرا يحملُك على الغِرّة المُهْلكة ؛ وتأنَّ في الآراء فإنّ التأنّي يُجِمُّ الألباب ، ويجْلُو وجهَ الصواب . وبقلِّص سُجُوف الارتياب ؛ واضرِبْ بعضَ الآراء ببعضٍ وسَجِّلْها ، وأجِلْ فكرَكَ فيها وتأمّلْها ؛ فإذا صرّحَتْ عن زُبْدتها ، وانشقّتْ أكمامها عن ثمَرتها ، فأمضِ صحيحَها ، واعتمد نجيحها ؛ وإذا استوى بك وبالعدوّ مرْحى(١٦) الحَرْب فحرِّقْهم بنار الطّعْن ، وأذِقْهم وبال أمْرِهم ، وعاقبة كُفْرهم ؛ ولا ترِقَّ لهم ؛ واتبِع ماأمر الله تعالى به في الغلْظة عليهم . فإنه يقول : (ياأيُّها الّذينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الّذينَ يَلُونَكُم مِنَ الكُفّارِ ولْيَجِدُوا فيكُم غِلْظَةً واعْلَمُوا أنَّ الله معَ المُتّقينَ) . فإن جنَحُوا للسّلم والمُوادَعة مصانعين ، فقابل بالقبول ، فإن الله تعالى يقول : (وَإنْ جَنَحُوا للسّلْمِ فاجْنَحْ لهَا وتَوكّلْ عَلَى الله إنّهُ هُوَ السّميعُ العَليمُ) .

وابْذُل الأمانَ لمن طَلَبه . واعرِضْه على من لم يَطْلُبه ، وفِ لمن تُعاهده بعَهْده ، واثبُتْ لمن تُعاقده على عَقْده ؛ ولا تجعل ما تُفْرِطه من ذلك ذَريعةً ، إلى الخَديعة ، ولا وَسيلة . إلى الغيلة : فإن الله سبحانه وتعالى يقول : (يأيُّها الّذينَ آمَنُوا أوْفُوا بالعُقُود) . ورسولهُ صلى الله وسلم يقول : « الناسُ عِندَ شُرُوطِهِم » وإذا أعانك الله على افتتاح مَعْقِل من مَعاقِل المشركين ، واستضافتَه إلى ما بأيدي المسلمين ، فارفعِ السيفَ عن قاطِنيه ، واعتمِدِ اللّطْف بالمقيمين فيه ؛ وادعُهم إلى الإسلام ، واتْلُ عليهم

(١٦) أي المكان الذي تدور عليه رحى الحرب .

ما وعد الله به أهلَه من كريم المَقَام ؛ فَمنْ أجابك إلى استشْعار ظِلّه ، والاعتصام بحبله؛ فافْرض له ما تَفْرضه لإخْوانك في الدّين ، واضْمُمْ إليهم من علماء المسلمين من يُبصِّرهم ويُرشدهم ، ويُثقِّفهم ويسدِّدُهم ؛ وخيِّرْ مَنْ آثر المُقَام على دينه بين تأديةِ الجزية ، والاستعباد والمَمْلكة ؛ فإن أدوْا الجزيةَ فأجْرِهم مُجْرى أهل الذمَّة المعاهَدين ، وخُصَّهم من من الرِّعاية بما أُمِر به في الدين؛ وإن أبَوْا ذلك فإن الله تعالى قد أباح دماء رِجالهم ، واستِعبادَ ذراريِّهم ونسائهم ؛ وابتَنِ بالمعْقِل مسجداً جامعاً يجمِّع فيه المسلمين ، ويُخطب على مِنْبره لأمير المؤمنين ؛ وارفعْ مَنارتَه حتّى تعلُو على كنائس المشركين ، وانصبْ فيه إماماً يؤدِّي الصلاةَ في أوقاتها ، وخطيباً مصْقَعا يخطُب الناسَ ويعظُهم ، ومكبِّرين يَدْعُون إلى الصلوات ، وينبِّهُون على حقائِق الأوقات ؛ وقُوّاما وخُدّاما يتوَلَّوْن تنويرَ مَصابيحه ، وتعهُّد تنظيفه وفُرُشه ؛ وأطلِقْ لهم من الأرزاق والجِرايات ما يبعَثُهم على ملازمته ويُعينهم على خدمته ، واحتَطْ على من يحصُل في يدِك من أسْرى المشركين ، لتَفْديَ بهم مَن في قبضتِهم من أسَراء المسلمين ؛ وإذا عرضُوا عليك الفِداء فاحذَرّ من خديعةٍ تتِمُّ فيه ، فيه ، أو حيلة تتوجَّه في افتكاك معروفٍ منهم بمجهولٍ من أهلِ الإسلام ؛ وإن كان الله تعالى قد فضَّل أدْنياءَ المسلمين على عُظَماء المُلْحِدين . ولم يسوِّ بينهم في دُنْيا ولا آخرةٍ ولا دِين ؛ إلا أنَّ هذا مما يوجب الحزْمُ الحَوْطةَ فيه . وإن ظفِرتَ بنَسيبٍ لطاغيتِهم المتملِّك عليهم او خَصيص(١٧) به فاحمِلْه إلى حضرة أمير المؤمنين ، ليُقَرِّبها رهينةً على مَنْ قِبلَهم من المأسُورين ، وسبيلا إلى انْتزاع ما يبذُلُونه في فِدايته من المَعاقل والحُصُون . وقد أمضى لك أمير المؤمنين أن تعقِدَ الهُدْنَة معهم إذا رَغِبوا فيها على الشرائط

(١٧) اشتهر هذا البناء على الألسنة وفي رسائل الأفاضل ولكن لم نجده في كتب اللغة وإنما الذي فيها بهذا المعنى « فلان مخص بفلان أي خاص به وله به خصية » فتأمل .

التي تعود بعلو كلمة الملة ، وتجمع الخواطر والاستظهار للدولة ؛ فعاقدهم محتاطا ، واشترط عليهم مشطا ؛ وتحرز في العقد مما يوجب تأولا ، ويدخل وهنا ، ويطرق وهيا . وتحفظ بجوالي المعاهدين والأموال المقبوضة في بداء الغلات والغنائم وسبب المشركين حتى يحمل ذلك إلى بيت مال المسلمين ؛ فينظر أمير المؤمنين في تفريقه على مستحقه ، وإيصاله إلى مستوجبه ؛ وافحص عن أحوال المستأمنين إليك تفحصا يكشف ضمائرهم ويبلو سرائرهم ؛ وتحرز تحرزا يؤمنك مكايدهم وحيلهم ، وخدائعهم وغيلهم ؛ وإذا نازلت حصنا من حصون الكفار ، فكن على يقظة من مخاتلهم في الليل والنهار ؛ وانصب الحرس والأرصاد ، واحذر الغرة ولا تهمل الاعتداد : لتعرف اعداء الله أن طرفك ساهد ، وجنانك راصد؛ وتفقد أمر الجيش وأزح علة من ترقبه في الأطماع واواكدات ، ومطوعته في المعاون والجرايات ؛ ولا تغفل عنهم غفلة تضطرهم إلى الانفلال . وتدعوهم إلى الانفصال ؛ وأحسن إلى من حسن في الكفاح أثره ، وطاب في الإبلاء خبره ؛ وعده عن أمير المؤمنين بالحباء الجزيل ، والعطاء والتنويل ؛ فإن ذلك قادح لعزائم الأولياء ، باعث لهم على التصميم في اللقاء ؛ فإذا أنت — بمشيئة الله — شفيت الصدور ، واحتذيت المأمور ، وأعززت الدين ، وذللت الملحدين ، ؛ ودوخت البلاد ، ونكست رؤوس أهل العناد . فانقلب بعساكر أمير المؤمنين ، ومطوعة المسلمين ، إلى حضرته واثقاً بجميل جزائه ، وجليل حبائه ؛ وطالع في موردك ومصدرك ، بما يجدده الله لك ويفتحه على يدك ؛ واذكر ما أشكل عليك ليمدك أمير المؤمنين بالتبصير والتوقيف . والتعليم والتعريف ؛ واستعن بالله فهو خير معين ، وتوكل على الله فإنه نعم الوكيل .

هذا عهد أمير المؤمنين إليك ، فاعمل به وانته إليه يسدد الله مساعيك ويصوب مراميك ؛ إن شاء الله تعالى .

قلت : وأورد في خلال ذلك من تقاليد ارباب السيوف جملةً أسقط من صدرها التحميدات .

ما أورده في رسم تقليد الإمارة على قتال أهل البغي أن يقال بعد التحميد ما مثاله :

وإنَّ الله تعالى أوجبَ طاعةَ أولى الأمْر على كافَّة المؤمنين ، وأكَّد فرضَها على جميع المسلمين ، فقال جل قائلاً :(يأيُّها الَّذين آمنُوا أطِيعُوا الله وأطِيعُوا الرَّسُولَ وأولِى الأمْرِ مِنكم) . علماً منه تعالى بأنَّ الطاعة مِلاكُ الأمر ونِظامُه ، ومِساكُ الجُمهور وقِوامُه . وأنه لا تتمّ سياسةٌ مع الشِّقاق والانحراف . وأمر سبحانه باستِتابة من ألقى العِصْمة من يَدِه ، ونبذَ الطاعةَ وراء ظَهْره ؛ بشافي المَواعِظ والتبصير ، ونافع التنبيهِ والتذكير ؛ فإنْ أقلَع وتاب ، ورجَع وأناب ؛ وإلا جُوهد وقُوتل ، وقُوبِل بالرَّدْع حتى يُقْبِل ويعتصم بالطاعة ، وينتظِمَ في سِلْك الجماعة ؛ فقال تعالى : (وإنْ طائِفتَانِ مِنَ المُؤمِنِينَ اقتَتَلُوافأصْلِحُوا بَيْنَهُما). وقال : (فقَاتِلُوا التَّي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إلى أمْر الله) . وإنَّ الغُلاة(١٨) فارقُوا اجتماعَ المسلمين ، وانسلخُوا من طاعة أمير المؤمنين ؛ نابذين لبَيْعته ؛ شائين بُطْل دعوته ؛ وشقُّوا عصا الإسلام ، واستخَفُّوا محمل الحرام ، واستوطئُوا مَرْكَب السيئات والآثام ؛ وعرَّجوا عن قَوِيم السَّنَن ، وسَمَّوْا بأراذل البِدَع أفاضل السُّنَن ؛ وسعَوا في الأرض بالفسَاد ، وجاهَروا بالعصْيان والعِنَاد ؛ وكاتبَهم أميرُ المؤمنين مبصِّرا . ومُعْذِرا مُنْذِرا ومخوِّفاً محذِّرا ، ودعاهُم إلى التي هي أصلحُ في الأُولى والأُخْرى ، واربح في البَدْء والعُقْبى ؛ وأعلمهم أنَّ الله تعالى لا يقبل صلاتَهم ولا صِيامَهم ، ولا حَجَّهم ولا زكاتَهم ، ولا يُمْضِي قضاياهم ولا حُكوماتِهم ،

(١٨) في الأصل الغلاب وليس بواضح المعنى والمراد البغاة .

ولا عقودَهم ومُناكحاتِهم ، ما داموا على معصيةِ إمامهم ، ومُفارَقة وليِّ أمْرِهم ؛ الذي أوجبَ عليهم طاعتَه ، وفرض في أعناقهم تِباعتَه ؛ وتابعَ في ذلك مواصلا ، ووالاه مُكاتِبا ومُراسِلا ، فأصرّوا على العقُوق ، واستمرُّوا على اطِّراح الحقُوق ؛ ودعَوْا إلى الأسْوَإِ لها من إقدام الجيُوش عليهم ، ونَقْل العساكر إليهم ؛ ومقابلتِهم بما يقوّم أوَدَهم ، ويُصْلِح فاسدهم ، ويزَعَ جاهلهم ، ويوُقظ غافِلَهم .

وإنَّ أمير المؤمنين تخيرَّك للتقدّم على الجيش الهاتِف نَحْوَهم : لمـا يعلمه من شَهامتك وصَرَامتك ، وسَدادِك وسِياستِـك ، وإخلاصك وإخلاصك ووفائك ، وكِفايتك وغَنائِك ، (ويوصف بما تقتضيه منزلته ، والأمر الذي هو أهْل له) .

وهو يأمُرُك أن تقدم النفوذ إليهم ، مسنْجِحا دعاءَ أمير المؤمنين ، مستنْزِلا لصرُوف الغالبين ؛ مستشعِراً لباسَ التقوى ، في الإعلان والنَّجْوى ، فإذا نازلْتَهم في عُقْر دارهم ، فأذِقْهم بالمضايقة وبالَ أمْرِهم ؛ واسْلُكْ بهم سبيلَ أمير المؤمنين وافتَتِحْهم بالإرشاد ، وحُضَّهم على ما يقضي بصَلاَح الدنيا والمَعَاد ؛ فإن استقاموا وتنصّلُوا وراجعُوا ورجعُوا فأعطِهم الأمان ، وأفِضْ عليهم ظِلَّ الإحسان ؛ وإن أصرُّوا وتمرَّدُوا . وجاهدُوا واعتدوا ، فشمِّرْ لمنازلتهم ، وصَمِّم في مقاتلَتهم ؛ واثقاً بأن الله تعالى قد قضى بالنصر لأولياء أمير المؤمنين وأهل طاعته ، والخِذْلان لأعدائه وأهل معْصيته ؛ إبانةً بذلك عن تأييده لمن اعتَصَم بحبله . ودفْعه لمن انسلخ من ظِلّه ؛ وحُجَّةً بالغةً لمن تمسّك بطاعته ، وموعظةً شافيةً لمن استخفَّ بحَبْل معصيته ؛ فإن مَلَّكَكَ الله تعالى البلاد ، وطَهَّرها من أهل الفساد ؛ وشَرِّد عنها الدّعّار والأشرار ، إلى أقاصي الدِّيار ؛ فاجْبُبْ نَواعِقَ الفِتنة والضّلالة ، وعَفِّ آثارَ ذَوِي الغيِّ والجهَالة ؛ وأسْبِغ الأمْن على أهل السّلامة ، وأفْرِغ العدلَ على مَنْ

سلك سبيلَ الاستقامة ؛ وأجر الأمْرَ في الخُطْبة لأمير المؤمنين على الرَّسْم المحدُود ، والمَنْهَج المعهود ، وطالِعه بما انتهيتَ إليه ، ليكاتِبَك بما تعتمدُ عليه .

ويضمَّن هذا العهد ما يقع فيه من شروط العهد المتقدم ، ويؤْمَرَ أن لا يستصحب من الجُند إلاَّ من يثق بإخلاصه وصفائه ، ويَسْكُن إلى أمانته وو َفائه ؛ وأن يَرفُض المدخول النيِّه ، النَّغِل الطويَّه ، فإنه لا شيءَ أضَرُّ على المحاربة من لقاء عدوّ بَجيْشٍ مُخامِرين ، وجند مُمَاكِرين ؛ وقد يكون في العساكر مَنْ يُداهِن ويظهِر الخِدمة وهو في مثل العَدُوّ : إما لأنَّ بينهما سالِفَ وِداد وولاية قد تأصَّلتْ بإطماع وإفساد ، أو يكون لسطانه قليل الإحماد . وهذا الذي اوردناه ليس بمثال جامع وإنما هو الذي يتميز به هذا العهدُ عما تقدّمه ، والكاتب إذا احتاج إلى استعماله رتَّبه وقدّم ما يجب تقديمه ، وأخر ما يجب تأخيره و [أضاف اليه ما تيجب] إضافته ؛ إن شاء الله تعالى .

ان اهمية الكتاب ودوره في تواصل المعرفة في الابواب التي طرقها وقدرة المؤلف في استيعاب هذه المعارف وتميّزه في القرن الخامس الهجري حملتنا على ان نتابع اخبار المؤلف والمؤلف لأيصال ما انقطع وتقديم ما ينفع لتظل حلقة المعرفة التي ازدهرت أصولها بناء واكتملت صورها عطاءً ومعرفة قائمة في التكوين الثقافي والحضاري لهذه الامة العظيمة .

المعايير المميزة للريف والحضر

في العصور الإسلامية

دراسة تاريخية مقارنة بالمعايير الحديثة

الدكتورة ناجية عبدالله ابراهيم

كلية التربية للبنات ــ جامعة بغداد

المقدمة

تهدف الدراسات التاريخية عموماً الى معرفة الأحداث والنظم الاجتماعية والسياسية والاقتصادية والفكرية ، وتطوراتها في المجتمع خلال حقبة تاريخية معينة أو حِقب محددة . ولا ريب أن المادة الأساسية لهذه الدراسات تتمثل في المعلومات المدونة في المصادر ذوات العلاقة ، التاريخية منها ، والجغرافية والأدبية والفقهية وغيرها .

كان تخطيط المدن وبناؤها يمثل طفرة حضارية في حياة الانسان ، لأنها عكست تطور الفكر الانساني من جهة ، وكانت سبيلاً لظهور النظام السياسي والاداري للمجتمع من جهة أخرى . وبذلك كان ظهورها قد أوجد أنواعاً وأنماطاً من النظم والعلاقات الانسانية المعقّدة والمتشابكة تجاوزت النظم والأنماط والعلاقات التقليدية السائدة في الريف ، وانعكس ذلك على أبنية المجتمع المحلي في كل منهما ، فطبعته بطابع خاص ، وصارت له معالم وسمات خاصة به . وبذلك صار التباين بين الريف والحضر يمثل قطبي التناقض الذي

حدد انقسام المجتمع الى مجتمع ريفي وآخر حضري طَوالَ حقب التاريخ ، الى يومنا هذا . واذا كانت الفوارق القائمة بينهما هي الشغل الشاغل لكثير من الدول ، ولاسيما النامية منها على وجه الخصوص ، التي بدأت مع بدايات هذا القرن تولي الريف وسكانه الفلاحين اهتماماً كبيراً ، لأنهم يمثلون الغالبية من سكان المجتمع ، وعلى عاتقهم تقع مسؤولية الانتاج الزراعي واغناء الدخل القومي ، فان هذا الاهتمام يأخذ الأولوية في عملية التغيير الاجتماعي الحديث باتجاه بناء مجتمع متقدم ، يأخذ الريف شكله العصري ، من خلال توفير مستلزمات الحياة الحديثة له .

وموضوع البحث محاولة لتعرف المعايير التي كانت تميز الريف عن الحضر في العصور الاسلامية الوسيطة مع قراءة سريعة للتطور الذى أصابها من خلال المقارنة بالمعايير المعتمدة حديثاً .

ولا شك أن البحث في مثل هذا الموضوع لم يكن سهلاً ، لا لكونه بكراً فحسب ،بل لندرة المعلومات من جهة ، وتناثرها بين سطور الكتب المتنوعة من جهة اخرى . ناهيك عن الصعوبات التي واجهتها الباحثة في دراسة المصطلحات اللغوية والادارية التي كانت تتباين في معانيها ومدلولاتها من عصر الى آخر ، وأحياناً كان المصطلح الواحد يدل على معان متعددة أو مختلفة ، تبعاً للعصر الواحد أو لعصور متعاقبة . بل ان الأمر قد ذهب في هذا المجال الى أبعد من ذلك ليشير الى وجود تباين في معاني المصطلحات ـ خصوصاً الادارية منها ـ بين البلدانيين والفقهاء ، وأهل اللغة ، والعوام من الناس .

ومع أن هذه الأمور كانت تشير الى تطور في حركة الوعي الفكري للمجتمع ، وتطور النظم الادارية والسياسية والاجتماعية فيه ، فقد كان عليَّ أن أقف عليها جميعاً ، وأحاول جهدي أن أسلك الطريق العلمي للوصول الى الحقيقة التاريخية الموضوعية . بيد أن هدف الوصول الى الحقيقة العلمية

لم يدفعنا الى استقراء النصوص والاستنتاج منها أو الأجتهاد فيها أكثر مما ينبغي ، لأن الدقة والمتابعة للوصول الى الحقيقة كانت غايتنا الاساسية . ولا نحسب أن هذا العمل قد انتهى الى الكمال . فالكمال لله وحده . وهو لا يعدو عن كونه محاولة متواضعة لدراسة جانب من حياة مجتمعنا ظل مهملاً حتى الزمن الحاضر ، لِما يكتنفه من غموض وصعوبات واضطراب في المعلومات . ولعلي بهذا العمل قد أثير اهتمام الباحثين والمؤرخين لكشف المزيد من الحقائق والمعلومات في دراسات أخرى معمقة وواسعة لا تتناول المناطق التي تناولها البحث ، بل تمتد الى مناطق أخرى في عموم الدولة العربية الاسلامية المترامية الأطراف .

لقد اقتضت طبيعة البحث تقسيمه الى الفقرات الآتية :ـ

١ ـ الريف والمعايير المميزة له

(أ) معنى الريف :ـ

الريف في لغة العرب يعني موضع الزرع والشجر والخِصْب . والريف أيضاً ما قارب الماء من أرض العرب وغيرها . ويجمع على ريوف وأرياف[١] .

ويقترن بتعبير الريف تعبير آخر شاع بين العرب والمسلمين عند انطلاق الفتوحات الاسلامية من الجزيرة العربية في عصرها الأول ، ألا وهو تعبير « السّواد » ، ويراد به جماعة النخل والشجر . سمي بذلك لخضرته ، لأن الخضرة عند العرب تقارب السّواد . والعرب تقول لكل أخضر : أسود ، لذلك أطلقوا على العراق الجنوبي اسم « السواد » ، لسواده بالنخل والشجر[٢] ، أي لكثافة خضرته .

ولما كانت السعة والخِصب هي سمة الريف ، فان سمة الخضرة في النخل

(١) لسان العرب : (ر ي ف) .
(٢) لسان العرب (س و د) .

والشجر هي سمة السواد ، وكِلاهما يعتمد على المياه والزرع والخِصب في الأرض ، ولا يكون ذلك بدونهما ، وكلاهما بمعنى واحد . وأينما تكون الأرض مزروعة ومشجرة فهي سوداء . ولما كان الريف موضع الشجر والزرع والخصب ، فان الريف هو السواد[٣] .

(ب) موقع الريف

غير أن تعبير « السواد » له مدلول آخر يرتبط بالانسان ونمط عمله ويحدّد موقعه تحديداً دقيقاً . قال ابن منظور[٤] : « والسواد : ما حوالي الكوفة من القرى والرساتيق »[٥] . وقال أيضا : « وسواد الكوفة والبصرة والبصرة قراهما » . فالسواد هنا يعني القرى والأرضين الزراعية المحيطة بالمدن . وهو أمر له صلة وثيقة بالانسان ، كما ذكرنا ، وهو أحد عناصر مكونات الريف . والقرية لم تُسَمّ بذلك الا لاجتماع الناس فيها . والقرية هي الوحدة الاجتماعية لمجتمع ريف المدينة ، أية مدينة كانت ، والقرى والمزارع المحيطة بالمدينة ، هي ريف المدينة الذي يحمل اسمها[٦] بصرف النظر عن كون

(٣) لمزيد من التفاصيل ، انظر للباحثة : المفهوم اللغوي والاصطلاحي للريف والسواد عند العرب ، مجلة المجمع العلمي العراقي ، م٣٤ ، ١٩٨٣ ٢/٢١٥ — ٢١٨ .

(٤) لسان العرب (س و د) .

(٥) الرساتيق : مفردها رستاق ورزداق ، لفظة فارسية معربة ، معناها السواد والقرى . وقد حاول الحموي ان يعطي تفسيراً دقيقاً لهذا التعبير كان معروفاً في زمانه (٧هـ/١٣م) في بلاد فارس لأن هذا التعبير كان اكثر ما يستعمل عندهم ، ويطلق على الوحدات الريفية حيث قال : الذي عرفناه وشاهدناه في زماننا في بلاد فارس انهم يعنون بالرستاق كل موضع فيه قرى ومزارع ، ولا يقال ذلك للمدن كالبصرة وبغداد ، فهو عند العرب بمنزلة « السواد » عند اهل بغداد . معجم البلدان ١/٣٩ — أما الرستاق عند أهل المغرب ، فيراد به اداريا « الاقليم » احسن التقاسيم ، ٢٢٢ .

(٦) معجم البلدان : ١/٣٩ .

بعض تلك المدن واقعة في السهل أو الغور أو في الجبل ، كما هو الحال في بلاد الشام حيث فيها قرى ومزارع كثيرة بعضها متاخم للبادية[٧] .

ومن الحقائق المعروفة أن نشوء القرية كان قد صاحب الانسان منذ استقر على سطح الأرض ، وانتقل من حياة الترحال الى حياة الاستقرار والعمل والانتاج قبل آلاف من السنين وعلى هذا فان سكان القرى هنا يراد بهم الفلاحون أهل الزراعة والحرث وسكان القرى في الأرياف .

ومن المفيد أن نشير هنا الى أن التعابير الخاصة بسكان الريف لم يكن استعمالها واحداً في جميع الأقاليم الاسلامية . فأهل « السواد » أو «السوادية» كانت مستعملة في العراق ، للدلالة على سكان القرى في الريف في حين كانت لفظة « قرياتي » مستعملة عند أهل الشام ، ولفظة « رستاقي » في بلاد فارس للدلالة نفسها[٨] . وامتد الاختلاف بين أهل الاقاليم كذلك الى التباين في التعابير المستعملة حول حِرَف سكان الريف . فكان هناك الزُرّاع والفلاح والحراث والأكّار[٩] . وكان هناك الصحراوي والبقلي والبُستنبان كما في ريف بغداد[١٠] . أما في المغرب والأندلس ، فكان تعبير الريف يطلق على الأرَضين التي تحف بالبحر أو المحيط[١١] .

---

(٧) نحو قرية (مؤتة) التابعة لمدينة مآب وقرية « الرَّقيم » التابعة لمدينة عمان وكلاهما في اقليم الشام . انظر : احسن التقاسيم ، ١٧٥ و ١٧٨ و ١٨٦

(٨) العربية ، دراسات في اللغة واللهجات والاساليب ، ١٩٧ .

(٩) احسن التقاسيم ، ٣١ ومروج الذهب ٢٣٩/٤ وصبح الاعشى ، ١٢٤/١٣ .

(١٠) للاطلاع على تفاصيل اكثر ، انظر للباحثة ريف بغداد ، دراسة لتنظيماته الادارية واحواله الاقتصادية (اطروحة دكتوراه غير منشورة) ٣٦٤ .

(١١) العبادي : الحياة الاقتصادية في المدينة الاسلامية ، مجلة عالم الفكر ، الكويت ، م١١ ١٩٨٠ ع١ هامش ١٢٨ .

مما تقــدم يتضح أن هناك سماتٍ معينــةً لتحديد منطقة الريف ، أو موقع الريف . فحيثما وجدت المياه وجد الخِصْب ، وحيثمــا وجــدت الأنهار وجد الانسان ، ووجدت القرى والمزارع ، وبذلك يتكوّن الريف . وفيما عــدا ذلك لا يصح أن يكون كذلك . وقد عبر عنه العرب بتسميات عديدة . فما بَعُدَ من الريف سموه « العذيّ » ، وما دنا من الريف من قــرى العرب ســموه « المشــارف » . أما ما بين الريف والبدو ، فسموه « العذار »[١٢] .

وعلى هذا فان الريف له صفة شمولية أوسع من مفهوم القرى داخل الاقليم الواحد .

(جـ) المعايير المميزة للريف

أ ـ معيــار الحجم

من المعروف عند البلدانيين اعتماد معيار الحجم في تمييز القرية عــن المدينة . والحجم هنا يُراد به حجم العمران من المنازل ونحوها في الرقعــة الجغرافية التي تشغلها القرية . نقل الحموي عن الحسن بن أحمد المهلبي في كتابه العزيزي قولَه في سامراء : « وهي مدينة بين بغداد وتكريت ... على شــاطيء دجلة من الشرق ... لم يبــق فيها عامر ســوى مقــدار يسير كالقرية »[١٣] . الأمر الذي يشير الى انحسار عمرانها بعد تدهور أحــوالها السياسية والاجتماعية والاقتصادية في أواسط المئة الرابعة (١٠م) ، في أخريات أيام الخليفة المنتصر بن المتوكل ، وذلك بفعل اضطراب أحــوال البلاد من تسلط النفــوذ التركي واســتبدادهم بالملك ، حتى أصبحت خــراباً يــاباً

(١٢) للاطلاع ، انظر للباحثة : المفهوم اللغوي والاصطلاحي للريف والسـواد عند العرب (م٠م٠ع) م ٣٤/٢/٣٢٣ ـ ٢٢٤ .

(١٣) معجم البلدان ١٩/٣ وصبح الاعشى ٣٣٢/٤ .

يستوحش الناظر اليها ، وأصبح الرجل يسير الميلين والثلاثة ولا يرى فيهـا عمارة[١٤] • ولعل تسميتها بـ « سُرور من رأى » خير مثال على ازدهار أحوالها وجمال منظرها العمراني الذي امتد الى مساحة قدرها مرحلة[١٥] أي نحو (٣٨) كيلا •

أما مدينة «عكبرا» الواقعة على شاطيء دجلة الشرقي في العراق ، فقد وصفها الادريس من أهل المئة السادسة (١٢م) في عصره قائلاً : « •• وليس فيها عامر اليوم ســوى مقدار يسير كالقرية »[١٦] • ولمّا وصف الحموي أحوال « المدائن » وما آلت اليه أحوالها في عصره ، قال : هي « بليدة شبيهة بالقرية »[١٧] الأمر الذي يشير الى انحسار عمرانها ومنازلها •

ويرد على ألسنة الرحالة شيء شبيه بهذا ، فقد ذكر ابن بطوطة في مَعْرِض وصفه لمدينة القادسية ، وهي المدينة التي وقعت فيها المعركة الفاصلة الكبرى في التاريخ بين العرب والفرس سنة ١٤هـ (٦٤٤م) ، وكان قد زارها سـنة ٧٢٨هـ ــ ١٣٢٨م حيث قال :« وكانت القادسية مدينة عظيمة ••• وخربت ، فلم يبق منها الآن الا مقدار قرية كبيرة»[١٨] • ويقصد بذلك قلة منازلها ، وتضاؤل أحوالها • أما حدائق النخل ومشارع الماء التي تأخذ من الفرات ، فكانت موجودة فيها • بيد أن حجم العمران هنا لم يكن وحده الذي يحـدد حجم القرية ، بل هناك عوامل أخرى تحدد حجمها كذلك ، وتمثل مقومات الحياة فيها ، نحو ما ذكره ناصر خُسْرو في « طَبَس » فقال : هي « مدينة

---

(١٤) أحسن التقاسيم ١٢٢ ، ومعجم البلدان ١٩/٣ .
(١٥) أحسن التقاسيم ١٢٢ .
(١٦) روض الفرج وانس المهج ، مجلة المجمع العلمي العراقي ، م ٢٣ ، ١٩٧٣ ص ٦٣ .
(١٧) معجم البلدان ٤٤٧/٤ .
(١٨) الرحلة ، ١٧٢ .

مزدحمة ولو أنها تشبه القرية ، ماؤها قليل ، وزراعتها أقل »[١٩] •

على أن هذه المعلومات توضح لنا حقيقة مؤدّاها أن هناك نوعَين من القرى : نوعاً صغير الحجم ، وآخر كبيرة ، وأن معيار الحجم بينهما يتوقف على عدد المنازل في كل منهما ، وان كانت النصوص الجغرافية ، وكذلك النصوص التاريخية لا تذكر عدد المنازل في كل منهما • ولو تيسّر ذلك ، لكان من السهولة بمكان تخمين عدد السكان • وهو أمر على غاية من الأهمية في دراستنا هذه ، اذ بواسطته يمكن تحديد قوة الانتاج ، وربما مساحته وحجم الدخل القومي في الأرَضين الزراعية المحيطة بالقرى •

٢ ـ المعيار الوظيفي

يقصد بالوظيفة هنا الخدمات الادارية والاجتماعية والاقتصادية والعلمية والدينية في الريف ، لتلبية احتياجات السكان هناك • يقول الحموي في « باب مُحوّل » : « محلة كبيرة من محال بغداد •• وهي الآن منفردة كالقرية المنفردة ، ذات جامع وسوق مستغنية بنفسها ، في غربي الكرخ»[٢٠]•

وقال في « تُوثة » ما يشبه ذلك « •• عامرة الى الآن ، لكنها منفردة شبيهه بالقرية »[٢١] • ويبدو هنا أن القرى التي تكون في مناطق بعيدة ، أو نائية عن مراكز المدن تستطيع أن تخدم نفسها بنفسها ، وتكتفي ذاتياً بما لديها من موارد أو مرافق ، ولا يحول ضعف الاتصال بينها وبين المدن دون ديمومة حياتها الاقتصادية والاجتماعية ومنها الدينية •

وهناك اشارات أخرى توضح الأحوال العامة التي تميز القرى عن المدن والتي هي في حد ذاتها تعد معايير تميز كلاً منهما عن الأخرى في مجال

---

(١٩) رحلة ناصر خسرو ، ١٥٦ ، وطبس احدى مدن فارس .
(٢٠) معجم البلدان ٤٥١/١ .
(٢١) ن٠م : ٨٨٩/١ ، ومراصد الاطلاع ٢١٨/١ .

الخدمات التي أسلفنا ذكرها ، أو في بعضها ، وذلك من خلال ما ذكره الحموي ــ نقلا عن الاصطخري ــ في مَعْرِض كلامه على مدينة برذعة الواقعة في أقصى أذربيجان ، اذ قال : « مدينة كبيرة جداً .. نزهة ، خِصْبة ، كثيرة الزروع والثمار جداً ... فيها الفندق الجيد .... وتين ، يحمل من لصوب يفضل على جميع أجناسه .... ويرتفع منها من الابريسم شيء كثير...وفيها السمك .. وببرذعة باب .. تقوم عنده سوق تسمى « الكُرّكيّ » .. يجتمع فيها الناس كل يوم أحد .. من كل وجه وأَوب حتى من العراق ... قلت (والقائل الحموي) : هذه صفة قديمة ، فأما الآن ، فليس من ذلك كله شيء ، وقد لقيت من أهل برذعة بأذربيجان من سألته عن بلده ، فذكر أن آثار الخراب بها كثيرة وليس بها الآن الا كما يكون في القرى ، ناسٌ قليل ، وحالٌ مضطرب ، وصعلكة ظاهرة ، وضُرٌّ بادٍ ، ودُورٌ متهدّمة ، وخرابٌ مستولٍ عليهم »[٢٢] .

ان المتتبع لهذه المعايير يلمس جلياً أنها تعكس واقع بعض المدن في ظل ظروف سياسية واجتماعية واقتصادية متباينة بين عصرين مختلفين عصر الاصطخري وهو المئة الرابعة (١٠م) ، وعصر الحموي وهو المئة السابعة (١٣م) ، ولكل منهما معطياته الخاصة ، كما تعكس النظرة الاجتماعية بازاء ذلك الواقع وتفسيرها المحلي له .

٣ ــ المعيار الاجتماعي

لابد في ابتداء القول من الاشارة الى أن المعلومات المتوفرة في هذا الباب محدودة جداً ونادرة . ومردّ ذلك ، كما نعتقد ، الى اهتمام المؤرخين عموماً وغيرهم من العلماء بأحوال المدن واهمال العناية بسكّان الريف . وان كان هناك بعض الشيء في اهتمام البلدانيين ــ بوجه خاص ــ بالريف ، فان

(٢٢) معجم البلدان ١/٥٥٨ ــ ٥٥٩ .

ذلك الاهتمام انحصر في الأمـور الادارية والاقتصـادية أكثر من الاهتمام بالجوانب الاجتماعية . وما ورد من اشارات ، قد لا يفي بأن يكون ذلك معياراً لحقيقة الوضع الاجتماعي في الريف وحلقاته المعروفة ، وانما آثرنا الاشـارة اليه لاستكمال المعايير السابقة . وسيقتصر تناول الموضوع هنا على مستوى المعيشة من حيث الملبس والمسكن والمأكل .

كان لباس الفلاحين على أصـناف مختلفة تتّسـم جميعها بالبساطة . فالرجل منهم يعتمر «عمامة» من القطن تـكون ملونة في الغالب ، ويرتدي الثياب الغليظة ، وهي منسـوجة من القطن أيضاً[٢٣] . واذا ما أراد الرجل النزول من قريتـه الى المدينـة ، فانه يستعمل الجَمْجُمان في رجليه[٢٤] ــ كما هو الحال في ريف بغداد ــ وزيه هذا يكون في أحسن حال .

كما استعمل الفلاحون الجُبَب[٢٥] ذوات الأكمام الواسعة . ويبدو أن سعتها كبيرة ، حتى أنهم كانوا أحيـاناً يحملون فيها أشياء من حاصـلاتهم الزراعية ، كالحنطة والتين والخوخ واللوز والفستق والبُنْدُق والبلّوط والنَّبق[٢٦] .

أما الفلاحات ، فقد استعملن الملابس الملونـة ، المصبوغـة بالأحمر والأخضر ، والموردة . وبذلك اختلفن عن النساء الثريات في المدن ، اللائي كن لا يلبسن الملابس المصبوغة اذا لم تكن أصباغها أصلية[٢٧] . والملابس

---

(٢٣) الفخري في الاداب السلطانية ٣١٣ .

(٢٤) ن . ٣١٣ .

(٢٥) جمع جبة ، وهي من ملابس العامة من الناس عبـارة عن ثوب مفصـل ومخيط ، يحيط بالبدن ، ولـه كمان . وكانت العادة أن تلبس فـوق القميص . أما نوعية القماش المستعمل فيها ، فقد اختلف بحسب طبقات الناس . انظر : العامة ببغداد ، ١٥٦ .

(٢٦) نشوار المحاضرة ١٢٣/٨ ــ ١٢٤ .

(٢٧) تلبيس ابليس ١٨٣ ــ ١٨٤ ، والعامة ببغداد ، ١٦٠ .

الملونة المنقوشة تكون عادة جـذابة ، وهي في الريف تعكس جمال الطبيعة الخلابة هناك المعروفة بكثافة خضرتها . ولا تزال المرأة الريفية حتى في زمننا الحاضر تقتني الملابس الملونة والموردة ، وفي أغلب الريف العربي على حدّ علمنا المتواضـع .

أما مساكن أهل الريف ، فكانت هي أيضاً بسيطة ، مصنوعة من الحجر المفخور والمجفف تحت الشمس . وأحياناً كانت تصنع من الطين كما هو الحال في ريف مصر .

وفي أحيان أخرى اتخذوا الأكواخ مساكن لهم ، واستخدمت جذوع النخيل في بنائها . أما الغذاء ، فيقال ان الفلاحين يعدّون أقوى الناس على استمراء جميع الاغذيـة الغليظة[٢٩] . وكانوا يأكلون الخبز ، وجلّه من الشعير ، يصنعونه بأيديهم ، وأحياناً يتفننون بصناعته فيكون مشطوراً بكامخ التوت[٣٠] . وكانت الطواحين في القرى كثيرة[٣١] . أما الخبز السمذي فكان معروفاً ببغـداد بالحـواري ، ويصنع لخواص الناس[٣٢] . كما كان اللبن والبصل والكراث والتمر والجلبان ــ نوع من الحبوب ــ والرّبيثاء[٣٣] أغذية أخرى لسكان الريف . وهي أغذية على أية حال بسيطة لا تضـاهي أنواع الأغذيـة والأطعمة والأشربـة المعروفـة في المدن والتي تفنن الناس كثيراً

(٢٨) أحسن التقاسيم ، ١٩٥ .
(٢٩) الجامع لمفردات الادوية والاغذية ٤٨/٢ .
(٣٠) الفخري في الاداب السلطانية ، ٣١٣ .
(٣١) أحسن التقاسيم ، ١٩٥ .
(٣٢) معجم البلدان ٣٥٤/٢ ، اللباب ١٣٧/٢ . والحوّاري نوع من الخبز الابيض المصنوع من طحين الحنطة المنقى من النخالة .
(٣٣) وهو الصحناء ، نوع من الادام ، يتخذ من السمك . الفخري في الآداب السلطانية ١٧٩ .

بصناعتها[٣٤] •

ان هذه الخصائص المميزة لسكان الريف في الملبس والمسكن والمأكل في العصور الاسلامية الوسيطة ، ما تزال تميز سكان الريف حتى زمننا الحاضر تقريباً •

ومع أن التطور التاريخي للمجتمع قد أثر ، بشكلٍ مّا ، في معالم الحياة في الريف ، بسبب الهجرة الى المدينة والاختلاط بسكانها ، فان الفلاحين في طول البلاد الاسلامية وعرضها عاشوا في ظروف اجتماعية متماثلة تقريباً ، تمتاز بالبساطة والهدوء وتماسك الحياة الأسرية فيها • والناس في الريف تمسكوا بالدين والعادات والتقاليد تمسكاً شديدا • فاكرام الضيف ومساعدة الضعيف ، خصال حميدة ظلت تلازم القروي طوال العصور ، وهي جـزء من قيمه وتراثه الاجتماعي • كما احتفظت الكثير من نواحي العالم الاسلامي بشخصياتها المحلية في قراها وأريافها[٣٥] •

ان المتتبع لدراسة معايير الريف يجد أنها مبنية على مشاهدات البلدانيين والرحالة للمناطق الريفية التي زاروها ، أو مروا بها ، وعلى ما تعارف عليه الناس في كل اقليم من أقاليم الخلافة الاسلامية • وهي بلا شك تعكس الرؤية الفكرية لتلك المعايير في تلك العصور • الا أن هذه المعايير تتباين من عصر الى عصر آخر تبعاً لعصـور الازدهار الحضـاري والنشاط الاقتصـادي والاجتماعي للسكان ، أو عصور الاضمحلال والتدهور السياسي والانحسار الحضاري وهذا الأمر يشمل الريف والحضر على حد سواء •

فالأحوال تؤول الى الضعف والخراب في ظل ظروف اجتماعية تسودها

(٣٢) انظر على سبيل المثال ما ورد في انواع الاغذية والاطعمة ببغداد : العامة ببغداد ٩٦ ـ ١٣٣ •

(٣٥) عالم الاسلام ، ٢٥٣ ـ ٢٥٤ •

الفتن والاضطرابات السياسية وتغلغل النفوذ الأجنبي ، وغياب القيادة المركزية الواعية للدولة ، أو ضعفها ، بل يكاد يكون في نصيب الريف من الخراب في مثل هذه الأحوال أكبر كثيراً من المدن . اذ لمجرد انشغال السلطة المركزية في تلك الأوضاع واهمال أمر العناية بالفلاح وشؤون الري يترتب عليه تلف المزروعات وقلة الانتاج ، والحاق الضرر بالريف والفلاح على حد سواء . وتنعكس الحالة في ظل وضع اجتماعي يسوده الاستقرار السياسي والأمن الداخلي والاهتمام بالعمران وأعمال الري ، ومراعاة الفلاح وتوفير متطلبات العمل في الحقل الزراعي ، فتزداد القوة الانتاجية للأرض ، وتنتعش الحياة الاقتصادية ، وتزدهر التجارة ، فيزدهر الريف مع ازدهار المدن ، بل يكون الريف مصدر قوة للمدن في ازدهار أحوالها . وقد قيل قديماً ان المدينة لا تجلّ بكثرة مدنها ، بل بجلالة قراها ومزارعها .

فلا غَرْوَ بعد هذا أن نقرأ في أخبار قرى كثيرة أنها كانت عامرة مزدهرة ، كازدهار المدن ، أو تفوقها . ومن شأن خِصب الأرض ولطافة الهواء وبساطة العيش في القرى والأرياف ، أن يجذب رجال الدولة وأعيانها ، وفي مقدمتهم الخلفاء والوزراء ، للسفر اليها طلباً للاستجمام ، والاستمتاع بالنزهة ، والاستئناس بصيد الطيور ورمي البندق[٣٦] . فهذه « صَرْصَرْ » كانت تعدّ من القرى التي تملأ النفوس بهجة وأنساً ، لأنها كثيرة الأشجار والبساتين ، وفيها فواكه كثيرة وخير وافر ، وقد استهوت الرحالة ابن جبير الأندلسي عند زيارته لها في سنة ٥٨٠هـ ــ ١١٨٤م ، وأعجبه ازدهارها واطّراد الأحوال فيها ، وذكر أن سوقها عامرة ، تقصر عنها أسواق المدن[٣٧] .

---

(٣٦) معجم البلدان ٢/٢٧٤ والذيل على طبقات الحنابلة ١/٢٨٦ .

(٣٧) الرحلة ، ١٩٣ . وصرصر قرية بكورة نهر عيسى في الجانب الغربي لبغداد . ولمزيد من المعلومات انظر للباحثة « ريف بغداد » ، ص ٤٥٤ وما بعدها .

وهذه « زَرِيران »[٣٨] كانت هي أيضاً موضع زيارته ، وكانت يومئذ تعدّ من أحسن قرى الأرض وأجملها منظرا وأفسحها ساحة ، وأوسعها اختطاطاً ، وأكثرها بساتين ورياضاً وحدائقَ نخيل[٣٩] . وكذلك « فراشا » فقد كانت قرية كثيرة العمارة ، يشقها الماء ، وحولها بسيط أخضر جميل المنظر[٤٠] . وكانت « الفارسية » غناء نَزِهة ذات بساتين مونِقه ورياض[٤١] .

واذا كانت هذه أحوال القرى ببغداد فان قرية « العقيق » من نواحي « مكة » كانت عامرة ، ماؤها عـذب ، وينزل بها السلطان[٤٢] . أما اقليم الشام فكانت فيه قرى أجلّ وأكبر من أكثر مُدن الجزيرة ، نحو « دارَيّا » و « بيت لهيا » و « كفر سَلاّم » و « كفر سابا »[٤٣] . وكانت « دِزاه » تعدّ من مشاهير قرى الرّي ، وهي كالمدينة كبراً[٤٤] .

بل لعل ما ذكره المقدسي عن قرية « حبرى » باقليم الشام ــ وقد كانت في زمانه وهو المئة الرابعة (١٠م) تتمتع بمركز ديني وتجاري واجتماعي كبير يشابه المدن الكبرى ــ تعدّ خير نموذج ، فقد قال في صفتها : « وحبرى قرية ابراهيم الخليل ، فيها حصن منيع من حجارة عظيمة منقوشة وسطه قبة من الحجارة ، اسـلامية على قبر ابراهيم ، وقبر اسحاق قدام في المغطى ، وقبر يعقوب في المؤخر ... وقد جعل الحبر مسجداً ، وبَنَى حوله دور للزوار واختلطت به العمارة ، ولهم قناة ضعيفة . وهذه القرية الى نحو نصف مرحلة

---

(٣٨) قرية بكورة نهر الملك ببغـداد .
(٣٩) الرحلة ، ١٩٢ .
(٤٠) ن.م ١٩١ .
(٤١) معجم البلدان ٨٣٨/٣ .
(٤٢) أحسن التقاسيم ، ٨٢ ، والعقيق قرية على ميلين من مكة .
(٤٣) ن.م ، ١٥٥ ، ١٧٦ .
(٤٤) معجم البلدان ٥٧٢/٢ .

من كل جانب قرى وكروم وأعناب وتفاح يسمى جبل نضره ، لا يرى مثله ولا أحسن من فواكهه ، عامتها تحمل الى « مصر » وتنشر . وفي هذه القرية ضيافة دائمة ، وطباخ ، وخباز ، وخدام مرتبون يقدمون العدس بالزيت لكل من حضر من الفقراء ، ويدفع الى الأغنياء اذا أخذوا »[٤٥] .

ومع أن الزراعة تعدّ حرفة أساسية لسكان القرى والأرياف ، الناس في بعض القرى قد اشتغلوا بحرف صناعية أيضاً . وقد وردت اشارات غير قليلة عن صناعات محلية متعددة كانت معروفة ، بها العديد من القرى في العالم الاسلامي . ففي « طَحا » مثلاً وهي بصعيد مصر كان يعمل ثياب الصوف الرفيعة[٤٦] . وفي « حَرْبَى » و « باقدارى » بالعراق كانت تصنع ثياب من القطن الغلاظ الصفاق . وكان انتاج « باقدارى » من الجودة والجمال بحيث يضرب أهل بغداد المثل بها[٤٧] . وكانت « الحَظيرة » ، من سواد بغداد ، مركزاً لنسج الثياب الكرباس الصفيق[٤٨] . و « قادسية سامراء » مركزاً لصناعة الزجاج والرخام العراقي[٤٩] وكانت « القُفص » مركزاً لصناعة الخمور الجيدة وفيها الحانات الكثيرة[٥٠] ، وصناعات أخرى كالعطور والكاغد « الورق » والأسلحة والفَخّار وغيرها .

---

(٤٥) احسن التقاسيم ، ١٧٢ ، ١٧٣ .
(٤٦) أحسن التقاسيم ٢٠٢ .
(٤٧) معجم البلدان ٤٧٥/١ و م ٢٣٥/٢ . وحربي وباقدارى كلاهما من قرى بغداد من اعمال كورة الدجيل .
(٤٨) معجم البلدان ٢٩٢/٢ . ولمزيد من المعلومات ، انظر للباحثة : « ريف بغداد » ٤٣٢ وما بعدها .
(٤٩) معجم البلدان ٩/٤ والقادسية قرية كبيرة تقع جنوب سامراء .
(٥٠) ن.م : م ١٥٠/٤ .

٢ ـ الحضر والمعايير المميزة له
(أ) معنى الحَضَر :

قلنا سابقاً ان الريف يُراد به القرى والمزارع المحيطة بالمدن ، وان الفلاحين هم سكان القرى والأرياف . وهذا يعني أن المدن هي مراكز الاستيطان الحضري . وفي لغة العرب : المدينة تعني[٥١] « الحصن يُبْنَى في أُصْطُمّة[٥٢] الأرض ، وكل أرض يَبنى بها حصن في أُصْطُمَّتِها فهي مدينة ، والجمع مدائن ومُدُن » . ويقال لمن يُنسب اليها « مَدِيني » . ومدن بالمكان : أقام به[٥٣] .

ان نشأة المدن هنا تشير الى أن ابتداء عمرانها اثر الفتح العربي الاسلامي للأقاليم المجاورة للجزيرة العربية كان لأغراض عسكرية للمقاتلة .

(ب) موقع الحضر :ـ

غير أن علماء اللغة جعلوا « الريف » جزءاً من « الحضر » ، تمييزاً له عن البادية . قال ابن منظور في مَعْرِض تفسيره لتعبير « الحضر » : « والحاضرُ والحضرةُ والحاضرةُ : خلاف البادية ، وهي المدن والقرى والريف »[٥٤] . والبادية هنا يراد بها الأرض الخالية من البناء والعمران . ثم يُعلل ابن منظور تسميتها بأن أهلها حضروا الأمصار الاسلامية ، ومساكن الديار التي يكون لهم بها قرار .

وما قاله ابن منظور يتفق كل الاتفاق مع ما قرره العلامة الكبير

(٥١) لسان العرب (م د ن) .
(٥٢) الأصطمة : لغة في الأسْطُمَّة ، بمعنى وسط كل شيء . لسان العرب . جـ١٢/٢٨٧ و ٣٣٩ .
(٥٣) لسان العرب (م د ن) .
(٥٤) لسان العرب (م ص ر) .

عبدالرحمن بن خلدون (٨٠٨هـ ـ ١٤٠٦م) من أن الحَضَر هم أهل الديار والبلدان[٥٥] ، أي أهل المنازل والعمران .

والأمصار واحدها مصرٌ يُراد بها عند العرب : المدن الكبيرة . قال الجوهري : فلان مَصَّرَ الأمصار ، كما يقال مَدَّنَ المدن[٥٦] . وقد روي أن عمر بن الخطاب ، رضي الله عنه ، مَصَّرَ الأمصار ، منها الكوفة والبصرة ، لذلك كان يقال لهما المِصْرانِ » . وقيل أيضا المصر : كل ما حجز بين جهتين . مثل البصرة والرَّقّة وأَرَّجان[٥٧] .

وفي تفسير كلا التعبيرين « المصر » و « المدينة » يبدو واضحاً أن الاستقرار عامل أصل لمراكز الاستيطان الحضري في الأقاليم الاسلامية سواء في القرى أو المدن ، وان البناء والعمران من المقومات الأساسية للاستقرار الاجتماعي وهما رمز الحضارة وهو أمر يختلف كلَّ الاختلاف عمّا عليه الحال في البادية ، حيث الرعي والتنقل في طلب الكَلأَ والماء . جاء في حديث « العُرَنيّين » : كنا أهل ضَرع ، ولم نكن أهل رِيف »[٥٨] . أي أنّا من أهل البادية ، رعاة الابل ، لا من أهل المدن . وأهل المدن هنا هم الحَضَر .

ومن الطبيعي أن الخصائص المعروفة التي اتسمت بها الحياة في البادية ، قد انعكست على الناس الذين يعيشون فيها ، فجعلتهم يتميزون بطابع خاص وأنماط معينة من العلاقات الانسانية تختلف عمّا هي عليه من الحال في المدن والقرى وبذلك كان لكل منهما مجتمعه الخاص ، وتقاليده وعادته الخاصة به ونظم حياته المعروفة .

---

(٥٥) التاريخ : ٢١١/١ ، والمقدمة ص ٣٤٢ وما بعدها .
(٥٦) لسان العرب : (م د ن) .
(٥٧) أحسن التقاسيم ، ٤٧ .
(٥٨) مسند احمد بن حنبل ١٦٣/٣ و ١٧٠ ، صحيح البخاري ١١٩/٣ ، و ٥٨/٤ ـ ٥٩ .

وهنـاك تعبير آخـر استعملته العرب ، ولاسيما في عصر الفتوحات الاسلامية الأولى ، وأعطته معنى ادارياً ومالياً واضحاً اقتضته ظروف الدولة الجديدة ومتطلبات التقسيم الاداري للدولة العربية الناشئة ، وهو تقسيم كان يهدف الى جباية الخراج وتقدير الضرائب على أسس عادلة تتفق مع الشريعة الاسلامية(٥٩) .

ان هذا التعبير هو « الكورة »(٦٠) . يقول الليث : « المصر في كلام العرب كل كورة تقام فيها الحدود ، ويقسم فيها الفيء والصدقات من غير مؤامرة للخليفة »(٦١) . فالكورة هنا مدينة لها معنى اداري ومالي ، يراد به « المِصر » أيضاً . وبمعنى أخر ان الكوفة هي مصر ، وهي مدينة أيضاً ، وكورتهـا تسمى باسمها « كورة الكوفة » ؛ لأن الكُوَر تسمى باسـماء أمصارِها أي بأسماء مدنها(٦٢) .

وفي أوائل المئة السابعة (١٣م) كان تعبير « الكورة » يحمل مدلولاً ادارياً صِرْفاً ، يضّم عملاً واسعاً يشمل الريف بشكل خاص ، ويراد به « الصُّقْع » الذي يشتمل على عدة قرى يجمع اسمها قصبة أو مدينة أو نهراً ،

(٥٩) د. امين محمود عبدالله ، الجغرافية الادارية للدولة الاسلامية من الفتح العربي الى القرن ٤هـ مجلة الدارة ، ع٣ ، ١٩٨٢ ص ٢٦٦ .

(٦٠) الكورة إسم فارسي يقع على قسم من أقسام الأستان ، وقد استعارتها العرب وجعلتها اسماً للاستان . والكورة والاستان واحد . والملاحظ ان تعبير «الكورة» لم يكن استعماله اللفظي واحداً في جميع الأقاليم الاسلامية فهو نظير « الأجناد » في بلاد الشام ، و « المخاليف » عند أهل اليمن ، و « البنود » في بلاد الروم ، و « الطساسيج » عند أهل الأحـواز ، و « الرساتيق » عند أهل الجبال . معجم البلدان ٣٩/١ ، و ٧٤٩/٤ .

(٦١) لسان العرب (ك و ر) .

(٦٢) أحسن التقاسيم ، ٤٧ .

ذلكم هو « الكورة »[٦٣] ، نحو « نهر الملك » و « دار ابْجِرْد » ويرى الدكتور أمين محمود أن « الكورة » تقابل الى حد مّا وحدة المركز في المحافظات المصرية الحالية[٦٥] . والقصبة والمدينة شيء واحد[٦٦] . نحو « بِلْبَيْس »[٦٧] وغيرها .

على أن هذه التفاصيل كلها أعطتنا المعنى اللغوي والاداري لتعابير « المدينة » و « المصر » و « الكورة » و « القصبة » . وهو أمر نرى الاشارة اليه من الأهمية بمكان . غير أن ما ينبغي ذكره أن هذا المعنى لم يكن كذلك عند البلدانيين العرب والمسلمين . وقد اعترف بعضهم صراحةً بذلك . فهذا المقدسي يقول في معنى المصر ما نصّه : « كل بلد حلّه السلطان الأعظم ، وجمعت اليه الدواوين ، وقلّدت منه الأعمال ، وأضيف اليه مدن الاقليم »[٦٨] . وتفسيره هذا لتعبير « المصر » لا يعطيه معنى سياسياً وادارياً ومالياً ، ولا يجعله المركز الرئيسي للاقليم في الدولة الاسلامية ـ وهو ما نصطلح عليه اليوم بالعاصمة ـ فَحَسْب ، بل يعكس لنا طبيعة الوضع الاداري الذي آلت اليه أقاليم الخلافة الاسلامية في المئة الرابعة (١٠م) . وقد أحصى المقدسي الأمصار الاسلامية في زمانه من المشرق الى المغرب فبلغت

---

(٦٣) معجم البلدان ، ٣٩/١ .

(٦٤) نهر الملك : نهر عظيم ـ بالعراق ـ مخرجه من الفرات ، ومصبه في دجلة ، عليه كانت نحو ثلاث مئة قرية . اما مدينة دار ابجرد . فهي في فارس لها عمل واسع يسمى ذلك العمل بجملته كورة دار ابجرد . معجم البلدان ٣٩/١ .

(٦٥) الجغرافية الادارية للدولة الاسلامية ، مجلة الدارة ، ١٩٨٢ ، ص ٢٦٦ .

(٦٦) احسن التقاسيم ، ص ١١٨ .

(٦٧) بلبيس : قصبة الحوف باقليم مصر . كبيرة ، كثيرة القرى والمزارع ، عامرة ، بنيانهم من الطين ، كثيرة الطواحين . احسن التقاسيم ١٩٥ .

(٦٨) احسن التقاسيم ٤٧ .

سبعة عشر مصراً[٦٩] .

ولكي يُزيل المقدسي أي التباس قد يحصل في فهم هذا المعنى للمصر ، حاول أن يُفسّره تفسيراً دقيقاً ، ويُعطيه معناه الواضح ، مضيفاً اليه بعده الاجتماعي الكبير ، وذلك من خلال أنموذج ذكره في مَعْرِض كلامه على اقليم مصر ، وهو « الفُسْطاط » حيث قال فيه : « هو مصر في كل قول ، لأنه جمع الدواوين ، وحوى أمير المؤمنين ، وفصل بين المغرب وديار العرب ، واتسعت بقعته ، وكثر ناسه ، وتنضّر اقليمه ، واشتهر اسمه ، وجلّ قدره »[٧٠] .

واذا كانت هذه الأمور جميعها تمثل المعايير المحددة للمصر ـ المدينة ـ لكي يكون كذلك ، وهو أحد مقومات الحضر ، فان هذه المعايير يقر معانيها بعد نحو خمسة قرون العلامة الكبير عبدالرحمن بن خلدون (٨٠٨هـ ـ ١٤٠٦م) حين قارن الحضارة بما سمّاه « المُلْك » ، أي سيادة الدولة ، وذكر ان الحضارة لا يكفي أن تكون في المدينة ، وانما ينبغي أن تلازمها سيادة ادارية ، أي نظام واستقرار ، وهو رمزالحضارة[٧١] .

بيد أن هذا المعنى للمصر ، لم يكن كذلك عند غير المقدسي من الفقهاء والعوام في عصره[٧٢] . الأمر الذي يشير الى أن التعابير الجغرافية كانت لها

---

(٦٩) وهي سمرقند ، وايرانشهر ، وشهرستان ، واردبيل ، وهمذان ، والأهواز والاحواز وشيراز ، والسيرجان ، والمنصورة (في اقليم السند) وزَبيد ، ومكة ، وبغداد ، والموصل ، ودمشق ، والفسطاط ، والقيروان ، وقرطبة . احسن التقاسيم ٤٧ .

(٧٠) احسن التقاسيم ١٩٧ .

(٧١) المقدمة ، ٣٦٨ ـ ٣٧١ .

(٧٢) يقول الفقهاء في المصر : هو « كل بلد جامع يقام فيه الحدود ، وعليه امير ،

مدلولات ومعانٍ متعددة ، وأن هذه المعاني تختلف في مضامينها عند البلدانيين عنها عند علماء اللغة والفقهاء ، والعامّة . والعامة هنا يراد بها جمهور الأمة . أي ما كان يجري على ألسنة الناس دائماً ، أو في الأقلّ المشهور بينهم في المئة الرابعة[٧٣] (١٠م) . هذا اضافة الى أن تلك التعابير كانت معانيها تتباين من اقليم الى آخر داخل الدولة الاسلامية نفسها .

واذا عدنا الى تفسير المقدسي للمصر نلاحظ أن المصر كوحدة جغرافية كبيرة قد تطور معناه في عصره ، وأصبح يراد به عاصمة الدولة التي تحكم الاقليم الاسلامي ، وهي المركز السياسي والاجتماعي والاداري والمالي لذلك الاقليم ، وبه ترتبط بقية المدن الخاضعة له وتوابعها . وعلى هذا فان الأمصار الاسلامية ، مثل بغداد والموصل ودمشق والفسطاط والقيروان وسمرقند وغيرها ، كانت تمثل عواصم الخلافة الاسلامية في عصورها التاريخية المعروفة . أما البصرة والكوفة اللتان عدهما علماء اللغة أمصاراً أو مدناً كبيرة ، أو هكذا كانت في عصر الفتوحات الاسلامية الأولى ، فانها أصبحت في المئة الرابعة (١٠م) في عداد القصبات . وكذلك الحال في واسط وحلوان وسامراء وصنعاء وهراة ومرو وغيرها[٧٤] . أي أنها أصبحت مدناً داخل الاقليم الاسلامي ، لا عواصم . ولتوضيح ذلك تورد صورة الوضع الاداري للاقليم الاسلامي كما حدده المقدسي ، قال : « اعلم أنا جعلنا الأمصار كالملوك ، والقصبات كالحجّاب ، والمدن كالجند ، والقرى كالرجّاله »[٧٥] .

ويقوم بنفقته ، ويجمع رستاقه مثل عثّر ونابلس وزوزن » . اما العوام فالمصر عندهم « كل بلد كبير جليل مثل الري والموصل » . احسن التقاسيم ٨٧ .

(٧٣) احسن التقاسيم ٤٧ و ١١٤ و ١٥٥ و ٢٢٨ .

(٧٤) احسن التقاسيم ٤٨ .

(٧٥) ن٠م : ٤٧ .

ولسناهنا بصدد التفصيل في التطور الاداري الذي حصل في عواصم الخلافه الاسلامية ومدنها ، فهو موضوع خارج دراستنا . والذي يهمنا في هذا الباب هو بيان المعالم الحضرية التي كانت تتميز بها المدن ، وتجعل لها طابعاً عاماً مشتركاً يختلف فيه حال الناس عما هو عليه في الريف بصرف النظر عن تلك المدن أكانت عواصم الخلافة الاسلامية ، أو لم تكن كذلك ، وسواء كانت تلك المدن كبيرة أو متوسطة أو صغيرة ، وسواء كانت مشهورة أو لم تكن كذلك ، نحو ما جاء عن « قرية عبدالله[٧٦] » و « قصر هبيرة[٧٧] » و « دير العاقول[٧٨] » وهذه كلها في اقليم العراق . ونحو « العريش[٧٩] » باقليم مصر وغيرها من المدن الأخرى ؛ لأن المعالم الحضرية التي تتميز بها حياة المدن سواء وجد كلها في العاصمة ـ وهو أمر طبيعي لأنها مركز الحكم والدين والتجارة والصناعة والجيش ـ أو بعضها في المدن المتوسطة والصغيرة ، تبقى دليلاً واضحاً يميز الحياة الحضرية عن الحياة الريفية التي تنعدم فيها كل خصائص المدينة الحضرية ، ومعالمها ، أو بعضها .

ومن الحقائق البديهية أن المدينة ابانَ العصور التاريخية المتتابعة كانت

---

(٧٦) قرية عبدالله : مدينة ذات اسواق وجامع كبير وعمارة واسعة تحت مدينة واسط بينهما نحو خمسة فراسخ (٣٠ كلم) وبها قبر يزعم انه قبر مسروق بن الاجدع . معجم البلدان ٨٥/٤ .

(٧٧) قصر هبيرة : مدينة كبيرة ببغداد جيدة الأسواق يجيئهم الماء من الفرات ، كانت كثيرة الحاكة واليهود ، والجامع في السوق . احسن التقاسيم ، ١٢١ .

(٧٨) دير العاقول : مدينة كبيرة عامرة آهلة ، الجامع [فيها] ناءٍ عن السوق ، والاسواق متشعبة جيدة تشاكل مدن فلسطين . احسن التقاسيم ، ١٢٢ .

(٧٩) العريش : مدينة ذات جامعين ، مفترقة المباني ، والغالب عليها الرمل ، وهي قريبة من الساحل ، ولها فواكه وثمار حسنة . صورة الارض ١٣٥ ـ ١٣٦ .

بين الانحسار تارةً ، والاتساع تارة أخرى ، بسبب الأحوال السياسية والاجتماعية والاقتصادية التي كانت تواجهها ، ومتطلبات التقسيم الاداري لتلك الأحوال ، اضافة الى العوامل الطبيعية وتأثيراتها المعروفة . ومن الطبيعي أن تتأثر بهذه العوامل نفسها الوحدات الادارية المرتبطة بالمدينة من القرى والنواحي والمزارع .

وعليه فان دراسة معالم المدن في العصور الاسلامية سيما الوسيطة منها وخصائصها التى كانت تتميز بها عن الريف ، سواء كانت تلك المدن تمثل عواصم في أقاليم الخلافة الاسلامية ، كما حاول المقدسي أجمالها في تحديد معاني المصر ، المشار اليها سابقاً ، أو لم تكن ، هو الموضوع الذي نحاول معالجته فيما يأتي من بحثنا .

(ج) المعايير المميزة للحضر

١ ـ معيار الحجم

من حيث التخطيط العمراني للمدينة في العصور الاسلامية الوسيطة ، فانها قسمت الى أقسام ، وحدتها المحلة أو الدرب أو الشارع أو السكة أو الحارة أو النهج . وكانت دروب المدينة وشوارعها كثيرة ، بعضها ضيقة ، وبعضها واسعة[٨٠] ، لكنها على أية حال مزدحمة وشارك في أزدحامها وجود الباعة الجائلين فيها وأصحاب الحرف الصغيرة والصنّاع ، أضافة الى كثرة الدواب كالخيول التي يركبها علية القوم ، والجمال التي تحمل قرب الماء ويطوف بها السّقاؤون على المنازل والأسواق لامدادها بما تحتاج اليه من الماء[٨١] .

---

(٨٠) نفح الطيب ١٤٧/١ .

(٨١) الحياة الاجتماعية في المدينة الاسلامية . مجلة عالم الفكر ، م١١ ، ع٤ ، ١٩٨٠ ، ص٨٨ .

وكان للمدن الكبرى أو العواصم والثغور ، أسوار تحيط بها لحمايتها من هجمات الأعـداء وغيرهم . وكان لسـور المدينـة عـدة أبواب قـد تسمى بأسماء الجهات التي تتجه اليها وتؤدي منها وا ِليها ، مثل أبواب بغداد الأربعة ، وهي : باب البصرة ، وباب الكوفة ، وباب خراسان ، وباب الشام[٨٢] وقد تسمى هذه الأبواب بأسماء المناسبات التي ترتبط بها ، مثل باب زَو ِيلة ، وباب النصر ، وباب الفتوح ، وباب البرقية ، والباب الجديد ، والباب المحروق ، وباب القنطرة ، وباب الفرج ، وباب سعادة ، وباب الخوخة ، وهذه كلها من أبواب القاهرة في جهاتها القبلية والشرقية والغربية[٨٣] .

أما من حيث المساحة والحجم السكاني للمدن ، فان الرحالة الأجانـب الذين شاهدوها في أواخر العصور الوسطى قد أجمعوا على أن مساحتها وكثرة سكانها قد فاقت أضعاف ما هو معروف عن أيـة مدينة أوربية معاصرة لهم يومئذ . من ذلك ما قاله جيهان تنود من أن القاهرة تبلغ ثلاثة أمثال باريس[٨٤] .

أمّا مدينة بغداد التي شيدها أبو جعفر المنصور سـنة ١٤٩هـ/٧٦٦م وكانت تعرف يومئذ بـ « المدينة المُدَوَّرَة » ، فقد روي أن مساحتها بلغت (١٣٠)جريباً[٨٥] أي نحو (٥) كلم٢ . وكان موقعها في الجانب الغربي من نهر دجلة . ثم تطورت أحوالها واتسع عمرانها حتى امتد الى الجانب الشرقي ، وبلغت مساحتها الكلية في كلا الجانبين أواخر المئة الثالثة (٩م) (٤٣٧٥٠.) جَرِيباً ، أي[٨٦] (٤٢)كلم . وبلغ فيها عدد الدروب والسكك (١٠ر٠٠٠)آلاف

(٨٢) تاريخ بغـداد ١/٧٤ ــ ٧٥ .

(٨٣) المواعظ والاعتبار ١/٣٨٠ ــ ٣٨٣ . وعن ابواب قرطبة انظر نفح الطيب ١٣/٢ ، وأبواب سمرقند انظر : صورة الارض ، ٤٠٦ .

(٨٤) الحياة الاجتماعية في المدينة الاسلامية ، مجلة عالم الفكر ، م١١ ع١ ، ١٩٨٠ ، ٨٨ .

(٨٥) تاريخ بغداد ٦٩/١ .

(٨٦) ن٠م ١/١٢٠ .

درب وسكة ، منها ستة آلاف في الجانب الغربي ، وأربعة آلاف في الجانب الشرقي[٨٧] . وهذا الاحصاء على ما فيه من المبالغة ، يشير الى سعة العمران وحجمه ببغداد في ذلك الزمن . وفيما ذكره الرحالة بنيامين التطيلي عند زيارته لها سنة ٥٦٤هـ/١١٦٨م من أن استدارتها بلغت (٢٠) ميلاً[٨٨] . واذا انتقلنا الى قرطبة في الأندلس ، قرأنا رواية طريفة ، فحواها احصائية بعدد المرافق العمرانية في مركزها تعود الى عصر الموحدين ، تتضمن أربعة آلاف وثلاثمئة شرفة ، وأربع مئة ونيف وثلاثين داراً ، وموقعها في القصر الكبير ومئة وثلاثة عشر ألف دار للرعايا . هذا عدا دور أهل الدولة من الوزراء وأكابر الناس والبياض التي بلغت ستة آلاف وثلاثمئة دار . أما الأرباض ، فكان عددها ثمانية وعشرين ربضاً وقيل واحد وعشرون ربضاً ، ومن المساجد ثلاثة آلاف وثمان مئة وسبعة وثلاثين مسجداً ، ومن الحمامات سبع مئة حمام ، وقيل ثلاث مئة حمام[٨٩] .

أما هندسة المنازل وتصميمها داخلَ المدن ، فكان يراعى فيها ، في مدن المشرق والمغرب جميعاً ، حَجْبَ أي عدم تمكين أي فرد في الخارج عن رؤية ما في داخل المنزل ، وتوفير قدر من الحرية لأهل المنزلِ في الأفنية الداخلية[٩٠].

وقد كان للمنزل عادة شبّاك يطل على الطريق يكون منفذاً يدخل منه النور والهواء ، وتنظر منه المارة[٩١] . وشكل المنازل هذا يبدو أنه مشابه لبيوت الأحياء الشعبية في الزمن الحاضر . أما منازل الأغنياء ، فكانت مقسمة

(٨٧) تاريخ بغداد ٩٨/١ .
(٨٨) الرحلة ، ١٣٩ .
(٨٩) نفح الطيب ٧٨/٢ .
(٩٠) الحياة الاجتماعية في المدينة الاسلامية ، مجلة عالم الفكر ، م١١ ، ع١ ، ١٩٨٠ ص ١٠١ .
(٩١) العامة ببغداد ص ١٦٨ .

الى ثلاثة أقسام : قسم للاستقبال ، وقسم للحرَم ، وقسم للخدم[٩٢] .

على أن بعض المدن ، بسبب ازدحامها بالسكان ، عرفت نظام البناء العمودي ، فكانت الدار فيها طبقات ، قد تكون سبعة ، أو ستاً أو خمساً ، ويسكن فيها نحو مئتي شخص[٩٣] . والدار هنا يراد بها في زمننا العمارة واذا افترضنا أن المعدل الوسطي لحجم الأسرة الواحدة ستة أفراد ، فمعنى ذلك ان العمارة الواحدة كان يسكنها نحو ثلاث وثلاثين أسرة . ومن طريف عاداتهم في تلك الدور أنهم كانوا يتركون الطبقة السفلى دون سكن[٩٤] .

٢ ـ المعيار الوظيفي

زخرت المدن في العصور الاسلامية الوسيطة بالعديد من المؤسسات والمرافق العامة التي تخدم الحياة الاجتماعية في مختلف المجالات . من ذلك ما روي عن أحمد بن طولون حين أراد بناء مدينة القطائع في « مصر » في المئة الثالثة (٩م) ، فانه عزم على أن يعمرها عمارة حسنة ، فتفرقت فيها السكك والأزقة ، وعمرت فيها المساجد الحسان ، والطواحين ، والحمامات ، والأفران ، والحوانيت ، والشوارع حتى بلغت مساحتها ميلين في ميل[٩٥] . ولا شك في أن بغداد ، هي عاصمة الخلافة العباسية ، فاقت غيرها من المدن في كثرة المرافق ، حتى غدت « مجمع المحاسن والطيبات ، ومعدن الظرائف واللطائف ، بها أرباب الغايات في كل فن ، وآحاد الدهر في كل نوع »[٩٦] .

---

(٩٢) العامة ببغداد ، ص ١٦٩ ، نقلا عن الغزالي في إحياء علوم الدين ٢/١٦ .
(٩٣) صورة الارض ، ١٣٧ .
(٩٤) ن . م ، ١٣٧ .
(٩٥) النجوم الزاهرة ٣/١٤ ـ ١٦ . وانظر ما ورد عن الفسطاط في صورة الارض ، ١٣٧ ـ ١٣٨ .
(٩٦) تاريخ بغداد ، ١/٧٩ ، معجم البلدان ١/٦٨٥ .

أما مدينة سمرقند ، فكان فيها أسواق كبار ، وفيها ما في المدن العظام من المحال والحمامات والخانات والمساكن[٩٧] .

واذا كان هذا الأمر في مدن المشرق ، فان مدن المغرب كان حظها وافراً كذلك . ففي الأندلس ، حرص خلفاء بني أمية أن يجعلوا من مدينة « قرطبة » صورة جديدة لدمشق ومنافساً لبغداد أيام عظمة الخلافة العباسية ، فأكثروا من تجميلها واقامة المرافق العامة المتنوعة فيها[٩٨] . ومثل ذلك يقال عن « القاهرة » ، حتى ان الرحالة ابن بطوطة ، وقد دخلها في المئة الثامنة (١٤م) وصفها بأنها « أم البلاد ... ذات الأقاليم العريضة والبلاد الأريضة المتناهية في كثرة العمارة ، المتباهية بالحسن والنضارة مجمع الوارد والصادر ، ومحط رحل الضعيف والقادر »[٩٩] .

كما حفلت المدن ، ولاسيما العواصم ، بمؤسسات اجتماعية أخرى منها : المارستانات ، والمستشفيات ، لمداواة المرضى وعلاجهم . والحقيقة أن الحكومة في دولة الخلافة الاسلامية قد أولت هذه المؤسسات عناية بالغة ، على الرغم من قلة عددها ، فوفرت لها العاملين في مختلف المستويات من الأطباء والجراحين والطبائعيين والمشرفين والعمال والخدم ، وخصصت لهم الرواتب الشهرية ، كما وفرت للمرضى متطلبات علاجهم ، ولقوا فيها استحساناً ونفعاً كبيراً[١٠٠] . ومصادرنا التاريخية تحفل بأخبار عدد من المارستانات في بغداد ، والقطائع ، والقاهرة ، ودمشق ،

---

(٩٧) صورة الارض ، ٤٠٦ .
(٩٨) نفح الطيب ١/١٤٧ .
(٩٩) الرحلة ، ٣١ .
(١٠٠) انظر ما ورد عن المارستان العضدي ببغداد والمارستان العتيق بمصر في « الجامع المختصر » ٩/٨١ و ١٤٥ ، والمواعظ والاعتبار ١/٤٠٧ على التوالي .

وشيراز ، وأصفهان ، وغيرها[١٠١] .

ومنها أيضاً المكاتب الخاصة برعاية الأيتام والفقراء والمعدمين[١٠٢] ، والسبل والسقايات ، لتوفير ماء الشرب لعابري السبيل . وقد انتشر الأسبلة بكثرة في مدن العالم الاسلامي مشرقِه ومغربِه[١٠٣] جميعاً . هذا اضافة الى المرافق الخاصة برعاية الأغراب والعميان والقواعد من النساء . ويلاحظ على هذه المرافق جميعاً أنها لم تتخذ شكل منشآت قائمة بنفسها ، وانما اتخذت من المرافق الدينية كالمساجد والزوايا والرُبط ، مقراً لها ، بوصفها منشآت دينيـة تستهدف الخير والبر ومسـاعدة الضعيف والتقرب الى الله بفعـل الخير[١٠٤] .

أما على صعيد الحياة العلمية والدينية للمدينة ، فقد شهدت نشـاطاً منقطع النظير في هذين المجالين . يؤكد ذلك ما ورد من اشارات كثيرة عن مجالس الدين وحلقات العلـم والتدريس التي كانت تعقـد في الجوامـع والمساجد ، ثم في المدارس والرُبُط والزوايا (الخوانق) من جهة ، وكثرة هذه المؤسسات من جهة أخرى ، لاسيما الجوامع والمساجد . وقد أشرنا الى عددها في بعض المدن عند الكلام على حجم مرافقها . ونشير هنا الى أكبرها حجماً ، وأكثرها شهرة في بلاد المسلمين مشرقها ومغربها والتي تميزت بدقة بنائها ، واتقان صناعتها ، وفنون عمارتها ، ولاتزال معالمها شاخصة حتى يومنا هذا . منها مسجد دمشق المعروف بالجامع الأموي[١٠٥] ، والجامع العتيق في

---

(١٠١) الحياة الاجتماعية في المدينة الاسلامية ، مجلة عالم الفكر ، م١١ ، ع١ ، ١٩٨٠ ص ١١٣ — ١١٤ .

(١٠٢) النجوم الزاهرة ١٧/٣ .

(١٠٣) صورة الارض ١٣٧ ، ٣٨٦ .

(١٠٤) الحـياة الاجتماعية في المدينة الاسلامية ، مجلة عالم الفكر ، م١١ ع١/١٢١ .

(١٠٥) معجم البلدان ٥٩١/٢ — ٥٩٧ .

فسطاط مصر المعروف يومئذ بتاج الجوامع ، وهو جامع عمرو بن العاص[١٠٦]، والجامع الأزهر في القاهرة[١٠٧] ، ومسجد قرطبة[١٠٨] .

أما المدارس ، فمع أن وجودها انحصر في المدن الكبرى ولاسيما عواصم الخلافة الاسلامية ، يلاحظ أن رسالتها العلمية قد تنوعت بتنوع العلوم والمذاهب وأصول الفقه التي تدرس فيها ، وهو أمر أقل ما يقال فيه ازدهار في الفكر ، وتطور في حركة الوعي الاجتماعي . ففي دمشق مثلاً كانت المدرستان العادلية والظاهرية للشافعية ، ومدرسة السلطان نورالدين (محمود بن زنكي) للحنفية . أما المدارس الثلاث الصمصامية والنورية والشرابشية فكانت للمالكية ، وكانت المدرسة النجمية للحنابلة[١٠٩] . أما بغداد فأكبر مدارسها الكثيرة النظامية[١١٠] . التي شيدها الوزير نظام الملك الا أن المدرسة المستنصرية[١١١] التي شيدها الخليفة المستنصربالله في أوائل المئة السابعة (١٣م) توجت جميع مدارسها ، وجمعت المذاهب الأربعة في أروقتها ، فكانت بحق أول جامعة في العالم في العصور الاسلامية الوسيطة ، يقصدها العلماء والطلبة من أرجاء العالم الاسلامي كافة .

وكانت مجالس القصاص والوعاظ والمذكرين في المدينة خلال العصور الاسلامية تمثل لوناً من ألوان النشاط النفسي والفكري على المستويين العام والخاص[١١٢] . لذلك حفلت المدن وعواصم الخلافة الاسلامية خاصةً بعدد

(١٠٦) المواعظ والاعتبار ٢/٢٤٦ وما بعدها .
(١٠٧) ن٠م ٢/٢٥٢ .
(١٠٨) نفح الطيب ٢/٨٣ .
(١٠٩) رحلة ابن بطوطة ، ٩١ — ٩٢ .
(١١٠) معجم البلدان ٢/٥٩٨ .
(١١١) الحوادث الجامعة ٥٣ .
(١١٢) المواعظ والاعتبار ٢/٢٥٣ .

كبير من الوعاظ الخطباء والفقهاء والعلماء • وكانت لهم مكانة جليلة لدى الخاص والعام ، حتى ان بعض الناس كانوا يقصدونهم لقضاء حوائجهم ، ويتوسلون بهم للشفاعة لهم عند أهل الدولة[١١٣] •

ومن المعلوم أن العصور الاسلامية الوسيطة اتسمت بمسحة دينية واضحة جعلت للفكر الديني وأهله مكانة محترمة في قلوب الناس جميعاً • وهذا يذكرنا بشروط المدينة وعمرانها يوم كانت في المئة الرابعة (١٠م) لا تعد كذلك الا" بوجود المنبر[١١٤] ، أي أن الاعتبار الديني كان يراعى في تحديد خصائص المدينة الى جانب الخصائص الأخرى التي سبقت الاشارة اليها • على أن ما تجدر الاشارة اليه هنا أن بعض هذه المؤسسات الدينية كالجامع والرباط والزاوية ، التي عرفتها المدن بكثرة ، لم يَخْلُ منها الريف ، على الرغم من قلة عددها[١١٥] • اذْ لم تكن تزيد على مرفق واحد في القرية كوحدة اجتماعية في الريف ، وفي معظم الأحوال • والأخيرتان ــ الرباط والزاوية ــ كانتا الملاذ الوحيد لشيوخ الزهد والتصوف •

كما عرف الريف كذلك عدداً من الوظائف المدنية والعسكرية المرتبطة بالمؤسسات الرسمية الكبرى في مراكز المدن أو العواصم ، شغلها موظفون كثُرْ • صحيح أن هذه الوظائف لم تكن في مستوى المؤسسات المركزية لكنها كانت تلبّي جانباً مهماً من مطالب سكان القرى والأرياف • وفي حدود دراستنا لريف بغداد خلال السنوات « ٥٧٥ ــ ٦٥٦هـ/١١٧٩ ــ ١٢٥٦م » أحصينا عدداً من الوظائف العاملة هناك ، شملت مناصب رؤساء القرى

---

(١١٣) تحفة الاحباب ، ص ٢٩ • ولمزيد من التفاصيل انظر الحياة الاجتماعية في المدينة الاسلامية ، مجلة عالم الفكر ، م١١ ، ع١/ص ٩٤ •

(١١٤) احسن التقاسيم ١٩٣ •

(١١٥) معجم البلدان ٤٥٢/٢ ، و ٢٠٣/٣ ٢٠٤ ــ ، والحوادث الجامعة ٢٦٣، و ٢٨٤ ، ومراصد الاطلاع ٥٠٤/١ •

« الدهاقين »[116] ، والولاة ، والصدور ، والنظار ، والمشرفين ، وأصحاب الدواوين ، والكتاب ، والعمال ، والسعاة ، والمحتسبين ، والقضاة ، والخطباء ، والوعاظ ، والنقباء ، ورؤساء الطوائف الاجتماعية « اليهود والنصارى » ، والشحنة ، والحراس ، والحماة[117] .

أما في المجال الاقتصادي ، فقد ظلت المدن دائماً تمثل المراكز الكبرى الحيوية للنشاط الاقتصادي ، تقصدها قوافل التجار ومراكبهم من بلاد العالم المختلفة القريبة والبعيدة . وتنقل منها واليها مختلف أنواع البضائع والمتاجر ، وتتم في ربوعها صفقات البيع والشراء بالجملة على نطاق واسع[118] .

ولا شك أن أسواق المدن هي مرآة حياتها الاقتصادية ، وعنوان نشاطها التجاري والصناعي ، والاجتماعي أيضا . وقد تشابهت الأسواق التي بنيت في المدن ابان العصور الاسلامية ، في مظهرها العمراني العام تقريباً . فأغلبها مسقوف لكيلا تكون عرضة لعوامل الطبيعة ، وبعضها كان مكشوفاً[119] . كما تنوعت فيها الحرف وتعددت أصناف تجاراتها وخصصت لها شوارع

(116) جمع دهقان : لفظة فارسية معربة ، معناها التاجر . لسان العرب (د هـ ق) . والدهقان ايضا ، رئيس القرية ـ وهو مصطلح شاع في الولايات الشرقية للدولة الاسلامية ومنها العراق ـ الذي يتولى الادارة المحلية فيها ويشتغل اهلها له . وكانت مهمته الاساسية جمع الضرائب من القرى . وقد سارع الدهاقين الى الدخول في الاسلام بعد الفتح العربي ، وصاروا حلفاء للعرب ، وحافظوا على نفوذهم ، وجمعوا ثروات طائلة . انظر : النظم الاسلامية ١/١١٢ والعصر العباسي الأول ، ١١ ـ ١٢ .

(117) انظر للباحثة : ريف بغداد ٢٩٢ ـ ٣١١ .

(118) الحياة الاجتماعية في المدينة الاسلامية ، مجلة عالم الفكر ، م١١ ، ع١/٨٥ .

(119) الحياة الاقتصادية في المدينة الاسلامية ، مجلة عالم الفكر ، م١١ ، ع١/١٥٧ .

معلومة فيها حوانيت متميزة ببضائعها ، حتى صار في بعض عواصم الخلافة الاسلامية كل سوق مفردة بحالها ، وكل أهل حـرفة منفردون بتجارتهم ، ولا يختلط قـوم بقـوم ، ولا تجـارة بتجارة ، ولا يبـاع صنف مع غير صنفه(١٢٠) . فكان هناك سوق البزازين ، وسوق الدجاج ، وسوق الجزارين، وسوق الوراقين ، وسوق دار البطيخ ، وسوق الصاغة ، وسوق الطيب ، وسوق الأساكفة ، وغيرها(١٢١) .. وهذه كلها من بين أسواق بغـداد التي شيدت في جانبيها الشرقي والغربي .

ان ازدحام المدن بالعدد الكبير من الصناع وأصحاب الحرف كان سبباً لظهور الأصناف ــ النقابات في العصر الحاضر ــ حيث كان لأهل كل حرفة نقابة ذات نظام ثابت يحـدد عـددهم ومعاملاتهم فيما بينهم ، وفيمـا بينهم وبين الجمهور(١٢٢) . ولعل هذا الأمر هو الذي دفع العلامة عبدالرحمن بن خلدون أن يولي الصنائع والحرف أهمية ، فأفرد لها فصـولاً عـديدة في مقدمته الشهيرة ، لكونها تمثـل رمز الحضـارة في المدينة . فهو يرى أن الصناعة بحرفها المختلفة ، كالكتابة والتجارة والحياكة والخياطة والفروسية وغيرها ، رمز للحضارة ، ولا توجـد الا في أهل الحضر ، وانها لا تكمل الا بكمال العمران الحضري وكثرته ، لأنها مركبة وعلمية تصرف فيها الأفكار والأنظار ، على حين يرى الفلاحة أو الزراعة من معاشر المستضعفين وأهل العافية من البدو(١٢٣) .

---

(١٢٠) البلدان ٢٤٦ ، مروج الذهب ٥٥/٤ .

(١٢١) لمزيد من التفاصيل ، انظر : اسواق بغداد ، ص ٨٠ ــ ١٠٩ ، وحـول اسواق مدن اخرى ، انظر : المواعظ والاعتبار ٢٥٣/٢ .

(١٢٢) الحيـاة الاجتماعيـة في المدينة الاسلامية ، مجلة عالم الفكر ، م١١ ع٩٥/١ .

(١٢٣) المقدمة ، ٣٨٣ ، و ٣٩٤ .

٣ ـ المعيــار الاجتماعي

أما البناء الاجتماعي للمدينة في العصــور الاســلامية ، فان ازدحام المدن بالسكان وبالمؤسسات والمرافق الدينية والدنيوية من جهــة وبألوان النشاط البشري من جهة أخرى ، جعل المدينة أشبه بمستوطنة حضرية تجمع بين أسوارها فئات متباينة من الناس يؤلفون طبقات متعددة ، تؤلف كل منها لبنة في البناء الاجتماعي للمدينة(١٢٤) ، الأمر الذي جعل الحياة الاجتماعية فيها تتّسم بطابع من الحركة والحيوية لم يكن له مثيل في بقية أنحاء العالم المعاصر يومئذ .

وكانت طبقات المجتمع في المدينــة تتكون من الحكام ، وهم الخلفاء والوزراء والأمراء والقضاة والحجّاب والقادة ، ثم علماء الدين . ثم التجار وكانوا فئتين : فئة التجار الكبار وهم أصحاب الأموال الكبيرة الذين اختصوا بالتعامل في السلع الثمينة كأنواع الرقيق والمجوهرات وغيرها ، وفئة التجار الصغار والباعة الذين كانوا على اتّصال بعامة الشعب . هذا اضافة الى جمهور كبير من أصحاب الصنائع والحرف أمثال البنائين ، والصيادين والخياطين ، والنجارين ، والحدادين ، والنحاسين ، والصباغين ، والسقائين ، والمكاريين وغيرهم ، والمعدمين وأشباه المعدمين ، وهؤلاء أطلق عليهم اســم العامــة أو العوام من الناس(١٢٥) .

ولم يقتصر تجمــع المدينــة في العصــور الاســلامية على الطبقــات والطوائف السابقة ، انما كان هناك أقليات لها أهميتها في بناء مجتمع المدينة ، وان تفاوتت في عددها ونوعيتها من مدينة الى أخرى بحَسَب طبيعة كل اقليم

(١٢٤) الحياة الاجتماعية في المدينــة الاســلامية ، مجلة عالم الفكر ، م١١ ع١/٩٠ .

(١٢٥) العامة ببغــداد ، ٥٩ ــ ٦٢ .

من أقاليم الخلافة الاسلامية . ومن الثابت في جميع الحالات أن التسامح الاسلامي ساعد على اضفاء جو اجتماعي خاص على المدن الاسلامية ، تسوده روح الأخاء بين أهل المدينة على اختلاف طوائفهم ومللهم ونحلهم . والمتتبع لتاريخ العصور الاسلامية يسترعي انتباهه العدد الكبير من وجود الأديرة والهياكل الخاصة بأهل الكتاب « اليهود والنصارى » في كل من دمشق والقاهرة وبغداد والمغرب والأندلس[١٢٦] ، وان كانت هذه الأديرة والهياكل لم تخلُ منها مواقع عديدة من الريف[١٢٧] .

ولا شك في أن تنوع طبقات المجتمع في المدينة ، وتباينها في المستوى مع كثرة السكان ، واختلاف ميولهم ومشاربهم ، كل ذلك جعلها تحفل بالنشاط والحيوية .

ولما كانت الأمصار والمدن الكبرى هي عواصم الدولة العربية الاسلامية ، فان الحياة فيها أخذت منذ بداية العصر الأموي تتخلّى تدريجيا عن بساطتها الأولى التي اتصفت بها الحياة في مكة والمدينة . وظهر في العصر الأموي اتجاه جديد ، ومظاهر جديدة بعد الانتشار الواسع للاسلام ، ودخول أقوام مختلفة في الدين الاسلامي . وقد برز أثر ذلك في مظاهر الترف واللهو ، وفي بناء القصور وتزيينها بالفُسَيْفِساء وأعمدة الرخام والذهب ، في عصور بعض الخلفاء الأمويين[١٢٨] .

وازداد الأمر حين أصبحت بغداد حاضرة الخلافة العباسية ، حتى غدت القصور سمة من سمات الحياة الاجتماعية في المدينة الاسلامية في العصر

---

(١٢٦) الحياة الاجتماعية في المدينة الاسلامية ، مجلة عالم الفكر ، م١١ ، ع٩٦/١ .

(١٢٧) معجم البلدان ، م٦٨٧/٢ و ٦٩٣ و ٦٧٨ .

(١٢٨) تاريخ الرسل والملوك ، م١٧٩٠/٨ .

العباسي ، وغدت قصور الخلفاء العباسيين في بغداد وسامراء محوراً لكثير من القصص التي امتزجت فيها الحقيقة بالخيال[١٢٩] .

وقد حفلت المصادر العربية بصور متنوعة لمظاهر الترف ، ومنها الاعتناء بملابس الأمراء والخلفاء وسيدات البلاط العباسي . ولكن هذه المظاهر لم تكن هي السمة الغالبة للمجتمع العربي في العصر العباسي ، انما تميز هذا العصر بالرقيّ والابداع الفكري الانساني الذي يرجع الى أصول عربية امتازت بها الأمة العربية . وان هذه المظاهر التي أشارت اليها أغلب المصادر ، هي حالات خاصة لا تمثل كل المجتمع وفي معظم العصور .

ولا يخفى أن النشاط الاجتماعى الذي بدأ في مظاهره المتنوعة في العواصم الاسلامية والمدن الكبرى : كدمشق ، وبغداد ، والقاهرة ، قد امتد في صورةٍ مّا الى المدن الاقليمية : كصنعاء ، وحلب ، والاسكندرية ، وفاس ، وغرناطة ، حيث انتشر عدد من الأمراء وكبار الموظفين وهؤلاء كانوا في حياتهم الخاصّة والعامّة صورة مصغرة لما عليه الخلفاء والسلاطين وكبار الأمراء في العواصم[١٣٠] .

ولم تخل المدن في العصور الاسلامية من وسائل التسلية والترويح عن النفسّ ، كالخروج الى المُتَنَزَّهات والحدائق ، وصيد الطيور ، ورمي البندق . أمّا « خيال الظِّلّ » ، فقد غدا في بعض الأوقات تسلية عامة لجميع طبقات المجتمع ، خصوصاً في مصر[١٣١] . وفي بعض الأحيان تلهّى الناس في المدن بألعاب كان طابعها المقامرة ، مثل تطيير الحمام ، ومناطحة الكباش ، ومناقرة الديوك[١٣٢] .

(١٢٩) تاريخ الرسل والملوك ، م٢/١١٠ .
(١٣٠) الحياة الاجتماعية في المدينة الاسلامية ، مجلة عالم الفكر ، م١١ ع١/٩٣ .
(١٣١) ن.م ص ٩٩ .
(١٣٢) للاطلاع على التفاصيل انظر : العامة ببغداد ، ص ٢٣٧ ـ ٢٤٢ .

كما شهدت المدن احتفالات وأعياداً كثيرة ، منها الاحتفالات الدينية بالمولد النبوي الشريف ، واعياد شهر رمضان المبارك ، وايام عيدي الفطر والأَضْحَى ، اضافةً الى الاحتفال عند خروج موكب الحج . وكان الناس يستعدون للأعياد والاحتفالات بالملابس الجديدة ، واعداد الحلوى ، واقامة الزينة ، وعمل الولائم،تعبيراً عن اعتزازهم وسرورهم بالمناسبة.كما كانت هناك احتفالات بالأعياد الوطنية أو شبه القومية يحتفل بها المسلمون وغير المسلمين، مثل عيد النوروز الفارسي ! أو الربيع ببغداد واحتفالات الأُسَر بالختان والأعراس وغيرها(١٣٣) .

ان ما تقدم يوضح لنا المظاهر العامة للحياة الاجتماعية التي اتصفت بها المدن في العصور الاسلامية ، وهي مظاهر قد تتّسع في مدينة ، وتنحسر قليلا في أخرى ، تبعاً لظروفها السياسية والادارية والمالية ، الاّ أنها على أية حال تعكس نمطاً معيناً من الحياة كان يختلف كل الاختلاف عما هو سائد في حياة سكان القرى والأرياف التي اتسمت بالبساطة والهدوء وان وجد جزء منها ، أي من تلك المظاهر ، فهو لا يؤلف الا نزراً يسيراً لا يمكن أن يكون معياراً لتحديد وضع اجتماعي متميز .

صفة الديمومة في بعض المعايير وظهور معايير جديدة للريف والحضر في العصر الحديث

اذا كانت دراسة المعايير التي تميز الريف والحضر في العصور الاسلامية سيما الوسيطة منها شائكة ومعقدة ، لتشتت النصوص وتبعثر الافكار ، فهي لم تكن يسيرة في عصرنا الحديث ، وقد تعددت آراء العلماء والمعنيين ، وتباينت

(١٣٣) الفخري في الاداب السلطانية ، ٢٢٥ . ولمزيد من التفاصيل انظر : العامة ببغداد ، ١٩١ ــ ٢١٥ .

أنظارهم ، واختلفت المعايير المستخدمة في تصنيف السكان الى ريفي وحضري • ففي الوقت الذي يرى فيه بعض الباحثين أن الفرق بين المدينة ــ كمستوطنة حضرية ــ والقرية « كوحدة اجتماعية في الريف » يقوم على أساس الحجم من حيث عـدد السكان ، يرى آخـرون أن الفرق في نوع الوظيفة للوحـدة السكانيـة ، وفريـق ثالث يذهب الى ان الفرق بينهما انمـا هو في المظهر العمراني[١٣٤] •

ولكل من هذه الآراء مسـوّغاته ومشكلاته • فلو أخذ عدد السكان أساساً للتمييز بين المدينة والقرية ، لظهر أن المعيار يختلف من دولة الى أخرى• ففي الدنمارك مثلاً تعدّ كل وحدة سكانية يزيد عدد سكانها على (٢٥٠) نسمة « مدينة » • في حين يجب ان يزيد عدد سكان الوحدة على أربعين ألف نسمة في « كوريا » ، لكي تكون مدينة[١٣٥] ، في حين تـُعَدّ فرنسا المناطق التي يتجاوز عدد نفوسها ألفي نسمة منطقة حضرية ، وما دون ذلك يعد منطقة ريفية[١٣٦] •

ومع هذا تستعمل كثير من الدول هذا المعيار للتفرقة بين الريف والحضر، كما هي الحال في الولايات المتحدة الأمريكية والهند والباكستان[١٣٧] •

واذا استعمل المعيار الوظيفي أساساً للتمييز ، وفرض أن كل وحـدة سكانية يشتغل أهلها بالزراعة ، تكون قرية على حين يطلق اسم مدينة على كل وحدة سكانية يشتغل أهلها بالتجارة والصناعة • ظهرت المشكلة نفسها ، أي مشكلة الوحدات السكانية التي تجمع بين مختلف الوظائف والحِرَف ،

---

(١٣٤) مجتمع المدينة ، ٢٣ ــ ٢٤ .
(١٣٥) ن • م ٢٤ .
(١٣٦) دراسة في طبيعة المجتمع العراقي ، ٢٥٩ ــ ٢٦٠ .
(١٣٧) مجتمع المدينة ، ٢٤ .

كما هي الحال في جمهورية مصـــر العربية(١٣٨) . ومع ذلك فان ايطالية تعتمد الوظيفة الاقتصادية معياراً للتفرقة بين الريف والحضر ، لأنها تعدّ الحضر هو « التجمـع السكاني الذي يعمـل أقل مـن نصف سكانـه في الزراعة »(١٣٩) .

ولو اتخذَ الحجم أساساً ، لظهرت المشكلة أصعب ، ذلك لأن الكثير من الوحدات السكانية سوف تعدّ كثيراً من المدن قرى ، لمجرد أنها تقع مع مدينة أكبر منها في دائرة المركز أو المحافظة نفسها . ومع ذلك فان كلا من السويد وبولندة ورومانيا تتخـذ هـذا المعيار أساسـاً للتفرقة بين الريف والحضر(١٤٠) .

أما العراق ، فكان الى سـنة ١٩٧٧ يعتمد المعيـار المهني أو الوظيفي والاداري أساسـاً لتحديد منطقة الريف والحضر ، الا أن الاحصـاء العام للسكان الذي جـرى في تلك السنة ، جـدد المعيار الاداري أساسـاً لذلك التحديد ، وأعطى مفهـوماً للحضر ، أراد به « المناطق الواقعة ضمن حـدود البلديات وضمن حدود أمانة العاصمة » . أما الريف فحدوده بـ « المناطق الواقعة خارج حدود البلديات وخارج حدود أمانة العاصمة »(١٤١) .

والحقيقة أن مشكلة تمييز المدينة عن الريف بمفهوم معين ظلت قائمة زمناً ليس بالقصير ، ومما زادها تعقيداً أن أجزاء المدينة الواحدة أو المجموعة الحضرية « المدينـة + الضواحي » تختلف في كثير من الأحيـان في مظاهر

---

(١٣٨) المجتمع الريفي العربي والاصلاح الزراعي ، ١٦ .
(١٣٩) مجتمع المدينة ، ٢٤ .
(١٤٠) ن.م ، ٢٤ .
(١٤١) وزارة التخطيط ، الجهاز المركزي للاحصاء : واجبات العداد والتعليمات الخاصة بملء استمارة التعداد العام للسكان ، ١٩٧٧ ، ١٥ .

التحضر البادية فيها . فبعض الأجزاء تكون أقرب الى القرى ، في حين يمعن باقي الأجـزاء في التحضر . لذلك اتفقت الهيئات الدولية « الأمـم المتحدة ووكالاتها المتخصصة » على اعتبار كل تجمع سكاني يزيد على عشرين ألف نسمة ، مدينة ، وذلك لتسهل المقارنات الدولية[١٤٢] . وبتعبير آخر اعتمـاد الحجم من حيث عدد السكان معياراً للتمييز بين الريف والمدينة .

بَيْدَ أن الهيئات الدولية اذا كان لها ما يسوّغ اعتمادها هذا المعيار ، فهذا أمر قبوله من الصعوبة بمكان . لذلك نجد أنفسنا متفقين كل الاتفاق مع علماء الاجتماع في العصر الحديث في اعتماد معايير الحجم والوظيفة الادارية والاقتصادية والاجتماعية لتمييز الريف والمدينة .

لقد وضع علماء الاجتماع تعريفاً للمدينـة ، فَحوْاه « أنها تجمعات سكانية غير متجانسة تعيش على قطعـة أرض محدودة نسبياً ، وتعتمد على الصناعة أو التجارة أو عليهما معاً ، كما تمتـاز بالتخصص وبتعدد النظـام السياسي والاجتماعي » . أما الريف فهو عندهم كل ما عدا ذلك[١٤٣] . وفي ذلك تأكيد واضح لما قرره ابن خلدون في مقدمته الشهيرة وفي تناوله للحضارة والبداوة .

خلاصـة واستنتاجات

لابد لنا ، ونحن نختتم البحث ، أن نستخلص بعض الأراء والأفكار التي استند اليها ، ونحدّد بعض الاستنتاجات التي نعتقد بأهميتها في توضيح حقيقة المعايير المميزة للريف والحضر منذ قرون طويلة خلت ، وديمومة وجودها حتى الزمن الحاضر ، وذلك من خلال ما يأتي من المقدمات :

---

(١٤٢) مجتمع المدينة ، ٢٥ .
(١٤٣) ن.م : ٢٥ — ٢٧ .

١ ــ ان الاستقرار عامل أساسي للاستيطان الحضري في الريف والحضر • فالزراعة في الريف تقتضي الاستقرار حول مصادر المياه ، ووجود الماء والأرض والانسان هو الوحدة المتكاملة للريف • والمدينة كمستوطنة حضرية هي مركز لاستقرار الانسان أيضاً ، لأنها مصدر حياته الاقتصادية والاجتماعية والثقافية • فالاستقرار هنا سمة مشتركة للريف والمدينة • أما البادية ، فطبيعتها الانتقال والترحال في طلب الكَلأ والماء ، لذلك يفتقد فيها عامل الاستقرار الذي هو سمة الحضارة •

بقي الفرق بين الريف والحضر ، فهو يكمن في أن طبيعة الريف وسماته في خِصْب الأرض والعمل في الزراعة « وظيفة المهنة » ولطافة الهواء ، وبساطة العيش ، والاخلاد الى الراحة ، والاستمتاع بالنزهة ، وهي معالم أساسية تميز الحياة الريفية بشكل عام حتى يومنا هذا •

واذا كانت بعض المعايير التي ميزت الريف قديماً ، في قلة العمران والسكان ، والانفراد الذاتي ، ووجود الخراب ، واضطراب الأحوال العامة أحياناً ، فان هذه الأمور تكاد تكون نفسها اليوم في الريف العربي المعاصر ــ أو في الأقل في الكثير من مواقعه ــ الذى تتكون قراه من مجموعة من « الصرائف » ، أو البيوت المبنية من الطين والمتباعد بعضها عن بعض ، الشيء، والتي تنعدم فيها أقل المستلزمات الصحية والثقافية والاجتماعية ، الأمر الذي يشير الى امتداد التماثل في الريف بين الأمس واليوم ••

واذا ما كسب الريف أو مواقع منه بعض المعالم الحضرية المماثلة لما هو في المدن ، فان مرّد ذلك الى عناية حكومة الدولة الاسلامية بتوفير متطلبات الحياة فيه ، وقد تشارك عوامل البعد الجغرافي للمراكز الريفية عن ويلات الحروب والاضطرابات والخراب التي تشهدها المدن ، وفي كلتا الحالتين يكون الأمر مماثلا لما عليه الحال في الزمن الحاضر حين تقوم الدول من خلال

مؤسساتها الرسمية بمحاولات عديدة للاهتمام والعناية بالريف في محاولة منها لترقيته ، وتقليص مسافة الهوّة بينه وبين المدينة .

٢ ـ أما المدن فكانت طوالَ العصور الاسلامية معروفة بحركتها الواسعة وعمرانها الكبير ، وحياتها الصاخبة ، واختصت بوجود مؤسسات دينية ودنيوية متعددة ، كالمساجد الجامعة والأسواق والحمامات والمدارس والمارستانات والصنائع والحرف المختلفة التي تعدّ أهم معالم المدينة ، والعمران الحضري حتى الزمن الحاضر .

من هنا كان الاختلاف بين الريف والمدينة واضحاً ، وانعكس على طبيعة السكان في كل منهما ، وفي اختلاف اللهجات التي يتحدثون بها والعادات والتقاليد المعروفة بينهما . بيد أن هذا الأمر لم يكن حائلاً دون الاتصال بينهما . اذ أن حركة الاتصال كما تشير النصوص التاريخية والأدبية كانت واسعة ، وكانت القرى دائماً تغذى المدن بالعنصر البشري . وكان تجار الريف يتجهون الى المدينة للحصول على ما يحتاجون اليه من مستلزمات الحياة التي يفتقدونها في بيئتهم من ناحية ، ولتصريف الفائض من انتاج مزارعهم من ناحية أخرى . لذلك كان الريف دائماً قوام حياة المدينة في توفير الغذاء ، وكانت المدينة مركز جذب للريف طوال حقب التاريخ ؟ .

ملاحظات على :

مشروع مجمع اللغة العربية الأردني

للرموز العلمية العربيه

الدكتور مجيد محمد علي القيسي

نشر مجمع اللغة العربية الاردني عام ١٩٨٥ مشروعا للرموز العلمية العربية اعدته لجنة متخصصة من علماء الاردن الشقيق تناول الرموز الرياضية والفيزيائية والكيميائية المعربة او المترجمة من اللغة الانكليزية الى العربية . ولقد اشارت اللجنة الى المنهج الذي اتبعته وحددت لها عددا من الاهداف نذكر منها :

اولا : تعريب العلم لا مجرد الترجمة ، ونبذ استعمال الحروف الاجنبية كرموز في كتب العلوم العربية .

ثانياً : اتخاذ الاشارات العلمية الدولية مع بعض التعديلات الضرورية .

ثالثاً : الافادة من منشورات المنظمة الدولية للتقييس (ISO) مع تطويعها لكي تلائم حاجة ضرورات التعريب .

رابعاً : وضع منهجية رمزية متكاملة تتماشى وهدف التعريب الشامل للعلوم .

واوضحت اللجنة خطتها بالتفصيل واعتمدت على الحروف الابجدية العربية بنقاطها مع تعديل اشكالها . فهي ، مثلا ، اتخذت حرف الباء) برسومه المختلفة كالباء العادية (ب) والمعقوفة ٮ والمقطوعة) و ٮـ والمحلقة ٮ والمجوفة ٮ والمستندة ٮ .. الخ. كما استعملت الرموز الهندسية على اشكالها وابنيتها المختلفة .

خامساً : استعمال حروف الابجدية من (أ) الى (ن) للرمز الى (الثوابت) ، والحروف من (س) الى (غ) للرمز الى (المتغيرات) الا اذا اقتضى الحال غير ذلك .

سادساً : اختيار الحروف المعقوفة لتكون بمثابة الحروف الكبيرة في اللاتينية (Capital letters)

سابعاً : اتخاذ بعض اشكال الحروف المقطوعة لتقوم مقام الرموز اليونانية في كتب الرياضيات الاوربية .

ثامناً : تخصيص مجموعات منتخبة من الحروف العربية للدلالة على الكميات الفيزيائية ، تؤخذ من اسم الاصطلاح الفيزيائي نحو (ق د ك) للدلالة على القوة الدافعة الكهربائية . اما اذا جاء مثل هذا الرمز ضمن قانون رياضي فيمكن ، عندئذ ، الاكتفاء بالرمز (ق) دفعاً لأي لبس .

تاسعاً : فيما يتعلق برموز العناصر الكيميائية ، استرشد المشروع الاردني بمجموعة الرموز المستعملة في مصر على وجه العموم . اما رموز المصطلحات الكيميائية فقد اتبع معها منهاج الكميات الفيزيائية .

لقد اطل علينا المشروع الاردني للرموز العلمية في وقت باتت فيه حركة تعريب العلوم تسير الهوينى في مجالات التدريس والبحث العلمي في العديد من الاقطار العربية . وعلى الرغم من قِدَم حركة التعريب في الوطن العربي والتي ترجع الى بدايات هذا القرن ، فمازال الدارس العربي يقرأ في المراجع العلمية والفنية بلغة عربية خلاسية ؛ جملاً عربية او مستعربة ورموزها ومعادلتها وقوانينها وارقامها واشاراتها اعجمية . ومن المألوف ان يجد في سطر واحد وفي كتاب علمي مُعَرَّب جملا عربية وانكليزية ولاتينية جنباً الى جنب ! او ان يقرأ منطوق مسألة رياضية باللغة العربية ثم يقرأ حلها باللغة الانكليزية . او ان يطلب اليه ان يميط اللثام عن اسرار مثل هذه العبارة : (B–A) هل

ان (A) تنقص عن (B) او ان (B) تنقص عن (A) خصوصاً اذا وقعت هذه العبارة بين عبارتين عربيتين وفي كتاب علمي عربي ! ؟ . ولا تقف حملة تهجير اللغة العربية الى خارج اسوار الجامعات ومعاهد البحث العلمي، بل تعدتها الى وسائل الاعلام والنشر ، فغزت جميع مرافق حياتنا تقريباً . وهذه الاذاعات الرسمية والصحف والمجلات تُعْلِمك على مدار عقارب الساعة عن (اجتماع الاوبك او الاوابك) وعن اسماء ومؤسسات دخيلة مثل : كايروفيلم وايجبكو وكومبيصل واذاعة الايف إم ودرايْ كلين وثوانكي الفايبر جلاس وصحارى تنت والرقم الكودي للسنترال ... الخ ! . كل ذلك يجده القارىء العربي في اذاعاته وصحافته وفي احاديث الناس في الشارع . اما اذا ساق القدر احدنا ليلج قاعات الدرس في بعض جامعاتنا ، فلابد ان يأسى على ما يرى ويسمع. فهذا محاضر في الرياضيات يشرح لطلاب العلم : (النورمال دستريبوشن كيرف) وآخر في علوم الطبيعة يذكر مقدار الحرارة على النحو الاتي : (هَنْدَّريد كيلو كالورى بير مول) ومحاضر الكيماء يرى ان : (الكونستريشن يساوي وان بارت بير مِلْيَن) ! .

ماذا يفهم السامع من تلك الجمل الهجينة والملوثة ؟ وهل يشق على المحاضر ان يقول في تلك الجمل وعلى التوالي : (منحني التوزيع المعياري او الجلري) و (مائة الف سعرة لكل مول) و(التركيز يساوي جزءاً واحداً في المليون) ؟ . اما اذا كان بعض المحاضرين يرغبون حقاً في افادة الدارسين بعلم وبلغة اجنبية حية معاً فعليه ان يلقي محاضراته بلغة اجنبية بليغة وفصيحة لا تشوبها شائبة وفي اطار خطة مقررة من المعهد . ان تعلّم اللغات العالمية الحية من قبلنا جميعاً امر تفرضه ضرورات الحياة العصرية بكل ما تنطوي عليه من تحديات مصيرية . وقد اصبح لزاماً على جميع طالبي العلم في الاقطار المتقدمة ان يتقنوا لغة اجنبية حية ويلموا باخرى بالاضافة الى اتقانهم لغتهم القومية . ويعتبر ذلك من المتطلبات القانونية للحصول على الشهادة الجامعية . فاين جامعاتنا من كل ذلك ؟!.

اننا لنرجو ان يكون المشروع الاردني للرموز العلمية العربية ركيزة اخرى في بناء منظومة التعريب الذي تولتها برعايتها المجامع اللغوية والعلمية العربية والمعاهد العلمية الجامعية ، وفاتحة خير للمعجم العلمي الكبير الموحد الذي نتطلع اليه جميعاً ، عسى ان لا يكون ذلك اليوم ببعيد ... !

وعلى الرغم مما جاء في المشروع المذكور من اشارات لغوية وعلمية وضيئة ، فانه لم يخلُ من الخلل في المنهج او في اللغـــة سوف اعرض له ايماءً وايجازاً ، لانني لست في مقام تقويم ما جاء فيه من رموز ومصطلحات ، وانما قصدت التوكيد على فلسفة المشروع ومنهجه مستعيناً ببعض الصور منه .

الرَمْزُ والرُمْزُ والرَمَز ، لغــة ، الايحاء والاشارة . ورمز اليه : أومأ واشـــار بالشفتين او العينين او الحاجبين او أي شيء كان . وفي التنزيل العزيز : (قال آيتُكَ ألاّ تُكلِمَ الناسَ ثلاثة أيام إلا رَمْزاً) (١) . وفي سورة مريم قال الله جل وعلا : (كهيعص . ذكرُ رحمةِ ربك عبده زكريا) وفي سورة يونس : (الر' تلك أياتُ الكتابِ الحكيم . .) وهذه رموز قصدت منها معان مخصصة تدركها القلوب قبل العقول . انه الاعجاز في مخاطبة المؤمنين بالاشارة والايماء .

واتخذ العلماء العرب المسلمون اشارات ورموزاً علمية لا يدرك كنهها العامة من الناس ، فقد اشار العالم الجليل جابر بن حيان (٢) الى الموازين واحكامها برموز من الحروف العربية حيث قال : (فمثال ذلك ان نضع حروفاً كيف وقعت فنقول — أ ب هـ خ ذ ص ك ر ز س ج م ن غ ، فمن المعلوم البين ان الالف متى رأيناها لم تخلُ من أن تكون درهما ودانقاً ... الخ) أ هـ . فعبر بذلك عن الاوزان بالحروف وفق منهج مقيد حتى لا تصل اسرار الصنعة الى غير اهلها من العلماء . وتتوخى الرموز العلمية في عصرنا الحاضر اختصار الزمن والمساحات والجهد والمال ، حيث يعبر عن الجمل العلمية المطولة ببضعة حروف ، وبذلك يدرك القارىء وبلمحة خاطفة المطلوب من من الجملة او القانون العلمي المفصل .

ولصياغة الرموز العلمية شرلوط ينبغي الاخذ بها ، اشار الى بعضهـا المشروع الاردني بينما اغفل البعض الاخر . والرمز المتقن ، لغة ومعنى ، لابد ان تراعى فيه الدقة في الايحاء الى المقصود ، والبساطة في الرسم ، واليسر في القياس والاطراد والاشتقاق ، وان يستدل به عن المرموز باقل جهد ممكن وبقرينة جلية لا لبس فيها . والواقع ، فان المشروع الاردني حقق جل تلك الشروط باستثناء بعض الهفوات اللغوية والمنهجية سـوف اعرض لامثلة منهـا حسب اهميتها كما اسلفت : —

(١) لم يكن المشروع دقيقاً وحاسماً في نطق ورسم المصطلح عند نقله من الانكليزية الى العربية . فقد جاء في (صفحة ٦٨) اصطلاح (ميلي) مقابل (Milli) . وهذا الرسم وما ينطق به بتخفيف اللام يحمل على اللبس ، اذ يظن بها (الميل) الذي لحقه ياء النسب . فالرسم الاصوب هو (مِلّي) .و قيل كذلك في تعـريب (deca) و (hecto) (دكـا و(هكتـو) من دون (ياء) ، بينما ثبتت في (mega) و (Tera) و (Peta) فقيل فيهـا : (ميغا) و (تيرا) و (بيتا) دونما خطة او منهج واضح .

وفي (الصفحة ٦٦) قيـل (مُل) مقابل (mol) والصحيح (مَوْل) لتمييزها عن (مِل) الى تقابل (ml) بمعنى (مِلّي لتر) . ورمز الى وحدة المواصلة (Siemens) (بسز) مقابل (S) ، وكان الايسر نطقاً استعمال احد اشكال الحرف (س) وهي كثيرة .

ولم يتمكن المشروع من حسم اشكالية نطق الحرف الانكليزي (G) الوارد في كلمتي (Angström) و (gram) حيث قال فيهما (انجستروم) و (غرام) ، مرة بجيم ومرة اخرى بغين (معجمة) . وتكرر مثل هذا الخلْط في مصطلحات مثـل (giga) و (Argon) ، (mega) ... الخ وفي حـروف اعجمية اخرى .

ولم تكن قضية نطق ورسم الحروف والكلمات الاعجمية تخص فئة معينة من الناس ، فقد اصبحت اشكالية عامة يتحسسها العلماء في ارجاء العالم قبل غيرهم . فالعالِم يتوخى الدقة والامانة فيما ينقله عن الثقافات الاخرى، وبخاصة اسماء الاعلام .ولقد كان العرب في الماضي يأنفون من نطق الاسماء الاعجمية بلهجة اصحابها الاعاجم . فكانوا يردونها الى الاصول العربية ، خالية من التقعر والرطن . وكثيراً ما يبتعد النطق الغربي عن اصله الاعجمي لأختلاف الاصول اللغوية بينهمـــا . فالعربي الاصـــولي مثلا يقـول في (Aristotle) ارسطو وفي (archipel) ارخبيل وفي (Elisabeth) اليصابات . ولم يكن هذا النهج في التقريب بدعاً بين العلماء العرب فحسب ، فقد جاراهم فيه العلماء الاعاجم منذ زمن بعيد في تناولهم الاعلام العربية . فهم يقولون في (ابن سينا) (Avicenne) وفي (فرات) (Euphrates) وفي (جبل طارق) (Gibraltar) وفي (جابر بن حيان) (Geber) وفي (الرازي) (Rhazes) ... الخ .

ان النطق السليم لاسماء الاعلام بصيغة اوليائها ضرورة لازمة . فهذه الجامعات والمعاهد ووسائل الاعلام المتنوعة تكتب وتنطق الاسماء الصينية او الهندية او الالمانية كما يفعل الصينيون او الهنود او الالمان بها ، لكي يحفظوا امانة النقل العلمي ، ويوثقوا اصولها ويصونوا اصالة تلك الاسماء للاجيال القادمة منعاً للتحريف والضياع . ويذكر علماء الكيمياء العرب باتقدير ما قام به العالم الكيميائي الانكليزي جـــون هولميارد في كتابه الموسوم (Alchemy) حيث اثبت فيه اسماء العلماء العرب برسم اقرب ما يكون الى نطق العرب حيث قال في جابر ابن حيان الازدي الكوفي :

(Jabin Ibn Hayyan Al-Azdi Al-Kufi)

وقال في ابي بكر محمد ابن زكريا الرازي :

(Abu Bakr Muhammad Ibn Zakariya Al-Razi)

رافضا بذلك الاسمين المسخ (Geber) و (Rhazes) . والحق ، فان صيانة الاسماء الاعجمية برسمها ونطقها الاصيلين لا يخدم اللغة المنقول عنها وحسب ، بل يخدم ايضاً اللغة المنقول اليها ونعنى بها العربية ، اذ يحميها من إغارات المُعرَّب الدخيل الذي بات يهدد الموروث العلمي العربي في ميادين العلوم والفنون العصرية وهو يندس بين طيات المصطلحات العلمية العربية بلباس مستعرب يشف عما تحته من عجمة تغريب .

ولقد لمسنا في الاعوام الاخيرة ان بعض العاملين في ميادين التعليم الجامعي راح يعمل بادوات الاشتقاق والتصريف العربية في جذورٍ لغوية لاتينية او اغريقية او اوربية حديثة مكسوعة او مسبوقة ، فخرجوا منها بافعال ومصادر واسماء آلة ، فظنوا انها باتت عربية المبنى والمعنى ... فقالوا على سبيل المثال في الفعل الاعجمي (Alkylate) (يؤلكل !) وفي مصدره (Alkylation) الكلة !) وكذلك في الفعل (Aminate) أمننة وامين !) وفي مصدره (Amination) (أمننة !) ... الخ (٣و٤) . فهل استحالت تلك المصطلحات عربية حتى بعد ليِّها ؟ . وهل نسي هؤلاء الافاضل بان مقاييس اللغة العربية وتراكيبها هي غير مقاييس وتراكيب اللاتينية او الأنكليزية ؟ فاذا كانت تلك البدع نجحت في المثالين البسيطين المذكورين فهل في وسعهم الاشتقاق العربي من (Iodination, Iodization, decarboxylation) وهي امثلة بسيطة التراكيب اذا ما قورنت بغيرها من المصطلحات الاعجمية المعقدة .

ومن البديهي ، أن تعريب المصطلحات العلمية الأجنبية ينبغي ان يسير وفق مقاييس العربية بعيداً عن الارتجال واستعجال المغانم ، واضعين نصب اعينهم بان التعريب حلال بغيض في حياة اللغة العربية . فالمصطلحات المعربة ينبغي ان تبقى في الاسماء الاجنبية الجامدة حصراً لكي تبقى خارج اسوار العربية دونما تصريف او اشتقاق . فاذا دعت ضرورات التعريب الى استخراج افعال او مصادر عربية منها فامر ذلك يسير ، أذ يجوز ان يلحق الاسم الاجنبي

الجامد بفعل او مصدر عربي فيتحول الى فعل او مصدر زاخر بالحركة والمرونة كأن نقول في الامثلة السابقة : فاعَلَ ألالكيل مقابل (to alkylate) ، وفعِلُ او فعَالُ او تفاعُلُ الألكيل مقابل (alkylation) ويُفاعَلُ بالالكيل مقابل (to be alkylatetd) ، حيث عبرنا عن اللاحقة الفعلية (ate —) بفعل (فاعَلَ) ، وعن اللاحقة المصدرية (ation -) بالمصادر (فِعلٌ او فعّالٌ او تَفَاعلٌ) . كما عبرنا عن صيغة المبنى للمجهول (to be .... ated) بصيغة المبنى للمجهول (يفُاعَلُ بـ ...) . وهناك الكثير من الوسائل العربية المماثلة لا مجال لذكرها في هذا المقام .

وينبغي ان يرسم المصطلح الاجنبي عند نقله الى العربية بالدقة التي تساعدنا على نطقه كما ينطق باللغة الام ، وبذلك نكون قد حافظنا على اصالة رسمه من ناحية، وعلى ابقائه خارج مفردات وتصاريف العربية من ناحية ثانية .

ومن المعروف ان العربي يتفوق على غيره بمقدرته على نطق الحروف والاصوات كافة بالرغم من خلو العربية من بعضها بالرسم،الا انها جاضرة بالنطق. فرسم الكلمات الاعجمية باصواتها الاصيلة يتطلب اجازة من المجامع العربية باستعمال بعض الحروف الاعجمية بقيود وحدود ، او في استعارة بعض اللهجات العربية الشائعة مثل (الجيم) المصرية او السودانية التي تنطق (گيماً) او (الباء) العراقية المفخمة والتي تكتب (پاء) مثلثة . ولابد من التنبيه هنا بان استخدام حروف اضافية ينبغي ان يقتصر على لغة العلوم والفنون العصرية،وعلى هذا الاساس يمكننا ، عندئذ ، ان نقول في (Argon) (ارگون) وفي (Amgström) (انگشتروم)وفي (gram) (گرام) وهكذا على هذا المنوال .

(٢) لعل من ابرز هفوات المشروع الاردني انه تجاهل المنهج الذي اختطه في صياغة الرموز . فكثير من رموزه العلمية تفتقر الى المنهجية والقياس

بحيث يتعذر على المرء ان يجد قرينة بنائية أو معنوية بين الرمز واصله . والظاهر ان احد اسباب ذلك يعود الى قيام لجنة المشروع بنقل بعض الرموز الأنكليزية التي تفتقر هي الاخرى الى منهج واضح الى اللغة العربية . وسوف اناقش فيما يأتي بعض العينات من رموز المشروع الاردني للتنبيه على غياب المنهج والقياس اللذين نعتبرهما الركيزة والاساس لبناء المصطلح العلمي العربي الجديد .: —

— ذكر المشروع في الصفحة (٣٠) بعض الرموز بحروف موصولة نحو (مج) والبعض الآخر بحروف مفصولة نحو (م ج) على غير سنة واضحة . وارى ان تكتب جميع الرموز والاشارات بحروف مفصولة مثل (م ج او مـ ج) لتمييزها عن الكلمات التامة المعنى ومنعاً لاي لبس . مثال ذلك ان ايراد رمز (مج) في سياق الكلام قد يختلط بكلمة (مَجَّ) بمعنى لفظ ، فيلتبس الامر على القارىء .

— ان نقل بعض الرموز من اللغة الانكليزية الى العربية حرفاً بحروف بقدر المستطاع هو منهج قياسي سليم اذا ما اختصت تلك الرموز باسماء الاعيان او الرموز الدُولية واشباهها . الا ان المشروع شذ عن المنهج المعلن . فقد رمز الى عدد النيوترونات بالحرف(ن) مقابل (N) ، بينما رمزنا الى عدد البروتونات (اي العدد الذري) بالحرف (ذ) مقابل (Z) . فلو قال (ز) لقلنا انه ينقل حرفاً بحرف ، ولو قال (ب) لقلنا انه اخذ الحرف الاول من كلمة بروتون كما اخذ الحرف الاول من كلمة نيوترون ، الا ان المشروع قفز بعيداً فأخذ الحرف الاول من الكلمة الثانية وهي (ذري) . فكيف يتمكن القارىء الكريم من رد (ذ) الى (Z) بالمقياس الذي يرد فيه (ن) الى (N) اذاما اراد الترجمة من العربية الى اللغة الاجنبية ؟ . ولا اخالني بعيداً عن الصواب اذا ما قلت بان

(N) اخذت من الكلمة الانكليزية (mumber) وليست من (Neutron) ، وان (Z) مأخوذة من الكلمة الالمانية (Zahl) بمعنى عدد كما في العبارة (atom Zahl) أي العدد الذري . فيكون عندئذ امام المشروع منهجان: الاول منهج تعريب يبقى على صلة رمزية بالمصطلح العالمي وهو ان يقال في الاول (ن) مقابل (N) وفي الثاني(ز) مقابل (Z) .

والثاني منهج ترجمة حيث نقول في الاول (ع او عن) ترجمة لمعنى (N) ورمزاً لعدد النيوترونات او العدد النيوتروني كما يسمى غالباً ، ونقول في الثاني (ع او ع َاو عذ) ترجمة لمعنى (Z) ورمزاً للعدد الذري، وان كنا نفضل الرموز المؤشرة لدقتها مثل (عن و عذ) . وايا كان اختيار الاسلوب، فانه ينبغي على المشروع ايضاح المنهج والالتصاق به ليكون انتقال الدارس بين الرموز العربية والاجنبية مريحاً وميسوراً ، وهو هدف رئيس من اهداف تعريب العلوم .

ووقع المشروع الاردني في هفوات مماثلة حين رمز الى (ثابت رد بيركث) بالحرف (ر) مقابل (Ro) والصحيح (ره او رْ) لان لعلامة السكون اهمية رمزية معروفة .

في الصفحة (١٠٥) اشير الى (وحدة الكتلة الذرية) بالحرف (و) مقابل (Mu) الذي تم اشتقاقه من (Mass) بمعنى كتلة ومن (unit) بمعنى وحدة . ويأتي الحرف (u) اصغر من الحرف (m) وتحت مستواه كمؤشر ودليل (index) مشيراً الى اهمية وخصوصية (الكتلة) في الرمز ، على خلاف ما جاء بالرمز العربي الذي جعل كلمة (وحدة) هي اساس الرمز . وعليه يكون الرمز السليم هو (وك‍ذ او وكذ) اذا ما جاء الرمز في سياق العبارة ، او ان نقول (وك او كو) ، أيْ (بواو صغيرة بمثابة المؤشر او الدليل و (كاف) كبيرة ومتميزة بالشكل اذا ما جاء الرمز ضمن علاقة رياضية او بيانية .

– رمز المشروع الى الشـدة الايونية (او القوة الايونية) (Ionic Strength) بالحرف (ي) مقابل (I) ، أي حرفاً بحرف، علماً بانه ليس بمصطلح عالمي ، ولم يقل فيه (ش أ او ش أ) ، بشين والف متساويين او بشين صغيرة جداً كمؤشر والف كبيرة . ويجوز الرمز بحرف الشين المميز فقط كأن نقول (شَ او شء ... الخ) ، وان كنا نفضل استعمال الحروف الصغيرة المؤشرة لكونها ادعى الى الفهم والادراك كما قلنا . واستمر المشروع على هذا المنوال غير المنهجي في الصفحة (١١٨) اذ قال في (درجة التفكك)

(د) مقابل(α) بأخذ الحرف الاول من كلمة غير اساسية وهي (الدرجة) ولم ينقل حرفاً بحرف ليقول (أ) مثلاً . وكان عليه ان يقول (دف) او فـد . الـخ) اي بفـاء كبيـرة متميـزة ودال صغيـرة . علمـاً بـأن حرف (الفاء) اصيل في فِعّل (فَكّ) وعليه دخل الرمز . وقال ايضاً في (الموصلية الكهربائية التحليلية) (r) مقابل (K·Q !) ولم يقل (ولـح) ولـح او ولـحـ او وَ ...) علماً بان حرف الميم في كلمة (موصلية) غير اصيل على عكس (الواو) في فعل (وَصَلَ) .

وعبر عن (العدد الكمي الزاوي) بالحرف (ز) مقابل (I) حيث اخذ حرفاً واحداً من عبارة فيها ثلاث كلمات ومن كلمة ثانوية في المصطلح تفيد معنى الوصف . وكان عليه ان يقـول مثلا (ع ك ز) . او ينقله الى العربية حرفاً بحرف لشيوعه فيقول (ل) . ولابد ان نشير هنـا الى ان هـذا التحليل الرمزي ينطبق ايضاً على مصطلح (العدد الكمي المغزلي) (غ) والذي يقابل (I) .

– اشير في الصفحة (١٠٥) الى الالكترون (ويسمى احيـانا كهيرب) بالحرف (د) تارة وبالحرف (عـ) وربمـا كان ذلك من غلط الطباعة .

– جعل المشروع في الصفحة (١٠٦) رمز (كتلة النيوترون الساكن) (كـك) مقابل (Mm) المأخوذ من (Neutron mass) ولا نعلم السنة التي اتبعها

في اختراع هذا الرمز ، وكان عليه ان يقول وبيسر ك نْ على قياس ع ن اي العدد النيوتروني .

– ذكر المشروع في الصفحات (٧٦ – ٩٦) رموزاً كثيرة نذكر منها : –

(١) المساحة السطحية	(م)	Surface Area SA
(٢) التسارع	(ت)	accelaration a
(٣) الزخم الزاوي	(ز)	angular Momentum L
(٤) اللزوجة الحركية	(زح)	Dynamic Viscosity 3,u
(٥) معدل جريان الكتلة	(ك)	mass Flow Rate qm
(٦) معدل جريان الحجم	حم	Volume Flow Rate qu
(٧) معدل جريان الحرارة	حي	Heat Flow Rate qh

فاذا ما نظر المرء بامعان الى الامثلة السابقة والتي اختيرت عشوائيا يلاحظ ان المصطلح في المثال (١) مؤلف من كلمتين ورمز اليه بالحرف الاول من الكلمة الاولى . وفي المثال (٢) اخذ الرمز من اول حرف من الكلمة وهو غير اصيل . والمثال (٣) مؤلف من كلمتين ولكن رمز اليه بحرف واحد . ويتألف المثال (٤) من كلمتين ورمز اليه بالحرف الثاني من الكلمة الاولى وبالحرف الاول من الكلمة الثانية . وتتكون الامثلة من (٥ – ٧) من ثلاث كلمات ورمز الى المصطلح فيها بالحرف الاول من الكلمة الثالثة . .

وتؤكد الامثلة السابقة غياب المنهج او ضعفه في الاقل .اذ كيف يتمكن الدارس العربي ادراك الوشيجة التي تربط الرمز بالمصطلح مما يخفف عنه وصب استظهار تلك الرموز السائبة بعد حفظها عن ظهر قلب ؟

ولابد من الاشارة في هذا الصدد الى ان الكثير من الرموز الاجنبية تخلو من اية منهجية مما يتعذر معها القياس .

ان اتخاذ منهج قياسي واضح لاشتقاق الرموز العلمية ، ورسمها ومنها الامثلة السبعة السابقة ليس بالامر المتعذر . فالمصطلح المؤلف من كلمة عربية واحدة يمكن ان يرمز اليه بالحرف الاول فيها اذا كان اسماً جامداً كأسماء الاعيان من حيوان ونبات وجماد ، او يؤخذ الحرف الاول من الفعل الثلاثي المجرد بعد ان يرد اليه المصطلح سواء كان اسماً او مصدراً او فعلاً مزيداً وذلك على منهج القواميس العربية . فاذا ما تشابه رمزان او اكثر بالرسم تؤخذ صور الحروف العربية وحركاتها للتمييز بينها . ويجوز كذلك اتخاذ حرف غير الحرف الاول من الكلمة اذا كان صوته غير واضح على ان يشار الى ذلك في المنهج . اما المصطلحات المركبة من عدد من الكلمات ، فيفضل اخذ الحرف الاول من كل كلمة اصيلة فيها مع التأكيد على الكلمة الرئيسة في المصطلح حيث يشار اليها (بالحرف الرمز) اذا صح التعبير ، وهو حرف متميز يرسم بمقياس كبير نسبياً . اما الكلمات الثانوية كالصفات والمضافات وغيرها من الكلمات التي يحددها المنهج الرمزي فيشار اليها بالحروف الصغيرة المتميزة باعتبارها أدلة ومؤشرات للرمز ، كان نقول على سبيل التمثيل ضن^ع او عضن في (معامل الضغط النسبي) . ويجوز كذلك ان يرمز الى المصطلح المركب بالحرف الاول الاصيل من الكلمة الرئيسة فيه او الكلمة الاولى اياً كانت ورسمه بشكل متميز حيث نقول في المثال المذكور (ض او ض او ضَ اوضُ او ع او عَ ... الخ) . وينبغي ان اشير بهذا الصدد الى ان اخذ الحرف الاول الاصيل من كل كلمة وبمقياس واحد اقرب الى الفهم مثال ذلك (ع ض ن) وبخاصة عند ايراد الرمز في سياق العبارات . اما الرموز العلمية الدولية فيفضل ان تنقل حرفاً بحرف بقدر المستطاع . اما اذا تعذر أيجاد حرف عربي مقابل فيجوز عندئذ نقل اللفظ الاجنبي بحروف عربية كالقول في (π و ψ و θ (باي وسيكماوثيان) .

ووفق تلك الاشارات المنهجية والقياسية البسيطة تصبح الامثلة السبعة السابقة على النحو الاتي : —

(١) المساحة السطحية (مس)
(٢) التسارع (س ، سَ)
(٣) الزخم الزاوي (ز ز ، زْ)
(٤) اللزولجة الحركية (ل هـ ، لهـ)
(٥) معدل جريان الكتلة (ع ج ك ، جعك)
(٦) معدل جريان الحجم (ع ج ح ، جعح)
(٧) معدل جريان الحرارة (ع ج ة ، جعة)

ويجوز في المثال السابع ان يرمز الى الحرارة بالحرف (ر) اذا ما التبس مع (حاء) الحجم .

واود ان اشير الى ان استعمال الحروف الكبيرة والحروف الصغيرة ذوات الصور والرسوم البسيطة له مزايا كثيرة من بينها سهولة الطباعة اليدولية والآلية وكذلك سرعة استيّعاب الرمز ومعناه من حرفه الرئيس الكبير بمجرد النظر اليه واخيرا سهولة ادخال الرمز في المعادلات الرياضية وتوفير المساحة .

(٣) في الصفحة (١١٦) عرّب المشروع مصطلح (molarity) (بالمولالية) وهو اجتهاد غير موفق لانه يقابل (molality) والصواب هو (المولية) او (المولارية) تعريباً و (الجزيئي) ترجمة .

(٤) سلك المشروع الاردني سبيل النحت المزجي لبعض المصطلحات المركبة . فقال ربعقطبي) لعبارة (ربع قطبي) . وهذا المنهج حوشي وثقيل يأباه الذوق السليم ، ويفضل الابقاء على صيغته الاصيلة . اما اذا اريد لمثل هذا المصطلح المركب ان يدخل في سياق النسب فقد سلكت العرب سبلاً متعددة ويسيرة ، منها ان يحذف العجز وينسب الى الصدر فنقول (رُبْعيّ) على غرار

(بعلي) في النسبة الى بعلبك . او ان ينسب الى المركب برمته اي بصدره وعجزه فنقول (رُبعىّ قطبي) علىقياس (اَحَديٌّ عَشْريٌّ) اذا ما نسب الى (اَحَد عَشَر) (٥) . وتجدر الاشارة الى ان النسبة الى الاعلام المركبة برمتها ادعى الى الدقة في مجالات العلوم والفنون . لان حذف الصدر او العجز لابد وان يفسد المعنى ويخل ببنية المصطلح العلمي .

(٥) استعمل المشروع في بناء رموزه الاشكال الهندسية الدولية وحروف الابجدية العربيّة باعجامها ورسومها المختلفة. ومما لاشك فيه ان استعمال الحروف باشكالها يضاعف من فرص التعبير عن المصطلحات العلمية . والملاحظ ان من بين المشاركين في اعداد تلك الرموز من تحفظ على استعمال جميع الاشكال والصور من حروف الابجدية العربية . وربما كانوا على حق لاسباب كثيرة منها تعذر الحصول على تلك الاشكال في المطابع العادية . والواقع ، ان اختيار الحروف باشكالها المختلفة يقرره عاملان اساسيان هما : —

(أ) عدد المصطلحات العلمية المطلوبة للتعريب في الوقت الحاضر وفي المستقبل المنظور .

(ب) تنوع الاساليب المتبعة في بناء الرموز .

ومن المعروف ، ان عدد المصطلحات العلمية قيد الاستعمال كبير وهو آخذ بالازدياد مع تقدم العلوم. فيحين ان عدد حروف الابجدية العربية لا يزيد عن ثمانية وعشرين حرفا . وهي بأشكالها ورسومها المحددة لا تعبر إلا عن عدة مئات من المصطلحات وبخاصة اذا استعملت منفردة . اما اذا استخدمت مثناة ومثلثة وهي برسومهـــا البسيطة فبأمكانها ان تعبر عن الآلاف من تلك المصطلحات .

ومما يواخذ عليه المشروع التوسع في ادخال صور حرفية غير مألوفة كالحروف المجوفة والمستندة ومثيلاتها والتي يتعذر رسمها وكتابتها من قبل المدرسين والدارسين

في قاعات الدرس . وارى الاكتفاء بالبسيط والمأنوس من صور الحروف ورفع كفاياتها في التعبير الرمزي باستعمال الاعجام والحركات المتوفرة في المطابع الاعتيادية .

كما توسع المشروع في استعمال الرسوم الهندسية غير المألوفة في حالات كان يمكن فيها استعمال الحرف العربي البسيط للدلالة الرمزية . ففي الصفحة (١٠٥) رمز الى فائض الكتلة بالشكل ⊕△ والى نقص الكتلة بالشكل ⊖△ والى نقص الكتلة النسبي بالشكل △ن٢ . وكان عليه ان يقول فيها وبكل يسر : (ف ك او ك + او فَ ...) و (نك او ك – او نَ ...) و ك/ن او ن / ك او كَ – ...) .

وكان ينبغي ان لا يتقيد المشروع بالنقل الآلي للرموز من اللغات الاجنبية إلا لضرورة ، على ان يتصرف وفق مطاوعة آلات الطبع كأن نقول في فائض الكتلة (+ △) أو (△ +) وفي نقص الكتلة (– △ أو (△ –) .

اما الحروف الاجنبية والاشكال الهندسية ذات الدلالة الرمزية الدولية فأرى الاحتفاظ بها لذيوعها بين العلماء العرب والاجانب .

(٦) تناول المشروع الاردني وبأسهاب تعريب رموز العناصر الكيميائية . فلقد اشار في الصفحة (١١٤) الى ان اللجنة العلمية الاردنية اخذت معظم الرموز الكيميائية المصرية تقريباً . وسبق للقطر المصري ان استعمل الرموز العربية على نطاق واسع في التعليم العام بينما احتفظ بالرموز الانكليزية في التعليم الجامعي .

وعلى الرغم من صمود الرموز المصرية واحتمال انتقالها الى الاقطار العربية الاخرى فان بعض المثالب كان على المشروع الاردني تجنبها نذكر منها : —

(١) افتقارها ، هي الاخرى ، الى منهج قياسي موحد في البناء والاشتقاق .
(٢) اعتمادها على الاسماء الانكليزية كأساس لتسمية بعض العناصر .

(٣) مخالفتها لقرارات الاتحاد الدولي للكيمياء الصرفة والتطبيقية (IUPAC) .

وتتألف الرموز المصرية والاردنية للعناصر من حرف او حرفين واحياناً ثلاثة حروف متصلة . ولا يشترط في النظامين ان يكون الحرف الاول من الرمز هو الحرف الاول من اسم العنصر وهو ما يميز النظام الدولي . ولقد تجنب النظامان كذلك استعمال حرف (الا لف) المزدوج مع حرف ثان . مثال ذلك انه اشير الى عنصـــر الالمنيوم (Aluminum) بالرمـــز المصري (لو) وبالرمز الاردني (لم) مقابل (Al) والغاية من ذلك الحصول على رمز متصل الحروف لتسهيل كتابته على ما نظن .

واستمر المشروع الاردني على هذا المنوال في اغلب الرموز . فقد انتزع المشروع المصري الحرفين الثاني والثالث من الاسم الانكليزي والحرفين الثاني والسادس من الاسم العربي ، بينما انتزع المشروع الاردني الحرفين الثاني والرابع والثاني والثالث على التسلسل . وكلاهما خالف المنهج الدولي الذي يأخذ الحرف الاول من الاسم لوحده او مع حرف آخر بارز . وفيما يلي يجد القارىء الكريم عينة من الرموز الاردنية والمصرية والدولية لغاية المقارنة : —

اسم العنصر	الرمز المصري	الرمز الاردني	الرمز الدولي
اوسميوم	مز	سم	Os
إريديوم	مد	يد	Ir
رادون	نر	نر	Rn
بولونيوم	بلن	بن	Po
روديوم	هر	يم	Rh
أركون	جو	غو	A
أكسجين	أ	أ	O

ومن النظر الملي الى تلك الرموز يلمس المرء افتقار الرموز العربية الى ابسط القواعد الرمزية التي تساعد الدارس العربي على ادراكها، على خلاف الرموز الدولية التي اعتمدت على الحرف الاول كأساس للرمز . فاين هي الصلة التركيبية او اللفظية او المعنوية بين(الروديوم) و (الهر) او (ليم) ،او بين (الاريديو) و (المد) او (اليد) او بين الاركون و (الجو) او(الغو) او بين (الرادون)و و (النر) ! ؟

لقـد عمل المشروعان كلاهما الفكر لكي يحصلا على رموز متصلة الحروف على حساب التضحية بكل الخصائص والشروط التي ينطوي عليها الرمز الناجح المتقن والمتوافق مع القواعد الدولية .

ولسنا نعلم الضرر الذي قد ينجم عن استعمال رموز صادقة ومفصولة الحروف ، على ان يكون الحرف الاول كبيراً ومتميزاً والاخر صغيراً ومتميزاً ايضاً على نسق الرموز الدولية حيث نقول في بعض العناصر : —

اسم العنصر	رمزه الدولي	الرمز المقترح
اوسميوم	Os	وس ، وس ، وس
إريديوم	Ir	ار ، ار ، ار
رادون	Rn	رن ، رن ، رن
بولونيوم	Po	بو ، بو ، بو
روديوم	Rh	ره ، ره ، ره
ارگون	A	ار ، ار ، ار ، ار ، ار ، ار
المنيوم	Al	ال ، ال
اوكسجين	O	و ، و ، او ، او
تنگستن (ولفرام)	W	وو ، وو ، وو ، وو
أنتموان (إثمد)	Sb	سب ، سب ، سب
بوتاسيوم (قلي)	K	ق ، ق ، ك ، ك
خارصين	Zn	زن ، زن ، زن
راديوم	Ra	را ، را ، را
زرنيخ	As	اس ، اس ، اس

ان كلا المشروعين الاردني والمصري سوف يحملان الدارس العربي على ايجاد اداة او علامة لاستذكار الرموز العربية التي لا يجمعها باسماء العناصر شاهد او قرينة . وليست هذه الظاهرة جديدة على المحاضرين . فقد لوحظ ان الطلاب وفي مختلف المراحل الدراسية ، سرعان ما ينسون الارقام المجردة والرموز والاسماء المبعثرة التي لاتكون ضمن نسيج علمي متماسك ، بينما نراهم يقبلون على حفظ وادراك الارقام او الاعداد المعنوية برغبة وشوق . فهل هنالك من يشك في تعذر ادراك الصلة الرمزية بين(هر) او (يم) وبين (روديوم) ؟ . او ليس من اليسير على اي دارس ادراك ان (رهـ) هو رمز (للروديوم) ليقابل الرمز الدولي (Rh) ؟

لقد اقر الاتحاد الدولي للكيمياء الصرفة والتطبيقية نظاماً لتسمية العناصر الكيميائية ووضع رموزها . وتبنت جميع الدول المتقدمة تلك التسميات والرموز ، فعبرت عنها بابجديتها الخاصة . اما اسماء العناصر ، فقد انقسم الرأى بشأنها . فمعظم الاقطار المتقدمة تقريبا مازال تستعمل الاسماء القومية الدارجة للعناصر في الحياة اليومية ، واقتصرت الاسماء الدولية على النشر العلمي المتخصص في المجلات الدولية .

ومن المفيد ان نشير ولو بلمحة سريعة الى اصول الاسماء الدولية للعناصر الكيميائية . فقد انحدرت معظم الاسماء القديمة من اصول عربية ولاتينية واغريقية قديمة،ومن لغات اوربية حديثة . وطغت الاسماء الانكليزية على العناصر التي اكتشفت حديثاً .

وتم اشتقاق الرموز بأخذ الحرف الاول لاسم العنصر الدولي . منفرداً ، او من الحرف الاول وحرف آخر متميز ، على ان يكتب الحرف الاول بمقياس كبير (capital letter) والحرف الثاني صغيراً . وبذلك توحدت رموز العناصر على مستوى الاقطار المتقدمة في حين اختلفت اسماؤها كما يبدو ذلك في الجدول الاتي : —

مشروع مجمع اللغة العربية الاردني للرموز العلمية العربية

اسم العنصر — بالعربية	بالانكليزية	بالفرنسية	بالالمانية	باللاتينية	رمزه الدولي	رمزه العربي المقترح
نتروجين	Nitrogen	Azote	Stickstoff	—	N	ن ، ن
اوكسجين	Oxygen	Oxygene	Sauerstoff	—	O	و ، هو ، أو
زئبق	mercary	mercure	Quecksilber	Hydragyrum	Hg	هـ ، هج
قلي (بوتاسيوم)	Potassium	Potassium	Kalium	Kalium	K	ق ، ق ، ك
شذام (صوديوم)	Sodium	Sodium	Natrium	Natrium	Na	ن ، م ، ن ، م
فضة	Silver	Argent	Silber	Argentum	Ag	أ ، أج ، ج
رصاص	Lead	Plomb	Blei	Plumbum	Pb	ب ، ب ، ب
حديد	Iron	Fer	Eisen	Ferrum	Fe	ف ، ي ، ح ، ي

والخلاصة ، فانه ينبغي على كافة المراجع العلمية الرسمية مراجعة انظمة ومناهج الرموز العلمية وفي رأسها رموز العناصر الكيميائية ، والاتفاق على منهج عربي موحد يأخذ بالاعتبار الاسس العلمية التي نوهت بها سابقاً الخصُّ اهمها فيما يأتي : —

(أ) الاحتفاظ بالاسماء العربية للعناصر في مجال التعليم العام وفي الميادين الثقافية والصناعية والفنية وحصر استعمال الاسماء الدولية في النشر العلمي المتخصص في الدوريات الدُولية .

(ب) اعتماد الاسماء الدولية التي اشتقت منها رموز العناصر والتخلي عن عن الاسماء الاوربية التي مازالت منتشرة في الاقطار العربية ، حيث كانت ومازال سبباً للفرقة العلمية بين العلماء العرب .

(ج) تعريب الرموز الدولية للعناصر حرفاً بحرف بقدر المستطاع . فاذا تعذر ذلك فبأتخاذ حروف مقاربة للحروف الدولية .

(د) يفضل استعمال الحرف الاول من الرمز بمقياس كبير والحرف الثاني بمقياس صغير على نسق الرموز الدولية ، على ان تبقى الحروف مفصولة عن بعضها بهدف تمييزها عن الكلمات والمصطلحات الاخرى .

(هـ) اعتماد رقارات الاتحاد الدولي للكيمياء الصرفة والطبيقية في تسمية العناصر والمركبات الكيميائية .

ان كتابة رموز العناصر بالصورة التي ابنتها قد تبدو للقارىء وللوهلة الاولى اكثر تعقيداً من الرموز المصرية او الاردنية . والواقع ان العكس هو الصحيح ، بدليل ان الرموز والمعادلات الكيميائية تكتب بحروف مفصولة في مُعظم اللغات العالمية . ومازال الطالب الجامعي العربي يتمثلها ويحفظها بلا صعوبات تذكر وان كانت بابجدية اوربية ، فكيف لو قدمت له بأبجدية عربية سليمة وواضحة .

ويتميز المنهج الذي اشرنا اليه بكونه يمهد السبيل امام الدارس العربي للانتقال الهين بين اللغة العربية واللغة الاوربية اثناء عملية الترجمة او اثناء التزود بالمعارف الكيميائية الجديدة من المراجع العالمية وبخاصة ما يتعلق منها بالصيغ الرمزية المعقدة للمركبات الكيميائية والتي بات عددها يتجاوز بضعة ملايين . ويمكن للقارىء الكريم ان يلمس الصلة الرمزية بين الرموز والصيغ الكيميائية العربية المقترحة من قبل المشروع الاردني ومن قبلنا وبين الرموز الدولية فيما يلي من نماذج : —

الرمز الاردني	الرمز المقترح	الرمز الدولي
صو٣ فو أ٤	ن١٣ ب و٤	Na_3PO_4
لو٢ (كب أ٤)٣	أل٢ (س و٤)٣	$Al_2(SO_4)_3$
مغ كل٢	م١ ك ل٢	$MgCl_2$
كا (ن أ٣)٢	ك١ (ن و٣)٢	$Ca(NO_3)_2$
ح كل٣	فـ يـ ك ذ٣	$FeCl_3$
صو٢ ك أ٣	ن١٢ ك و٣	Na_2CO_3
ضا أ	ب بـ و	PbO
بو٤ [ح (ك ن)٦]	ق٤ [فـ يـ (ك ن)٦]	$K_4[Fe(CN)_6]$

اوك٤]فـ يـ (ك ن)٦ [

وبنظرة خاطفة الى النماذج الثلاثة من الرموز يتضح ان الرمز العربي المقترح اقرب الى الرمز الدولي من الصيغة الاردنية وايسر ادراكاً وحفظاً من قبل الطلبة العرب لعلاقته الدلالية بالمصطلح الدولي .

وقبل الخاتمة ، نكرر اعتزازنا وتثميننا للجهود الخيرة التي قدمها ومايزال مجمع اللغة العربية في الاردن الشقيق الى العلماء العرب ، ومرحى لاولئك العلماء الذين قدموا لنا هذه النخبة العربية الاصيلة من الرموز العلمية ، ونأمل منهم في المستقبل ان يستدركوا ما فاتهم منها مستعينين بوسائل عصرية تعينهم على مضاعفة انتاجهم الرمزي والاصطلاحي وإحكام لغته العربية كالحاسب الآلي . واستنفار قدراته الواسعة في سبر قدرات الابجدية العربية وتقلبات حروفها ومعانيها، وتنضيدها وخزنها واستعادتها ، وبذا نتجنب الاخلاط التي صارت اليها الرموز العلمية الاجنبية بسبب تراكمها العشوائي على مر الزمن . والسلام ..

المــراجع

(١) مجمع اللغة العربية في القاهرة – المعجم الوسيط – ج ١ ، ص ٣٧٣ .

(٢) بول كراوس ، مختار رسائل جابر ، ص ١٦٧ ، ١٣٥٤ هـ .

(٣) مجلة المجمع العلمي العراقي ، ج ٢٩ ، ص ٢٣١ ، ١٩٧٨ م .

(٤) المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم ، معجم الكيمياء ، ص ٢٠٠ ، ١٩٧٧م

(٥) ابن سيدة ، المخصص ، ج ١٣ ، ص ٢٤٣ .

غَايَةُ المُرَادْ

فِي مَعْرِفَةِ إخْرَاجِ الضَّادْ

تأليف

شمس الدين بن النجار

المتوفى سنة ٨٧٠ هـ

تحقيق

الدكتور طه محسن

كلية الآداب ــ جامعة بغداد

المقــدمة

— ١ —

مما لاشك فيه أن أكثر الدراسات في العلوم العربية الاسلامية قامت أول ماقامت خدمة للقرآن الكريم ، ومقترنة به . يصح هذا القول على العلوم اللغوية والشرعية . كما ينطبق على غيرها من العلوم . ولكن الدراسات الانسانية منه أقرب .

وقد ترك لنا الباحثون في العصور المختلفة مصنفات كثيرة في هذا الجانب تعيي أي جهد فردي أن يستوعبها على وجه الحصر والاحصاء ، لأن هذه الدراسات توسعت منذ نشأتها ولحد الآن ، وتشعبت اطرافها وتعددت الموضوعات التي تدخل في نطاقها ، وتوزعت مخطوطاتها في مكتبات الخافقين .

ومن الموضوعات القرآنية التي استأثرت بالبحث والدرس موضوع (الحروف) بأنواعها المختلفة . إذ تصدى العلماء لدراستها من الوجهة اللغوية ، والدلالة النحوية ، وبيان ما يترتب أحيانا على ذلك من أحكام شرعية ، واستنباطات فقهية .

وكان لحرفي (الضاد والظاء) نصيب من هذه البحوث التي سلك المؤلفون فيها اتجاهين :

الأول : معجمي لغوي ، يقوم على استقراء الألفاظ الضادية والظائية في الذكر الحكيم ، وتفسير معانيها ، أو الاكتفاء بتعيين نوع واحد منها . وغالبا ما يكون « الظاء » تمييزا له من « الضاد » .

ووصل الينا من هذا النوع مصنفات عدة منها :

- الظاءات في القرآن الكريم ، لأبي عمرو الداني (ت ٤٤٤ هـ) (١) .
- وشرح ظاءات القرآن ، لاسماعيل بن أحمد التجيبي (ت ٤٤٥ هـ) (٢) .
- وشرح منظومة الظاءات القرآنية ، لعلم الدين السخاوي (ت ٦٤٣ هـ) (٣) .

والاتجاه الثاني : صوتي ، يبحث في نطق الحرفين ، وبيان مخرجيهما ، وصفاتهما ، وتجويد أداء ألفاظهما عند التلاوة ، والتأكيد في مصنفات هذا النوع يكون في الغالب على حرف « الضاد » الذي يعسر على الكثير ين أداؤه على الوجه الصحيح . ويأتي في خلال هذه المباحث التنبيه على ما يلتبس به من الأحرف ، واشهرها الظاء .

وللعلماء في هذا الجانب جملة مصنفات . وممن ألف فيه قبل ابن النجار :

- أبو عمرو الداني . له : الفرق بين الضاد والظاء (٤) .
- وعيسى بن عبدالعزيز اللخمي الاسكندري (ت ٦٢٩ هـ) . له : المراد في كيفية النطق بالضاد (٥) .

---

(١) طبع في الرياض عام ١٩٨٥ م بتحقيق الدكتور علي حسين البواب .

(٢) مخطوط في خزانة المدرسة العليا للغة العربية برباط الفتح ضمن مجموع رقمه ٧/٥٤٠. (ينظر : أسماء الكتب المحفوظة في خزانة المدرسة العليا ص ٢٧٣) .

(٣) مخطوط في مكتبة عارف حكمت في المدينة المنورة برقم ٣٩ علوم القرآن - مجاميع . (ينظر : كتب الضاد والظاء عند الدارسين العرب ، للدكتور محمد جبار المعيبد ص ٦٠١).

(٤) مخطوط في خزانة علال الفاسي بالرباط (المغرب) برقم ٦٧٤ مجموع . (أخبرني عنه الدكتور الفاضل عبد العلي الودغيري من المغرب) .

(٥) ذكره السيوطي في بغية الوعاة ٣٦/٢ ، والبغدادي في هدية العارفين ٨٠٨/١ ..

- وعلي بن محسن الصعيدي الأزهري (ت ٧٣٦ هـ) . له : فتوى في مسألة الضاد (٦) .

ثم تلاهم شمس الدين بن النجار الذي رأى الناس في عصره لا يحسنون إخراج الضاد من موضعه الصحيح . فالزيالع ، وهم جيل من السودان المسلمين في طرف ارض الحبشة ، يخرجونها كاللام المفخمة . وأكثر الشاميين وبعض أهل المشرق ، يخرجونها ظاء معجمة .. وأكثر المصريين وبعض أهل المغرب ، يخرجونها ممزوجة بالدال ، او بالطاء المهملة ، فيصير لفظها إذا تحقق في السمع قريباً من لفظ الدّال والطّاء .

وهذا لا يجوز لمن يتلو كتاب الله تعالى لمخالفة المعنى المقصـــود من الآيات أحياناً . فمن يقرأ قوله تعالى : (ولا الضّالّين) (٧) بالظّاء القائمة ، فانه يصيّر المعنى : الدائمين ، في حين أنّ المقصود هو من « الضلال » الذي هو ضد الهدى ، وهكذا .

ولذا كتب في الضاد « ليعلم بذلك التالي لكتاب الله تعالى والمجود له معرفة التلفظ بهذا الحرف الصعب الذي قد اعيا كثيراً من الناس إخراجه »(٨) .

سجل المؤلف في الصفحات الأولى من الرسالة الظواهر الصوتية المخالفة للنطق الصحيح لحرف الضاد في عصره،وحلل اسبابها ، وردّ علىمرتكبيها ، مؤيداً كلامه بالشواهد والأدلة من كلام العلماء .

ثم انتقل الى موضوع الرسالة وهو (معرفة التلفظ بهذا الحرف الصعب) ، وحصره في مسألتين :

---

(٦) مخطوط في مكتبة الغازي خسرو بك بسرايفو (يوغسلافيا) برقم ١٤/٢٦٢٦ (ينظر : فهرس المخطوطات العربية . . . في مكتبة الغازي خسرو بك ١٠٠/١) .

(٧) سورة الفاتحة ٧/١ .

(٨) غاية المراد : الورقة ٢٤ ظ .

جعل الأولى في بيان معرفة مخرج الضاد منبهاً على كيفية النطق به ، ومشيراً الى أنه من الحروف التي انفرد العرب بها .

وتكلم في الثانية على صفاته ، فذكر أنّ له من صفات القوة اربعاً : هي : الاستعلاء ، والاستطالة ، والإطباق ، والجهر . وله من صفات الضعف الرخاوة . وعرف بإيجاز بكل واحدة منها .

واختتم كلامه بالاشارة الى أن حقيقة إتقان النطق بالحروف إنما يحصل « برياضة اللسان ، وكثرة التكرار . وأصل ذلك التلقي عن اولي الاتقان ، والأخذ عن أئمة هذا الشأن » (٩) .

وبناء على هذا . اعتمد عند التأليف الطريق الأصح في تحقيق القراءة وتجويد لفظها ، وهو « التلقي عن الأشياخ مشافهة وبحثاً » (١٠) ، علاوة على الإفادة مما وجده في المصنفات المدوّنة التي ذكر منها في البحث :

- منظومة « عمدة المفيد وعمدة المجيد » لعلم الدين السخاويّ (ت ٦٤٣ هـ) .
- ومنظومة « الواضحة في تجويد الفاتحة » لبرهان الدين الجعبري (ت ٦٣٢ هـ) .
- ومنظومة « حرز الأماني ووجه التهاني » المعروفة بـ « الشاطبية » لأبي محمد الشاطبي (ت ٥٩٠ هـ) .

ووجدت المؤلف أفاد من مصادر أخر لم يشر اليها ، وهي :

- « شرح الواضحة في تجويد الفاتحة » لحسن بن قاسم المُرادي (ت ٧٤٩ هـ) .
- و « شرح عمدة المفيد وعمدة المجيد » للمُرادي أيضا .
- و « التمهيد في علم التجويد » ، لمحمد بن الجزري (ت ٨٣٣ هـ) .

---

(٩) غاية المراد : الورقة ٢٦ و .
(١٠) غاية المراد : الورقة ٢٤ ظ .

وقد عيّنت في الهوامش التي اثبتها على المتن المحقق المواضع التي نقل منها ابن النجار من هذه المصادر .

إنّ الرسالة التي أقدمها محققة ، هي أول مصنف يطبع في العالم العربي (١١) من المصنفات المستقلة في دراسة حرف الضاد من الوجهة الصوتية . وقد جمع فيها المؤلف مادة الموضوع من مصادر متنوعة مكتوبة ومسموعة ، ورتبها ترتيبا سهل المأخذ ، وعرضها بأسلوب بعيد عن التعقيد . وهي الى ذلك تمثل مرحلة في الدرس اللغوي من الجانب الصوتي. وقد سجل لنا المؤلف فيها ظاهرة لغوية في عصره (القرن التاسع الهجري) هي اختلاف الناس في طريقة نطقهم حرف الضاد ، وتعدد مخارجه عندهم وقتذاك . وهي ملاحظة ، وان سُبق اليها ، تؤكد ما سجله العلماء قبله في بعض المصنفات .

— ٢ —

أما مؤلف الرسالة فهو (١٢) محمد بن احمد بن داوود المقرىء ، المشهور بابن النجار . كنيته أبو عبدالله ، ولقبه شمس الدين الدمشقي الشافعي .

ولد سنة ٧٨٨ هـ تقريباً ، ولا نعرف شيئاً كثيراً عن حياته ، ولكن يبدو أنه أخذ العلم من شيوخ عصره في دمشق ، وذكروا من هؤلاء : صدقة بن سلامة الضرير المقرىء (ت ٨٢٥ هـ) ، أخذ عنه القراءات . ولما برع فيها تصدر لها بجامع بني امية وغيره مفيداً التلامذة والطالبين .

---

(١١) أقول في العالم العربي لأن هناك إشارة في معجم المطبوعات العربية والمعربة (١/١٩٧ و ٣٠٥) الى أن « بغية المرتاد لتصحيح الضاد » لابن غانم المقدسي (ت ١٠٠٤ هـ) طبع في الهند سنة ١٣٠٥ هـ مع كتاب المقابسات ، لأبي حيان التوحيدي (ت ٣٨٠ هـ) . ولم أتمكن من العثور على هذه النشرة .

(١٢) ينظر : الضوء اللامع لأهل القرن التاسع ، لشمس الدين السخاوي ٨١٦ ٣٠ ، والأعلام ، للزركلي ٥ / ٣٣٤ ، ومعجم المؤلفين ، لكحالة ٣٥٩/٨ ، وفهرس مخطوطات دار الكتب الظاهرية (علوم القرآن) ج ١ ص ١١٠ و١٧٠ و ١٩٩ و ٣٧٧ و ٤٧٢ .

مهرَ ابن النجار ، مع تقدمه بعلم القراءات ، الحسابَ ، وكان له مجلس يعظ فيه الناس بجامع يلبغا بدمشق .

توفي سنة ٨٧٠ هـ بعد ما خلف مصنفات مفيدة تحتفظ المكتبات بالآتي منها :

١ — الافهام في شرح باب وقف حمزة وهشام . منه مخطوطتان في دار الكتب الظاهرية بدمشق برقم ٥٩٨٧ و٣٧١٤ .

٢ — التكبير في ختم القرآن . منه مخطوطة في المكتبة المذكورة برقم ٥٩٨٧ .

٣ — جواب مسألة في قراءة قوله تعالى : (وجعلناهم أيمة) بالياء الخالصة . منه مخطوطة في مكتبة أسعد أفندي برقم ٣٦٣٩ .

٤ — الرد المستقيم على ما تفعله بعض الأعاجم من تحريك الميم . منه مخطوطة في مكتبة أسعد أفندي برقم ٣٦٣٩ واخرى في دار الكتب الظاهرية برقم ٥٩٨٧ .

٥ — السكت والغُنّة . منه مخطوطة في مكتبة أسعد أفندي برقم ٣٦٣٩ .

٦ — غاية المراد في معرفة اخراج الضاد . وهو الرسالة المحققة .

٧ — نثر الدرر في معرفة مذاهب الأئمة السبعة بين السور . منه مخطوطة في دار الكتب الظاهرية بدمشق برقم ٥٩٨٧ .

٨ — وصل الاستعاذة بالبسملة . منه مخطوطة في مكتبة أسعد أفندي برقم ٣٦٣٩

— ٣ —

اعتمدت في اخراج النص على المخطوطة التي تحتفظ بها مكتبة أسعد أفندي باستانبول ضمن مجموع رقمه ٣٦٣٩ يشتمل على المصنفات الآتية :

١ — المفيد في علم التجويد (أرجوزة) لأحمد بن أحمد الطيبي (ت ٩٧٩ هـ) .

٢ — بلوغ الأماني في قراءة ورش من طريق الأصبهاني . (أُرجوزة) للطيبي أيضاً .

٣ – تحفة المَلاَ في مواضع كلاّ (أرجوزة) لأبي بكر بن المحلي (ت ٦٧٣ هـ).

٤ – المبينة في تحقيق الهمز (أرجوزة) لابن عبد الحق ابراهيم بن علي (ت ٧٤٤هـ)

٥ – الرد المستقيم على ما تفعله بعض الأعاجم من تحريك الميم . لابن النجار .

٦ – وصل الاستعاذة بالبسملة ، لابن النجار .

٧ – جواب مسألة في قراءة قوله تعالى : (وجَعَلْناهُمْ أَيِمَّةً) ، بالياء الخالصة ، لابن النجار .

٨ – مسألة السكت والغُنّة . لابن النجار .

٩ – مسألة « الآن » منقولة من كتاب (النشر في القراءات العشر) لمحمد بن الجزَري) .

١٠ – الغاز شعرية في علم التجويد .

١١ – غاية المراد في معرفة اخراج الضاد ، لابن النجار .

١٢ – القواعد والاشارات من أصول القراءات ، لابن أبي الرضا الحَمَوِي (ت ٧٩١ هـ) .

وهذه المصنفات كتبت بقلم ناسخ واحد لم يذكر اسمه ، بخط النسخ المعتاد الواضح ، وتأريخ كتابة آخر رسالة منها هو شهر شوال سنة اربعين ومئة وألف .

وتقع الرسالة المحققة في سبع صفحات من المجموع من الورقة (٢٣ و) الى الورقة (٢٦ و) .

ولم أجد صعوبة في قراءة النسخة التي اعتمدتها ، فهي واضحة الخط ، جيدة الحرف ، خالية من التحريف . وهذا أعانني على أن أخرج الرسالة على نسخة واحدة بعد أن اعياني أمر الحصول على نسخة أخرى أو أكثر من النسخ الثلاث التي تحتفظ بها مكتبة دار الكتب الظاهرية في دمشق ضمن مجموع رقمه

٥٩٨٧ (١٣) ، ومكتبة دار الكتب الشعبية (كيريل وميثودي) بصوفيا برقم مج ١٦١٣٣ (١٤) ، ومكتبة جامعة برنستون (مجموعة يهودا) برقم ٤٣٤٦(١٥).



أما نسبة « غاية المراد» الى شمس الدين بن النجار فلم أجدما يشكك فيها من قريب او بعيد ، فقد ثبت اسم هذا المؤلف على مخطوطات الرسالة الاربع التي بقيت منها ، وهي متفرقة في انحاء شتى من العالم ، في استانبول ، ودمشق ، وصوفيا ، وجامعة برنستون . وكذلك اشار اليها الحاج خليفة في كشف الظنون ١١٩٣/٢ ونسبها الى ابن النجار .

هذا وقد سرت في التحقيق على وفق الطريقة العلمية المعهودة التي ارتضاها أصحاب هذا الفن ، وسجلوا خطواتها في مصنفاتهم في قواعد تحقيق النصوص المكتوبة ونشرها . مع الافادة من تجاربي في هذا الميدان . لذلك لم أجد بي حاجة هنا الى شرح ما قمت به . وما في الهوامش من التعليقات الواضحة على النص ، يغني عن الإطالة .

والله الموفق للصواب .

(١٣) فهرس مخطوطات دار الكتب الظاهرية (علوم القرآن) الدكتور عزة حسن ص ٤٤ .
(١٤) الدراسات الصوتية عند علماء التجويد ، الدكتور غانم قدوري ص ٣٨ .
(١٥) كتب الضاد والظاء عند الدارسين العرب ص ٦١٤ .

صفحة العنوان من مخطوطة الرسالة

وتليه كتاب غاية المراد في معرفة اخراج الضاد

الصفحة الاولى من مخطوطة الرسالة

بسم الله الرحمن الرحيم وما توفيقي الا بالله
قال شيخنا الشيخ الامام العالم الفاضل المحقق ابو
عبد الله محمد بن احمد الشافعي المقرئ الشهير بابن
النجار عفا الله عنه ونفع بعلمه وزاده من فضله
وكرمه . الحمد لله الذي انزل القران عربيا غير ذي
عوج . وصلواته وسلامه على نبينا محمد المرسل
بالمنهج البهيج واله وصحبه وتابعيهم على سواء النهج
. وبعد فاني لما رايت كثيرا من الناس الحفظة
للاجناس لا يحسنون اخراج الضاد ولا يأتون
في ذلك بالمراد . فبعضهم يخرجها كاللام المفخمة
وهم الزيالع ومن ضاهاهم وما ذاك الا لان اللام
تشارك الضاد في المخرج لان الضاد من اقصى
الحافة اعني حافة اللسان واللام من ادنى الحافة
والضاد حرف مستطيل قد استطال الى مخرجه
وامتد صوته حتى اتصل بمخرج اللام فلذلك
شابه لفظه لفظ اللام وحكاه السخاوي
رحمه الله . [illegible]
لام مفخمة بلا عرفان . وبعضهم يخرجها ظاء
معجمة وهو اكثر الشاميين وبعض اهل المشرق

الصفحة الأخيرة من مخطوطة الرسالة

يجب على القارئ ان يلفظ بها كما يلفظ بها اذا كان يحكي
الحروف في قوله صاد ضاد وهذا هو الصحيح المنقول
المعقول الذي لا يجوز غيره ومن عدل عن ذلك كان
مغير المخرج هذا الحرف وصفته فكيف يزعم من يخرجها
ممزوجة بالدال او بالظاء ان ذلك صواب فاذا اردت
فصلها عن الدال المفخمة فراع مبدا مخرجها وبين
صفاتها فبذلك يفترقان واذا اردت فصلها عن
الظاء المعجمة فاخرجها من مخرجها وبين استطالتها
فبذلك يفترقان وانما يحصل لك ذلك برياضة اللسان
وكثرة التكرار واصل ذلك التلقي عن اهل الاتقان
• والاخذ عن ايمة اهل هذا الشان قال الامام
الجليل الحافظ ابو عمرو الداني رحمه الله تعالى ينبغي للقارئ
ان ياخذ نفسه بتفقد الحروف التي لا يوصل الى حقيقة
اللفظ بها الا بالرياضة الشديدة والتلاوة الكثيرة
مع العلم بحقائقها والمعرفة بمنازلها فيعطي كل حرف منها
حقه من مخرجه وصفته المستحقة له والمتاع فاذا
راعيت ما قلته وذكرت لك من مخرجه وصفته
حصل لك المراد • وهذا ما تيسر لهم
الكريم الجواد من كلام ملخص
• قال المؤلف [illegible]
[illegible]
وصلى الله على خاتم الانبياء [illegible]

[٢٣ ظ] بسم الله الرحمن الرحيم

وما توفيقي الا بالله

قال شيخنا الشيخ الإمام العالم الفاضل المحقق أبو عبدالله محمد بن أحمد الشافعي المقرىء الشهير بابن النجار ، عفا الله عنه ونفع بعلمه وزاده من فضله بكرمه :

الحمد لله الذي انزل القرآن عربيا غير ذي عِوَج ، وصلواته وسلامه على نبينا محمد المرسل بأوضح الحجج ، وآله وصحبه وتابعيهم على سواء النهج .

وبعد ، فاني لما رأيت (١) كثيراً من الناس المختلفين الأجناس لا يحسنون إخراج الضاد ، ولا يأتون في ذلك بالمراد :

فبعضهم يخرجها كاللام المفخمة ، وهم الزيالع ومن ضاهاهم (٢) .

وما ذلك إلا لأنّ اللام تشارك الضاد في المخرج ؛ لأنّ الضاد من أقصى الحافَة ، أعني حافَةَ اللسان (٣) ، واللامَ من أدنى الحافَة . والضادُ حرف مستطيل قد استطال في مخرجه وامتد صوته حتى اتصل بمخرج اللام ، فلذلك شابه لفظُه لفظ اللام .

---

(١) جواب « لما رأيت » هو « استخرت الله » مؤخر في آخر الورقة « ٢٤ ظ » بعد « لما » المكررة .

(٢) التمهيد في علم التجويد ، لابن الجزري ص ١٣٠ . والزيلع : جيل من السودان في طرف أرض الحبشة ، وهم مسلمون . ينظر : معجم البلدان ، لياقوت ٢ / ٩٦٦ - ٩٦٧ .

(٣) هذا الذي ذكره المؤلف عن مخرج الضاد هو الوارد في شرح عمدة المفيد ، للمرادي (الورقة ٣٠ ظ مخطوط) إذ قال : (لأن الضاد من أقصى الحافة ، واللام من أدنى الحافة . . .) وهو خلاف المشهور الذي هو (أول حافة اللسان ومايليها من الأضراس) نص عليه سيبويه . (الكتاب ٤/٤٣٣) وسيذكره ابن النجار فيما يأتي (الورقة ٢٥ و) .

ولهذا قال السخاوي (٤) رحمه الله :

كم رامه قومٌ فما أبدَوْا سِوَى لامٍ مُفَخّمة بلاعِرْفانِ (٥)

وبعضهم يخرجها ظاء معجمة ، وهم (٦) أكثر الشاميين ، وبعض أهل المشرق (٧) .

[٢٤ و] وهذا لا يجوز في كلام الله تعالى ، لمخالفة المعنى الذي اراده الله تعالى ، فلو قال : (ولا الضّالّين) (٨) بالظاء القائمة كان معناه : الدائمين .

وهذا خلاف مراد الله سبحانه وتعالى . وهو مبطل للصلاة على المشهور من مذهب الشافعي ، رحمه الله تعالى (٩) لأن الضّلال ، بالضاد ، هو ضد الهدى ، كقوله تعالى : (ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إلاّ إيّاهُ) (١٠) ، وكقوله تعالى : (إنّهُنّ أضْلَلْنَ كَثِيراً من النّاسِ) (١١) .

فمثال الذي يجعل الضاد ظاء ، شِبْهُ الذي يجعل السين صاداً في نحو قوله [تعالى] : (وأسرُّوا النّجوَى) (١٢) . (وأصَرُّوا

(٤) علم الدين علي بن محمد بن عبد الصمد السخاوي (ت ٦٤٣ هـ) . له منظومة «عمدة المفيد وعدة المجيد» في علم التجويد التي نقل منها المؤلف هنا . ينظر : معجم المؤلفين ٢٠٩/٧ .

(٥) عمدة المفيد (بشرح المرادي) الورقة ٢٩ و (مخطوط) . وقبل هذا البيت قوله :
والضاد عال مستطيل مطبق جهر يكل لديه كل لسان
حاشا لسان بالفصاحة قيم ذرب ، لأحكام الحروف معاني

(٦) في المخطوط : وهو . وما أثبته هو أسلوب المؤلف في غير هذا الموضع . وينظر : الورقة (٢٣ ظ) و (٢٤ ظ) .

(٧) التمهيد في علم التجويد ص ١٣٠ .

(٨) (اهدنا الصراط المستقيم • صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين) الفاتحة ٦/١ - ٧ .

(٩) شرح الواضحة في تجويد الفاتحة ، للمرادي ص ٦٣ .

(١٠) الاسراء ١٧ / ٦٧ : (واذا مسكم الضر في البحر ضل من تدعون إلا إياه) .

(١١) ابراهيم ٣٦/١٤ : (رب إنهن أضللن كثيراً من الناس) .

(١٢) الانبياء ٣/٢١ : (وأسروا النجوى الذين ظلموا هل هذا إلا بشر مثلكم) .

واستكبَرُوا) (١٣) فإنّ الأول معناه « الاسرار » الذي هو ضد الجهر ، والثاني من « الإصْرار » (١٤) .

فلو أبدلَ السين صاداً ، والصّادَ سيناً ، في هذا وشبهه ، لكان مغيّراً لمعنى ما أراده الله عزّ وجلّ .

لكن مذهب مالك رحمه الله : أنّ من لا يميّز بين الضاد والظاء للكُنْتَه ، تصحّ صلاته وإمامته (١٥) .

وكذلك قال الإمام الجليل المحقق العلامة الجَعْبري رحمه الله (١٦) في منظومته التي في تجويد الفاتحة :

... وجُوُزتْ لعاجز [حال] ضمن وجهِ مبعّدِ (١٧)

فان أمكنه أن يتعلم التمييز بينهما ، فالظّاهر أنه غير معذور (١٨) .

قلت : وبعضهم يخرجها ممزوجة [٢٤ ظ] بالدّال أو بالطّاء المهملة ، فيصير لفظها إذا تحقق في السمع قريبا من لفظ الدال والطّاء (١٩) ، وهم أكثر المصريين وبعض أهل المغرب (٢٠) ، ويزعم أنّ هذا هو الصّواب .

وهو خطأٌ محضٌ ، وتبديل فاحش . وإنّما اوقعهم في ذلك عدم أخذهم عن العلماء المحققين ، وممارستهم لمخارج الحروف وصفاتها ، كما قال بعضهم :

(١٣) نوح ٧/٧١ : (واستغشوا ثيابهم وأصروا واستكبروا استكبارا) .
(١٤) التمهيد في علم التجويد ص ١٣٠ — ١٣١ .
(١٥) شرح الواضحة في تجويد الفاتحة ، للمرادي ص ٦٣ .
(١٦) برهان الدين ابراهيم بن عمر الجعبري (ت ٧٣٢ هـ) له : « الواضحة في تجويد الفاتحة » وهي المنظومة التي نقل عنها المؤلف هنا . ينظر : غاية النهاية ، لابن الجزري ٢١/١ .
(١٧) الواضحة في تجويد الفاتحة (ضمن شرح المرادي) ص ٦٢ . وما بين المعقوفتين زيادة منه . والبيت بتمامه :
ولا تكسه لاماً وظاء وجوزت لعاجز حال ضمن وجه مبعد
(١٨) شرح الواضحة ، للمرادي ص ٦٣ .
(١٩) في المخطوط : والظاء . تصحيف .
(٢٠) أشار الى هذه الظاهرة ابن الجزري في التمهيد ص ١١٣ ولكنه لم يذكر لفظ الدال .

« ما منعهم من الوصول ، إلا تضييع الأصول ، فلما قصروا في العمل ، لحقهم الزَّلَل » .

وأيضاً فان الضّاد أشد الحروف صعوبة على اللافظ ؛ لأنه حرف قوي صعب يعسر بيانه على كثير من النــاس . ولهــذا قال الشيخ العلامة أبو الحسن علم الدين السخاوي رحمه الله ، في قصيدته المسماة « عمدة المفيد وعدة المجوِّد (٢١) في معرفة التجويد » :

والضاد عــالٍ مستطيل مطبــــق
جهرٌ يكِـلُّ لديه كُلُّ (٢٢) لسانِ

فلما كان كذلك ، استخرت الله تعالى ، وأحببت أن أكتب اوراقا اذكر فيها ما قاله المحققون ، وما تلقيته عن الأشيــاخ مشــافهةً وبحثــاً ؛ ليعلم التالي لكتاب الله تعالى والمجوِّدُ له معرفةَ التلفظ بهذا الحرف الصعب الذي قد أعيا كثيراً من الناس إخراجُه . وقصدت بذلك نفع الإخوان رجاء دعوة تثمر الغفران .

[٢٥ و] فأتكلم اولاً في بيان معرفة مخرج هذا الحرف ، إذ هو الأصل ثم أذكر صفاته التي تميز بها ، موضحاً لذلك إن شاء الله تعالى ، فأقول مستعيناً بالله :

مخرجه من أول حافة اللسان وما يليها من الأضراس . وإليه أشار الشاطبي رحمه الله (٢٣) بقوله :

« . . . وحافة الـ　　　لسان فأقصاها لحرف تطوّلا » .

(٢١) كذا في المخطوط . والمشهور : المجيد .
(٢٢) في المخطوط : كل كل . وحذفت أحد اللفظين لزيادته . وينظر : عمدة المفيد (بشرح المرادي) الورقة ٢٦ و (مخطوط) .
(٢٣) أبو محمد القاسم بن فيره بن خلف الشاطبي (ت ٥٩٠ هـ) صاحب « حرز الاماني » وهي قصيدته المشهورة في القراءات وتعرف بـ « الشاطبية » . ينظر : غاية النهاية ٢/٢٠ .

الى ما يلي الأضراس .... (٢٤)

فهو من المخرج الرابع من مخارج الفم . وإخراجه من الجانب الأيسر أيسر . وإلى هذا أشار الشاطبي رحمه الله تعالى بقوله :

« . . . . وباليمنى يكون مقلّلا » (٢٥) .

وفي اخراجه من الجانبين صعوبة ، ولذلك (٢٦) قال سيبويه رحمه الله تعالى : إنها تتكلّف من الجانبين (٢٧) . ويحكى عن عمر بن الخطاب ، رضي الله عنه ، أنه كان يخرجها من الجانبين (٢٨) .

والى هذا أشار الشاطبي رحمه الله تعالى بقوله :

« . . . . وَهْو لديهما يعزّ . . . . . » (٢٩)

فاذا اردت معرفة مخرجه فتأتي به ساكناً لا متحركاً ، لأن الحركة تقلق (٣٠) الحرف عن موضعه ومستقره ، وتجذبُه لوجهة الحرف المشابه ، ثم تدخل عليه

---

(٢٤) متن الشاطبية ص ١٧٨ . وتمام الأبيات :

وحرف له أقصى اللسان وفوقه ... من الحنك احفظه وحرف بأسفلا

ووسطهما منه ثلاث وحافة الـ ... ـلسان فأقصاها لحرف تطولا

الى ما يلي الأضراس وهو لديهما ... يعز وباليمنى يكون مقللا

(٢٥) ينظر الأبيات المتقدمة .

(٢٦) في المخطوط : وكذلك . وما أثبته يناسب السياق ، وهو الوارد في شرح الواضحة ص ٥٩ .

(٢٧) هذه عبارة المرادي في « شرح الواضحة » ص ٥٩ . وفي كتاب سيبوية ٤٣٢/٤ : (إلا أن الضاد الضعيفة تتكلف من الجانب الأيمن وإن شئت تكلفتها من الجانب الأيسر ، وهو أخف ، لأنها من حافة اللسان مطبقة ، لأنك جمعت في الضاد تكلف الاطباق مع إزالته عن موضعه . . .) .

(٢٨) شرح الواضحة ص ٦٠ .

(٢٩) متن الشاطبية ص ١٧٨ . وتقدم ذكر البيت بتمامه

(٣٠) ثبت في حاشية المخطوط : تقلقل .

همزة الوصل مكسورة ؛ لأن الساكن لايمكن الابتداء به ، ثم اصغ اليه ، فحيث انقطع صوته كان مخرجه .

واعلم انه من الحروف التي انفرد بها كلام العرب ، ولا يوجد الضاد في غير لغتهم . ولذلك قال [٢٥ ظ] صلى الله عليه وسلم : « أنا أفصحُ مَنْ نَطَقَ بالضّاد » . يعني : أنا أفصح العرب (٣١) .

فليس في طبع العرب والفصحاء أن يخرجوا هذا الحرف مَشُوباً بشيء من الطاء أو الدال ، معاذ الله أن يكون هذا في لفظهم .

وأما صفاته ، ففيه من صفات (٣٢) القوة اربع صفات :

أحدها — الاستعلاء . وحقيقته ارتفاع اللسان بالحرف الى الحَنَك (٣٣) .

الثانية — الاستطالة . وحقيقتها امتداد الصوت من أول حافّة اللسان الى آخره.

الثالثة — الاطباق . وحقيقته أن ينطبق اللسان على الحَنَك عند اللفظ بالحرف.

الرابعة — الجهر . وهو منعُ النَّفَس أن يجري مع الحرف ، لقوة الاعتماد عليه (٣٤) .

---

(٣١) العبارة وردت في شرح عمدة المفيد ، للمرادي ، الورقة ٢٩ ظ (مخطوط) . وينظر : شرح الواضحة ، للمرادي ص ٦٠ . والحديث الشريف مما يتردد ذكره في كتب الضاد والظاء . وفيه قال شمس الدين السخاوي (ت ٩٠٢ هـ) في المقاصد الحسنة ص ٩٥ : (حديث « أنا أفصح من نطق بالضاد » معناه صحيح ، ولكن لا أصل له كما قال ابن كثير).

(٣٢) في المخطوط : صفاة . تحريف .

(٣٣) الذي عليه المحققون أن الاستعلاء ارتفاع أقصى اللسان عند النطق بالحرف . ينظر : الدراسات الصوتية عند علماء التجويد ص ٢٩١ .

(٣٤) هذا في الأصل ماذهب اليه سيبويه ، إذ قال في الكتاب ٤/٤٣٤ : (فالمجهورة : حرف أشبع الاعتماد في موضعه ، ومنع النفس أن يجري معه حتى ينقضي الاعتماد عليه ويجري الصوت) . وردد هذه الفكرة من بعد سيبويه علماء العربية ، وعلماء التجويد ، وهو على غير ماذهب اليه المحدثون من الباحثين في أصوات اللغة العربية . فالمجهور عندهم (هو الصوت الذي يتذبذب الوتران الصوتيان حال النطق به) . ينظر الكلام على الجهر والموازنة بين آراء القدماء والمحدثين لتحديد معناه : الدراسات الصوتية عند علماء التجويد ص ١٢٥ — ١٣٩ .

وفيه من صفات الضعف : الرَّخاوة . وهي عدم انحصار صوت الحرف عند مخرجه بحيث يجري معه .

واعلم أن صفات الحروف اغمض وأدق من مخارجها . فعليك باتقانها ، فانها مِلاك التجويد .

واعلم أن لفظ الضاد يشتبه بلفظ الظاء المعجمة ، وذلك لأن الظاء يشارك الضـــاد في أوصافه المذكورة غيرَ الاستطالة . فلذلك اشتد شبههه به ، وعسر التمييز بينهما ، واحتاج القارىء في ذلك الى الرياضة التّامّة (٣٥) .

قال المحققون : ولولا اختلاف المخرجين ، وما في الضاد من الاستطالة ، لكان لفظهما واحداً ، واتحدا في السمع (٣٦) .

[٢٦ و] فيجب على القارىء أن يلفظ بها كما يلفظ بها إذا كان يحكي الحروف في قوله : صاد ، ضاد .

وهذا هو الصحيح المنقول المقبول . الذي لا يجوز غيره . ومن عدل عن ذلك ، كان مغيراً لمخرج هذا الحرف وصفته .

فكيف يزعم من يخرجها ممزوجة بالدال او بالطاء أنّ ذلك صواب ؟

فاذا اردت فصلها عن اللام المفخّمة ، فراعِ مبدأ مخرجها ، وبيِّن صفاتها . فبذلك يفترقان . واذا اردت فصلها عن الظاء المعجمة ، فأخرجها من مخرجها ، وبيِّن استطالتها ، فبذلك يفترقان (٣٧) .

وإنما يصل لك ذلك برياضة اللسان ، وكثرة التكرار . وأصل ذلك التلقّي عن أُولي الإتقان ، والاخذ عن أئمة هذا الشأن .

---

(٣٥) شرح عمدة المفيد ، للمرادي . الورقة ٣٠ ظ (مخطوط) .
(٣٦) المصدر نفسه .
(٣٧) المصدر نفسه . الورقة ٣١ و .

قال الإمام الجليل الحافظ ابو عمرو الداني (٣٨) ، رحمه الله تعالى : ينبغي للقارىء أن يأخذ نفسه بتفقد الحروف التي لا يوصل الى حقيقة اللفظ بها إلا بالرياضة الشديدة ، والتلاوة الكثيرة ، مع العلم بحقائقها ، والمعرفة بمنازلها ، فيعطي كلّ حرف منها حقّه من مخرجه وصفته المستحقّة له . والله اعلم .

فاذا راعيت ما قُلْتُهُ وذكرته لك من مخرجه وصفته ، حصل لك المراد .

وهذا ما يسر الله الكريم الجواد من الكلام على مخرج الضاد . فنسأل الله العظيم أن يجعلنا من حفاظ كتابه ، وأن يوفقنا لتجويد لفظه ، وتقويم اعرابه .

وصلواته وسلامه على خاتم أنبيائه وآله وأصحابه وأوليائه .

(٣٨) عثمان بن سعيد الداني (ت ٤٤٤ هـ) له : التيسير في القراءات السبع وغيره .
ينظر : معجم المؤلفين ٦/ ٢٥٤ .

المصـــــــادر

- أسماء الكتب المحفوظة في خزانة المدرسة العليا للغة العربية برباط الفتح . باريس ١٩٢١ م .
- الاعلام (قاموس تراجم) ، خيرالدين الزركلي . بيروت (ط ٤) ١٩٧٩ م.
- بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة ، السيوطي ، تحقيق محمد ابو الفضل ابراهيم ، القاهرة ١٩٦٤ — ١٩٦٥ م .
- التمهيد في علم التجويد . ابن الجزري ، تحقيق الدكتور علي حسين البواب ، الرياض ١٩٨٥ م .
- الدراسات الصوتية عند علماء التجويد . الدكتور غانم قدوري حمد ، بغداد ١٩٨٦ م .
- شرح عمدة المفيد وعدة المجيد ، المرادي . مخطوطة مكتبة بايزيد في استانبول برقم ١٤٧ .
- شرح الواضحة في تجويد الفاتحة . المرادي ، تحقيق الدكتور عبدالهادي الفضلي . بيروت (بدون تاريخ) .
- الضوء اللامع لأهل القرن التاسع . شمس الدين السخاوي ، القاهرة ١٣٥٤ هـ .
- عمدة المفيد وعدة المجيد ، للسخاوي = شرح عمدة المفيد ، للمرادي .
- غاية النهاية في طبقات القراء ، ابن الجزري ، نشره برجستراسر . مصر ١٩٣٢ م .
- فهرس مخطوطات دار الكتب الظاهرية بدمشق (علوم القرآن) :

أ ــ للدكتور عزة حسن ، دمشق ١٩٦٢ م .

ب ــ لصلاح محمد الخيمي ، دمشق ١٩٨٣ م .

ــ فهرس المخطوطات العربية والتركية والفارسية (في مكتبة الغازي خسرو بك بسرايبفو ــ يوغسلافيا) قاسم دوبراجا ، سرايبفو ١٩٦٣ .

ــ الكتاب ، سيبويه ، تحقيق عبدالسلام محمد هارون (ج ٤) القاهر ١٩٧٥ م.

ــ كتب الضاد والظاء عند الدارسين العرب ، الدكتور محمد جبار المعيبد ، بحث منشور في (مجلة معهد المخطوطات العربية) الكويت : المجلد الثلاثون ــ الجزء الثاني ــ سنة ١٩٨٦ م .

ــ كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون ، الحاج خليفة ، (وكالة المعارف التركية) ١٩٤١ ــ ١٩٤٣ م .

ــ متن الشاطبية ، الشاطبي ، نشره متولي عبدالله الفقاعي ، مصر (بدون تاريخ) .

ــ معجم المؤلفين ، عمر رضا كحالة ، دمشق ١٩٥٧ م .

ــ معجم المطبوعات العربية والمعربة ، يوسف اليان سركيس ، مصر ١٩٢٨ م .

ــ المقاصد الحسنة في بيان كثير من الأحاديث المشتهرة على الألسنة ، شمس الدين السخاوي ، تحقيق عبدالله محمد الصديق ، القاهرة ١٩٥٦ م .

ــ هدية العارفين ، اسماعيل باشا البغدادي ، استانبول ١٩٥١ م .

ــ الواضحة في تجويد الفاتحة ، للجعبري = شرح الواضحة ، للمرادي .

كتاب
خطة الحسبة

اللواء الركن محمود شيت خطاب
عضو المجمع

هذا كتاب قيّم ، صنّعه الأستاذ عبدالرحمن الفاسي عضو أكاديمية المملكة المغربية ، وطبعته وأخرجته للناس دار الثقافة في الدار البيضاء .

ولعلماء المغرب الأشقاء ، عتب يظهرونه تارة ويخفونه تارة أخرى ، على علماء المشرق ، ملخّصه : أن علماء المشرق يتجاهلون ما ينشره أشقاؤهم من علماء المغرب عمداً ، فلا ينوّهون بنشاطهم الفكريّ ، ويُغفلون مؤلّفاتهم ، فينساها الناس او يتناسونها ، ولا يُذكر مؤلّفوها ولا تذكر مؤلّفاتهم إلا نادرا .

ولست أدافع عن علماء المشرق ، لأنّهم لا يحتاجون إلى مَن يدافع عنهم لبراءتهم مما يُلْزَمون به . ولكنني أقرِّر الحقيقة ، وهي أنّ علماء المشرق لايتجاهلون علماء المغرب ولا يغضّون الطرف عن مؤلّفاتهم القيمة ، ولكن تلك المؤلّفات لا تَصل إلى أيدي علماء المشرق ، أو تصل إلى الذين لا يقرأون ، فالذي لا يقرأ لا يكتب ، والذي لم يصل إليه الكتاب معذور في إغفاله ، لأنه لا علم له به ، وأحبّ أن أذكر – لفائدة علماء المغرب والمشرق – أنّ الكتب المغربية غائبة عن سوق الوراقين في المشرق العربي . فنادراً ما تجد كتاباً مغربياً في مكتبة من مكتبات بيع الكتب ، على حين تجد الكتب الأجنبية في تلك المكتبات ، مما يدلّ على وجود خلل في توزيع الكتب المغربية لابد من تلافيه .

والمؤلِّف الفاضل ، معروف في المغرب ومعروف في المشرق أيضاً : معروف في المغرب ، لأنه من العلماء الأعلام المدافعين عن العربية لغةً والأسلام ديناً ، بصدق وحميّة وعلم وإخلاص ، ولأنه يُشغل منصب محافظ الخزانة الملكيّة بالرباط ، والذي يعرف أهمية هذه الخزانة بما تحويه من مخطوطات نادرة وكتب قيِّمة ، ومبلغ اهتمام جلالة الملك الحسن الثاني بها وحرصه على إدامتها بالمخطوطات والمطبوعات وحرص والده المرحوم المغفور له الملك المجاهد محمد الخامس بخاصة ، وحرص ملوك المغرب كافة عليها ، يعرف أهميّة اختيار المؤلف الفاضل لهذا المنصب الحيويّ . ومعروف في المشرق بآثاره وبحوثه التي تسرّبت إلى المشرق ، ولأنه كان سفير المغرب في العراق ، فاتصلت أسبابه بالمجمع العلمي العراقي ، وعرف فيه المجمع عالماً عاملاً محققاً باحثا ، فاختاره عضواً مراسلاً في المجمع ، بعد أن اطّلع أعضاءه على دراساته وبحوثه التي نشرها في مجلة المجمع هذه ، فوجد في طياتها علماً لا يخفى على متتبع وأدباً لايخفى على حصيف . والمعروف لا يُعرَّف ، فآثاره تدل عليه وتشهد على علمه ، ولكن عرض هذا الكتاب ، يقتضي التعريف بمؤلفه ، للدلالة على أهمية الكتاب وقيمته العلمية لا للتعريف بمؤلفه الفاضل ، خاصة وأنّ جهاده العلمي والعملي يستغرق كتاباً كاملا ، ولا تجزيه أسطر معدودات .

ومصطلح : (الحِسْبَة) اصطلاح مشرقيّ بالأصل ، وكان المشارقة إليه أسبق ، نظراً لأسبقيتهم في تلقّي التراتيب الأسلامية . وهذا المصطلح طارىء على المغرب ، فقد ظلّ الأفارقة على الدوام محتفظين بمصطلح : (أحكام السّوق) ، ثم دخل مصطلح : (الحسبة) دخولاً اولياً في فقه المعاملات منذ النصف الأول من القرن الثالث الهجري ، ولم يعرف مصطلح الحسبة بالمغرب ولا بالأندلس في عهد مبكّر ، لأن مصطلحي : (أحْكام السّوق) و (خُطّة السوق) ظلاّ مرددين في مصنفات الأندلسيين إلى وقت متأخر (١) ،

(١) . تاريخ علماء الأندلس – ابن الفرضي – (١/١٦) – طبعة القاهرة .

ويسمون صاحب المنصب : (والى السوق) ، ثم أصبح يقال لها : (ولاية الحسبة) أو : (خطة الاحتساب) ، ولمتوليها : (المختسب) أو : (صاحب الحسبة) في تعابير قسم من فقهاء المغرب . وقد ورد مصطلح : (المحتسب) لأول مرة في معرض متقادم عند ابن بشكوال صاحب كتاب : (الصلة) ، حيث قال عن ابن المشاط الرعيني القرطبي (ت ٣٩٧ هـ) : « إنّه ولي أحكام الحسبة المعروفة عندنا بولاية السوق » . كما أن ابن فرحون يقول في كتابه : (الديباج) عن ابن عاصم القرطبي (ت ٢٥٦ هـ) : «إنّه كان محتسباً بالأندلس». وكل من ابن بشكوال ، وهو من القرن السادس الهجري ، وابن فرحون وهو من القرن الثامن الهجري ، يعبِّران – فيما يظهر – بالحسبة في النّصين المذكورين ، على أنها الاصطلاح الجاري في عصرهما على الألسنة . والواضح بالنسبة للأندلس ، أنّ مصطلح المحتسب قد أصبح شائعاً منذ أواخر القرن الخامس الهجري . حسبما يبدو من رسالة ابن عبدون في : (الحسبة) الذي يتحدّث عن (لثام) الملثمين إلى انه من أواخر القرن الخامس وأوائل السادس ، حسبما يبدو من كتاب : (آداب الحسبة) لأبي عبدالله السقطي المالقي (٢) .

أما بالنسبة للمشرق ، فنجد قسماً من المؤلفين المحدثين يتابعون المستشرق سيديو في كتابه : (تاريخ العرب العام) ، حيث يرى أنّ الخليفة المهدي العباسي هو الذي أسّس منصب الحسبة في الدولة العباسية باسم : (الحسبة) ، ولم يذكر سيديو ولا مَن تبعه سندهم في ذلك ، ويبدو أنه اقتبس هذا الرأي من قول أبي الفدا في أحداث سنة ١٦٠ هـ : « موت نافع بن عبدالرحمن ، الذي كان مقرئاً ومحتسبا » ، أي في عهد الهادي العباسي . وقد نسي سيديو أو لم يطلع على نصوص أخرى تردّ اسم الحسبة إلى عهد الخليفة المنصور ،

(٢) . انظر في كتاب السقطى في كتاب : (آداب الحسبة) – ص ٢٧ و٣١ و٣٣ و٣٧ .

فقد ذكر ابن سعد (٣) وابن حجر العسقلاني (٤) أنّه ولّى عاصم بن سليمان الأحول : « الحسبة والمكاييل والأوزان » بالكوفة ، كما أنّ كلاّ من الطبري والخطيب البغدادي ذكرا أنّ المنصـور ولّى أبا زكريا بن عبدالله : « حسبة بغداد والأسواق » .

ومنذ عهـد المنصور أصبح اسم الحسبة جارياً على الألسنة عنـد المؤلفين ، ولاسيما منذ أدخل المهدي العباسي ولاية السوق في نظام الدواوين ، عند توليه الخلافة (١٥٩ هـ – ١٦٩ هـ) ،ونجد الماوردي البصري الشافعي (ت ٤٥٠ هـ) في الأحكام السلطانية لا يستعمل إلاّ مصطلح الحسبة . وبها عنون الفصول المتعلقة بها في آخر الكتاب ، مما يدل على أنه كان جارياً على الألسنة بالمشرق في النصف الأول من القرن الخامس الهجري ، وذلك أيضاً نفس صنيع معاصره وبلديه قاضي القضاة أبي يعلى محمد بن الحسين الفراء الحنبلي (ت ٤٥٨ هـ) في كتابه : الأحكام السلطانية .

والحِسْبَة : من وظائف الدولة الإسلامية (مولّدة) ، يراد بها مراقبة السوق في موازينه ، ومكاييله ، وأسعـاره ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر . والمحتسب : مَنْ يتولّى ، ضبط الموازين والمكاييل (٥) .

والحسبة : منصب كان يتولاّه في الدولة الأسلامية رئيس يشرف على الشؤون العامة ، من مراقبة الأسعار ورعاية الآداب (٦) .

والحسبة : من الاحتساب ، كالعِدّة من الاعتداد،والاحتساب من الأعمال الصالحات وعند المكرُهات هو البدار إلى طلب الأجر وتحصيله بالتسليم والصبر أو باستعمال البر والقيام بها على الوجه المرسوم فيها طلباً للثواب المرجومنها(٧) .

---

(٣) . طبقات ابن سعد (٣٧/٧) .
(٤) . تهذيب التهذيب (٤٣/٥) .
(٥) . متن اللغة – أحمد رضا (٨٣/٢) – بيروت – ١٩٥٨ .
(٦) . المعجم الوسيط (١٧١/١) – مجمع اللغة العربية المصري – القاهرة – ١٩٧٢
(٧) . لسان العرب – ابن منظور (٣٠٥/١) – القاهرة .

تلك هي معنى : الحِسْبَة في اللغة ، ومعناها في الفقه النظري والتطبيقي تنص عليه مصادر لا تُعدّ ولا تُحصى ، مشرقية ومغربية ، فقد استوفى هذا الموضوع بما لا مزيد عليه .

وأصل هذا الكتاب فصول كتبت في أربعة أعداد من مجلّة : (المناهل) ١٨ و٢١ و٢٢ و٢٣ ، التي تصدرها وزارة الثقافة بالمملكة المغربية الشقيقة . والكتاب يقتصر على الحِسبَة الرسمية وظيفة من وظائف الدولة ، أما الوجه الثاني للحسبة ، وهي حسبة التطوّع ، أي الاحتساب بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من غير تولية أولياء الأمر ، وإنما يتصدى له الأفراد تطوّعاً ، تلبية لشعورهم بالواجب ، كالذي يقرأ عن بعض الخواص في العصر الأول لدولة الإسلام ، فذلك ما لم يقصد إليه الكتاب . وقد أطال في ذكر حسبة التطوّع الإمام الغزالي في الجزء الثاني من كتاب الإحياء ، والشيخ عبدالقادر الكيلاني في كتابه : (الغُنْيَة) ، وهناك مصادر كثيرة حول ذلك يمكن الرجوع إليها .

وكان الفصل الأول من الكتاب في : الحسبة بين الفقه والتاريخ والانبثاق والانفساح ، فذكر أنّ النظر في ولايات الإدارة الإسلامية ينصب على اتجاهين متوازيين : الاتجاه الفقهي الذي يرسم لها محجّة الشريعة ، ثم الاتجاه التاريخي الذي يصوّر واقع سيرها وحركتها في مختلف أطوارها .

وأعتقد أنّ هذا الفصل ، هو أهم فصول الكتاب ، لأنه استذكر أصول الحسبة في جذورها الأصيلة ، فاعتمد الكتاب العزيز والسُنّة النبوية ، ورجع إلى مصادر التاريخ ، وأثبت بما لا مجال فيه للشك ، أن الحسبة إسلامية مجملاً وتفصيلا ، وأن تخرصات المستشرقين أو قسم منهم ، ومن تابعهم من المستغربين ، بأنّ الحسبة مقتبسة من الأجانب خطأ فاحش يجب أن ينتهي إلى الأبد .

ونظراً لأهمية هذا الفصل ، في الرد على تلك التخرصات الباطلة ، ولكي يطّلع على جذور الحسبة مَن لم يطّلع عليها حتى اليوم ، لأنها أصبحت في

ذمة التاريخ وكتب الفقه ، وأصبح العمل بها غائباً عن المجتمع العربي والاسلامي ، لذلك أحاول تلخيص هذا الفصل ما استطعت الى ذلك سبيلا .

قال تعالى : (وأقيموا الوزنَ بالقِسْط ولا تخسِروا الميزان)(٨) ، وقال تعالى : (وأوفوا الكيلَ والميزانَ بالقسط ، ولا تبخسوا الناسَ أشياءهم ، ولا تعثوا في الأرض مفسدين)(٩) .

ومن عمل النبي صلى الله عليه وسلم المباشر ، ماخرّجه الترمذى عن أبي هريرة ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم مرّ على صُبْرَة طعام ، فأدخل يده فيها ، فنالت أصابعه بللاً ، فقال : « يا صاحب الطعام ما هذا ؟ » ، فقال : « أصابته السماء يا رسول الله » ، قال : « أفلا جعلته فوق الطعام ، حتى يراه الناس ؟! » ، ثم قال : « مَن غشّ فليس مِنّا » (١٠) .

وفي الصحيح عن ابن عمر انهم كانوا يشترون الطعام من الركبان على عهد رسول الله صلّى الله عليه وسلّم ، فبعث عليهم من يمنعهم ان يبيعوه حيث اشتروه ، حتى ينقلوه حيث يباع الطعام .

وخرج رسول الله صلّى الله عليه وسلّم الى المُصَلّى ، فرأى الناس يتتابعون ، فقال : « يا معشر التجار ! » فاستجابوا له ، ورفعوا أعناقهم وأبصارهم إليه ، فقال : « إن التّجار يُبعثون إلى يوم القيامة فجّارا ، إلا مَن اتقى الله وبرّ وصدق » .

وقال عليه الصّلاة والسّلام : « الحلف منفعة للسلع ، ممحقة للربح » ، هكذا كما جاء نص الحديث في هذا الكتاب، وقد وجدناه بالنص التالي : « الحِلْفُ مَنْفَقَةَ للسِّلْعَة ، مَمْحَقَةٌ للبركة » (١١) .

(٨) . الآية الكريمة من سورة الرحمن (٥٥ : ٩) .
(٩) . الآية الكريمة من سورة هود (١١ : ٨٥) .
(١٠) . حديث صحيح ، رواه الترمذي من ابي هريرة ، انظر مختصر شرح الجامع الصغير للمناوى (٢/ ٣٠٧) – مصطفى عمارة – القاهرة – ١٣٧٣ هـ .
(١١) . عن أبي هريرة ، رواه البخاري ومسلم وابو داود والنسائي ، انظر مختصر شرح الجامع الصغير للمناوى (١/ ٢٦٠) . ومنفقة : رواج البضاعة .

وقال عليه الصّلاة والسّلام : « ما نقص قوم المكيال والميزان ، إلاّ أخذوا بالسنين ، وشدّة المؤنة ، وجور السّلطان » .

وقال عليه الصّلاة والسّلام : « رحم الله رجلاً سمحاً إذا باع ، وإذا اشترى وإذا اقتضى » . ولكنّ نصه كما جاء في مصادره : « رحم الله عبداً سَمْحاً إذا باع سمحاً إذا اشترى ، سمحاً إذا قضى ، سمحاً إذا اقتضى»(١٢)

وفي صحيح مسلم ، روى عن النبي صلىّ الله عليه وسلّم : « الجالب مرزوق ، والمحتكر ملعون (١٣) » .

وقال عليه الصّلاة والسّلام : « من حقّ الإبل إعارة دلوها واضراب فحلها».

وفي الاستيعاب لابن عبدالبر : « استعمل رسول الله صلى الله عليه وسلم سعيد بن سعيد بن العاص بعد الفتح على سوق مكّة ، واستعمل (١٤) عمر بن الخطاب على سوق المدينة » .

كما ذكر عن السمراء بنت نهيك الأسدية ، أنها ادركت النبي صلىّ الله وسلّم ، وكانت تمرّ بالاسواق تأمر بالمعروف وتنهي عن المنكر ، بسوط معها .

وفي كتاب : (التيسير) لشيخ الجماعةأحمد بن سعيد أبي العباس المجيلدي ، المتوفى سنة (١٠٩٥ هـ) (١٥) . : « ولعموم مصلحة خُطّة الحسبة وعظم منفعتها ، تولىّ أمرها الخلفاء الراشدون (١٦) ، وذكر أن عمر بن الخطّاب

---

(١٢) . رواه البخاري وابن ماجة ، انظر مختصر شرح الجامع الصغير للمناوى (٣٧/٢) .

(١٣) . رواه ايضاً ابن ماجة عن عمر ، وذكر في مختصر شرح الجامع الصغير للمناوى (٢٤٧/١) انه حديث ضعيف .

(١٤) . السيرة الحلبية (٣٦٥/٣) – القاهرة .

(١٥) . من تلاميذ الأمام ابي السعود وابي محمد عبدالقادر الفاسي وابي سالم العياشي صاحب الرحلة (ت ١٠٩٠ هـ) ومن شيوخ ابي علي البوسي . وقد ولى قضاء فاس الجديدة ازيد من اربعين سنة ، كما ولى قضاء مكناسة الزيتون . .

(١٦) . الأحكام السلطانية للماوردي (٢٥٨) ، ومعالم القربة لابن الأخوة ، صدر الباب الأول في شرائط الحسبة وصفة المحتسب .

رضي الله عنه عيّن لنفس المهمّة امرأة أنصارية (١٧) في بعض أسواق المدينة ، وهي الشفاء » بنت عبدالله بن عبد شمس العدوية القرشية ، وكان يقدّم هذه الصحابية الجليلة في الرأي ، ولعله ولاّها مهمة خاصة بشؤون النساء .

وروى أن عمر بن الخطّاب رضي الله عنه مرّ على حاطِب بن ابي بَلْتَعَة ، وهو يبيع زبيباً في السوق ، فقال له : « إما أن تزيد في السِّعر ، وإما أن تخرج من سوقنا » (١٨) . وروى عنه أيضاً انّه رأى رجلاً خلط اللّبن بالماء ، فأراقه عليه (١٩) .

وروى عن عمر بن الخطّاب رضي الله عنه أنه قال : « لا يتّجر في سوقنا إلاّ مَن تفقّه في دينه ، وإلاّ أكل الرِّبا شاء أو أبى » .

كما كان يُعَيّن موظفاً خاصاً بالمهمة ، فقد جعل السّائب بن يزيد عاملاً على سوق المدينة ، وكذلك عبدالله بن عُتْبة (٢٠) ، وعين على السوق أيضاً سليمان بن أبى حَثْمَة ، وكان من فضلاء المهاجرين (٢١) ، وقد ورد في هذا الكتاب أنه من فضلاء المهاجرين ، وفي الاستيعاب أنه معدود في كبار التابعين .

واستعمل عثمان بن عفان رضي الله عنه الحارث بن الحكم بن العاص على السوق ، يشرف على المباع والمشترى فيه (٢٢) ويرعى الموازين ويأخذ العشور(٢٣)

---

(١٧) . في جمهرة ابن حزم ايضاً ، كان عمر استعملها على السوق .
(١٨) . مختصر المزني . (٩٢/٤) وآداب الحسبة للسقطى .
(١٩) . الحسبة في الأسلام لابن تمية .
(٢٠) : ابو عبيد – الأموال – (٧١١) ، والأم للشافعي (٢٠٥/٤) .
(٢١) . ابن عبدالبر – الاستيعاب (٦٤٩/٢) – تحقيق محمد علي البجاوي – القاهرة .
(٢٢) . البلا ذري – أنساب الأشراف (٤٧/٥) ، وقد ورد اسمه الحارث بن الحكم ، وهو الحارث بن الحكم بن ابي العاص ، انظر جمهرة انساب العرب (٨٧ و ١٠٩ و ٢٥٣) .
(٢٣) . تاريخ الخميس للديار بكري (٢٦٧/٢) .

وفي كتاب : (التيسير) المذكور آنفاً ، ما يروى أن عليّ بن أبي طالب كرّم الله وجهه ورضي عنه ، كان يأمر بأبعاد ما يوذي المسلمين في الطرق العامة ، وروى انّه ضرب جمّالاً لأنّه أثقل على جمله ، وأدّب التجار الذين تجمّعوا حول الطعام ، ولم يتركوا منفذاً للمرور ، كما روى أنه كان أحرص على مراقبة الموازين والمقاييس . ويحكى البلاذري أنه كان يطوف بسوق الكوفة وبيده الدرّة ليتأكد من أنّ الأوزان والمقاييس الصحيحة هي التي تستخدم (٢٤) .

وهكذا انبثقت هذه الولاية في العهد النبوي ، واستمرت في عهد الخلفاء الراشدين المهديين ، وبما أنّ الحِسبة كانت تتمّ وتتركز في السّوق في معاملات يومية ، فقد أُطلق على هذا النشاط في بداية الأمر اسم : ولاية السوق ، وأُطلق على المتولى فيه اسم : صاحب السوق . وبما أنّ هذا النشاط كان منصباً على إصلاح ما تراه الرسالة الإسلامية فاسداً ، وغير صالح ، فقد كان مرد هذا النشاط إلى : الأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر .

ومن الواضح أن أهمية الشخصيات التي تولّت هذه المهمّة في السّوق ، والكثرة الكاثرة لما تقع عليه مروياً في هذا الباب ، وعلى هامشه ، كما نرى عند الإمام الغزالي في : (الإحياء) وفي : (الاقتصاد في الاعتقاد) ، وعند ابن تيميّة في كتابه : (الحسبة في الإسلام) ، ليجعل الموضوع أبعد في النظر وفي النظرة لهذه التراتيب الإسلامية ، من الوقوف عند احتذاء النظام الذي كان معروفا عند البيزنطيين ، ثم قام في أوروبا الوسيطة عند الرومان الغربيين وقبلهم عند اليونان ، ويقوم على تعيين موظفين لمراقبة الموازين والمكاييل والمهن على ما يعرض للبيع ، إن كان صالحاً ، وذلك أنّ التوجيهات الإسلامية كانت لها ميزتها ، وقد نضجت بتأثير مزاج أهلها ، ووردت في القرآن الكريم ، وفي عمل النبيّ صلىّ الله عليه وسلّم وصحابته رضي الله عنهم ، قبل انسياح المسلمين

---

(٢٤) . فتوح البلدان للبلاذري (٢٩٩) .

في بلاد الروم أو اليونان التي فتحوها ، فلن يخطر على البال أنهم تأثروا بالروم واليونان فأنتحلوا تراتيبها وأنظمتها . ولن يغرب عن البـال أن المسلمين ، وإن كانوا متسامحين مع أهل البلاد المفتوحة في شؤون دينهم ، إلاّ أنهم كانوا يفرضون في الشؤون الاقتصادية – ومنها نظام الأسو اق – تطبيق وجهة النظر الإسلامية ، إلاّ إذا كان السائد في البلاد المفتوحة ما لايخالف تعاليم الإسلام . فقد قال القاضي شريح للغزالين : « إذا كانت بينكم سُنّة،فسنتكم بينكم »(٢٥)، فهو ضرب من الحريّة التي كان المسلمون يسمحون بها في البلاد المفتوحة ، ما لم تتعارض مع جوهر الوجهة الإسلامية . والمعروف أنّ أنظمة السوق عند البيزنطيين كانت في إطار جماعاتهم الحرفية المعروفة بالنقابات التي ضمّت كبار التجار وأصحاب السّفن والدكاكين والصُنّاع ، وكان الوالي أو الحاكم في المدينة هو الذي يديرها ويعيّن رؤساءها الذين ينفذون تعليماته ، ثم هي تهمين على الحياة السياسية ، وتقوم على مصالح الدولة الجبائية ، كما أنها تنقسم إلى نقابات صنّاع ونقابات أساتذة ، لاختلاف مصالح الفئتين (٢٦) . وشهدت أوروبا الغربية الوسيطية صلاحيات بهذا الجهاز في القرن الحادي عشر الميلادي أشد بعداً وتعقيداً عن المقاصد الإسلامية ، وذلك ما يقيم اختلافا بين كلّ تلك الأنظمة وبين نظام الأمناء والعرفاء في تراتيب الإسلام ، حيث أنه النظام الذي نشأ في البداية شعبياً من ذات نفسه ، وكان الأمناء يهتمون بالناحية الدينية ، ويختار الحرفيون أمناءهم من أهل التقوى والصّلاح ، كما أن النظام الأسلامي يفسح لليهودي والنصرانيّ ، في حين أنّ جماعة الحرفيين او نقاباتهم عند الآخرين مقصورة على طائفة مسيحية بعينها ، وكلها ظواهر وخصائص تجعل الأصل والهدف مختلفين منذ البداية ، بل المعروف الذي لا يتطرق إليه الشك ، هو انتقال منصب الحسبة وأعمالها من الدولة الإسلامية إلى المملكة

(٢٥) . طبقات ابن سعد (٩٤/٦) ، واخبار القضاة لوكيع – (٣٠١/٢) .
(٢٦) . الروم في سياستهم وحضارتهم – أسد رستم – (١٧) .

الصليبية ببيت المقدس ، وإن الصليبيين استخدموها كما استخدمها المسلمون بذاتها وصفتها حسبما هو واضح من نصوص كتاب النظم القضائية ببيت المقدس المطبوع في مجموعة مؤرخي الحروب الصليبية (٢٧) .

وهكذا ، فأن الأجانب هم الذين اقتبسوا الحسبة الإسلامية وطبّقوها ، ولم يقتبس المسلمون هذا النظام من الأجانب ، كما أنّ نظام الحسبة الإسلامي كان من أجل الشعب وخدمته ، ونظام الحسبة الأجنبي كان من أجل الحكّام وخدمتهم ، وأين الثرى من الثُريا ! ؟

وتوالى الإشراف على الأسواق في العهد الأموي ، فكان لزياد بن أبي سفيان عامل على سوق البصرة ، كما عرف الوليد بن عبدالملك بعنايته بالأسواق ، فكان يمرّ على البقال سائلاً عن السِّعر ، ويطلب منه الزيادة في الوزن (٢٨) ، وعيّن ابن حرملة ، وهو مولى لعثمان بن عفان رضي الله عنه ، عاملاً على سوق المدينة (٢٩) .

والملحوظ أنّ عمل الرسول صلىّ الله عليه وسلّم وخلفائه الراشدين في نطاق السّوق ، قد أوحى بأن يطلق عليها اسم : (ولاية السّوق) في بادىء الأمر ، كما ذكرنا ذلك من قبل .

وتدل عبارات المصادر التي ورد فيها هذا عن عهد الأمويين بالذات ، على أنّ صاحب السوق قد أصبح يطلق عليه في العهد الأموي : (العامل على السوق)، وأصبح من مهامه أيضاً – بطبيعة اتساع الأسواق باتّساع الفتوح – التحكيم في الخلافات التي كانت تشجر بين الحرفيين وأصحاب المهن (٣٠) .

---

(٢٧) . انظر الملحق الثالث من كتاب : (نهاية الرتبة) – (١٢٥) – دار الثقافة – بيروت – بتحقيق الدكتور السيد الباز العريني .

(٢٨) . الطبري (٤٩٦/٦) والعقد الفريد (٤٢٤/٤) والكامل لابن الأثير (٩/٥) ومختصر الدول لابن العبري (١١٣) .

(٢٩) . الطبري (٢٠٢/٦) .

(٣٠) . الأغاني للأصبهاني (٢٧٦/٨) .

وقد تولى في العصر الأموي أيضاً مهمة السوق كلٌّ من داود وعيسى ابني علي بن عبدالله بن عباس ، وقد كانا من أعوان خالد بن عبدالله القسْري(٣١) .

وفي عهد ابن هُبَيْرة في مدينة واسط (١٠٣ هـ - ١٠٦ هـ) تولى منصب العامل على السوق عيسى بن عبدالرحمن ثم بعده إياس بن معاوية (٣٢) .

أما الأندلسيون ، وهم من بين الذين عنوا بهذه الولاية ونظامها ، فقد درجوا أن يطلقوا عليها اسم : (أحكام السوق) ويطلقون على مَنْ ينصب فيها : (صاحب السوق) . وورد باسم : (المشرف على السوق) في أخبار الرستميين بتاهرت عند المؤرخ ابن الصغير ، وحدد اختصاصاته بنفس اختصاصات صاحب السوق ، فهو اصطلاح خاص بفقهاء خوارج الأباضية بالمغربين : الأدنى والأوسط ، والمعروف انهم يأنفون من الاقتداء بغيرهم من الفرق ، فلجأوا إلى وضع اصطلاحات خاصة بهم .

وكان الفصل الثاني في : (اصطلاح الحسبة) ، وقد تطرقنا إلى ذكره في صدر هذا العرض لهذا الكتاب .

وكان الفصل الثالث في : (أصل اختصاص الحسبة وتطوره) ، فإنّ تأسيس ولاية الحسبة على نصوص من الكتاب ومن السنة ، ومن أعمال الخلفاء والصحابة رضي الله عنهم ، قد أضفى عليها أهمية خاصة وجلالاً وهيبة ، كما أنّ قيامها كما ذكرنا على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، قد جعلها في صميم تعاليم الدين ، ومن هنا قالوا : « إنّ الحسبة مأخوذة لغةً من الاحتساب » ، فيقال : احتسب فلان على فلان : أنكر عليه قبيح عمله ، وهذا من صميم عمل المحتسب ، أو مأخوذة من الاحتساب في الأعمال : وهو البدار إلى طلب الأجر ، وهذا مما ينطبق على والي الحسبة المُعيّن ، وعلى مَن ينصب نفسه أيضاً في

(٣١) . الطبري (٢٠٢/٦) .
(٣٢) . أخبار القضاة لوكيع (٣٥٧/١) .

نطاق ما حدّد له الشرع للأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر ، في شؤون السوق ، فكلاهما في عمله مأجور .

وقد دفعت الأهمية العظمى للحسبة إلى القول بأن القضاء نفسه باب من أبواب الحسبة ، حسبما نقل ذلك صاحب كتاب : (نصاب الاحتساب)(٣٣)

والحقيقة أنها قولة معبِّرة ، ولكنها في حاجة إلى زيادة بيان ، وقد تولّى كثير من الفقهاء في المشرق والمغرب هذا البيان ، ولكن الماوردي ومثله أبو يعلى الفراء ، أجمع أصحاب هذه المقارنات قولاً ، وأوسعهم توضيحاً ، فأفاد الماوردي : « أنّ الحسبة واسطة بين أحكام القضاء وأحكام المظالم ، فأما ما بينها وبين القضاء فهي موافقة لأحكام القضاء من وجهين ، ومقصورة عنه من وجهين ، وزائدة عليه من وجهين ..... وبعد ما قارن الماوردي وأبو يعلى بين الحسبة وبين ولاية المظالم ، واستعرضا الفروق التي تعيّن اختصاص كل واجب من هذين الواجبين ، خلصا إلى أن واجبات المحتسب وسط بين مهمة القاضي وبين مهمّة صاحب المظالم ، ثم يتابعان الكلام على الحسبة في فصول ، موضّحين فيها اختصاصات المحتسب ، وبعد ها يأخذان في تفريع ما يدخل تحت رفع المنكر ، وما يدخل تحت الأمر بالمعروف ، ناظرين إلى ما فيه حقّ الله ، وما فيه حقّ العبد، وما يجتمع فيه الحقّان معاً ، وهي طريقة الفقهاء وتوهجّ أذهانهم التي تنزع إلى الترتيب والإحاطة والشمول والإلمام بالصور العقلية ، توخياً لإدراج كل نازلة بعينها في مسلكها إلى الحكم الشّرعي ، ولكنه لا يعطي صورة كاملة عما استقرّت عليه هذه الخطة بعوائدها في المظهر وفي التسيير ، كما أنّه – وإن دلّنا على معالم الطريق – فإنه لا يعطينا وجهاً واضحاً لمسيرتها التاريخية ، فالواقع أن النظرة إلى اختصاص هذه الخطة من خلال التطورات التي طرأت على المجتمعات الإسلامية في المشرق والمغرب ،

---

(٣٣). انظر : العز والصولة في نظام الدولة – ابن زيدان (٦١) ، ومؤلف كتاب : (نصاب الحسبة) غير معروف ، ولكن يظهر من الشذرات المنقولة عنه انه حنفى المذهب .

وبين أجناس بشرية مختلفة ، من شأنها أن تشرف بالباحث على أبعاد هذه الخطة ، ومدى سعة تصرّف صاحبها الذي أصبح بحكم عمله القائم على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، مشرفاً على حماية الأخلاق الإسلامية بوجه عام ، وذلك لشمول المهمّة ما هو منكر في الدين وما هو منكر في دنيا الناس ، ولاشك أنّ هذا الجديد ، يجلىّ في باب المعاملات ، نظراً لاتساع العمران وتوفر الحاجيات والضروريات والكماليات ، وتشابك المطالب ، وقيام الصناعات وتفرّعها في غير ميدان ،وكلّ هذا مما يجري أكثره في السوق بمعناها الواسع والمحدود ، فقد انفتح هذه الخطة بانفساح السوق ، باب التعزير الشرعي ، الذي تطبق فيه عملية إحلال القضايا والنوازل والتصرفات والانحرافات الدينية والدنيوية محلها من أبواب الشريعة ، وذلك للعلم بأنّ التعزير هو العقوبة باجتهاد الحاكم ، حيث لا يكون لها في الشرع حدّ معروف ، أو كفارة .

وبالرغم من أن الفقهاء اجتهدوا ، وحدّدوا لصاحب هذه الخطّة عقوبات معدودة ، فالملحوظ أنهم فسحوا له في مجال الاجتهاد والتدبير بما وكلوا إليه من الأخذ بما يراه ، حسب درجة المخالفة ، ومبلغ خطرها ابتداء من التأديب والزّجر إلى الجلد والحبس والنّفي ، أو العقوبة بالمال ، (٣٤) إن اقتضاها الحال ، وأبيح له التخفيف في كلّ هذا، ابتداء من الاكتفاء بالانذار والامهال ، وهو ما أطلق عليه المؤلفون في هذا الشأن : (التريّث) إلى العفو والتغافل ، ومن باب هذا أنه يستند في اجتهاده الى مجّرد دلائل ، وقرائن ، والأحوال التي لايلزم أن تشكل شبهة عند الفقهاء ، وذلك إنه يعتمد حتى على مايتحلى به المخالف من الزيّ وأهله ، وعلى ظهور مخايل المروءة ، وأيضاً حتى على مايبدو من أنّ المخالفة لا تعدو الفلتة التي ليست لها سابقة .

---

(٣٤). التعزيز بالمال مشروع في مواقف خاصة في مذهب الامام مالك في المشهور عنه ، وعن الامام أحمد في مواضيع بلا نزاع عنه ، وفي مواضيع فيها نزاع ، ومشروع أيضاً عند الامام الشافعي في أحد الأقوال .

والفصل الثالث عنوانه : (جولة مع المحتسب في نطاق اختصاصاته الواسعة كما مارسها ، أو كما ارادها وتصورها الفقهاء) ، وفيه : ونسير مع المحتسب في مختلف مناطق عمله ، واولها السّوق الذي انطلقت منه هذه الوظيفة الدينية منذ بدايتها ، وجرى فيه على مدى التاريخ أكثر نشاطها ، ونحن في وجهتنا إلى السوق بمعناه الواسع ، كما أصبح بعد اتّساع العمران وتحضّر الأمصار ، أسواقاً مختلفة باختلاف مقتضيات المعايش والمطالب في التّجارة والصناعة ، وجميع ما تستوعبه الحياة الأقتصادية . وسنرى أن نشاط المحتسب ، وهو النهي عن المنكر ، يتركز على قطع انواع التحايل في المعاملات وعلى تأمين سلامة المعروضات ، من مآكل ومشارب وملابس ، وآنية ، ومتاع ، وعلى صحّة النقود المتعامل بها . وعلى العمل في دار الضرب ، فقد يكون فيها من الزيف ما لا يظهر ،وعلى محاربة الاحتكار ، وتقدير الأسعار ، والالزام بها(٣٥)، ثم محاربة الغلاء ، والغشوش في الثمن وفي المثمّن ، وفي المكاييل والموازين والمقاييس ، والأقفزة والأمداد . وفيما يتعلق بمطلٍ أو دين مستحق مع الإيسار .

ونفس هذه الرقابة تطبق في الصناعة ، فيتوجّه نظره إلى حصر المهنيين في أهل مهنتهم . وإلى متابعة غشّهم ، وإلى فرض اتباع المناهج المعينة في كلّ صناعة ، دفعاً لما يُخشى من ارتجال يؤدي إلى التزييف فالضياع ، سواء بالنسبة إلى مستوى الصناعة نفسها ، أو بالنسبة للمتجرين والعاملين فيهـا ، أو لمن يستهلكون منتجاتها .

وقد اندرج تلقائياً تحت نظرية الشمولية في مجال الأسواق ، تدخّله في الترتيبات ، فليزم أهل الصناعات التي تستعمل مواقد النار لصهر المعادن ، أو

(٣٥) . بعض المذاهب الفقهية لا تجيز التسعير ، استناداً الى مدارك معلومة ، لذلك نرى صاحب كتاب : (نهاية الرتبة) يقول في الفصل الثاني من الباب الثاني : « ولا يجوز للمحتسب تسعير البضائع على اصحابها ، ولا ان يلزمهم بيعها بسعر معلوم » ، انظر تحقيق المسألة في : (المنتقى) للباجي ، وفي كتاب (التيسير) للقاضي المكيلدي .

غيرها ، أن تكون مصانعهم في غير منطقة العطّارين مثلا ، أو باعة القماش ، لتلافي الحرائق ، ولتقريب الناس إلى اغراضهم بأسواق معينة لأنواع مطالبهم . ومثل هذا يطبقه على باعة الأغذية المطبوخة من شوائيين وقلايين ، ودواسين ، وغيرهم من الذين تقوم حرفهم على وفرة النار ، وشعلة الزناد .

ولا يختلف اختصاص محتسب في المشرق عن محتسب في المغرب ، إلاّ بحسب أهمية اهتمـــام الدولة بالأمر ، أو بحسب اهتمام أولى الأمر ، إلى نوع اختصاص المحتسب في بعض الدول وبعض الأزمنة ، فتجد المحتسب في كتاب الشيزري المشرقي ، لا يشمل نظره بعض المجالات كسوق الرقيق وصناعات السكر والمدارس التي اتّسعت عن نطاق الكتاتيب ، في حين أن هذا مما يدخل في اختصاص محتسب الأندلس والمغرب .

ويقال مثل هذا بالنسبة إلى المذهبية الفقهية ، حيث نرى بعض المذاهب تجيز الالزام بالأسعار المقدرة في الأسواق ، على أنه لا يكاد يظهر أثر للخلاف المذهبي في شؤون الحسبة ، نظراً لتعلّق النظر فيها بالأهداف الأسلامية التي تتوخاها جميع المذاهب الإسلامية .

وقد استدعت هذه الرحابة في مجال أشراف المحتسب على الأسواق ، أن يُعزز إدارته بالنوّاب (٣٦) ، ولاسيما في الأمصار الكبيرة ، ذوات الضواحي الآهلة ، وبخدمة مسخّرين في مهمّات تسيير أشغاله ، وأعوان فنيين من وجوه أصحاب الصنائع ، الذين يستظهر بهم في هذه المهام ، ليطّلعوا على خفيّ أسرار أصحاب الحرف والتجارة ، حتى لا يخفي عليهم من أمور السوّق كثير ولا قليل ، ولا يستتر عليه من الأمر دقيق ولا جليل ، وهؤلاء المساعدون هم الذين أصبح يطلق عليهم في المغرب وفي المشرق (٣٧) :

---

(٣٦) . صبح الأعشى (٦٣/١٢) .
(٣٧) . صبح الأعشى (٢١٤/١١) .

العرفاء والأمناء ، وقد أصبحوا مع توالي الأيام وظهور جدوى النظام ، وبصفة خاصة في الأندلس والمغرب ، متصرفين تحت إشراف المحتسب في النوازل المهنية ، سواء فيما بين الشغالين والمشتغلين . أو فيما يحدث أيضاً من قضايا ومشاكل بين أهل الحرف والباعة . وبين الزبائن ، كما استقر عليه أمر هؤلاء الأمناء في المملكة المغربية .

ولا حاجة بالباحث المؤرخ هنا ، لينظر إلى تلك الهيئات التي كانت معروفة في إسبانيا ، منذ العصر الروماني ، وهي تشبه النقابات الرومانية ، وكان لكل منها رئيس مسؤول عن أهل الحرفة . حتى يقال : إنّ هيئة الأمناء الإسلامية في الأندلس ، إنما هي نسخة رومانية ، وتنظيم رتب وطوّر تطويراً على النهج الأسلامي . فالواقع أن الهيئات الإسبانية الرومانية . كانت مسؤوليتها مقصورة على الضرائب من أهل الحرف لصالح صندوق الدولة ، ولم تكن لها صلة بنظام السوق ، ولا بمصلحة المهنة أو قضايا المهنيين ، في حين أنّ حقوق المصلحة العامة ، هي التي كانت رائد النظام في الأمصار الإسلامية .

ونستطيع أن نتمثّل هذه الجولة مع المحتسب ، ونستعرض مرة أخرى ما هنالك من خلال الصورة التي يعرضها علينا : (المقرىء) في كتابه : (نفح الطيب) (٣٨) عن محتسب الأندلس ، فنسير في موكبه التقليدي — وهو نفس موكب المحتسب في أمصار المغرب) — كما هو نصه : «يمشي بنفسه راكباً إلى الأسواق ، وأعوانه معه ، وميزانه الذي يزن به الخبز في يد أحد الأعوان ، لأن الخبز عندهم معلوم الأوزان ، للربع من الدرهم رغيف على وزن معلوم ، وكذلك للثمن ، وفي ذلك من المصلحة أن يرسل المبتاع الصبى الصغير ، أو الجارية الرعناء ، فيستويان فيما يأتيانه به من السوق مع الحاذق

(٣٨) . نفح الطيب للمقري (٢٠٣/١) — المطبعة الأزهرية — تحقيق الشيخ محمد محمد الدين عبدالحميد رحمه الله .

في معرفة الأوزان ، وكذلك اللحم تكون عليه ورقة بسعره ، ولا يجبر الجزار أن يبيع بأكثر أو دون ما حدّده له المحتسب في الورقة ، ولا تكاد تخفي خيانته ، فأن المحتسب يدس عليه صبياً أو جارية يبتاع أحدهما منه ، ثم يختبر المحتسب الوزن ، فأن وجد نقصاً قاس على ذلك حاله مع الناس ، فلاتسأل عما يلقى ، وإن كثر منه ذلك ولم يتب بعد الضرب والتجريس في الأسواق ، نُفِي من البلد » .

ونخرج مع موكب المحتسب في زحمة السّوق ، ونسير في ركابه إلى جولة أخرى ، لرعاية المظاهر الدينية ، والحرُم الشرعية ، فنراه يلزم بأقامة الجمعة في مدينة اكتمل لأقامتها النّصاب الشرعي لمن يقيمونها ، وبصلاة الجماعة ، وصلاة العيد ، وإقامة الأذان ، والرقابة على المؤذنين ، ومنتهكي حرمة الصيام ، والزّناة ، وأصحاب الملاهي المحرّمة ، وشاربي الخمر ، والمتطلعين إلى منازل الناس وسيرة النساء في الغدو والرواح ، ومبلغ محافظتهن على ما حدّده الشرع لأيام العدّة ، حتى لا ينتهكن التعاليم الأسلامية ، من وراء التّحديد الزمني المقرّر .

ويمكن أن يقال : إنّ هذه مجرّد أمثلة ، والكلمة الجامعة هي محاربة البدع وصيانة الجماعة الإسلامية بوجه عام . وقد يتُساءل هنا عن وجه التدخّل في أشياء يعتبر بعضها من باب : ما بين العبد وربّه ، أو مما فيه عذر غير ظاهر للعيان ، كالأفطار في رمضان . والجواب على ذلك ، هو أن العيار في ذلك هو النظر إلى الجانب الأخلاقي ، والروح الجماعية ، والجوّ الديني ، التي تمتاز به المدينة الإسلامية ، ويفرق به بين : دار الإسلام ، ودار الشرك ؛ فترك صلاة الجماعة أو العيد وما هو من قبيل التجمع الإسلامي ، ولو كان غير فرض ، كصلاة العيد ، من شأنه أن يعطّل المظهر الإسلامي ، فيصبح المجتمع بمعزل عن الهيمنة الروحية . ومن هنا نفهم انّه ليس للمحتسب التدخّل في الشخص الذي يعلم أنه لا يصلي غير الجماعة أو الجمعة أو العيد ، وكذلك

الأمر بالنسبة إلى المفطر في رمضان ، فليس من حقّه أن يتجسّس عليه في بيته ، أو في ركن من الأركان ، وإنما النظر ينصبّ على الإفطار علانية ، وسط جمهور من الناس ، ثم أن تدخّله لا يعني أكثر من أن يحضّه على التّستّر مراعاة لشعور الناس ، أو تجنّباً لما قد يُفهم من أنّه يتحدى شعائر الأسلام .

وفي جولة أخرى ، نجده يتصدى للمصالح العمومية والفردية : يقصد مجالس الولاة ، فيأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ، ويلاحظ ما إذا كانت الاجراءات تسير على مقتضاها أولا تسير ، كأن يغفل القاضي عن نصب وكيل عن المرأة البرزة (٣٩) أو الصبي أو الضعيف .

وينكر على الحاكم إذا احتجب عن الأحكام لما في ذلك من إعنات الناس ذوي المصالح الذين يقصدونه لطلب النِّصْفَة مثلاً في مبيعات لاتحتمل التأخير لما يسرع إليها من الفساد . ولأن بعضهم قد يقصده بعدما قطع المسافات ، وربما كان شيخاً أو مريضاً ، أو مثقل الكاهل بالأغراض .

وينمّي اموال الأوقاف بملاحظة أصولها ، والمحافظة على ريعها ومحصولها ، وإمضاء مصارفها على شروط واقفيها (٤٠) .

كما يلزم ذوي الهيئات بالصيانة التي توافق مناصبهم ، وتوافق مراتبهم .

وينقلب إلى مجال آخر ، فيمنع من المضايقات في الطرقات ، ويمنع الحمالين من الأكثار من الحمل ، وأهل السفن من حمل ما لا تسعه ، ويخاف عليها منه ، ومن الإقلاع عند اشتداد الرياح ، ومن ذلك أن يزيل من الاجنحة والرواشن ، ومقاعد الأسواق ، ما يضرّ بالناس ، ويمنع في الشوارع وضع الأساطين ، وبناء الدكاكين متصلة بالأبنية المملوكة ، وغرس الأشجار ، ووضع

---

(٣٩) . البرزة : المرأة التي تجالس الرجال .

(٤٠) . صبح الأعشى (٤١٦/١) .

أحمال البضائع والأطعمة وغيرها ، ويحكم على أهل المباني المتداعية للسقوط بهدمها ، وإزالة ما يتوقع من ضررها على السابلة .

ويختار الحراس في المخافات والقبائل (٤١) .

ويشرف إشرافاً شاملاً على ما يخلّ بالصحة العامة في الشوارع ، كربط الدواب على الطريق ، ورمي أزبال الدور والمطاعم ، أو إرسال الماء من الميازيب، أو تجمعّ الأوحال . ويشمل نظره في ذلك إلى ماترجع تبعته الشرعية إلى السلطة أو إلى الأفراد .

ويتصدىّ لمن يتعرض بالمسألة بين الناس ، في حين أنّه ذو جلد وقوة في العمل ، أو ممن يسّر الله عليه .

ويمنع المتكسّب بالكهانة ، فلا يترك الطوائف المهرّجة للتغرير بالنساء ، وجهلة الرجال (٤٢) ، ويمنع كتاب الشوارع أن يسترزقوا برسائل المحبّة والبغض ، وألاّ يكتبوا سبّ أحد أو هجوه ، أو ما يتضمن سعاية للسلطان ، وشيئاً من هذا القبيل ، ولا يبيح لهم سوى ما يجري بين الناس .

كما يتصدّى لمن ينصب نفسه للتعليم من المؤدّبين ، وليس من أهله ، لما في ذلك من تغرير بالناس (٤٣) ، ويتدخّل (٤٤) في برامج تعليم الصبيان ، فيلزم المؤدّبين بتعليم السّور القصار بعد حذق الحروف وضبطها بالشّكل ، ويدرّبهم على ذلك ، ثم يعرّفهم عقائد السُّنن ، ثم أصول الحساب وما يُستحسن من المراسلات والأشعار ، ومن كان سِنّه فوق سبع سنين ، أمره بالصّلاة ، كما يضرب (٤٥) على أيدي هؤلاء المعلمين إذا ما بالغوا في معاقبة الأطفال المتعلّمين.

---

(٤١) . كتاب : (الولايات) للونشريسي (٦٠) .
(٤٢) . آداب الحسبة للسقطي (٦٨) وصبح الأعشى (٤٧٢/١٢) .
(٤٣) . الأحكام السلطانية للماوردي (٢١٦) – مطبعة السعادة .
(٤٤) . نهاية الرتبة – الباب الثامن والثلاثون في الحسبة على المؤدبين .
(٤٥) . مقدمة ابن خلدون (٧٤٦/٢) – تحقق الدكتور عبدالواحد وافي .

ويتصدّى أيضاً لمن ينصبون أنفسهم للتطبيب من الكحّالين (أطباء العيون) والجراحين وغيرهم ، وجرت العادة في المشرق (٤٦) أن يمتحنهم المحتسب بكتاب حُنَيْن بن اسحق ، أعنى العشر مقالات في العين . وبالنسبة للجراحين فتجب عليهم معرفة كتاب جالينوس ، المعروف بقاطاجانس في الجراحة والمراهم ، وأن يعرفوا التشريح وأعضاء الأنسان ، والعضلات ، والشرايين ، والأعصاب ، وقطع النواصير وأن يكونوا مزوّدين بالمباضع والآلات التي يحتاج إليها (٤٧) .

وفي النطاق الآخر من اختصاصه يُلزم السّادةَ حقوقَ العبيد والإماء ، وحقوق البهائم من العلف ، ويمنع أصحابها من تحميلها مالا تطيق (٤٨) ، ويأمر مَن أخذ لقيطاً وقصّر في كفالته ، أن يقـوم بحقوق التقاطه من التزام كفالته أو تسليمه لمن يلتزم بها ، ويضمن واجـد الضوال إذا قصّر في القيام بها ، وينفذ الأحكام بكفالة الصغار ، حين يصدرها القاضي ، ويلزم الآباء بلحوق النسب إذا ثبت عليهم لدى القاضي فراش الأم .

ويشتدّ على المخنّثين (٤٩) حتى لا يطلقوا الأصداغ ويتهانفوا (٥٠) في المجتمعات . وله المنع من مواقف الريب ومظان التّهم ، فيردع مَن يُماشي النساء من غير محارمه ، أو يعتاد الوقوف بين منازل الناس . وهذا مجرّد تمثيل ، وكم له من نظير . ولا ريب أنّ إنكار المحتسب لهذا وشبهه ، قد روعى فيه تلافي فوات ما لايستر من انتهاك المحارم ، وارتكاب المحظورات ، في الأنفس والأعراض .

---

(٤٦) . نهاية الرتبة – الباب السابع والثلاثون .

(٤٧) . لاريب انه كانت هناك ترتيبات لمثل هذا الامتحان ، وعلى يد الأطباء الذين كانوا يديرون المستشفيات وغيرها من المؤسسات الصحية العامة .

(٤٨) . الولايات – للونشريسي – (٦) والأحكام السلطانية للماوردي (٢١٤) .

(٤٩) . آداب الحسبة للسقطي (٦٨) .

(٥٠) . تهانفوا : تضاحكوا وتعجبوا . وتهانف بفلان : تضاحك . هانف فلان غيره : لاعبه .

وعند مثل هذا ، ينشأ في النفس السؤال عما إذا كان يصحّ لصاحب هذه الولاية التجسّس ، وهتك الأستار ، لتلافي ما قد يحصل من المآسي ، وذلك في صورة ما إذا أخبره مَن يثق بصدقه أن رجلاً خلا بامرأة ليزنى بها ، أو برجل ليقتله ، وجواب الفقهاء في هذا أنّ التجسّس وهتك الأسرار جائز إذا وصل الأمر إلى هذا الحد ، لأنه ليس مما يدل في قول نبيّنا عليه الصّلاة والسلام : « مَن ابتلى منكم بهذه القاذورات ، فليستتر » . أما إذا كانت الأستار مسدلة على ما لا يخشى معه إراقة ماء الوجوه ، أو سفك الدماء ، فلا يجوز التجسّس فضلاً عن إزعاج السرّب ، وكبس الكناس ، وتكسير الكاس والطاس . وقد حكى الماوردي : « أنّ عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، دخل على قوم يتعاقرون على شراب ، ويوقدن في أخصاص ، فقال : نهيتكم عن المعاقرة فعاقرتم ، ونهيتكم عن الأيقاد في الأخصاص فأوقدتم » ، فقالوا : « يا أمير المؤمنين ، قد نهاك الله عن التجسّس فتجسّستَ ، ونهاك عن الدخول بغير إذن فدخلت » ، فقال عمر : « هاتان بهاتين » ، وانصرف ولم يعرض لهم.

والفصل الرابع في : (الجانب التطبيقي في الحسبة) ، وفيه : يتطرق المؤلف الفاضل إلى الكتب الرئيسة المؤلفة في الجانب التطبيقي للحسبة ، وهي : (نهاية الرتبة في طلب الحسبة) لعبدالرحمن بن نصر بن عبدالله العدَويّ (ت ٥٨٩ هـ) الشيْزري الشافعي ، ثم حذا حذوه محمد بن محمد بن احمد المعروف بابن الأخوّة (ت ٧٢٩ هـ) القرشي الشافعي الأشعري في كتابه : (معالم القربة في أحكام الحسبة) ، ومحمد بن أحمد المعروف بابن بسّام المحتسب في كتابه : (نهاية الرتبة في طلب الحسبة) وهو نفس اسم كتاب الشيزري ، ولكنه أضـــاف أبوابا وافادات من خبرته في الحسبـــة ، فأضفت على كتابه أهمية وشخصية متميزة ، وقد حققه وعلق عليه الاستاذ حسام السامرائي وطبع سنة ١٩٦٨ ، وكل من كتاب ابن الأُخوّة وابن بسّام يدل على شخصية متميزة لا تتيح الأخذ بقول الدكتور برناور : « إنّ هذه الكتب الثلاثة ليست إلا كتاباً واحدا » ، وهذه التفاتة قيمة من المؤلّف الفاضل .

وعلى كلّ حال ، فأن كتاب : (نهاية الرتبة) يعتبر الكتاب الأم في الحسبة التطبيقية بالنسبة إلى الديار المشرقية ، وأما في الأندلس والمغرب ، فهناك كتاب : (آداب الحسبة) لمؤلفـه الفقيه العالم الرحالة أبي عبد ابن محمد بن ابي محمد السقطي المالقي ، وقد عاش في أواخر القرن الحادي عشر وأوائل الثاني عشر ، فكتابه يعتبر أقدم من الشيزري المشرقي السالف الذكر . ويلحق بكتاب السّقطي ، مع بُعد السنين كتاب : (الاقنوم في جميع العلوم) للمؤلف المغربي وهو أبو زيد عبدالرحمن بن عبدالقادر الفاسي (ت ١٠٩٦ هـ) وتحتوي هذه المعلمة على فصل كبير في : (علم الحسبة) .

ولكل من المؤلفين الثلاثة : الشامي الشيزري ، والأندلسي المالقي ، والمغربيّ الفاسيّ ، هدف واحد وطريقة واحدة ، تتركز على إرشاد صاحب السوق ، فمؤلفاتهم مرتّبة على أبواب ، بعدد المهن والصناعات والأسواق ، فكلّ باب لحرفة من الحرف المعروفة في أقطارهم ، مع ذكر أنواع غش أصحابها ، وبيان أساليبهم في المعاملات ، ووسائل التّطفيف في المكاييل والموازين والمقاييس ، ثم يتبعونها بطريقة كشف الغش والتدليس ، ثم بما يتعيّن على المحتسب أن يلزم به ، ويأمر بالعمل على وفقه أصحاب كل مهنة وحرفة .

كما يتفق ثلاثتهم على الإلمام بشروط الحسبة ومستحباتها ، وتفصيل أنواع الموازين والمكاييل والمقاييس ومقاديرها ، لدخولها دخولا أوليا في معاملات السوق ، ولا ختلاف مقاديرها بين الأقطار الأسلامية ، بل وحتى بين مدن القطر الواحد (٥١) ، كما كان شأنها قديماً في المغرب الأقصى قبل توحيدها .

(٥١) . انظر تفصيلا عن اختلاف المكاييل في المغرب الأقصى عند البكري في : (المغرب في أخبار الأندلس والمغرب) ، وعن اختلاف الموازين في المغرب ، انظر الجزء الثاني من كتاب : (العز والصولة في نظام الدولة) ، وقد كان هذا الاختلاف معروفا في الأقطار المشرقية ، وخص بمؤلفات قديمة وبدراسات حديثة ، وانظر في كتاب : (أحكام السوق) ليحيى بن عمر الكناني ، الأحكام الشرعية المتعلقة باختلاف وحدة الكيل والوزن .

ويتجلّى في الكتب الثلاثة طابع التعليمات الخاصة بمراعاة النظافة ، ويكاد لا يخلو منها باب من أبواب هذه المؤلفات .

ومن أمثلة ذلك عند السقطي الأندلسي ، في الباب الخامس ، وهو المتعلق بذابحي الجزور وبائعي اللّحم والحوت وأنواع المطبوخات ، فقد جاء فيه قوله : « وشأن المحتسب مع هؤلاء الأصناف ، أن يقدّم من ثقاته عريفاً عليهم ، يبحث عن أخبارهم ، ويطلع على أسرارهم مع الأخبار ، وينبّه عليهم في السرّ والإعلان ، ويأخذهم مع الأيام بغسل الحُصرُ التي يضعون اللّحم عليها وتنظيفها » . ويقول عن باعة الحوت : « وأما باعة الحوت ، فيشدّد عليهم ألا يباع البائت مخلوطاً مع الطريّ ، وألاّ يبيت عندهم حوت إلاّ أن يكون مملوحاً ، ويبيعون البائت على حدة ، والطريّ على حدة ، وكذلك الذي يبيعونه مقلواً ومطبوخا » . ويقول عن الطباخين : « وأما الطباخون فلا يتركون يطبخون في اللّيل ولا في السّحر ولا في الديار الخالية ، والمواضع الغابية ، وليطبخوا في حوانيت مجصَّصة مسطحة ، ليتمكنوا من غسلها في كلّ الأوقات ،ليتناولوا أشغالهم بضوء المصباح ، بحيث لا يخفي شيء من أمورهم ، حتى يشاهد الثقة المقدّم عليهم تنظيفهم اللّحم وضَمّه في القدور » . ويقول على حمالي اللحم : « ويأخذ حمالي اللّحم إلى الحوانيت بألاّ يحملوه إلاّ في أوعية يضعون اللحم فيها كلّ ليلة ، ويغسلونها في الغد ، ويمنع ألاّ يحمل أحد حوتاً في يده لئلا يمسّ أثواب الناس ، إلاّ في وعاء ، ومَن وجده كذلك جعله في حَجْرِهِ أدباً له »

وعلى هذا النحو يسير المشرقي صاحب كتاب : (نهاية الرتبة) حيث يقول في الباب السّابع ، حين تحدّث عن الحسبة على الفرّانين : « ويؤمر أصحاب الفرانين بتنظيف الفرن وكنسه في كل ساعة من اللُّباب المحترق ، والشرر المتطاير ، والرماد المتناثر » ، ثم يقول : « ينبغي للفران اتخاذ مخبزين ليكون أحدهما للسمك بمعزل » .

وبهذا توحّدت طريقة التأليف ، فلا يقع الاختلاف إلاّ في بعض الأسماء والاصطلاحات وفروع بعض المهن ، كصناعة : (الزلابية) في المشرق ، وتشبهها : (البريوات) بالمغرب .

ومن أمثلة صاحب الأقنوم ، قوله في باب الوزان والموازين :

أما الصُّنوج فلهـم فيها حِيَل
فيهـا الرصاص في النّحاس قد دخل
كذا الذي أصابهـا ما أثقـلا
مـن وسـخٍ أو مائعـات مثلاً
يأمـرهم بالغسـل والتنظيـف
مختبراً لـوزنهـا المعـروف

وبهذا العرض لمختلف الأمثلة عن اختصاصات المحتسب ، وما كان يمارسه منها في المشرق والمغرب ، يتبين أنّ وظيفته لا تتجاذبها ولاية المظالم وولاية القضاء فقط ، ولكن اختصاصاته متداخلة أيضا مع اختصاص ولاية الشرطة أيضاً ، ولها إشراف بالأصالة على الشعائر الدينية والشؤون الثقافية والصحية وعلى مصالح الأوقاف ، والحياة الاجتماعية في المدينة في الإسلامية بوجه عام ، فمنصبه أشبه بمحكمة استعجالية للشؤون العامة التي إذا لم يعجّل البت فيها ضاعت الحقوق الخاصة ، وفاتت المصلحة العامة .

تلك هي مقومات المحتسب الواجبة والمتسحبة .

ولأجل هذا اشترطوا في المتولى لهذه الوظيفة الدقيقة الاختصاص الشروط التالية :

١) . الفقه في الدين .
٢) . الخبرة بأحوال وطبقات المجتمع ، وسياسة الجماهير .
٣) . النزاهة وعلوّ الهمّة .

٤) . قوة الشخصية والروح الدينية ، حتى لايهاب ويخاف .

٥) . الأناة والحلم .

ويظهر أنّ : (السلطة والغلظة والاستطالة) (٥٢) التي خصّ بها المحتسب وميّزته عن القاضي ، وكذلك الرهبة التي جمعت بينه وبين صاحب المظالم ، ثم احتسابه (أي إنكاره) على الصغير والكبير ، وضرورة احتفاظه بمهابته التي تمنع الإدلال عليه ، وترهب الجاني لديه ...كلّ هذا من شأنه أن يخلق فيه الأدلال بأنه هو وحده على الصراط المستقيم ، فيطغى فيه الكبر ، ويشيع فيه الإعجاب ، فكان من ثم شرط الأناة والحلم حتماً لازماً . وكان من تقاليد ملّوك المغرب والمشرق أن يوصوا كتابياً في صلب مراسيم تعيين الولاة عامة بأخذ من ولوّا عليهم بالحلم والأناة ، ورعاية العجزة والضعفاء ، ويؤكّدون الوصية شفاهاً عند تسليمهم المراسيم للولاة (٥٣) وفيها : الوصيّة بالأناة ، والرفق والمياسرة ، في صلب كتاب التعيين .

وفي مقابل ذلك يقول ابن القيّم الجوزية (٥٤) عن صاحب السوق : « وصاحبه يعيّنه الخليفة أو وزيره ، أو القاضي ، من أهل الدين والورع والوجاهة والشدّة ، ليبتّ بمقتضى الشرع » .

ومع العلم أنّ هذا لا يشكّل تعارضاً ، إلاّ أنّ ذكر الورع والدين مما يوحي بدواعي شرط الأناة والحلم ، حتى لا يقع الشّطط بالاستطالة ، ويصبح مظهر الرهبة والشدة إرهابا عمليا ، وقسوة مطلقة . ومن هنا نجد بعض المؤلفين (٥٥) في هذا الشأن يتوسّطون فلا يقتصرون على ذكر طبيعة المهمة من

---

(٥٢) . كتاب الولايات للونشريسي (٨) والأحكام السلطانية للماوردي (٢١٠) .

(٥٣) . صبح الأعشى (٧٠/١١) .

(٥٤) . الطرق الحكمية (٢٤٠) .

(٥٥) . آداب الحسبة للسقطي (٩) ونهاية الرتبة الفصل الرابع من الباب الأول – الشيخ ميارة في شرحه على الزقاقية عند كلامه على ولاية السوق .

سلاطة واستطالة وشدة ، أو الاقتصار فقط على ذكر الحلم والأناة ، وإنما يتوسّطون فيذكرون من صفاته أن يستعمل اللّين من غير ضعف ، والشدة عن غير عنف ، وما هذا الترديد بين الحالتين في الحقيقة غير صورة لدقّة عمل المحتسب الذي يتطلب طبقة خاصة من رجال الحكم ، وإدارة مصالح الناس .

والفصل الخامس من هذا الكتاب عنوانه : (اختصاصات وأعراف مختلفة في المشرق والمغرب) ، ويبدأ المؤلف الفاضل بطرح هذا السؤال : هل سلطة المحتسب الواسعة هي من نسج خيال الفقهاء الذين كانوا مهتمين بتقرير ما يجب أن يكون عليه أمر المحتسب والاحتساب وفقاً للشريعة ولما يُستوحى من الأهداف التي رمى إليها الرسول الأعظم بأقواله صلىّ الله عليه وسلم ، أم أنّ سلطة المحتسب الواسعة قد كانت عملياً وتاريخياً على نفس ما تبدو عليه من خلال مدونات الفروع الفقهية ، ومؤلّفات الأحكام السلطانية ؟

وكان جوابه ، هو أنّ الفقهاء سائرون في الاحتمالين على النهج القويم لأداء مهمة في أعناقهم ، ويعتبرونها غير مرتبطة بما يأخذه أو ما يدعه الزمان من فتاواهم أو إرشاداتهم . ولكن اتجه نشاطهم العلمي في التأليف الفقهي وفي الفتوى ، وتركيزه على العناية بفروع فقه الحسبة ، لا يخلو من الدواعي الاجتماعية التي وجّهتهم هذه الوجهة . وإن الملاحظ أن كتاب : (أحكام السوق) للقاضي يحيى عمر الكناني (٥٦) . هو عبارة عن فتاوى في مسائل عملية ، ونوازل نزلت في غير ما بلاد تونسية ، وكذلك يقال عن المؤلفات في الحسبة التطبيقية ، وهي لمشارقة ومغاربة . فلا يصحّ أن يكون الافتراض والخيال قد اتّسعا إلى حدّ تخمين الغشّ وطرقه ، وطرق الكشف عنه ،

---

(٥٦) . أنظر ترجمته في : رياض النفوس للمالكي (٣٩٦/١) ومعالم الأيمان للدباغ (٢٣٣/٢) ط . الخانجي ، وورقات الحضارة العربية (١٢٧/٢) والديباج لابن فرحون وتاريخ علماء الأندلس لابن الفرضي وجذوة المقتبس للحميدي ولسان الميزان لابن حجر وغيرها من كتب طبقات فقهاء المذهب المالكي .

وطرق الإرشاد لتجنبه ، أو العقاب على اقترافه ، وكل ما يمكن أن يقال هو إن هؤلاء الفقهاء النظريين والتطبيقيين ، قد سجّلوا تلك الأحكام الشرعية ، والتجارب والتطبيقات ، والارشادات للمحتسبين في عهود معيّنة ، شهدت الحسبة خلالها ازدهاراً عابراً ، بالأقطار التي تأصّلت فيها هذه الولاية ، كالعراق ومصر والشام والقيروان والمغرب الأقصى والاندلس . وإنّ الاستقراء التاريخي ليضع أمامنا ظواهر تحكّمت في تقليص أو تمديد هذا الأختصاص ، فمن ذلك :

١) . اختلاف زمان نشأة هذه الولاية في البلاد الإسلامية ، واختلاف البيئة التي درجت فيها ، ومبلغ كبرها أوصغرها ، وحالة الاستقرار الذي يسمح بأقامة والٍ للسوق ، أو الاكتفاء بإضافة المهمة إلى ولاية أخرى .

٢) . دخول ولاية السوق في النظام الأداري ، بعد إنشاء الدواوين في البلاد الأسلامية ، مما جعل اختصاصاتها موزعة أحيانا بين إدارات أخرى .

٣) . ظاهرة اختلاف مرجع تعيين المحتسب ، حيث يعيّنه تارة الامام في بعض الدول ، وفي بعض الحالات ، وتارة يعيّنه القاضي . وقد قال ابن خلدون (٥٧).: « الحسبة كانت في كثير من الدول الإسلامية ، مثل العُبيديين بمصر والمغرب ، والأمويين بالأندلس ، داخلة في عموم ولاية القاضي ، يولي فيها باختياره » (٥٨) .

٤) . أستقرار التقليد شرقاً وغرباً ، وحتى في الأمصار الكبيرة ، على أن تضاف في بعض الأحيان ولاية الحسبة إلى ولاية القضاء ، لأنها داخلة في عموم ولاية القاضي ، والأمثلة على ذلك كثيرة .

---

(٥٧) . المقدمة (٧٤٦) – تحقيق عبدالواحد وافي .

(٥٨) . يظهر ان مراد ابن خلدون باختيار القاضي بمجرد الاقتراح ، ولا سيما بالنسبة للعبيديين بمصر ، والأمويين بالأندلس حيث ان التوقيع بالحسبة عند الفاطميين بمصر يدل على ان الأمام هو الذي كان يختار ويعين ، وقد يكون للقاضي ان يقترح ، وكذلك الأمر بالنسبة للاندلس . قال ابن حيان في : (المقتبس) في احداث سنة (٣٢٦ ﻫ) : « ان السلطان الناصر لدين الله عزل حسين بن احمد بن عاصم عن خطة السوق لفحص ابن سعيد بن جابر ، وقدم حسين بن أحمد المذكور الى خطة تغيير المنكر .

ويقول القلقشندي في صبح الأعشى : « وربما أُسندت حسبة القاهرة إلى والي القاهرة ، وحسبة مصر إلى والي مصر» ،ويعني بالقاهرة مدينة الفسطاط ، ويعني بمصر القاهرة المعزيّة .

ويلاحظ الأمام ابن تيميّة في كتابه : (الحسبة في الإسلام) : « إنّ عموم الولايات يتلقى من الألفاظ والأحوال والعرف ، وليس لذلك حدّ في الشرع . فقد يدخل في ولاية القضاء في بعض الأمكنة والأزمنة ما يدخل في ولاية الحرب في مكان وزمان آخر ، وبالعكس ، وكذلك الحسبة وولاية المال ».

وبالرغم من أن مهمّة المحتسب،في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، قد تجاوزت في بعض الدول مجرّد ردع الانحرافات الدينية إلى الانتصاب لقراع المذاهب الفقهية وقمعها ، وإلى اعتراض موجات بعض النّحل الهدامة ، مما قوىّ سلطان هذه الوظيفة من هذه الناحية ، كما هو ملاحظ بصفة خاصة في كتاب : (نهاية الرتبة) للشيزري .

وبالرغم أيضاً من أنّ الحسبة كانت تسند لكبار الفقهاء ، الذين كانوا من طبقة يعهد إليهم بالقضاء . حيث كان المنصبان متداولين بين كبار أعلام الفقه ، فنرى مثلاً الإمام الإصطخري صاحب : (أدب القضاء) يلي حسبة بغداد للقاهر . ثم يتولىّ قضاء مدينة (قُم) ، وكان عاصم الأحول إمام الشافعية يتولىّ رتبة الحسبة ، ثم ولى قضاء المدائن .

بالرغم عن ذلك كلّه،فما كان من شأن تلك الظواهر،ولا مجّرد المظاهر ، أن تتيح لهذه الولاية وضعية مستقرة، أو مسيرة على وتيرة واحدة ، وذلك ما حال بينها وبين التبلور ، وقصر ازدهارها على بعض العصور .

ولعلّ هذا هو الأصل ، في أنّ المحتسبة – وقد كانوا هم نفس كبار القضاة وأعلام الفقهاء – لم يدرجهم المؤرخون في طبقات خاصة بهم ، وانّما أدرجوهم في كتب الطبقات بصفة الفقهاء أو القضاة ، ومرد ذلك إلى ماجاء

في العرض من أن الخلفاء الأمويين وأوائل العباسيين ، قد ساروا على مباشرتهم بأنفسهم ، أو تفويضها على سنن الخلفاء الراشدين إلى مَن ينوب عنهم ، وكذلك كان شأن الولاة في البلاد المفتوحة في المشرق والمغرب ، سواء بالنسبة إلى القضاة أو المحتسبة ، والعمل بذلك منوط بالاستقرار وحاجة (٥٩) البيئة ، وما يتطلّبه حكمها من ترتيبات ، ومن ثمّ نرى عاصمة الخلافة بغداد ، التي دوّنت فيها الدواوين ، واتسع فيها جهاز الإدارة ،تسارع إلى الترتيب الذي دعا إليه اتساع العمران ،فمنذ عصر المهدي العباسي (١٥٩ هـ — ١٦٩) أخذت الولاية مكانها لأول مرة في النظام الإداري للمشرق جهازاً مستقلا في جملة أجهزة داووين الدولة ، وفهم بعض الباحثين الأجانب أنّ هذا كان في نطاق اعتراض موجة الزندقة المعروفة التي أزعجت المهدي منذ إقامته في خراسان ، حيث انبرت جماعات تدعى الإسلام ، وهي تدين بعقائد ما نوية ، إلى ممارسة عادات كان من شأنها أن تزعزع الأخلاق الإسلامية ، فدعت ضرورة الردع إلى أقامة منصب المحتسب داخل الإدارة الحكومية ، لينصرف إلى هذه المهمة . ولكن المعروف هو أن الخليفة المهدي قد أسس لهذا الهدف إدارة خاصة ، ونصب على رأسها وزيراً عرف باسم : صاحب الزنادقة ، وهذا ما يتلاءم مع الإفادة التاريخية المروية عن المؤرخ أبي الفدا عند ذكره أحداث (١٦٠ هـ) ، حيث ذكر فيها موت نافع بن عبدالرحمن الذي كان مقرئاً ومحتسباً ، وهكذا

---

(٥٩) . مما يشير الى ذلك ما حكاه ابن بطوطة في الرحلة عن عادة إقليم : (خوارزم) ، من ان امام المسجد كان يتولى مهمة ارشاد اهل الحي الى صلاة الجماعة ، وكان يعاقب المتغيب بغير عذر شرعي بعقوبة مالية ، تصرف في تجهيز المسجد ، أو يتصدق بها على المحتاجين ، وان امام المسجد قد علق درة في صدر حائط القبلة ، اشارة الى العقاب الذي ينتظر من فوت على نفسه صلاة الجماعة . وحكى أيضا ان من عادتهم ان المؤذن يهرع الى ابواب بيوت اهل الحي ليزعجهم الى صلاة الجماعة ، فما اشبه امام (خوارزم) بالمحتسب ماثلا في اختصاص التعزير بالدرة وفي تعليق اداة العقاب في مواجهة الناظرين، وكأنه بذلك قد اقتبس تقليد محتسب (فاس) .

فالضرورة السياسية والاجتماعية ، دعت أيضا إلى تعيين محتسب في نفس الظروف ، نظراً لأن مهمته منوطة بالنهي عن المنكر ، وسيكون هذا أيضا سلاحاً في القضاء على المعتقدات الجديدة بسيف الشريعة المسند للسلطة التي في يد الوزير أو مَن يوليه تولية قمع المذاهب الهدامة .

وإنّ أهمية الشخصيات التي كانت تسند إليها الحسبة على عهد العباسيين كالإمام الإصطخري والإمام عاصم الأحول ، لتشير إلى أن منصب الحسبة كان في نظامهم بين الرتب السامية ، وقد كان يسند إليه النظر أحيانا في الجنايات التي تستدعي الحكم العاجل . ولا ريب أن هذا من قبيل الاستحسان الذي أخذ به العراقيون .

ثم تطرق المؤلّف الفاضل إلى ازدهار منصب الحسبة في زمن الفاطميين بمصر . إذ تجمعت بيد المحتسب سلطات كثيرة ومهمة ، كما ازدهر على عهد الأيوبيين ، ولتغيير الأحوال وألوان الحكم فجأة في تلك الأوطان . نجد الحسبة قد اتضح مقامها وتقلّصت فجأة سلطتها ، وإذا محتسب القاهرة كما يروّى المقريزي – لا يشرف على أكثر من مراقبة السقائين والحمالين ومؤدبي الصبيان ومعلمي السباحة ومراقبة دار العيار .

وكانت القيروان مهد بداية وازدهار فقه الحسبة ، فنجد كتاب : (أحكام السوق) ليحيى بن عمر . أول مدونة جمعت فقه الحسبة ، فاختصاص الحسبة في هذا الكتاب منوط بشؤون السوق ومتعلقاتها ، في حين أضيف إليها الفصل في القضايا الجنحية (٦٠) . وهذا يدل على ازدهار الفقه المالكي في القيروان . في النصف الثاني من القرن الثالث الهجري ، أي بعد خروجه من

(٦٠) . هذا من استحسان الفقهاء ، وقد كان المحتسب في بغداد يشارك القاضي في القضايا الجنائية التي تتطلب فصلا عاجلا .

محنة صراع الحنفية وقد قبل الإمام سحنون في هذا العهد ولاية القضاء ، وأضيف إليه ولاية الحسبة ، حيث كان أول محتسب (٦١) معيّن .

ولقد ساعد أيضاً على سير الحسبة نحو ازدهارها في هذا العهد . أن القيروان . وهي مستقرّ العرب الفاتحين . عرفت على يد الولاة المشرقيين تخطيط الأسواق (٦٢) وتفريعها . حسب أصناف المبيعات والحرف والصناعات على نحو ما من تخطيط البصرة والكوفة . ولكن الذي حدث فجأة من خراب القيروان بموجة الأعراب من : (بني هلال) و (بني مَعْقِل) ، وعزوف الحفصيين عن الأخذ بهذا النظام . وذلك ما يتجلىّ من نضوب أخبار هذه الولاية على عهدهم مما يوحي بانقطاع سير ازدهارها ، وتقليّص رسومها ، وبذلك وقفت ريادة القيروان عند الجانب النظري المتبلور في كتاب : (أحكام السوق) ليحيى بن عمر ، الذي انبثق من صنيعه ما أصبح يطلق عليه لأول مرة في تاريخ الفقيه الأسلامي : (فقه الحسبة) : وكان كتابه المذكور المنطلق العام لتوجيه العناية إلى هذا الفرع من معاملات الفقه كما أن مالكية مؤلفه هي التي وطّدت للمذهب المالكي ميزة فقه معاملاته ، التي تأصلت به خطّة الحسبة ، وبذلك فأن ازدهار الحسبة في منطقة تونس . قد انحصر في نطاق المرحلة التي هيمنت فيها مدرسة الأمام سحنون على تسيير شؤون الحسبة .

وهكذا حدث ما قلّص رسوم الحسبة على نحو ما انتهت إليه وضعيتها بالمغربين الأدنى والأوسط في العهد التركي ، حيث صار المحتسبون مجرّد أمناء يقومون في الأسواق بمهمّة عرفاء بعض الحرف ، ومن ظواهر هذه الانتكاسة أن محتسب ذلك العهد كان يتقاضى أجرته من تجار الأسواق ، على نسبة معينة في المبيعات ، وذلك ما فتح للمتولىّ باب الاستغلال ، وخرج بالحسبة الشريفة —

---

(٦١) . رياض النفوس للمالكي (٢٧٩/١) ومعالم الأيمان للدباغ (٨٧/١) – الترجمة رقم ١٠٢ – ط الخانجي .

(٦٢) . البيان المغرب لابن عذاري المراكشي (٧٣/١ و١٥٦) .

كما يلقبّها أهل الشام ، عن أصالة النزاهة ، والروحية الدينية ، والعفّة المشروطة فيها أساساً عند الفقهاء ، والتي بلغت حدّ التصوف في سيَرِ بعض المحتسبة ، حسبما تقرره لنا كتب التراجم المعتمدة .

ثم تحدّث المؤلف عن الحسبة في الأندلس والمغرب ، وكيف نمت هناك ، وكيف فسح لها التاريخ المشترك في مجال التطبيق العملي على أوسع نطاق ، وكيف سار التأليف التطبيقي في الحسبة على سنن أعراف واحدة ، واستحسانات متحدة ، فتمّ لهذه الخطة في الأندلس تبلور ووضوح ، وأتيح لها الاستقرار والدوام ، حتى غربت شمس ذلك الفردوس ، فلاذت إلى المغرب مهاجرة مع مَن خفّ من أهلها .

ولئن اختلفت في المغرب بداية نشأتها ومسالك تدرجها في النماءو الاستمرار عما هو في الأندلس . وسبب الاختلاف هو أن الأندلسيين بحكم ظروف قيام دولتهم الأموية المستقلّة . وبحكم حنين الأنسان إلى أرضه الأولى حين يعزم الاستقرار بعيداً عنها . تطلّعوا إلى منازل الوحي ، وهفوا إلى المدينة دار الهجرة بالذات . وكان ذلك في ظروف بلغ فيها صيت إمامها مالك ، ووجهة مذهبه العملية مختلف الآفاق ، فقصده الطلاّب من جميع الجهات . على أنه هناك عوامل أخرى لانتشار مذهب مالك في الأندلس والركون إليه بدل مذهب الأوزاعي الذي كان منتشراً على عهد الأمويين بالشام . منها :

١) . عامل انسجام تشريع المعاملات في هذا المذهب مع اهتماماتهم وخاصيات بيئتهم . وأعني أن قضايا مجتمعهم ذي البنية الخاصة . كانت في احتياج إلى : (تنظير المسائل في الالحاق ، وتفريقها عند الاشتباه) ، وذلك ما وقعوا عليه في مذهب الإمام مالك ، الذي كان ينظر إلى ما ينسجم مع المقاصد الشرعية ومع الصالح العام .

٢) . ثم عامل السياسة ، ومردّه إلى النفور الذي كان قائماً بين العباسيين وبين أمويّ الأندلس . وقد كان العباسيون على مذهب الإمام أبي حنيفة ، والإمام مالك غير راضٍ عن سياسة العباسيين . ولم يتحرّج من إعلان رضاه عن سيرة الأمام الأموي هشام بن عبدالرحمن في الأندلس (١٧٣ — ١٨٠هـ) الذي بلغ من فضله ، ومن تمتعه بحس الأحدوثة ، أن كان يُشبّه بعمر بن عبدالعزيز عند الخاص والعام ، وليس يخفى ما للسلطان وتقليده المناصب الرسمية لعلماء مذهب بعينه من تأثير في إشاعة المذهب ، وقد ذكر ابن خلدون انتشار مذهب مالك في الأندلس والمغرب . (٦٣) .

والفصل السادس عنوانه : (الجانب التطبيقي في فقه الحسبة) ، وقد بدأ في ذكر تطبيقه بالأندلس ، فأورد ما نص عليه المقرىء : « ولهم في أوضاع الاحتساب قوانين يتداولونها ويتدارسونها ، كما تتدارس أحكام الفقه ، لأنها عندهم تدخل في جميع المبتاعات ، وتتفرّع إلى ما يطول ذكره»(٦٤)، ويعني المقرىء بهذه القوانين المتدارسة بينهم ذلك الجانب التطبيقي العملي ، الذي يتفرّع لتدوينه أعلام آخرون على غير منهاج الفقهاء ، فبدأ بمعزل عن بساط الفقه والفقهاء ، وإن استمدّ من الفقه ، واستروح من روح الشريعة ، فهو تراتيب مصالح مجتمع اتسعت فيه المعاييش والاغراض وتولدت من تصريفها اسماء ومصطلحات اضفت على الحسبة بفرعيها الفقهي والعملي بمفهومه المتعارف ، اسم (العلم) وذلك بظهور مدلول : (العلم) بمقوماته الكاملة ، من أصوله إلى موضوعه ، إلى فائدته المتميزة ، واصطلاحاته الخاصة ، فلاغرو إذا رأينا صاحب : (الأقنوم) المغربي (١٠٤٠ هـ —

---

(٦٣) . مقدمة ابن خلدون — فصل علم الفقه وما يتبعه من الفرائض (٢٢٥) — طبعة التجارية الكبرى بمصر .

(٦٤) . نفح الطيب للمقري (٢٠٤/١) تحقيق محمد محيي الدين عبدالحميد .

١٠٩٦ هـ) يعنون الفصل الخاص بهذه الخطة باسم ؛ : (علم الحسبة) ، كما فعل صاحب (كشف الظنون) ، وكأنه يعبّر عن اصطلاح اخذ قراره في المشرق .

وقد أمدّنا ابو عبدالله محمد بن ابي محمد السقطي المالقي في صفحة سالفة بأمثلة من منهاج هذا التدوين ، وإذا كان صاحب : (نهاية الرتبة) وهو أوّل كتاب ألف في المشرق عن الحسبة التطبيقية ، فأن هناك غير ما رسالة أندلسية ومغربية من هذا القبيل ، فمن ذلك رسالة محمد بن أحمد بن عبدون المشهور بابن عبدون الأندلسي الأشبيلي وهي في القضاء والحسبة معاً (٦٥) ، ومؤلفها غير معروف الترجمة ، غير انه خصّ : (لثام المرابطين) بفصل أرشد فيه الى اقدميته ، حيث يقول بصيغته المألوفة (٦٦) : « يجب ألاّ يلثم صنهاجي او لمتوفى او لمطيّ ، فأن الحشم والعبيد ومن لا يحب ان يلثم ، يلثمون على الناس ويهيبونهم ، ويأتون ابوابا من الفجور كثيرة بسبب اللثام ، ويكلم في ذلك مع السلطان ، فأنهم عتاة ، من المرابطين ، لأن العبيد والحشم إذا تلثّم وغيرّ شكله حسبته رجلا مثيلا ، فتجرى إلى برّه وإكرامه ، وهو لا يتأهّل لذلك » . وهو بهذا النص يفيد انه عاش في آخر القرن الخامس ، او اوائل القرن السادس ، على اكثر تقدير ، حيث ان ما يرشد إلى رفعه وإزالته إنما كان جارياً بطبيعة الحال في الظروف الاولى من دخول المرابطين إلى الأندلس ، قبل ان يستتب النظام ، ويلزم كلّ ذي حدّ حدّه بين طبقات الناس ، ويتفق هذا مع إفادات رؤية (٦٧) النص للمستشرق ليفي بروفنسال من نص رسالة ابن عبدون حول عصـره ومعاصـريه كالملك الشـاعر المعتمد وعبدالمجيد بن عبدون صاحب المرثية في بني الأفطس .

(٦٥) . نشرت بتحقيق المستشرق ليفي بروفنسال ، ضمن مجموعة باسم : (ثلاث رسائل أندلسية في : (أدب الحسبة والمحتسب) .
(٦٦) . انظر رسالة ابن عبدون (٢٨) .
(٦٧) . انظر المجلة الآسيوية العدد (٢٢٤) - أبريل - يونيه - ١٩٣٤ .

وبهذا يعتقد انه أقدم من كتاب : (نهاية الرتبة) ومن كتاب : السقطي أيضاً في : (آداب الحسبة) ، وأن الأندلسيين بهذا كانوا اسبق الى هذا النوع التطبيقي الذي اضيف الى محصولهم الواسع في فروع فقه الاحتساب ، حتى أمكن ان يطلق عليه المؤلفون اسم : (العلم) بكل اعتداد .

وهناك رسالة احمد بن عبدالله بن عبدالرؤوف في : (آداب الحسبة والمحتسب) وابن عبدالرؤوف هذا مجهول الهوية ، ولا يبعد إن يكون معاصراً لابن عبدون أو قبله بقليل، حسبما تدل على ذلك طريقة تأليفه المخضرمة بين الفقهية والتطبيقية ، ورسالته تختلف بمنهاجها عن رسالتي السقطي وابن عبدون اللذين حصرا شؤون الحسبة في السوق وشؤونه ، في حين أن ابن عبدالرؤوف استوعب في رسالته حتى ما يتعلق بقضية رفع المنكر بالنسبة الى الشعائر الدينية ، حيث عنى بالقسم الأول من كتابه بالنظر في الصلاة ، والصيام والزكاة ، والأحباس (بمعنى الأوقاف) ثم البيوع . وهو في هذه الفصول لا يفصّل الأحكام الشرعية ، وإنما يرشد بطبيعته موضوعه الى الاداب الاسلامية التي يشرف المحتسب عليها ، ومن فصل البيوع ينتقل بعد ذلك الى مهمة المحتسب في السوق ، فيسير على نفس طريقة التدوين التطبيقية ، غير أنه يظل دائماً رهين الجو الفقهي ، ويؤكد توجيهاته ، التي يعبّر عنها بالواجبات ، بايراد أصلها من نصوص بعض الفقهاء، وهي الطريقة التي تجاوزها ابن عبدون ، ثم السقطي ، اللذان تبلور في رسالتهما التدوين التطبيقي ، وكأنّه بمعزل عن اصوله ومصادره الفقهية ، وهذا الاختلاف في المنهاجين يشير الى مرحلة في التأليف التطبيقي عند ابن عبدالرؤوف، سبقت مرحلة السقطي وابن عبدون ، وانهم يكوّنون ثالوثاً لمراحل متدرجة ، ابتدأت بابن عبدالرؤوف وانتهت بالسقطي .

وقد عني المستشرق الفرنسي ليفي بروفنسال بنشر رسالتي ابن عبدون وابن عبدالرؤوف ، وأضاف إليهما رسالة الكرسيفي المغربي ، فأخرج الرسائل

الثلاث باسم : (رسائل اندلسية في الحسبة) ، وقد وهم المستشرق ليفي بروفنسال في تحقيق كرسيفية المؤلف المغربي .

وإنّ الاهتمام بهذا الفرع التطبيقي في الاحتساب ، ما هو الا مرآة لما استقرّ عليه العمل في التنظيم الاداري للحسبة بالاندلس ، حيث نرى ان اختصاص المحتسب وزع بين منصبين ، فأصبح عندهم منصب خاص يطلق عليه : (خطة السوّق) ، ومنصب ثانٍ يطلق عليه : (خطة تغيير المنكر) ، وذلك ما يفيده نص شيخ مؤرخي الأندلس ابن حيّان في : (المقتبس) (٦٨) ، حيث قال : « وفيها — أي في سنة ٣٢٦ هـ — عزل السلطات الناصر لدين الله حسين بن أحمد بن عاصم عن خطة السوق لحفص بن سعيد بن جابر ، وقدم حسين بن أحمد بن عاصم المذكور الى : (خطة تغيير المنكر) .

ومن مظاهر تجاوب النظام الاداري في الحسبةمع ترتيبات التدوين التطبيقي الذي تعرضه الرسائل الأندلسية في الحسبة ، أنّ بعض الخصائص الأندلسية في نظام الحسبة ، لها ملامح واضحة في هذه الرسائل ، فيلاحظ مثلا انها عنيت — وبالخصوص رسالة ابن عبدون وابن عبدالرؤوف — عناية واضحة بقضية الأمن والنظام . التي توسعّ فيها ابن عبدون ، بالنظر لتعرّضه في الفصول الأولى لصاحب المدينة ، وصاحب المواريث ، والقاضي والحاكم ، مع تركيزه على الناحية العملية في هذه المناصب العائدة الى ضبط نظام المدينة ، واهتمّ بها ابن عبدالرؤوف ، بطريقة اخرى ، حيث كان يقحم التنبيه على ضرورة حفظ النظام كتسويغ لما يسجّله من واجبات تطبّق وتراقب .

---

(٦٨) . الجزء الخاص بشطر كبير عن حياة عبدالرحمن الناصر — انظر مخطوطة الخزانة الملكية بالرباط الورقة (٣١٠) — المخطوطة رقم (٨٧) ، وقد طبع مؤخراً عن هذه النسخة الملكية بعناية كلية الاداب بالرباط والمعهد الأسباني للدراسات العربية . وانظر ايضا : الصلة لابن بشكوال في ترجمة ابي بكر بن خلف بن بقي التجيبي الذي عين في خصوص : (احكام السوق) بطليطله .

فهذا الاهتمام نجده قد خرج الى التطبيق في الادارة ، حيث أنّ الرجوع الى كثير من التراجم الأندلسية ، يفيد أنّ ولايتي الشرطة والحسبة ، قد كانتا تجمعان في الغالب في يد وال واحد ، قصد تحقيق التكامل بين هذين الجهازين المشرفين على النظام والأمن، فأن اكثر المحتسبة في غير ما عصر من عصور الأندلس ، قد جمع لهم بين الحسبة والشرطة ، فنرى مثلا: أبا العباس احمد بن يونس الجذامي (٦٩) المعروف بالحرّاني ، ولي لهشام المؤيد خطيّ الشرطة والحسبة . وأبا علي حسن بن محمد ذكوان القرطبي (٧٠) ، شغل احكام الشرطة والسوق لأبي الوليد بن جهور . وعبدالرحمن بن مخلد (٧١) الذي ولي الشرطة والسوق لأبي الوليد بن جهور أيضا ، حتى توفي سنة (٤٣٦ ﻫ) .

وعبدالمنعم بن محمد الخزرجي الغرناطي (٧٢) (ت ٥٥٩٨) المعروف بابن الفرس ، ولي القضاء بعدة مدن كجيان وجزيرة شقر ووادي آش وغرناطة، وجمع له النظر في الشرطة .

وفي التنظيمات الأندلسية التي توحي بها هذه الرسائل : « أنّ القاضي لا يقدّم محتسباً إلاّ أن يُعلم الرئيس بذلك » (٧٣) ، ويعني هذا أن ليس له حقّ الاختيار بنفسه بغير الرجوع الى مَن تفرّعت سلطته العليا خطة الحسبة . وأن المحتسبين وبقية ولاة المدينة : « لا يجب (٧٤) أن يكونوا إلاّ اندلسيين ، فأنهم أعرف بأمور الناس وطبقاتهم ، وهم أعدل في الحكم وأحسن سيرة من غيرهم ، وهم أنفع للسكان وأوثق » .

---

(٦٩) . وهو والد ابو سهل يونس بن احمد الاديب – انظر التكملة لابن الابار (١٨) – طبعة مدريد .

(٧٠) . الصلة لابن بشكوال (١٣٨) – طبعة مدريد .

(٧١) . الصلة (٣٤١) .

(٧٢) . صلة الصلة لابن الزبير – ص (١٧) .

(٧٣) . رسالة ابن عبدون في القضاء والحسبة (٢٠) .

(٧٤) . رسالة ابن عبدون (١٦) .

وبالرجوع الى تراجم مَن ولي الحسبة بالأندلس (٧٥) ، يفهم أنّ هناك تقليداً مرعياً ، وهو أنّ الحسبة بشقيها : (أحكام السوق) و ((خطة تغيير المنكر) ، لم يكن يعهد بها إلاّ لكبار الفقهاء من طبقة القضاة أيضاً ، حيث أنّ المحتسب هو الذي كان يتولّى النيابة عن القاضي ، ولأنّ الخطتين كانتا متداولتين بين القضاء والمحتسبة .

وبفضل هذا الاهتمام بالتنظيم ، وبمراعاة الانسجام عند اضافة منصب الى منصب ، وبمكانة المتولين للحسبة ، اعطت هذه الخطّة عندهم عطاءها المحمود لمصالح الناس ، فاستمرّ الأخذ بها طوال عهود الأندلس ، وذلك عكس ما يلاحظه الباحث في إفادات تاريخ دول المشرق ، فبالرغم من أن الحسبة قد سارت مع المسلمين اينما ساروا ، وحيثما توحي به اسماء المحتسبين الذين يأتي على ذكرهم الرحالة في كلّ أفق قريب او بعيد ، وعلى الرغم من أنها قد عرفت مثلا على عهد الدولة النورية والصلاحية والمماليك ازدهاراً ، وعلى الرغم من أن الحسبة قد اتصل لها وجود وقيام على عهد الأتراك من طول وعرض تراب بلاد الخلافة ، فانها في تلك الدول وطوال تلك الأعصر ، سارت متباطئة بين نشوء الى ازدهار ، الى انحسار ، الى انقطاع ، وهكذا توالت عليها في المشرق تلك الأطوار أشبه بحركة مدّ وجزر تبعاً للدول المتعاقبة والظروف السياسية والصراع العقائدي . وفي مصر مثلا ، وهي من البلاد التي تأصلت فيها الحسبة ، وامتدت الى عهد محمد على ، نجد المحتسب على عهد الاخشيديين في عز صولته ، فكان تجمع في يد المحتسب سلطات وزارة المالية والتموين والداخلية ، وأن اعوانه كانوا يقرعون الأجراس لتنبيه الناس الى مقدم موكب المحتسب ، ولكن هذه السلطة المعلن عنها بالأجراس ، ينتابها

(٧٥) . اكثرها في الصلة لابن بشكوال وتاريخ ابن الفرضي والديباج لابن فرحون .

التقلص في العهود الأخيرة بمصر ، حتى لم يبق بيد المحتسب غير الحسبة على السقّائين والحمالين ومعلمي الصبيان ومعلمي السباحة ومراقبة دار العيار .

وتلك ظاهرة تجعل فرقاً واضحاً بين سير الحسبة في المشرق على فرضية النشوء والارتقاء ، في حين انها ابتدأت في الأندلس بازدهار وانتهت إلى ازدهار ، فلا غرو إذا ما عاين ملوك الأسبان المسيحية جدوى هذا النظام الأسلامي وتمسّكوا بالأخذ به ، فكانوا كلما استردوّا إقليماً من المسلمين ، حرصوا على أن يقرّوا المحتسب في عمله ، وأصبح في لسانهم : (المتسن) .

ومن المعروف أنّ الأسبان قد احتفظوا إلى عهد متأخر جداً ، في مدينة : (بلنسية) بتقليد أندلسيّ ، حيث تجتمع طائفة من العرفاء على هيئة محكمة تنتصب في باب كاتدرائية المدينة ، في يوم معيّن من الأسبوع ، لتفصل بنفس المحل في الخصومات التي تقوم بين اصحاب البساتين على نوبة السّقي بالماء ، ولاريب أنّ هذه الهيئة قد كانت في العهد الأسلامي هيئة عرفاء نواب المحتسب الذي من اختصاصه الفصل في مثل هذه الخصومات المستعجلة .

والفصل السابع من هذا الكتاب ، عنوانه : (الحسبة في النظر والتطبيق والتدوين بالمغرب) ، وفيه تحدث المؤلف الفاضل حول الفقه المالكي الذي تأسس فقه الحسبة في المغرب الأسلامي على قسم المعاملات منه ، قد تحكمت على خلاف الحال بالأندلس عدة اعتبارات في تدرجه ببطىء ، قبل أن ينتشر انتشاراً ، ويتمخّض عن الثروة الفقهية الهائلة التي انبثقت بتدرج في المغرب ، وخلّفت آثارها العميقة في جميع نواحي الحياة . ثم تحدث عن مردّ البطء في المغرب الأقصى ، فذكر شدة الاضطرابات الدموية التي اثارها الخوارج ، فعمدوا الى قلب المفاهيم الأسلامية في عقول المسلمين البرابرة ، باستدراجهم الى عقيدتهم الرافضة لكلّ خلافة ، وكل دعوة اسلامية ، فخشى البرابرة المسلمون من محاولات بعض ولاة الخلافة الاستبداد لغاية تغذية مطامعهم الخاصة

في حكم البلاد ، وسرعان ما فعل ذلك فعله في العقول وذرّ قرن العصبية القومية في صورة (خارجية مغربية) فكانت ثورة (ورفجومة) على والى الخلافة عبدالرحمن بن حبيب ، وكانت حركة خالد بن حميد الزناتي بين المغربين الأوسط والأقصى ، وكانت زعامة (ميسرة المطغري) في نواحي طنجة ، وكان تأسيس امارة الخوارج الصفرية في (تاهرت) واخرى في (سجلماسة) ، ولم تكن لهذه الحركات وهي بين صفرية وأباضية أيضا — وجه ولا أصل ولا فصل في الاسلام ، وانما جرّت إليها مطامع المتزعمة ، ومنازع العصبية القومية ، وانساقت معها مطامع واغراض الاتباع .

وكتب للقيروان أن يستقر بها بعض التابعين ، فواجهوا تلك الحالة الخطيرة بمهمة الارشاد الى الطريق المستقيم في الدين ، وتطلع الكثير من أهل القيروان الى الهجرة نحو منازل الوحي ، والى دار الهجرة بالذات ، فأخذوا اصول الاسلام من امامها مالك ومن تلاميذه ، ثم عادوا ليغرسوا مذهب مالك في ارضهم ، واستطاعوا ان يواجهوا المبادىء الشاردة خلال حقبة متطاولة ، إلى أن انتهى الصراع في الاخير بظهورهم على ذلك النحو الذي جعل منهم روّاد تلك الثروة الفكرية المالكية ، التي رفعت العماد لخطة الحسبة في الديار المغربية .

وفي معترك تلك الاضطرابات وقبلها ، كان ولاة الأمويين والعباسيين آخذين بالمذهب الحنفي ، فذاع على اوسع نطاق ، ولا سيما بعد أن شجر الصراع بينه وبين مذهب المالكية بالقيروان . وإن النصوص التاريخية لتفيد أنّ المذهب الحنفي قد كان سابقاً في دخوله الى افريقيا ، ومن افادات القاضي عياض (ت ٥٤٤ هـ) قوله المعروف : « واما افريقيا وما وراءها ، فقد كان الغالب عليها في القديم مذهب الكوفيين (الأحناف) إلى أن دخل على بن زياد (ت ١٨٣ هـ) وابو مسعود بن عبدالرحمن بن أشرس (ت ١٧٠ هـ) والبهلول بن راشد (ت ١٨٣ هـ) وبعدهم اسد بن الفرات (ت ٢١٣ هـ) وغيرهم بمذهب مالك » .

هذه هي وضعية المغرب الأقصى ، عند ما استقر المولى ادريس الاول في إمارة (وليلة الأوربية) سنة (١٧٢ ﻫ) (٧٦) .

ثم تحدث المؤلف الفاضل عن الحفاوة التي قوبل بها ادريس الأول من البرابرة المسلمين ، ومنها تنازل كبيرهم عن امارته للمولى ادريس ، فتخلى البرابرة عن النزعة الخارجية ، وعادوا الى الاسلام الصحيح ، وانسحب المذهب الحنفي ايضاً ، لأن الأمير الشريف مالكيّ المذهب ، فالأمام مالك يروى في موطئه عن عبدالله الكامل والد المولى ادريس ، كما انه أخذ عن الأمام جعفر الصادق . والامام مالك أيضاً قد امتحن في سبيل الشريف محمد النفس الزكية ، وهو أخو المولى ادريس الذي نازع ابا جعفر المنصور بيعته ، وذلك أنّ الناس هرعوا عندها الى امام الهجرة يستفتونه في البيعة للمنصور بالأكراه ، فلم يتحرّج الامام من أن يعلن لهم كلمته السائرة : « طلاق المكره لايجوز »(٧٧).

ولاريب أنّ تخطيط فاس بأسواقها ومؤسّساتها العامة ، والاستقرار الذي كان يطبع الحياة ، والحركة التي دبّت فيها ، قد كانت كافية للايحاء بالتفكير في انشاء منصب الحسبة بين مناصب المساعدين للدولة الادريسية ، ويستطيع الباحث أن يتلمّح بداية التأثير الأندلسيّ في المغرب ، عند هذه الدولة الادريسية ولاسيما منذ قامت عدوة الأندلس في مخطط بناء فاس ، وتوالت هجرات الأندلسي إليها للاستقرار . ونستطيع ان نتجاوز تلمّح التفاعل بين أهل العدوتين : المغربية والأندلسية ، الى استجلاء التأثير الأندلسي اوضح واوسع في تلك المدة التي أعقبت انتشار سلك دولة الأدارسة ، وهي المدة التي كان فيها

---

(٧٦) . اوربة : من بطون البرانس القديمة ، واليها ينسب زعيم البربر (كسيلة) ، وكانت منازلهم من سلسلة اوراس شرقا الى جنوب تلمسان غربا ، ثم دحرهم جيش المسلمين نحو المغرب الأقصى ، فاستقروا نحو مرتفعات زرهون ومضيق تازة والحوض الأعلى لنهر ورغة .

(٧٧) . انظر القصة في : (المدارك) للقاضي عياض (١٤٠/٢) – طبعة المغرب، والديباج المذهب لابن فرحون (٢٨) – طبعة السعادة الاولى .

المغرب مرتع مدّ وجزر بين نفوذ الفاطميين الذين كانوا يتطلعون إليها من جهة الشرق ، وبين نفوذ الأمويين الذين كانوا يتطلّعون إليها من جهة الشمال ، فكان للفاطميين جولة حتى مدينة فاس ، وكانت للأمويين نهدات إليها ، وأيام مشهورة في ربوعها .

ويحفظ التاريخ لعبدالملك بن المنصور بن أبي عامر ، سيرة حسنة في ولايته على فاس ، التي طالت بينهم ، وتمكنّ فيها رضاهم على الوالي الأندلسيّ ، الذي كان يعمل ما وسعه للتحبب إليهم ، سواء بسيرته فيهم ،او بما يطبّقه في بلادهم من ترانيب ، يظهر أنّ نظام الحسبة كان في طليعتها .

وعلى كلّ حال ، فالذي نستجليه من العرض التاريخي ، هو أنّ المذهبية المالكية قد تقوقعت على أيام المد الفاطمي ولامراء ، وظلّت منطوية على نفسها إلى أن جاء العهد المرابطي، حيث تنفّست الصعداء ، لأنّ المرابطين كانوا مالكية ، ودعوة فقيههم الشيخ عبدالله بن ياسين قد قامت على مبدأ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، ودولاب إدارتهم كان يدار بسواعد الفقهاء . وهم سواد المثقفين في دولتهم ، ثم دخولهم إلى الأندلس حماةً ثم منقذين . ونظامهم يوحي بأنه لم يكن يخلو من منصب الحسبة ، كما كان عليه الحال يومئذٍ بالأندلس ، غير أنّ المرابطين كانوا اصحاب تقشّف بطبيعتهم . وكما انهم اعتادوا الكفاف في المغرف ، فقد جنحوا الى الكفاف في الادارة الأندلسية . وقام عندهم القاضي مقام المحتسب ، كما كان شأن الأدارسة ، وكثير من الدول قد سارت على هذا الأسلوب ، كما ذكر ابن تيمية .

وقد اكتفى الموحدون بأمناء الأسواق ، ويبدو أن واجبات المحتسب وُزّعت على : أمناء . وشرطة . وشيوخ حذر (٧٨) . أما في العصر المريني

(٧٨) . ابن عذاري – البيان المغرب – قسم المهدي – ج ٣ .

(٦٦٨ هـ – ٨٦٩ هـ) ، فقد جعلت الحسبة والقضاء في الطبقة الثانية من جهازهم الاداري ، ويبدو أنّ واجبات المحتسب وزعت على بعض الموظفين الآخرين ، وكان من أثر توزيع اختصاصات منصب الحسبة ، أن ضخامة هذا الجهاز الأداري لم تسد سدّها ، فنرى على عهدهم مَن نصب نفسه للامر بالمعروف والنهي عن المنكر ، في نطاق المصلحة العامة ، كأبي حفص عمر الرجراجي الذي تصدّى لأصلاح طرق المسلمين ، واماطة الأذى عنها ، وتجديد ما فيه منفعة دائمة للمسلمين ، من بئر او سقاية (٧٩) .

أما الحسبة على عهد الوطاسيين ، فبالرغم من قلة المصادر حولها ، فلدينا نص صريح يتعلق بالحسبة بمدينة فاس ، يقدمه لنا الحسن بن محمد الوّزان الفاسي ، المعروف بليون الأفريقي ، وذلك في كتابه المعروف : (وصف إفريقيا) ، وهو يطلق اولا : (رئيس الأمناء) ، ثم يسميه بعد بالمحتسب ، حيث يقول في معرض الكلام على جباية الجمرك (٨٠) : « كما لا يؤخذ شيء كرسم تجاري عند الأبواب ، عن الأغنام المجلوبة إلى فاس ، ولكن يدفع عن كلّ خروف في السلخ رسم مقداره درهمان ، فضلا عن درهم واحد للحاكم الذي هو رئيس الأمناء ، وكثيراً ما يتجوّل هذا الموظف في المدينة على ظهر جواده مخفوراً باثني عشر من رجال الشرطة لمراقبة الخبز ووزن اللحوم وسائر ما يبيعه الجزارون ، وإذا لم يجد الوزن المطلوب ، قام بتنقيته إلى قطع صغيرة ، ويلطم الخبّاز لكمة على قفاة تتركها متورمّة موجعة ، وفي حالة تكرار المخالفة ، يجلد البائع على ملأ من الناس ، ويعهد الملك بهذه الوظيفة الى المحتسب للوجهاء الذين يرغبون فيها ، وبعد أن كان يعهد فيها في الماضي لرجال أكفاء من ذوي السمعة الطيبة ، أصبح الملوك في أيامنا يعهدون بها لأناس عاديين » .

---

(٧٩) . الضوء اللامع (١١٥/١٠) .

(٨٠) . انظر وصف افريقيا – الترجمة العربية – نشر جامعة الأمام محمد بن سعود الأسلامية – بترجمة الدكتور عبدالرحمن حميدة .

وما يقال عن الحسبة في العهد الوطاسي ، يقال عنها على عهد السعديين (٩٥٦ هـ – ١٠٧٦ هـ) ، وهناك نص صريح للفقيه الشيخ ميارة الكبير (ت ١٠٢٣ هـ) حيث يقول في أول شرحه على لامية الزقاق ، لدى كلامه على ولاية الحسبة : « وقد ألف الناس في خطة الحسبة بالخصوص تواليف وقفت على جملة منها ، وشاهدت في صغري كتباً عديدة ، على مرافع دكان المحتسب الكائن بالقشاشين ، فقيل إنّها في أحكام الحسبة ، وما يتعلق بها . وهي محبسة على أن تكون هناك ليطالعها وينظر فيها مَن يتولّى خطة الحسبة » . وكما قال الحسن الوزان : « إنّ هذه الخطة قد أصبح يعهد بها لأناس عاديين » ، فكذلك يقول الشيخ ميارة : « فمازال الأمر يتناقص ويقلّ ، حتى صار يتولاّها مَن لا يميّز الألف من الباء . فأنا لله وإنا إليه راجعون » . وهو نصّ شاهد عيان ، على أنّ خطة الحسبة قد أخذ بها في هذا العهد السعْديّ ، ويدل لذلك أيضا اننا نجد أبا عبدالله محمد بن الطيّب العلمي (٨١) (ت ١١٣٤ هـ) يتعرّض لابن ماواس ويقول : « هو الشيخ الفقيه الأجل العدل الارضي ، المحتسب ، أبو العباس احمد بن الفقيه العالم الأفضل الموقّت بجامع القرويين ، شارح : روضة الأزهار » . ويدل أيضا لأخذ السعديين بالحسبة ، أننا نجد ابن القاضي في : (درّة الحجال) (٥) يترجم لأحد محتسبي العهد بهذه الفقرات : « أحمد بن سعيد التونسي . محتسب (درعة) ، وله نظم ، وهو من أهل العصر حتى الآن سنة ٩٩٩ هـ » . والمفهوم انه اذا كان لدرعة محتسب ، فأن بعض المناطق الأخرى ، لم تكن لتخلو من محتسبين ، ولكنّ المؤرخين فيما يبدو ، لا يعنيهم غير ذكر النابهين ، والنابهون من المحتسبين هم النابهون من الفقهاء ، ولذلك لم تخصّص للمحتسبين كتب طبقات . فأدرجوا بوصف الفقه اكتفاء به عن وصف الاحتساب في كتب طبقات الفقهاء .

---

(٨١) . الأنيس المطرب – طبعة حجرية – (٢٥٢ – ٢٥٣) .

وكان الفصل الثامن من هذا الكتاب بعنوان : (الحسبة على عهد الشرفاء العلويين) في المغرب ، وفيه : من المعروف أنّ مادة العمل الفاسي في الأحكام الفقهية ، وهو الذي ألّف فيه الناس نظماً ونثراً ، ووضعوا الشروح والتعاليق عليه ، تقوم على ما اقتبسه أهل المغرب من عمل أهل الأندلس في الاحكام ، وذلك أن عمل أهل فاس ، بل ومدن المغرب كلّها ، قد تبع ما كان عليه أهل الأندلس ، حيث درج فقهاؤها على أنّ المسألة إذا كانت ذات قوانين او اقوال ، ووجد النص على عمل الأندلس بقول ، وعلى عمل أهل مصر والقيروان بقول آخر ، فأن فقهاء المغرب يرجّحون القول الأندلسي .

وبفضل الذهنية العلمية الدينية لملوك هذه الدولة ، التي فسحت للحسبة ميدان الازدهار ، سواء من الناحية العلمية او الناحية، الادارية كتب للحسبة الازدهار والامتداد في المملكة المغربية ، فالناحية العلمية شملت التأليف في كل من الجانب الفقهي النظري والجانب التطبيقي العملي .

وهذا النشاط الفكري الكامل في هذين الميدانين ، لم يتمّ على وجهه الكامل ، الاّ في المغرب والاندلس ، وذلك لأن القيروان الرائدة قد وقفت ريادتها عند الجانب النظري المتبلور في كتاب : (أحكام السوق) ليحيى بن عمر (ت ٢٨٥ هـ) الذي انبثق من صنيعه، ما أصبح يطاق عليه لأول مرة : (فقه الحسبة) ، وكان كتابه المذكور المنطلق العام لتوجّه العناية لهذا الفرع من معاملات الفقه ، كما أن مالكيّة مؤلّفه هي التي وطدّت للمذهب المالكي ميزة فقه معاملاته التي تأصّلت به الحسبة . ولكن فواجىء حوادث خراب القيروان قد جعلت حداً لتطورها العملي الذي يواكبه عادة التأليف في الجانب التطبيقي ، فلم يصدر من القيروان تأليف في هذا الشأن ، وانما تابع فقهاؤها النظريون نشاطهم — كدأب الفقهاء — غير آبهين بالاحداث ، ومن ثم كان تاريخ تونس الفكري حافلا غنياً بكبار اعلام الفقهاء النظريين دون العمليين .

وكذلك بالنسبة الى المشرق ، فأن المؤلفين المشارقة لم يسيروا على غرار : (نهاية الرتبة) الخالص للجانب التطبيقي ، فلم يكن لكتابه ما كان للمؤلفات الأندلسية المغربية من تأثير في تطوير الحسبة وتوالى التأليف تبعاً لذلك في الناحية التطبيقية .

ومن هنا فأن التكامل في التأليف بين الجانب النظري . وبين الجانب الطبيقي ، لم يتحقق إلاّ في الاندلس ، ثم في عهد ملوك العلويين بالمغرب الأقصى . فمن الناحية النظرية ، عرف عصرهم كبار أئمة الفقه المالكي الذين كانت لهم مشاركة في العلوم الأسلامية، وخلّفوا انواعاً من الآثار ، مما يتدرج فيها فقه الحسبة ، وفي طليعة هؤلاء حافظ المذهب المالكي ابو علي بن رحال المكناسي (ت ١١٤٠ هـ) الذي كان الرجوع اليه في القضاء والفتوى ، ومضرب المثل في النوازل الفقهية، وكلّ آثاره يندرج فيها ما يتصل بفقه الحسبة . واشهرها اهمّ شرح عرف لمختصر الشيخ خليل ، ومنها كتاب : (الارتفاق في مسائل الاستحقاق) ، وكتاب : (كشف القناع في تضمين الصنّاع) ، وكتاب : (رفع الالتباس في شركة الخماس) . ومن ابرزهم ابو زيد عبدالرحمن بن الشيخ عبدالقادر الفاسي (ت ١٠٩٦ هـ) . ومن آثاره المرموقة في هذا الباب : (نظم العمل الفاسي) ، الذي استوعب المسائل الجاري بها العمل في الاحكام رعياً للظروف والاحوال .

وتتوالى اسماء أمثال هؤلاء الفقهاء على مدى عهد الملوك العلويين بغير انقطاع . ومن اشهرهم ابو حفص الفهري الفاسي (ت ١١٨٨ هـ) ، والشيخ بناني المحشّي على الزرقاني (ت ١١٩٤ هـ) والشيخ التاودي ابن سودة ابن شارح التحفة (ت ١٢٠٩ هـ) والشيخ الرهوني المحشي على الزرقاني وبناني (ت ١٢٣٠ هـ) والشيخ التسولي شارح التحفة (ت ١٢٥٨ هـ) ، وقد اغني هؤلاء وامثالهم كثير بشروحهم وحواشيهم على تحفة ابن عاصم ، ومختصر

خليل ، والزقاقية ، هذا الفرع الفقهيّ بثروة فكرية استوعبت الكثير من فرائد الأفادات ، وألمّت بكلّ ما يخطر للفقيه من تصوّرات عند ارادة الأحاطة والاستقصاء .

فماذا بين دعوة السلطان المولى محمد بن عبدالله الى الأصول ، وبين ازدهار فقه الفروع ؟ من شأن هذا النشاط في فروع الفقه الذي ظلّ متمادياً من غير انقطاع ، أن يثير تساؤلاً حول الدعوة التي انتصب لها السلطان العالم الجليل المولى محمد بن عبدالله (١١٧١ هـ – ١٢٠٤ هـ) واصدر بشأنها المنشور المعروف الملزم بالسير على مُقتضاها . وقد يفهم منها ، وهي دعوة الى الرجوع الى الأصول من كتاب وسُنّة ، أنّ فيها مسّاً بالمذهب المالكيّ ، او اتجاهاً الى نبذ مؤلفات فروع مذهبه التي تبلور فيها فقه الحسبة . والواقع في هذا ان دعوة الملك سيدي محمد بن عبدالله ، لم تكن من جنس دعوة المهدي ابن تومرت ، لأن الذهنيتين مختلفتان ، ولان الدعوتين متباينتان . لقد كانت ذهنية الملك العلوي علمية دينية خالصة ومطبوعة بالأصالة ، وكانت ذهنية المهدي بن تومرت مشوبة برواسب نظريات شاردة مختلطة ، ومشوبة بتأثير عقدة الانتزاء على حكم اسلامي باسم الشرعية الاسلامية . ولأجل هذا ، كانت دعوة الشريف العلوي دعوة ثقافية خالصة خلوص ذهنيته ، وكان منشوره دعوة اصلاحية بريئة براءة قصدة ، اراد بها ان تسدّ ثغرة في الثقافة المغربية على عهده ، وذلك لتفادي استشراء اتجاه ضيقّ عقيم في التدريس والتأليف ، ساد على عهــد الدولة الســعدية ، ويكاد يحصر الذهنية المغربية حصراً ، ويحشر العلماء المغاربة في رعيل فقهاء بيزنطة .

وهكذا فبين الدعوتين ، فرق ما بين الذهنيتين :

وكان الجانب التطبيقي في الحسبة بالمغرب الأقصى : التأليف في الجانب التطبيقي ، وفيه أولا ، الفصل الكبير من كتاب : (الأقنوم في جميع العلوم) ،

ويحتوي على الأبواب التالية : من يقوم في الأسواق أميناً ، الكيل والكيالون للطعام وغيره ، الوزن و الموازين . عملة الدقيق والخبز وباعتهما ، الذبائح وبيع اللّحم والحوت وما لحق بهما ، العطارون والصيادلة ، باعة العبيد والخدم ، الصنّاع والصنائع والأجراء . الجلاس والسماسرة . وثانيا رسالة في الحسبة لمؤلفها حسب قوله في طالعتها ، عمر بن عثمان بن العباس الكرسيفي . وهي ثالثة الرسائل التي طبعت سنة ١٩٥٥ م بالمعهد العلمي الفرنسي للآثار الشرقية في القاهرة مضافة الى رسالة ابن عبدون وابن عبدالرؤوف ، بتحقيق ليفي بروفنسال ، تحت اسم : (ثلاث رسائل اندلسية) ، ولم يتعرض هذا المستشرق بالتعريف لمؤلف هذه الرسالة في المقدمة ، لانعدام اي معلومات عن حياته بدايةً ونهايةً . ومن ثم اكتفي تجاه النسبة الى الكرسيفي بالقول : « إن نسبه يعود الى كرسيف بالمغرب الشرقي ، وانه مغربي واقام باسبانيا في اواخر القرون الوسطى » . وقد احال المستشرق في هذه المقدمة على الصفحة (١٤٨) في الجزء الثالث من كتابه : (تاريخ اسبانيا الأسلامية) ، وبالرجوع الى تلك الصفحة تبيّن أن لا جديد فيها يتعلق بالكرسيفي . كما لم يشر المستشرق الى مصادر معلوماته هذه عن الكرسيفي . ولم تضف الباحثة : (راكيل أريي) في مقدمتها التي صدرت بها ترجمة رسالتي ابن عبدالرؤوف وعمر الكرسيفي اي جديد على نص ما قاله المستشرق بروفنسال حول هوية الكرسيفي . والصواب انه لم يرد أي ذكر لفقيه او عالم كرسيفي منسوب الى كرسيف التي تقع في شرق المغرب بين تازة ووجدة . وإنما المعروف ان كرسيفي منسوب الى : (أكرسيف بالجنوب المغربي . وهي مقاطعة كبيرة بالسوس ونسب إليها المؤرخون السوسيون . بحذف الألف ، فيقولون : الكرسيفيون . ولا يقولون : الاكرسيفيون . ويرجع نسب الكرسيفيين إلى ذي النورين عثمان بن عفّان رضي الله عنه . فهم عرب ، وإذا كان للكرسيفيين أهل السوس بجنوب المغرب مثل هذه الأصالة والامجاد العلمية ، فأن اصول البحث العلمي

تقتضي بروفنسال أن ينص على وجود كرسيفيين أعلام في الجنوب المغربي ، وأنّ صاحب الرسالة ليس منهم ، بل هو على حدّ قوله من كرسيف التي هي بشرق المغرب ، لكنه اقتصر على ذكر كرسيف بشرق المغرب من غير بيان ومن غير ذكر معتمد ،مما يدل على انه لم يكن على علم بأعلام الكرسيفيين من أهل هذه الجهة السوسية . والمؤلف الفاضل يناقش هذا المستشرق مناقشة علمية ويكشف انحرافه عن المنهج العلمي في دقّة التحقيق وعدم حرصه على الحصول على نسخ عديدة – وهي متيسرة – ليكون تحقيقه اقرب إلى الصواب ، مما يثبت أنّ العالم العربي المسلم اولى بتحقيق تراث العرب والمسلمين واقدر من المستشرق ، وأنّ انبهار بعض العرب والمسلمين بالمستشرقين ، نوع من انواع السراب .

وثالثا : رسالة (التيسير في أحكام التسعير) (٨٢) ، ومؤلّفها هو شيخ الجماعة ابو العباس أحمد بن سعيد المكيلدي (ت ١٠٩٤ هـ) من شيوخ الأمام ابي علي اليوسي (ت ١١٢٠ هـ) ومن تلامذة ابي سالم العياشي صاحب الرحلة (ت ١٥٩٠ هـ) . ورسالته هذه لاتعدّ في الحقيقة من مؤلّفات الحسبة التطبيقية ، فليست لها سمات منهاجها ، ولكنّ الهدف من تأليفها ومسالكه فيها والقضايا التي أثارها ، كلها قد اضفت على مؤلفه صيغة رسالة في الحسبة ومتعلقاتها التي ركز عليها المؤلّفون التطبيقيوّن مؤلّفاتهم . ثم هي ليست خاصة بالتسعير ، كما يوحي بذلك اسمها ، وإنما التّسعير اول ابوابها واهمها ، وقد استغرق اربع ابواب ، وكان الباب الخامس في المعيار الشرعي العادي ، وانواع المكاييل والموازين ، وما يجوز بعرف الأسواق وما لا يجوز ، ومَن لا يصحّ له مباشرة البيع بالسوق ، وقضية منع المسلمين من الاختلاط بأهل الذّمة في اسواقهم

(٨٢) . تقع هذه الرسالة نحو كراسة ، وتوجد ضمن مجموع ، بالخزانة الملكية تحت رقم (٣٨٢٨) ، وقد نشرت مؤخراً بالجزائر ، بتحقيق الدكتور موسى لقبال .

وتناول الباب العاشر والأخير الغشّ وما يعاقب به . والتفاصيل التي أتى بها فيما يرجع لأدوات السّوق ، وعوارض بيوعاته من غشوش ، وما الى ذلك ، هي التي أخرجته عن الفقه النظري الخالص . ولكن الصيغة العامة فقهية ، فجميع توجيهات الكتاب للمحتسب يتبعها بأقوال الفقـهاء ، بل وحتى باختلافاتهم فيها . وهناك رسائل مغربية اخرى ألّفت على هذا العهد في ابواب معيّنة تتصل بالحسبة ، كالتأليف عن السمسرة وعن الغش في الصناعات والمبيعات (٨٣) .

ومن مظاهر عناية الملوك العلويين بالحسبة ، ما ذكره المؤرخ ابو القاسم الزياني عن مولاي رشيد بن الشريف ، فيقول (٨٤) : « ولما ولي الأمر امير المؤمنين السلطان الرشيد بن الشريف ، وبايعه أهل فاس ، وجّه للعلامة الأستاذ سيدي عبدالرحمن بن القاضي ليقدم عليه ، فقال : لا اقدر لكبر سني وملازمة بيتي . فقال للرسول : إني آتيه ، ويخرج لمحلّ قريب من بيته آتيه به . فخرج لغرسة درب الدرج ، حائطها موالٍ لمصمودة . ولما قدم السلطان رشيد ، فتحوا له في حائط الغرسة محلاً دخل منه للغرسة ، واجتمع مع الشيخ سيدي عبدالرحمن . ولما فرغ من سُنّة السلاّم ، قال : أتيتك لأستشيرك فيمن أوليه بفاس . من حاكم وقاضٍ ومحتسب وناظر ، فقال : أما الحاكم فلا اتقلده ، والقاضي حمدون المزوار ، والمحتسب عبدالعزيز المركني الفلالي ، والناظر العدل مسعود الشّامي . ولما خرج من عنده ، أمر ان يبني بالمحل الذي دخل منه باب ويبقى طريقاً . فهو درب الدرج ، لم يكن قبله . ولما بلغ

---

(٨٣) . مثل كتاب : (تحفة الناظر ، وغنية الذاكر ، في حفظ الشعائر وتغيير المناكر) لمحمد بن احمد بن قاسم بن سعيد العقباني (ت ٨٧١ هـ) ، انظر التفاصيل في الهامش رقم (١) من كتاب خطة الحسبة ص (١١٦) .

(٨٤) . بغية السامع والناظر للزياني – ورقة ١٥٦ ، من مخطوطة الخزانة الملكية تحت رقم (٦٧٨).

دار الأمارة ، نفذ الأمارة للسيد محمد بن أحمد الفاسي ، والقضاء لحمدون المزوار ، والحسبة للمركني الفلالي ، والنظر للأوقاف للعدل مسعود الشامي .

لقد كان للمحتسب مقام مرموق في ذلك العهد .

وكانت اختصاصات المحتسب في عهد العلويين ، فأنها اتخذت في حكومتهم صورتها الاسلامية القائمة على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بشقيه : القضائي ، والأرشادي .

تناولت كل مشروع بالاشراف على الأخلاق الأسلامية ، والشعائر الدينية ، ذلك بمراقبة سدنة أماكنها في القيام بعملهم وبالرجوع الى مَن يلي امرها من نظارات عامة او الى مَن إليهم امر الأوقاف الخاصة .

وتناولت الأشراف على الأسواق ، وعلى شؤون المدينة بوجه عام ، وذلك بتأمين سلامة السكّان من أي خطر قائم او متوقع ، والتدخل برفع كلّ ما يضايق حركة المرور فيها ، او يمسّ بالصحة العامة ، وذلك بالتدخل المباشر مع الأفراد ، او مع مَن بيدهم الأمر من الولاة ، لتأمين سرعة الانجاز التي هي قوام هذه الخطة .

واتسع نطاق نشاطه في الشؤون الاقتصادية بوجه عام ، فهيمن على كلّ ما يتعلق بمصالح السكّان في معايشهم ومآربهم في مجال الصناعة ومختلف المهن ، وذلك برعاية مستواها المهني ، ومراقبة ادوات الشّغل ، والطواف على الأسواق في دورات مفاجئة ، للاختبار والتحقّق من سلامة معايش الناس . وبذلك فأن الاستحسانات المصلحية التي تألفّت منها مجموعة الأعراف والتقاليد ، ومايطلق عليه الأخذ بالعمل ، كلّها قد انطلقت من التعامل في الأسواق وما يطرأ فيها من نوازل تستدعي الفصل البات بالاجتهاد والناجز القائم على الأخذ بالمصالح المرسلة عند الفقهاء .

وهكذا ، فأن تلك الثروة الفقهية من جهة ، والعناية بخطة الحسبة ، قد أمّنا لها التطور والامتداد في هذا العهد العلويّ ، فاستحوذت على معظم تلك الاختصاصات المتداخلة عادة بين مختلف ادارات المدينة ، وكان لها أيضاً الاشراف العام ، لا على شؤون السوق واقضيته فحسب ، كما حصل بالأندلس ، حيث فصلت عنها مهمّة الأمر بالمعروف والنّهي عن المنكر ، وانما ظلّ محتسب المغرب على عهد العلويين قائماً قوّاماً على المهتّمين معاً ، الى جانب الأشراف على الشؤون البلدية ، والمرافق الاجتماعية من غير استثناء، واعني المرافق التي لها ولاتها ، كالعمال والقضاة ونّظار الأوقاف .

وكأن ظهور جدوى الأحتساب على هذا الوجه الذي تجلت به سيرة المحتسبين من فعالية ونزاهة في تعريف مصالح الناس ، قد اضاف الى هذه الخطة اختصاصاً زائداً على ما كان متعارفاً عليه ، فوكلت الى المحتسب مهمة الاشراف على صناعة البارود ، وصُنّاعها ، وعمليات تصريفها . وقد جاء إسناد هذه المهمة إلى محتسب مكناس (٨٥) في كتاب حَسَني – مؤرخ في رجب سنة ١٣٠٥ هـ ، وورد فيه بعد مطالعة منوّهة بحزم المحتسب وضبطه ، توجيهات مفصلة فنية متعلقة بصناعة البارود وصنّاعها . ويظهر أن التكليف لم يكن مقصوراً على محتسب مكناس ، بل كان شاملاً للمحتسبين في بعض المدن التي تقام فيها دار البارود ، كمحتسب مراكش الذي اسندت إليه مهمة الاشراف على بناء معمل لصنع البارود .

وفي نطاق توسيع مهمة المحتسب ، أسند لمحتسب فاس ، مراقبة مهنة طباعة الكتب ، وأُسند الى بعض محتسبي الرباط الإشراف على تعليم الاماء الطبخ ، وما هو من هذا القبيل من الشؤون المنزلية .

---

(٨٥) . انظر : العز والصولة – (٦٩/٢) .

ولقد كان الباعث لقيام المحتسبين بمهمتهم قياماً كاملاً ، أن مصالح المجتمع كانت ترعاها وتراقب المحتسب القيِّم عليها ، عين ساهرة لوليّ الأمر ، الذي نصب المحتسب نيابة عنه في رعاية من ولاّهُ الله أمر شؤونهم ، والوثيقة الحسينية (٨٦) التالية المؤرخة في ١٥ رجب سنة (١٣١١ هـ) قد جاء فيها بعد المقدمة التقليدية : «وبعد ، فقد بلغ لعلمنا الشريف ، أنّ المدينة تكاثرت بها الأزبال والعفونات من أجل عدم التنظيف ، وكان المحتسب اعتذر عن ذلك بقلّة المدخول المعيّن له ، حيث وقع البحث معه فيه ، وقد أمرنا بزيادة الثلث فيما يعطي لأجله ، كما أمرنا الخديم (فلان) ، فنأمرك أن تشدّ عضدهما على ذلك ، وترد البال لحال التنظيف والسّلام» .

وفي هذا الجوّ ، كان محتسب المغرب ، صورة كاملة للمحتسب الذي اتسعت اختصاصات عمله ،فشملت بعض ما هو اليوم من مصالح البلديات سواء من الناحية الصحية او الناحية التنظيمية ، او ما هو راجع الى القضاء والى الأوقاف ، او لشرطة الآداب ، التي تقام في بعض البلاد . وجرى العمل على أن يكون مقرّاً للمحتسب الذي يباشر فيه اعماله بوسط المدينة ، وقريباً من الاسواق حتى لا يشق على الناس الوصول اليه . وجرى التقليد ان يسير الى مراقبة الأسواق في موكب من اعوانه ، وبيدهم ادوات اختبار الموازين والمكاييل ، وألة المعاقبة ، وهي نفس هيئة موكب محتسب الأندلس ، كما أن أمناء الحرف والصناعات والباعة ، الذين نص فقهاء الحسبة التطبيقية على ضرورة استعانة المحتسب بهم ، لغرض إطلاعه على أسرار المهنيين وما يروج في الأسواق قد أصبحوا تحت نظر المحتسب محكَّمين في النزاع المهني الذي يقع بين : (معلم الحرفة) وبين : (صُنّاعه) أي العملة المأجورين في مصنعه . وللأمناء أعراف في الفَصْل ، تطبّق على اساس ما يحفّ بالنازلة وظروفها ، فأن لم يرض احد الجانبين بما فصل به الأمين ، أو نزع الى المراوغة في التنفيذ ، فتردّ القضية الى المحتسب لاستعجال فصلها وتنفيذها . والتقليد المتبع

(٨٦) . العز والصولة – عبدالرحمن بن زيدان (٢/١٤٦) .

في تعيين هؤلاء الأمناء ، أن ينتخب اهل الحرفة اثنين او ثلاثة من شيوخ المهنة ، ومن المعروفيْن بالأصالة في المهنة وبالصلاح والنزاهة . كما أن التقليد جرى أن يقصد المتنازعون الأمين ، اما في محلّ عمله ، إن كان ممن يزاولون عملا ، او الى باب المسجد الجامع اثر صلاة العصر ، أن كان من الشيوخ الذين قعدت بهم الشيخوخة عن العمل ، فتطوعوا لهداية الحرفة والفصل فيما يشجر بينهم . وهكذا اصبحت اشغال المحتسب والأمناء التابعين له ، تمثل صورة محكمة استعجالية مهنية ، تقضي في :

١). جميع معايش الناس التي تتطلّب الحكمَ النّاجز ، حفاظاً على صلاح المختلف فيه ، أن كان مما يُسرع إليه الفساد ، كالمواد الغذائية ، أو مما يفوت الغرض منه ، إن لم يبت في شأنه بطريقة استعجالية .

٢). جميع مشاكل المهنيين ، سواء ما يرجع منها إلى ما بين اصحاب العمل والعمال في شؤون المهنة ، أو ما يعود على ما يترتب على هذا الخلاف من ديون او حقوق مختلفة ، أو ما يعود ايضاً إلى كلّ نزاع بين صاحب حرفة وبين زبائنه .

وقد استمرّت الحسبة في المغرب حتى الأيام الاخيرة ، مما جعل المغرب المصدر الحيّ لأخذ صورة من ملامح الحسبة الأصلية ، شهوداً وعيانا . وبعد دهر طويل من الاستقلال ، وبعد ازدهار المغرب اعصاراً ، أدركه الاستعمار منذ سنة ١٩١٢ م ، فتقلّص اختصاص المحتسب الى مجرّد شؤون السُّوق والحرف ، مع بقاء هيئة الأمناء، ولكنّ مرجع التعيين اصبح تابعاً لنظام الحماية واغراضها . ويستعير مؤلف هذا الكتاب فقرةً من حسن الوزّان الفاسيّ السّالفة عن محتسب فاس في اواخر الدولة الوطّاسية ، فوصف بها الحسبة والمحتسب في عهد الحماية الفرنسية ، وهذه هي العبارة المقتبسة : « اصبح يصل إليها الأسافل بأسهل مما يصل إليها غيرهم ، ممن يستحقّها » .

وظلّ الأمر على ذلك في المغرب إلى عهد استقلاله سنة ١٩٥٦ م ، وعندها صارت اختصاصات المحتسب موزّعة على مصالح عديدة للدولة ، ولكن المؤلّف الفاضل يؤمّل ، أن يعاد النظر في احياء هذا المنصب ، والعودة الى تلك الرقابة الشاملة ، وإلى البتّ في التعامل بأحكام ظرفية عاجلة ، يتلافى بها مغبّات الاستغلال الذي ينزع إليه أهل الحرف ، كالبنّاء والخياط والساعاتي والنّجار ، ومثلهم المنتصبون لتصليح مختلف أمتعة الناس ، ابتداء من صاحب المرأب (الكراج) إلى القنواتي واللحّام . ولن يكون تحقيق ذلك عزيزاً على مَن يلتفت إلى الاستفادة من تراثنا ومكارم ديننا الحنيف .

ويختتم المؤلّف الفاضل كتابه القيّم ، بنصّ الذيل المنقول عن باب : مسائل الاحتساب في نوازل ابن سهل الأسدي الجياني الأندلسي (ت ٤٨٦ هـ — ١٠٩٣ م) المعروف بنوازل ابن سهل والمعروف ايضاً بكتاب : (الاعلام بنوازل الأحكام) . وقد اخذ المؤلّف الفاضل نصوص هذه النوازل من نسخة تعتبر الأم بالنسبة لبقية النسخ ، وهي بخط أبي بكر محمد بن عاصم الغرناطي ، وتقع تحت رقم (٣٧٠ ق) بالخزانة العامة بالرباط ، كما اعتمد على النسخة رقم (٨٣٨ ق) بالخزانة العامة أيضاً لتمام ضبطها كالأولى ، وقوبلت النصوص أيضاً ببقية نسخ الخزانة العامة الحاملة لهذه الارقام (١٧٢٨ — ٣٣٩٨ — ٩٦ق) .

والمعروف أنّ نوازل الحسبة من تأليف ابن سهل ، قد سبق نشرها في مجلة (هِسْبِريس — العدد ١٤ — ص ٢٢) — ١٩٧٣ م)، وقد عمد ناشر النصوص إلى نقلها مع ما اختلط بها من نوازل خارجة عن باب الاحتساب، وكان الصواب في إخراجها خالصة غير مشوبة ، وهذا ما حدا بالمؤلّف إلى إعادة نشرها غير مشوبة ومضبوطة على نسخ متقنة . والحق أنّ الفرق بين ما نشر في المجلة الأجنبية بتحقيق مستشرق معروف ، وبين ما نشر في هذا الكتاب بتحقيق عربي مسلم ، فرق كبير جداً ، مما يثبت أن العربي المسلم أقدر على

فهم تراث آبائه واجداده فهماً سليماً من غير العربي المسلم ، وتحقيقه تحقيقاً دقيقاً صائبا مما يفعله غير العربي المسلم من المستشرقين وغيرهم ، وهذا ما ثَبَتَ عندي واستيقنته منذ زمن بعيد ، خلافاً للمبهورين بنتاج الأجانب الذين لا تطربهم مغنية الحيّ ، بالرغم من أنّ الواقع على نقيض من اعتقاد أولئك المبهورين ، مع أنّ دسّ الأجنبي بالتراث ومحاولته التشويه والتشكيك في مضمونه لا يخفي على أحد ، ولكن ياليت قومي يعلمون .

إنّ شكري للمؤلف الفاضل لا ينقضي على تحقيقه هذا النصّ من نوازل ابن سهل ، وسروري بتفوقه على الأجنبي في التحقيق والضبط والتوثيق ، عظيم جدا .

وبعد ، فقد عزمت على أن اقتصر على التنويه بهذا الكتاب ، لأهمية موضوعه ، ولأن مؤلفه يستحق التقدير ، فقد عرفته معرفة شخصية ، حين كان سفيراً للمغرب في العراق ، فذكرّني بعلمه وذكائه وخلقه وكياسته ، بالأمام الشّعبيّ سفير عبدالملك بن مروان إلى ملك الروم ، فلما اراد الشعبي أن يعود الى دمشق ، دفع إليه ملك الروم رقعة موجهة إلى عبدالملك . وقرأ عبدالملك الرقعة ، فإذا فيها : « عجيب من قدم فيهم مثل هذا ، كيف ملكوّا غيره ؟ ! » ، فعلم أن ملك الروم حسده على سفيره الشّعبيّ ، فقال للشعبي : « أتدري لِمَ كتبها ؟ » ، فقال الشعبي : « لا ! » ، قال : « حسدني عليك ، فأراد أن يغريني بقتلك ! » (٨٧) . وكان الشعبي يحفظ ما يقرأ ويسمع ، وسئل مما بلغ إليه حفظه ، فقال : « ما كتبت سوداء على بيضاء ، ولا حدثني رجل بحديث ، إلاّ حفظته » ، وهو من رجال الحديث الثقاة ، استقضاه عمر بن عبدالعزيز ، وكان فقيهاً شاعراً (٨٨) . واليوم يشغل المؤلّف الفاضل منصب محافظ الخزانة

(٨٧) . وفيات الأعيان (٢/٢٣٥ - ٢٣٦) - تحقيق محمد محيي الدين عبدالحميد - القاهرة - بلا تاريخ .

(٨٨) . تهذيب التهذيب . ابن حجر العسقلاني (٥/٦٦ - ٦٧) ، وانظر الاعلام (٤/١٨ - ١٩) للزركلي .

الملكية في الرباط ، وهو منصب مرموق دونه منصب السفير (٨٩) ، لأنه منصب علمي ، والعلم يبقى ، وغيره لا يبقى .

ولكن بعد قراءتي هذا الكتاب عدة مرات ، واستفادتي منه كثيراً ، آثرت ان يشاركني القراء في الاستفادة منه ، فلخّصت الكتاب في هذه الدراسة ، وبذلت جهدي في التلخيص لفائدة القارىء ، ولكي استحثه على قراءة الكتاب وإقتنائه ، فلا غنى لمكتبة محترمة عنه ، ولكني أذكّر بمآثر نُظمنا الاسلامية في الأدارة ، لعل الذكرى تنفع المؤمنين .

لقد أحسن المؤلّف الفاضل في اختيار موضوع بحثه في كتابه هذا ، وأجاد في عرض بحثه عرضاً يذكر به بأيجاد النظم الأسلامية في الأدارة ، وأثبت أنّ الأجانب هم الذين اقتبسوا الحسبة من المسلمين ولم يقتبس المسلمون من الأجانب هذا النظام ، وأصاب في إثبات أنّ الحسبة سنة إسلامية وليست مقتبسة من أحد ولا مستوردة ، كما زعم قسم من المستشرقين وقلّدهم دون تمحيص قسم من المستغربين العرب والمسلمين ، وتميّز بتحقيق نوازل ابن سهل على المستشرق الذي حققها قبل سنين ، وأثبت خطأ المستشرق سيديو في أن المهدي العباسي هو الذي اسس منصب المحتسب في الدولة العباسية ، لأنّ المنصور ولّي عاصم بن الأحول الحسبة بالكوفة كما ولّي غيره حسبة بغداد وغيرها ، وخطأ مَن جعل الحسبة رومانية ، فالواقع أنّ الهيئات الأسبانية الرومانية كانت مسؤوليتها مقصورة على جمع الضرائب من أهل الحرف لصالح صندوق الدولة ، ولم تكن لها صلة بنظام السوق ، ولا بمصلحة المهنة أو قضايا المهنيين ، في حين أنّ حقوق المصلحة العامة هي التي كانت رائد نظام الحسبة في الأمصار الاسلامية ، وبمعنى آخر ، أن الرومان بنظامهم أرادوا خدمة الدولة ، وأن المسلمين بالحسبة ارادوا خدمة الشعب . ونّبه إلى خطأ المستشرق الفرنسي

(٨٩) . انظر مقال : وظيفة القيم في تاريخ الخزانة المغربية – الدكتور احمد شوقي بنين – العدد ٢٤٩ في رمضان ١٤٠٥ هـ – ص (٥٦ – ٦٣) – مجلة دعوة الحق .

ليفي بروفنسال في تعريفه بمؤلّف : (رسالة في الحسبة) عمر بن عثمان بن العباس الكرسيفي ، فوقع في خطأ لا يقع فيه طالب علم صغير (٩٠) ، واشار إلى خطأ نقولا زيادة في نسبة أبي العباس احمد بن سعيد المكيلدي ، فقال عنه المكيدي والصواب هو الكيلدي ، كما ذكر أنّ جميع الذين كتبوا عن احمد بن سعيد من المستشرقين ومَن تابعهم ، قد أسدلوا عليه ستاراً من الابهام ، فقد قال فانيان في فهرسة المخطوطات بالمكتبة الجزائرية عند ذكر كتاب : (التيسير) : « إنّه عمل مغربيّ يرجع الى القرن الثالث عشر » ، وليس عند بروكلمان أيّ زيادة على هذا ، وتعرض له بروفنسال في مقدمته على كتاب السقط في : (آداب الحسبة) ، فلم يزد على أنّ مؤلف : (التيسير) قاض مغربي ، وهو أبو العباس بن سعيد . ويرجع هذا الابهام في تعريفهم به ، إلى انهم لم يتوقّعوا إلى أنّ الفقيه احمد بن سعيد هو نفسه المكيلدي !

وربما كان حصر ما تطرّق إليه المؤلّف الفاضل في تصويب أخطاء المستشرقين الصغيرة والكبيرة في كتابه هذا صعباً ، كما أنه يحرم القارىء من متعة اكتشاف تلك التصويبات ، فالأولى أن اترك اكتشاف ذلك للقارىء .

وكنت اتمنّى أن يشير المؤلّف الى رقم الآية واسم السورة التي وردت فيها ، فذلك أدق في الناحية الترثيقية ، كما أنّ تحريك الآيات الواردة في كتابه ، يُعيْنُ القارىء على قراءة الآية قراءة سليمة ، فليس سراً أنّ اكثر القراء العرب المسلمين يعجزون عن قراءة آية من آيات الذكر الحكيم قراءة صحيحة . وينبغي تصحيح الآية : (ولا تعتوا) وجعلها : (ولا تَعْثَوْا في الأرْضِ مفسدين).

وقد وردت احاديث كثيرة في طيّات الكتاب ، ولكن المؤلّف الفاضل لم يخرِّج قسماً منها . فينبغي تخريج الأحاديث : ذكرَ من روى كلّ حديث شريف ، مثلا يقول : رواه البخاري ، رواه مُسلم .. الخ ، مستنداً إلى مصادر الحديث الشريف المعتمدة ، وهي الصِحَاح . كما ينبغي النص على راوي

(٩٠) . خطة الحسبة (١٠١ - ١٠٣) - الدار البيضاء ١٤٠٤ هـ .

الحديث ، يقول : رواه ابن عمـــر ، أو رواه ابو هريرة . ولا يكتفي أنه ينقل الأحاديث من كتب الحسبة ، ففيها احاديث ضعيفة وموضوعة كما هو معروف ، ومن المهم الاستناد إلى الأحاديث الصحيحة فقط . وقـــد وجدت أنّ نصوص قسم من الأحاديث الواردة في هذا الكتاب ، تختلف عن نصوصها في مصادر الحديث المعتمدة ، وقد اشرت الى ذلك في محله .

وكنت أتمنىّ أن يحرِّك المؤلِّف الفاضل الكلمات التي يمكن ألاّ يستطيع القارىء قراءتها على وجهها السليم ، مثل كلمة : نهيك : السمراء بنت نهيك (٩١) ، والكلمات التي يمكن الاشتباه بقراءتها في الكتاب كثير ، خاصة في الأعلام والأماكن .

وعرض هذه الهنات البسيطة هنا لا يُقلِّل من قيمة هذا الكتاب ، ولكن تلافيها يزيده قدرا وجلالا .

والله أسأل أن يفيد بهذه الدراسة ، ويجعلها خالصة لوجهه الكريم .

---

(٩١) . خطة الحسبة (٩) .

الفهرس



سعر النسخة دينار ونصف
وتضاف اليها اجرة البريــد

(تدفع قيمة الاشترك سلفاً)

رقم الايداع في المكتبة الوطنية ببغداد ١٦٧٦ لسنة ١٩٨٧





JOURNAL
of the
IRAQ ACADEMY



Volume 39

Part (2)

PUBLISHED BY

THE IRAQ ACADEMY

BAGHDAD

1988